

رواية

كريمة أحداد

المرأة الأخرى



المتوسط

مكتبة



كريمة أحداد، روائية وكاتبة مغربية مقيمة في
إسطنبول، تعملُ في الصحافة وإنتاج المحتوى الرقمي
منذ العام 2014.

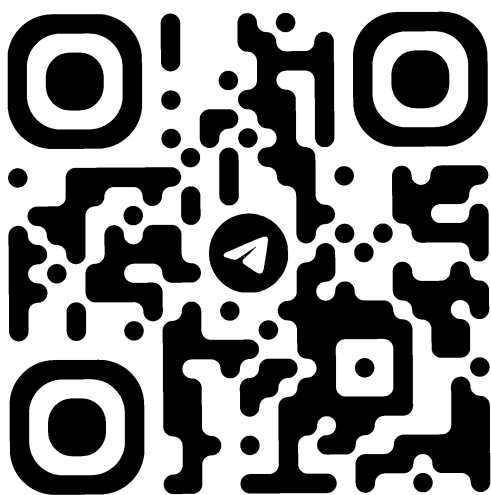
صدرت لها رواية بنات الصبار عام 2018، وحلم تركي
عام 2021. حصلت على جائزة اتحاد كتاب المغرب
للأدباء الشباب في القصة القصيرة، وجائزة محمد زفزاف
للرواية عن روايتها بنات الصبار عام 2020.

مكتبة

t.me/soramnqraa

المتوسط

المرأة الأخرى



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

© 2024 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © كريمة أهداد 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

Al-Mraatu Al-Ukhra by "Karima Ahdad"
Copyright © 2024 by **Almutawassit Books**

المؤلف: كريمة أهداد / عنوان الكتاب: المرأة الأخرى
الطبعة الأولى: 2024 / صورة الغلاف: getty images
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-048-0



منشورات المتوسط

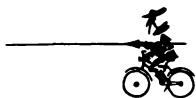
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

كريمة أحداد المرأة الأخرى

مكتبة

t.me/soramnqraa



المتوسط

إلى خديجة
أمِّي

«أنا مسكونةٌ بصرخة.
ترفرف خارجي كلّ ليلة
تبحثُ بخطّافاتها عن شيءٍ
تُحِبُّه.

أنا مرعوبةٌ من هذا الشيء المظلم
الذي ينام داخلي
طوّال اليوم أشعرُ بتقلّباته الناعمة والريشية، بخُبثه».

سيلفيا بلاث

مكتبة

t.me/soramnqraa

فتحتُ عينيَّ قبل الفجر بقليل، وأحسستُ بالألم ينبضُ في ذراعيَّ من جديد، لكنني لم أشعر بالغضب من ذلك الوغد الذي هاجمني البارحة في الشارع، ولا بالأسف على نهايةِ زوجي، ولا حتّى بالحنين إلى الأشياء التي تركتها ورائي. كلُّ ما كنتُ أتطلّع إليه هو حياتي الجديدة التي تنتظرني في الغد، حيث ستحوّل نجوى من حُلُمٍ بعيد يسكنني إلى حقيقةٍ قريبة تسكن جوارِي.

أغمضتُ عينيَّ طويلاً وبقوّة تلك الليلة، لكنني عجزتُ عن النوم. كانت أصابع قدميَّ باردةً، وكان عقلي يدقُّ مثل عقارب ساعة يتردّد صداها في غرفةٍ خاوية. مضى وقتٌ طويلٌ على لفظِ حبي أنفاسه الأخيرة، ولم يعد هناك أيُّ شيءٍ أشعرُ بالخوف منه أو الندم لأجله، ولذلك قرّرتُ أن أذهب إلى بيتِ نجوى في الصباح، وأعترف لها بكلِّ شيء.

ولم أقرّر فقط، بل راودني خيالٌ قويٌّ، رأيتُ فيه نفسي أمشي نحو المبنى الذي تسكنُ فيه، أطرق بابها وأخبرها بالحقيقة المخزية. لفَّ البردُ أطرافِي كلّها، وأدخلتُ رأسي تحت الغطاء مثل نعامةٍ جبانة. كان الشعور بالذنب قوياً ومرعباً، لدرجةٍ لم أعبأ برائحة الرطوبة النتنة التي تفوح من فراش الفندق وأعطيته.

في الصباح، حزمتُ حقائبي، لأنتقل إلى بيتي الجديد. بعدما أدخلتُ حقائبي إلى الشقّة، توجّهتُ إلى مقهى قريب، واشتريتُ كرواسون، وكوبين من القهوة، ثمّ انطلقتُ بكلِّ شجاعةٍ إلى المبنى المقابل للمبنى الذي أسكنُ

فيه، وصعدتُ إلى الطابق الثاني. رنَّتُ جرس الباب، وجمدتُ في مكاني وأنا أستمع إلى نبضات قلبي السريعة والصاخبة. سمعتُ صوتها المألوف في الداخل يقول: «أنا قادمة»، ثم حفيف خطوات تقترب. وبعد أقل من عشر ثوانٍ، فُتح الباب. كانت ترتدي روب حمام أبيض طويلاً وسميكاً، وشبشباً قطنياً. رمقتني بدهشة بوجه مائل، وواصلتُ تنشيف شَعْرها الذي ما يزال يقطر ماءً. تناهت إليَّ رائحةُ شامبوان بنكهة البنفسج. انفرج وجهها النظيف الخالي من الماكياج على ابتسامةٍ ساحرة، ثم قالت:

- أهلاً وسهلاً.

عرفتُ أنها تذكّرني، وخمّنتُ أنّ أحلام أيضاً حدّثتها عني. مددتُ لها كيس الكرواسون.

- انتقلتُ إلى جان جوريه اليوم، وعندما عرفتُ أنّك أيضاً تسكنين هنا، قلتُ لم لا نشربُ قهوةً معاً؟ أرجو ألا أكون قد أزعجتُكِ، لأنني جئتُ هكذا بدون أيّ إخطار.

قالت وهي ما تزال تمسح شَعْرها:

- شهرزاد، أليس كذلك؟ لقد تذكّرتُكِ. تُحدّثني أحلام عنكِ دائماً. لو أنّكِ أخبرتيني أنّكِ قادمة، كنتُ على الأقلّ جهّزتُ نفسي وأعددتُ الفطور ووفّرتُ لكِ استقبالاً يليق بكِ هنا.

أخجلتني لطفها، ولم أستطع أن أقول أو أفعل أيّ شيء غير الابتسام. وحين أفسحت لي الطريق للدخول، تذكّرتُ ما فعلتهُ بها عبر حساب غوستافو سانشيز على فيسبوك، وشعرتُ بندم قاتل.

- تذكّرتُكِ مرّاتٍ كثيرة بعد حفل توقيع رواية نساء رائعات، لكنني لم أستطع أن أتواصل معكِ. لقد نسيْتُ اسمكِ الكامل.

- شهرزاد الراوي.

كانت تسبقني بوضع خطوات. نظرتُ إلى شكلِ جسمِها. كانَ واضحاً
أن حوضَها مدوّرٌ ومثيرٌ، بالرغمِ من أنّها ملفوفةٌ في ذلكَ الروب السميكَ
والواسع. وضعت الكرواسون وكوبَي القهوة على الطاولة، ثمّ التفتت إليّ،
ولم أعرف إن كانت تضعُ أحمرَ خدود أم أنّ وجهها اكتسب حمرةً بسبب
الحمام الذي أخذته للتوّ.

- ماذا؟

- شهرزاد الراوي.

انحنّت، وجمّعت ملابس كانت مرميةً على الأريكة، ثمّ قالت دون أن
تنظرَ إليّ:

- اسمك جميلٌ جداً. اجلسي، يا شهرزاد.

- شكراً.

اختفت في غرفةٍ ما، ثمّ عادت وفي يديها علبة سجائر. ارتمت على
الأريكة، ووضعت شِعْرَها المبلّل على المَسْنَد.

- لماذا لم تجلسي، يا شهرزاد؟

جلستُ إلى جانبها. كانت الأريكة دافئةً كأنّ أحداً قد نهَض منها للتوّ.
مدّت لي علبة السجائر.

- هل تدخينين؟

- لا، شكراً.

وضعت سيجارةً بين شفتيّها.

- أنا أيضاً. أقصد أنني أفعلُ ذلك أحياناً فقط، حين أشعرُ أنني أودّ
إحراق هذا العالم.

ابتسمتُ.

- هل تشعرين الآن أنكِ تودّين إحراق هذا العالم؟

حملت كوب قهوتها، ووضعتَه في جِبرها، ثمَّ أسندت رأسها كلّه على الأريكة هذه المرّة، ومدّت رجلها على الطاولة أمامها، فارتفع الرّوب كاشفاً عن ساقين بيضاوين طويلتين وممتلئتين. أشعلت سيجارتها ورشفت الدخان بنشوة واضحة.

- ألا تشعرين أنتِ كذلك؟

حدّقتُ فيها بدهشة. دوّرت وجهها نحوي ونظرتُ إلى عينيّ مباشرةً. ابتسمت، لكنّ، دون أن تنفّج شفاتها. خرّجت من حلقي ضحكة قصيرة مزيفة.

- أحياناً. أعني عندما أكون غاضبة.

نظرتُ إلى عنقي، ثمَّ إلى صدري، بالرغم من أن فستاني لم يكن مفتوحاً جداً. صعدت الحرارةُ إلى وجنتيّ. شربتُ من قهوتها دون أن تزيج نظرّها عن وجهي. قالت بهدوء مطمئن:

- وما الذي يُغضبكِ؟

شعرتُ بالسكينة، وشربتُ من قهوتي أيضاً. قلتُ بدون تردّد:
- البشر.

نظرتُ إلى صدري مرّة أخرى، وأحسستُ كأنّها لمسته هذه المرّة، لكنني لم أنزعج.

- البشرُ بمنّ فيهم أنتِ، أم الآخرون؟

لم أعرف بماذا أجيب. لم أكن قد فكّرتُ في ذلك من قبل. انحنّت على الطاولة وتناولت الكرواسون في يديها اليسرى. كانت السيجارة ما تزال تحترق بين أصابع يديها اليمنى، والدخان يمنحها هالةً رهيبة وعمقاً، أعرف أنه مزيف، لكنّه مشير.

- لا أعرف.

عادت واستندت إلى الأريكة من جديد وهي تنظر إليّ. رأيت صدرها هذه المرة والشامات بلون القرفة عليه وحلمة ثديها الأيمن. قضمت من الكرواسون.

- لماذا أتيت، يا شهرزاد؟

لم أتوقع أن تسألني هذا السؤال. شعرت بالحرّ وتململت في مكاني على الأريكة. وضعت الكرواسون على الطاولة من جديد دون أن تزج نظرها عني، كأنها تنتظر الجواب. لا أعرف كيف، لكنّ نظرتها كانت مملوءة بالقوة والثقة، وكنت مفتونة تماماً بها. أخذت رشفة أخرى من سيجارتها، ورفرت فراشات في رجلي.

- أردت أن أسلم عليك ...

ابتسمت، وقرّبت وجهها مني، فشمت رائحة شعرها الذي يشبه حديقة بنفسج مبللة بالمطر.

- هل تعلمين، يا شهرزاد، أن الغضب يمكن أن يكون مثيراً جنسياً؟

لم أستطع أن أنطق بكلمة.

- والقلق أيضاً، والخوف، والألم.

كانت تقترب مني شيئاً فشيئاً. ذكرتني روائح الكرواسون والقهوة ودخان السجائر في فمها برائحة أبي. أغمضت عيني، وتركتها تقبّلني، ثم استيقظت. نجوى هي الحبيبة السابقة لزوجي. دامت علاقتهما قرابة عشر سنوات، ثم انفصلا أشهراً قليلة قبل أن أعرف إليه وأقع في حبه. وقد صرت الآن أحلم بها كل ليلة.

في أواخر مارس من العام 2018، بدأت الحكاية التي ستُغيّر مجرى حياتي كلياً. كنتُ في مكتبي الواقع في شارع الأحباس بالدار البيضاء أحرّر الرواية الأولى لكاتب شاب اسمه بلال المنصوري، حين وصلتني الترجمة العربية للجزء الأول من رواية مارسيل بروست **البحث عن الزمن الضائع**. كنتُ متعبةً وأشعرُ بألم رهيب يدبّ في أوصالي كأنني تعرّضتُ لضربٍ مبرح طوال الليل، ومع ذلك، كنتُ أنهض من أمام الحاسوب وأخيظُ غرفةً مكتبي الصغيرة ذهاباً وإياباً، كأنني حاملٌ ستضع مولودها. أحياناً، كنتُ أتوقّف عند النافذة، وأنظرُ من خلالها إلى المطر الغزير الذي يسقط في الخارج، وأحياناً، أعودُ للجلوس إلى المكتب وأشردُ في الصورة الوحيدة لي مع أمي وأبي وأختي. وبين استراحةٍ واستراحة، كنتُ أجاهد نفسي للجلوس أمام الحاسوب والتحديث بتلك الرواية العربية، مقاومةً شعوراً عميقاً بالاشمئزاز، ونفحاتٍ حرارية مفاجئة، تُولد من أسفلٍ ظهري، وتجتاح جسدي كله.

في الواقع، لم أكن متأكّدة إن كنتُ أشعر بالغثيان بسبب الحيض الذي أتاني هذا الصباح، أم أنّ ذلك التقرّز كان واحداً من الأعراض الناتجة عن قراءة رواية بلال المنصوري. كانت لغة الرواية سليمةً من الأخطاء، لكنّ قصّتها غير واقعيةٍ بالمرّة، حتّى إنني لم أفهم الهدف من كتابتها! باختصار، تحكي «حكايات قلبي المحطّم» قصة رجلٍ وسيم تقع في حبه خمس نساءً جميلات، لكنّه لا يستطيع أن يحبّ أيّ واحدةٍ منهنّ. ثمّ لا يحدثُ أيّ شيء في الرواية على الإطلاق، غير الليالي الحمراء التي يقضيها البطل مع عشيقاته،

ولحظاتٍ تدخينه لسجائره الشقراء أو شربه للنبيذ الأحمر في شرفة شقته الفاخرة المطلّة على البحر.

عندما توصّلتُ أوّل مرّة بالرواية، بحثُ عن صفحة الكاتب على فيسبوك، وفتحتُ ملفّ صورهِ. كان شاباً في بداية الثلاثينيات، يرتدي دائماً بدلاتٍ رسمية أكبر من مقاسه وربطاتٍ عُقٍ مزركشة. شَعْرهُ الناعمُ الممشوطُ بعناية يلمعُ بالجِلِّ، ووجهه مثقوبٌ بسبب آثارِ بثورٍ قديمة. تأملتُ صورَهُ طويلاً وبثرتين ضخمتين طريّتين على جبهته، كأنهما مصباحا سيارة، وبعضُ تعليقاتهِ المكتوبة بلغةٍ خشبية مثل لغة الخطابات الرسمية، ومنشوراتهِ التي توحى بانعدام تجربةٍ في الحياة، وأقسّمتُ أنّ «حكايات قلبي المحطّم» ليست إلا سرداً لاستيهاماته وأحلامه التي لا يستطيع تحقيقها في الحياة الواقعية.

بدأتُ العملَ كمحرّرةٍ أدبية في العام 2013، بعدما رُفِضَتْ في اختباراتِ ولوجِ سلكِ التعليمِ كمدرّسةٍ للفلسفة. كنتُ أظنُّ أنّ هذا المجال سيجعلني قريبةً من الكُتُب دائماً، ويثري تجربتي الداخلية، لكنني وجدتُ نفسي محبوسةً في غرفةٍ صغيرة داخل دار نشر، أحرّرُ بمرارة روايات الآخرين، وأقدّمُ كُتُبَهُم، وأنشرُ إعلاناتِ صدورِها على إنستغرام، وأسمعُ انتقاداتِ الناشرِ اللاذعة لملاحظاتِي وتعليقاتِي. قالت لي أمّي بتشفٍّ إنّ هذا ما أَسْتَحَقُّهُ، وإنّها توقّعت منّي هذا الفشل، وإنّ شعبةَ الفلسفة لا تؤدّي إلا إلى الجنون. لا أعرف كيف توصّلتُ أمّي إلى هذه الخلاصة، لكنني وِدِدْتُ لو تعلّمُ أنني لم أكن أحلمُ أن أصبحَ مدرّسةً للفلسفة، ولا حتّى محرّرةً أدبية، بل كاتبة.

وطيلة ثلاث سنواتٍ من عملي كمحرّرةٍ أدبية مع دار الإبداع للنشر - وهي دار نشر مغربية كبيرة تنشرُ وتوزّعُ كُتُبَها على نطاق واسع في البلدان الناطقة بالعربية - كنتُ أتلقّى أعمالاً تشبهُ رواية بلال المنصوري، وكنتُ أشعرُ في كلّ مرّة أنّ هؤلاء الكُتّاب لا يتمتّعون بأيّ موهبةٍ ولا حتّى حبّاً للكتابة، بل فقط استيقظوا ذات صباح وقرّروا أن يكونوا كُتّاباً. وكانت مواضيعُ معظم تلك الروايات محصورةً في قصص رجالٍ يعيشون حيواتٍ غير واقعية بالمرّة،

يواجهون كثيراً من العقبات ويلتقون نساءً جميلات يقعن في حبهم، في عوالم مملوءة بالمؤامرات والمصادفات. أحياناً، كان بعض هؤلاء الكتاب يلجؤون إلى الاستعانة بشخصيات نساء فرنسيات ذوات عيون زرق وشعور ذهبية لإضفاء طابع رومانسي على قصصهم. لكن القاسم المشترك بين هذه الروايات كلها هو أن أبطالها رجال مغاربة وسيمون وطوال القامة، يدخلون سجناء شقراء، ويشربون النبيذ الأحمر، ويشعرون بالحزن تجاه الحياة والوجود بدون أي سبب. أما أجواءها، فطافحة بالأوجاع، والآهات، والبكاء، والمطارادات العنيفة، وإشهار المسدسات، والضربات القوية التي يتلقاها الأبطال دون أن تؤثر فيهم، والنساء الهشّات الجميلات اللواتي يشعرن بالخوف ويبحثن عن صدور رجال يحتمين بها، ويدخلن في غيبوبات طويلة، يفقدن بعدها ذكراتهن، والحوارات التي تشبه حوارات المسلسلات المكسيكية الرومانسية المدبلجة للعربية ... وتنتهي هذه الروايات عادةً بنهايات تشبه نهايات الأفلام الهندية.

عندما وصلت الظهيرة، كان المطر قد توقف، وأشرقت شمسٌ خفيفة، ألقت خيوطها الدافئة على مكتبي. أسندت ظهري إلى الكرسي وأنا أشعر بوخز في بطني، وأغمضت عيني للحظة في عياء، ثم فتحتهما. لم يكن أمامي سوى الحاسوب مفتوحاً على رواية بلال المنصوري، وقنينة ماء، وأقراص مسكّنة لألام الدورة الشهرية، وصورة عائلتي الموضوعة في إطار مذهب. نظرت بألم إلى بشرة أمي القمحية الشاحبة وطرحه رأسها البيضاء وشفتيها المزمومتين ونظرتها الفارغة، وشعرت برغبة عميقة في البكاء. وفي تلك اللحظة بالذات، وصلني إشعار على هاتفي بقدم رسالة إلكترونية جديدة، ثم عصّف بوسطي ألم رهيب ومخيف كال موت. تنقّستُ بعمق، والتقطتُ هاتفي من فوق الطاولة. كان البريد يحوي ترجمة الجزء الأول من رواية البحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست قادمة من مترجمها المسمى سعد جبران.

كنتُ أبحثُ عن أيِّ سببٍ للهرب من رواية بلال المنصوري الرديئة. حين أسندتُ ظهري ورحتُ أقرأ رواية بروست، فُتح باب المكتب ودخلت ندى. كانت ندى مسؤولةً عن المبيعات في دار الإيداع، وكانت تقوم بعمل المكتبية أيضاً. ولم تكن فقط زميلتي في العمل، بل أقرب صديقة لي. ارتمت عليّ بجسديها البدين في عناقٍ حارٍّ، وطبعت قبلةً على خديّ، ثم وضعت قطعةً شوكولاتة في فمها، وتطلّعت إلى شاشة الحاسوب أمامي بعينيها المدوّرتين اللامعتين في دهشةٍ لم أفهمها. وبعد قليل، قالت وهي تمضغ الشوكولاتة:

- أعرف مترجم هذه الرواية. أنا جائعة، هل ستذهبين للغداء؟

لم أكن أودّ أن أعرف مَنْ يكون هذا الشخص، لكنني شعرتُ أنّ عليّ أن أسأل عنه.

- مَنْ يكون؟

قضمت قطعةً أخرى من الشوكولاتة وقالت:

- سعد صديقٌ عزيز. كان زميلي في كليّة الآداب بالربّاط. إنسانٌ رائع وقارئٌ ممتاز أيضاً.

- أنا أتساءل فقط كيف ستتناولين الغداء بعدما تناولتِ هذا القدر كلّهُ من الشوكولاتة!

تجاهلتُ جُمْلتي وواصلت:

- إنّه مثلكِ كان يحلُم أن يصير كاتباً وفشل في ذلك.

أغلقتُ الحاسوب ونهضتُ.

- لا أستطيع أن أكل، لكنني أريدُ تغيير الجوّ قليلاً. هل نجيم موجود؟

ضحكت، ثم سألت باستغراب وهي تتطلّع إليّ بعينين مفتوحتين على آخرهما:

- أودّ فقط أن أفهم، لماذا تكرهينه إلى هذه الدرجة؟

خرجنا معاً عبر رواقٍ ضيّقٍ ومظلم إلى المكتبةِ الفسيحة، وأمضينا بعضَ الوقتِ ونحن نتحدّثُ عن أمور الحياة العادية. حدّثني عن سعد جبران قليلاً، واستمعتُ إليها بملل وهي تخبرني أنها لم تلتقّه منذ سنوات، عندما كان لا يزال غارقاً حتّى أدّيته في حبّ فتاةٍ نسيت اسمها الآن. قبل أن أغادر، طبعتُ مخطوط البحث عن الزمن الضائع، وحملتُهُ معي إلى البيت بسعادة الأطفال بلعبهم الجديدة.

أمضيتُ الأسبوع الأول أقرأ خلال الليل وأنا مستلقية على السرير في غرفتي. كان النوم يجافيني وأنا أقلّبُ صفحات المخطوط الكثيرة، وأفكرُ أنني أيضاً كنتُ أودّ أن أصبح كاتبة. كان التفكير في أنني لم أنجح في كتابة أيّ رواية يعدّ بُني وينعّصُ عليّ حياتي. كان في رأسي شيءٌ واحدٌ فقط، وهو أنني فاشلة، وعليّ أن أمتلك شجاعة الاعتراف بذلك. في أوقاتٍ ما من الليل، لشدة ما كان عقلي متيقّظاً، كنتُ أنهض من السرير، وأتوجّه نحو البهو، أفتح درج خزانة الكتب المغبرّ، وأسحبُ مخطوطاً يحوي نصوصاً كتبتها منذ سنوات، ولم أستطع يوماً أن أعود إليها وأقرأها. أفتح المخطوط وقد تكوّنت في قلبي عَمَامَةٌ ثقيلة وخانقة، ثمّ أقرأ كلماتي بآلم. كان شعوري وأنا أقرأ ما كتبته يشبه النظر إلى جسدي عارياً في المرأة، بعيوبه وندوبه ومكامن جماله كلّها. أحياناً، كنتُ أنسى نفسي وأظللُ جالسةً في البهو أحدّق في كلماتي، وأحياناً أخرى كنتُ أعود للاستلقاء على السرير أقرأ البحث عن الزمن الضائع حتّى يأخذني النوم.

في الأيام اللاحقة، اضطررتُ للتواصل مع سعد جبران عبر البريد الإلكتروني لطلب توضيحات، أو اقتراح ترجماتٍ أخرى لبعض الكلمات والعبارات. كان مستجيباً على الدوام، مرحباً باقتراحاتي. بل إننا تجاوزنا، بسرعة، الحديث عن الرواية إلى مواضيع أخرى. تحدّثنا عن الكتابة، وعن الأدب الرديء، وعن الفساد الموجود في الوسط الثقافي، وتحدّثنا عن عَظَمَة

البحث عن الزمن الضائع وروايات أخرى عالمية مثل 1984، والشيخ والبحر، وكبرياء وهوى، وذهب مع الريح. كان الحديث عن عبقرية بروسث وهمنغواي وأوستن ومارغريت ميتشل يخفف عني ثُخْمَة الرداءة ويُسِينِي أشباه الأدباء. انخرطنا، عبر الرسائل، في نقاشات طويلة عن الحياة والأدب، حتّى إنني شعرتُ، في لحظاتٍ ما، أننا جورج صاند وألفريد دو موسيه. كان الحديث معه حالماً، بعيداً عن أمور الحياة التافهة. حتّى إنني صرتُ أنزوي في مكثبي كثيراً، أكتبُ له أو أفكر فيه، وأنتظر رسائله بشغف مثل مراهقةٍ مُعجبة.

لن أنسى خفقان قلبي وأنا أنتظر لقاءه في مقهى فرنسا في وسط المدينة. وصلتُ قبل الموعد بثلاث دقائق، وحين رأيته قادماً، شعرتُ كما لو أنّ قلبي انزلق نحو معدتي. كنتُ في الثلاثين وقتها، لكنّ عاطفتي كانت في الخامسة عشرة. نظرتُ بافتتان إلى قامته الطويلة وشعره الكثيف المجعد. كان يرتدي كنزة سوداء من الصوف وسروال جينز وحذاء رياضياً، ويحمل حقيبة ظهر، تخيلتُ أنها تحتوي كُتُباً. وقفتُ ومددتُ له يدي مبتسمةً. وحين تصافحنا، التقت أعيننا، وشعرتُ بالخجل، لكنني، بطريقةٍ ما، أقنعتُ نفسي لحظتها أنّ ما شعرتُ به كان ألفةً.

قلتُ في نفسي كم هو جذابُّ هذا الرجل.

قال بمرح:

- شهرزاد ... لم أتخيلك هكذا وأنا أقرأ رسائلِك.

سألتُ بفضول:

- كيف تخيلتني؟

جلس وازعاً رجلاً على رجل. أحببتُ بساطته، وسمرته الخفيفة، وعينيّه العسلِيَّتين، وبطنه الصغير البارز.

- تَخِيلْتُكَ أَطْوَلَ، وَأَكْبَرَ سِنًّا، وَلَكَ وَشْمٌ عَلَى سَاعِدِكَ.

قالها وهو يسحب عُلْبَةً سَجَائِرَ مِنْ جِيبِ سُرْوَالِهِ، ثُمَّ نَظَرَ مُبَاشِرَةً إِلَى عَيْنَيَّ كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ جَوَابًا.

- لماذا؟

قال:

- أَحَبُّ الْوُشُومِ عَلَى أَجْسَادِ النِّسَاءِ.

كَانَ الْغَبَاءُ الْمَصَاحِبُ لِلْإِعْجَابِ قَدْ بَدَأَ يُخَيِّمُ عَلَيَّ، أَوْ بِالْأَصَحِّ، كُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أُنْدَلِقُ. ذَلِكَ الشَّعُورُ بِأَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِّي مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى.

- كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَضَعُ وَشْمًا فِي ظَهْرِي عَلَى طُولِ الْعُمُودِ الْفِقْرِيِّ.

الْتَمَعْتُ عَيْنَاهُ. سَأَلَ:

- لِمَاذَا لَمْ تَفْعَلِي؟

قُلْتُ:

- أَنَا؟ أَضَعُ وَشْمًا عَلَى جَسَدِي؟ سَتَقْتُلْنِي أُمِّي إِذَا فَعَلْتُ شَيْئًا كَهَذَا!

سَكَتُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِاسْتِغْرَابٍ. أَضَفْتُ:

- ثُمَّ كَيْفَ سَيَنْظُرُ إِلَيَّ النَّاسُ فِي الشَّارِعِ؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُمْ سَيُظَنُّونَ أَنَّني مِنْ عَبَدَةِ الشَّيَاطِينِ!

تَأَمَّلَنِي بِاسْتِهْجَانٍ لَوْهَلَةٍ، ثُمَّ قَالَ:

- كَيْفَ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ فِي الشَّارِعِ رُؤْيَا ظَهْرِكَ أَصْلًا؟

تَبَدَّدَتْ ضَحْكَتِي. قُلْتُ بِحِدَّةٍ:

- لَنْ يَرَوْهُ، لَكِنَّهُمْ سَيَتَكَلَّمُونَ! أَنَا أَعْرِفُ! هُنَاكَ ضُغُوطٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَفْهَمَهَا

إِلَّا النِّسَاءُ!

استقرت ابتسامة هادئة على شفتيه. ابتسامة من لا يرغب في الدخول في أي نقاش من أي نوع. وضع علبة سجائره على الطاولة، وأشار للنادل بالقدوم، ثم قال كأنه يحاول إغاضتي:

- عصير برتقال؟ كابوتشينو؟

لم أرد.

- ما بك؟ ألا تفضل النساء عصير البرتقال أو كابوتشينو حين يذهبن إلى المقاهي؟

التفت إلى النادل الذي كان قد وصل. قلت:

- قهوة سوداء مركزة من فضلك، وبدون سكر!

اعتدلت في جلستي، ونظرت إلى وجهه. كان ما يزال هادئاً ومستفراً بشكل لا يصدق. طلب قهوة سوداء مركزة أيضاً. ولم يفتح علبة سجائره.

- يبدو أن لديك كثيراً من الصور النمطية عن النساء.

أطلق ضحكة خفيفة. سحررتني ضحكته. كانت أول مرة أستطيع فيها الجمع بين شعورين متناقضين: أن أكون مستفزة ومفتونة في الآن نفسه.

قال:

- أفضل النساء القويات على النسويات الضعيفات.

قلت بسرعة:

- لا مجال للمقارنة. كم من امرأة قوية دمّرت نفسها بسبب ذكورتها ...

لم يدعني أكمل. قال بجديّة هذه المرأة:

- أعرف فتاة .. أقصد كنت أعرفها، في الماضي ... أرادت مثلك وشماً

على جسديها. كانت خائفة جداً في بداية الأمر، من المجتمع ومن عائلتها المحافظة، لكنها لم تستسلم لخوفها، وحصلت على الوشم الذي تريد. وبذلك لم تفعل الشيء الذي تريده فقط، بل تخلّصت من خوفها أيضاً ... حتى أمها التي غضبت منها تقبّلت الوضع في النهاية. الناس يتعودون على كل شيء.

كنتُ أنظر إلى شفّتيه الممتلئتين وهما تتحرّكان وتكشّفان عن أسنانه المرتبة، وعن بقعة صفراء صغيرة في قاطعته العلوية اليسرى، وأتأمّل بخشوع عينيّه الغارقتين في الماضي. كنتُ أريد أن أقول له أن يسكّت، أن يكون جميلاً هكذا فقط، ويُغلق فمه، أن يتحدّث في الأدب أو السياسة ويتوقّف عن إصدار الأحكام عني وإبداء آرائه في النساء. أن يصمّت، لأنّه ينظر إلى الوضع من الخارج، ولا يعرف شيئاً عن أمّي وجبروتها، ولا عن أُختي الكبرى نُهى ولا مبالاتها، ولا عن أُختي الصغرى جميلة واستسلامها المقيت. عليه أن يصمّت، لأنّ آخر مرّة دخل فيها إلى حمّام نساء كانت قبل أن يصلَ مرحلة البلوغ، ولأنّه لم يدخل صالون حلاقة للنساء أبداً، ولأنّه لم يكن من قبل مع رجلٍ في السرير، ولأنّه لا يملكُ فرجاً بكلّ بساطة. لكنني لم أقل له أيّ شيءٍ من ذلك. كان قلبي يرتعش، وكان هناك مزيجٌ من الشهوة والعاطفة يرفرف داخل معدتي، ثمّ ينزلق نحو رَحْمي.

كان يتحدّث معي، لكنّ نظرته لم تكن موجهةً إليّ، بل إلى داخله، إلى الماضي الذي في رأسه.

- في الحقيقة، تلك المرأة كانت مختلفةً عن النساء كلّهنّ اللواتي عرفتهنّ.

اندثرت الفراشات التي في رَحْمي.

- مَنْ تكون هذه المرأة؟

جاءت القهوة. طقطعَ سَعدُ أصابعه في حركةٍ سريعة، ثم أخذ رشفةً من فنجانه. أحسستُ أن السؤال خاصٌّ جدًّا، ولا ينبغي طرحه في أوّل لقاء.

- أَلنْ تُدخِّن؟

- أَقلعتُ عن التدخين منذ زمنٍ بعيد.

حدّقتُ في علبة السجائر الموضوعة أمامه.

شرح:

- أحمل هذه العلبة معي أينما ذهبتُ، وأضعُها أمامي على الطاولة دائماً. هكذا أقتنع نفسي أنني دخّنتُ دون أن أكون قد دخّنتُ فعلاً. بدون هذه الطريقة، لم أكن لأستطيع الإقلاع عن التدخين.

ابتسمتُ. انحنى وفتح حقيبته الرمادية، وسحبَ نسخةً من أزهار الشرّ لبودلير مترجمةً إلى العربية، وقلماً. تابعتهُ بعينيّ وهو يكتب بتركيزٍ وانتباه على الصفحة الأولى من الكتاب، ثمّ وهو يمدُّ لي الكتاب بلباقة. التقت أعيننا. شكرتهُ، وعانفتهُ في داخلي. لم أفتح الكتاب إلّا في طريق عودتي إلى البيت. قرأتُ إهداءه:

«مِنَ أَجْلِ الأدب، وَمِنَ أَجْلِ الجمالِ الذي في القبح، وَمِنَ أَجْلِ صداقتنا التي بدأتُ.»

مَنْ تكون تلك المرأة؟

سقط عليّ هذا السؤال مثل صخرة وأنا أفتح عينيّ في صباح اليوم التالي. خشيتُ أن أحبّ رجلاً آخر من جديد. قفزتُ من السرير، وتوجّهتُ إلى الحمام. كنتُ مريضةً، لدرجة أن الحبّ بالنسبة إليّ كان رديف العذاب والألم. حلقتُ شعراً ساقيّ تحت الماء، وفكرتُ في سعد بخشوع وأنا أنظر إلى الماء يعبرُ بشرتي. كنتُ غاضبةً من نفسي لأنني فكرتُ فيه، ومع ذلك، تزينتُ وارديتُ فستاناً جميلاً. كنتُ قد بدأتُ أتصرفُ كما لو أنني قد أجده في كلِّ مكانٍ أذهبُ إليه.

عُدْتُ إلى عادةِ النظرِ إلى نفسي في المرأة طويلاً قبل الخروج من البيت. التفتُ وحدّقتُ إلى شكلِ مؤخّرتي، ثم رفعتُ فستانني قليلاً وتأملتُ فخذيّ، ثم عُدْتُ إلى الورااء قليلاً، ثم مشيتُ إلى الأمام في اتّجاه المرأة من جديد. لم أكن أحبّ قامتي التي تبلغُ مائة وثمانية وخمسين سنتمراً، ومع ذلك، لم أرتدِ الكعبَ العالي من أجلِ رجلٍ أبداً. عاهدتُ نفسي على ذلك.

في المكتب، انتظرتُ مغادرةَ نجيم، وسحبتُ ندى إلى مكّتي، وأخبرتها أنني قابلتُ سعد جبران أمس في مقهى فرنسا.

فتحت عينيها في استغرابٍ مُصطنع، وقالت:

- كيف تخبّئين عني هذا كلّهُ، أيُّها العفريتة؟

- هل هو عازب؟

ضحكتُ بلذّة، ثمّ جلستُ على المكتب، وراحتُ تحرّكُ رِجْلَيْهَا البديّتينِ في الهواء. كانت تحبّ هذا النوعَ من المواضيع كثيراً.

- كان مرتبطاً بفتاةٍ منذ أيام الجامعة، لكنني عرفتُ أنهما انفصلا مؤخراً.

- هل أنتِ متأكّدةٌ من ذلك؟ هل تعرفينها؟

- ليس كثيراً. رأيتها عدّة مرّات فقط. كانت تأتي إلى الكليّة وتنتظر سعداً هناك، ثم يغادران معاً.

جلستُ على الكرسيّ. نظرتُ إليّ بعينين مفتوحتين، وهمستُ كأنها تُفشي سرّاً لا أحد يعرفه:

- لو تدرين كم كان يحبّها! كان يكتبُ لها أشعاراً كلّ يومٍ على فيسبوك طيلة سنوات.

كرّرتُ:

- هل أنتِ متأكّدةٌ أنهما انفصلا؟

اتّسعت عيناها وقالت باستنكار:

- سمعتُ أنها تركتهُ نهايةَ السنة الماضية. لا أذكر متى بالضبط، لكنني أذكر أنه في فترةٍ ما، كان ينشر قصائد حبّ حزينّة على فيسبوك ... هل تعرفين أحلام آيت الحاج؟

- مَنْ تكون؟

قرّبت وجهها منّي أكثر:

- صديقةٌ قديمةٌ من أيام الجامعة ... ما نزال نتواصل أحياناً على فيسبوك. كانت قد أخبرتني أنّ سعداً حاول استرجاع حبيبته مرّاتٍ عديدة بدون أيّ جدوى، وأنه خرّج من هذه العلاقة مدمراً تماماً.

تحسّستُ المكتب أمامي أبحتُ عن قنينةٍ ماء وضعتها هنا في الصباح، وقلّتُ دون أن أبعد ناظري عن ندى:

- ألهذه الدرجة كان يحبّها؟

تنقّستُ بعُمق، ثمّ قالت:

- كلّما طالت العلاقة، كان الفراق مؤلماً. لا يعني ذلك بالضرورة أنّك تُكنّ حبّاً عظيماً لذلك الشخص، بل أنّك لم تستوعب بعدُ أن كلّ شيءٍ قد انتهى.

التقطتُ قنينةَ الماء. أضافت:

- هذه هي الحياة! بداياتٌ ونهايات ... ماذا بوسعنا أن نفعل؟

شربتُ الماء بلهفة. نهَضتُ:

- عليّ أن أذهب. ليس هناك أحدٌ في المكتبة.

تبعْتُها وقد غمرني الفضول، ومشينا عبر الممرّ الضيّق والمظلم متجهتين نحو المكتبة. لم أفهم لماذا كان قلبي يخفق بقوة ويرتعش بين أضلعي، ولم أعرف إن كنتُ أشعرُ بالفضول فقط، أم بالعيرة أيضاً. وحين صرنا بين الكتب وغمرني الضوء القادم من الخارج، هدأتُ قليلاً.

قلْتُ بأمل:

- هل تعتقدين أنه نسيها؟

جلستُ أمام حاسوبِها. كنتُ مرتبكةً وأنا أستمع إلى نقرها على لوحة المفاتيح. أجابت دون أن تنظر إليّ:

- كلّ شيءٍ يُنسى مع الوقت، يا شهرزاد. ليس هناك حبٌّ لا يُنسى، مهما كان عظيماً.

غمرني الأمل، وشعرتُ برغبة قوية في أن أجمَعَ حطامَ سَعد وأضمّه إلى صدري. لم أعرف إن كانت رغبةً فقط أم شعوراً بالواجب، لكنني رأيته في خيالي واهناً ومجروحاً ومنكسراً، ورأيته أرتّق جراحه بحنان ومثابرة. أردتُ أن أصنع منه إنساناً متيناً، رجلاً قادراً على الحبّ مرّةً أخرى.

- هل تظنين أنه ما يزال مدمراً؟

لم تردّ. نهضت وراحت تسحبُ كُتُباً من صندوق وترتبها على الرفوف. ندمتُ لأنني طرحتُ عليها السؤال، وشعرتُ بغبائي.

- هل أعجبك إلى هذه الدرجة؟

لم أردّ هذه المرّة. كنتُ كمَنْ أضاعت طريقها، فلم أعرف إن كنتُ سأمضي إلى حياة ذلك الرجل المغرية بأسرارها، أم أعودُ إلى حياتي الرتيبة التي بلا لون ولا رائحة. صعدت الحرارةُ إلى وجنتيّ، وأرجعتُ خُصلاتِ شَعْرِي الكثيف إلى الوراء.

- سأعود للعمل.

جاءني صوتها جاداً هذه المرّة:

- لكنك لستِ مجبرةً على إصلاح رجلٍ حطّمته امرأةٌ أخرى. التفتُ إليها بسرعة، وقلتُ:

- ما اسمُها؟

رفعت رأسها ونظرت إليّ بإمعان.

كرّرتُ، لكنّ، مبتسمةً بمرح هذه المرّة:

- فضولٌ فقط. ما اسمُ حبيبة سَعد السابقة؟

بعدَ لحظةٍ تفكيرٍ قصيرة، صاحتُ:

- آآه، نجوى. اسمُها نجوى!

ضحكتُ مكرّرةً الاسم. عادت لترتيب الكُتب في لا مبالاة.

- هل هي جميلة؟

رفعت رأسها نحوي مرّةً أخرى، وتأمّلتني باستغراب.

- أنصحك ألا تقارني نفسك بأي امرأة أخرى. عليك أن تكوني واثقة من نفسك إن كنت تريدين أن تعجبيه. ثم إنَّ الحبَّ لا علاقة له بالجمال.

- هل هي أجملُ مني؟

ردت بنبرةٍ لاذعة:

- شهرزاد، اذهبي إلى مكتبك، فقد بدأتِ تتفوّهين بأشياء لا معنى لها. حين كنتُ أعبر الممرَّ المظلم متوجّهةً نحو مكتبي، عبرتُ أنفاقاً طويلةً في رأسي بدت كما لو كانت بلا نهاية. ارتميتُ على الكرسيّ أمام حاسوبي في ابتئاس، وكتبتُ لسعد:

«العزیز سعد،

كنتُ سعيدةً جداً بمقابلتكِ أمس، لكن، لم تتسنّ لنا الفرصةُ لتحدّث في مواضيع أخرى أهمّ بكثير ممّا تحدّثنا فيه. هل تكون متوفراً يوم السبت في الساعة السادسة مساءً؟»

لم يردَّ سَعْدٌ على رسالتي. قفزتُ داخل الباص، وتمسَّكتُ بعمود، ثمَّ رحتُ أراقب الطريق من النافذة بألم. كان كلام ندى يحفر في داخلي، وتخيلتُ بقوة أن سَعْدًا ما يزال يفكر في حبيبته السابقة نجوى. شيءٌ أعظم منِّي كان يدفعني لتشكيل قصتهما كصُور في رأسي، ربّما كان الغيرة، أو المَلَل، أو بداية الحبِّ، أو حتّى ذلك التوق الدائم للهروب من حياتي ... لا يهمّ.

تخيَّلتُ شابًا في بداية العشرينيات يخرج من باب كليّة الآداب، ويتوجّه نحو فتاة جميلة في انتظاره، يتأبّط ذراعها بفخر، ثمَّ ينطلقان لجوبِ شوارع الدار البيضاء. بعد أن يتعبا، يجلسان في حديقة لأخذ قسط من الراحة كما يفعل معظم الطلّبة الفقراء الذين لا يستطيعون توفير تكلفة الجلوس في مقهى. لكنّهما، مع ذلك، سعيدان. سعيدان جدًّا. بل ويضحكان بقوة على كلّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ، مكثفياً بعضهما ببعض، وبذلك اللحظات الثمينة كأنهما يمتلكان الأبد.

تخيَّلتُهما يمشيان يداً في يد على طول كورنيش عين الذئاب. شَعْرُها يتطاير بفعل حركة الرياح، ويستقرّ على وجهها الغضّ الذي لا تزال تطبع ملامحه البراءة. يتوقّفان عن المشي، ويزيح خُصلات الشَّعر من على وجهها وهو يتطلّع إليها بحبٍّ وشهوة. يُمسكها من وسطها، يقربُ جسدها إليه، ويقبلُها بلهفة وهو يستشعر نهدَيْها الطريَّين في صدره. يشتم رائحة عنقها والعطر الرخيص الذي تضعه، ولا يستسيغه كثيراً، ومع ذلك يُخبرها أنه

أَجْمَلُ عَطْرِ شَمِّهِ فِي حَيَاتِهِ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ بِذَلِكَ إِنَّ هَذَا أَجْمَلُ شَعُورٍ
اِتَّبَعَهُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

تَخَيَّلْتُهُمَا يَتَحَدَّثَانِ عَنِ الدِّرَاسَةِ وَمَشْكَلاتِ الْكَلِيَّةِ التَّافِهَةِ. تَخَيَّلْتُهَا تُخْبِرُهُ
بِانْزِعَاجٍ مَزِيفٍ أَنْ زَمِيلًا لَهَا يَحَاوِلُ التَّقَرُّبَ مِنْهَا لِتُشِيرَ غَيْرَتُهُ. تَخَيَّلْتُهُ يَغَارُ،
وَيَعِدُّهَا بِأَنَّهُ سَيَذْهَبُ إِلَى الْكَلِيَّةِ الَّتِي تَدْرُسُ بِهَا وَيَكْسِرُ عِظَامَ ذَلِكَ الْأَحْمَقِ
إِذَا اقْتَرَبَ مِنْ حَبِيبَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى. تَخَيَّلْتُهَا تَرْتَعِشُ نَشْوَةً وَفَرَحًا مِنْ غَيْرَتِهِ
وَذِكُورَتِهِ، حَتَّى تَبْلُلَ سُرْوَالَهَا التَّحْتِيَّ.

رَأَيْتُهُمَا يَتَسَلَّلَانِ مَسَاءً إِلَى الْغُرْفَةِ الْمَهْتَرَةِ الَّتِي يَتَشَارَكُهَا مَعَ أَصْدِقَائِهِ
مِنَ الطُّلَبَةِ الْجَامِعِيِّينَ، بَعْدَمَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغِيبُوا لِسَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ حَتَّى
يَسْتَقْبِلَ حَبِيبَتَهُ. أَمَّا هِيَ، فَقَدْ أَخْبَرَتْ أَهْلَهَا أَنَّهَا سَتُمْضِي سَاعَاتِ الْمَسَاءِ
فِي مَرَاجَعَةِ الدَّرُوسِ مَعَ صَدِيقَاتِهَا نَسْرِينَ وَإِيمَانَ وَنُورَةَ. تَخَيَّلْتُهُ يُجْلِسُهَا
عَلَى سَرِيرِهِ ذِي الشَّرَاشِفِ الْمُبَقَّعَةِ، الْمَفْعَمِ بِرَائِحَةِ الْإِسْتِمْنَاءِ، وَيُلْقِي عَلَيْهَا
شِعْرًا كَتَبَهُ عَنْ امْرَأَةٍ ذَاتِ عَيْنَيْنِ عَسَلِيَّتَيْنِ جَمِيلَتَيْنِ. رُبَّمَا لَا تَكُونُ عَيْنَاهَا
عَسَلِيَّتَيْنِ فَعَلًا، لَكِنَّهُ كَانَ سَيَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ اللَّوْنُ لِلضَّرُورَةِ الشُّعْرِيَّةِ. بَعْدَ
أَنْ يَنْتَهِيَ مِنَ الْإِقَاءِ الْقَصِيدَةِ مَقْلَدًا طَرِيقَةَ إِقَاءِ مُحَمَّدٍ دُرُوشٍ لَشِعْرِهِ،
يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي حِمَالَةِ صَدْرِهَا الْحُمْرَاءِ الَّتِي اشْتَرَتْهَا بِثَلَاثِينَ دِرْهَمًا مِنْ
قَيْسَارِيَةِ الْحَفَّارِيِّ الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي حِينَ خَرَجَتْ مَعَ أُمِّهَا. يُخْبِرُهَا أَنَّ ثَدْيَيْهَا
أَجْمَلُ ثَدْيَيْنِ لِمَسْهَمَا فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ، فِي الْوَاقِعِ، وَجَدَهُمَا
صَغِيرَيْنِ جَدًّا بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ الصَّدُورِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي رَأَاهَا فِي الْأَفْلامِ الْإِبَاحِيَّةِ.
ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ لَمَسَ ثَدْيَيْنِ فِي حَيَاتِهِ مِنْ قَبْلِ أَوَّلِهِ.

رَأَيْتُهُ يَدْفَعُ جَسَدَهَا بِلُطْفٍ إِلَى الْوَرَاءِ، وَيَصْعَدُ فَوْقَهَا. يَتَحَسَّسُ
حَوْضَهَا ثُمَّ مَوْخَرَتَهَا الْمُسْتَدِيرَةَ، وَيَلْتَقِمُ شَفَتَيْهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. يَخْلُصُهَا
مِنَ سُرْوَالِهَا الْجِينِزِ، ثُمَّ مِنْ سُرْوَالِهَا التَّحْتِيَّ، دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ تَقْبِيلِهَا.
تَطْفُرُ حَبَّاتٌ مِنَ الْعَرَقِ مِنْ جَبِينِهِ. تَنْتَاهِي إِلَيْهَا رَائِحَةُ عَرَقِهِ، قَوِيَّةٌ، مَمْتَرِجَةٌ
بِرَائِحَةِ الْأَوْسَاحِ، وَتَحْمَنُ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحِمَّ مِنْذُ أُسْبُوعَيْنِ، لَكِنَّهَا لَا تَخْبِرُهُ

بذلك، لأنها تحبّه، وهذا كلّ ما يهمّ. تئنّ وهي تنظر إلى صدره بلونِ العسل. يتلمّس الحائط على يمينه باحثاً عن مفتاح الضوء. لا يتوقّف عن تقبيلها. يطفئ النور.

أسمعهما يتأوّهان من اللدّة. تقول له أن ينتبه. ويقول لها ألا تقلق أبداً ما دامت معه. تقول له وهي تتأوّه إنّ أهلها سيقتلونّها إذا عرفوا بالأمر، ويطمئنّها أنهم لن يعرفوا أيّ شيء، لأنه لن يضيّع شرفها. تقول له أن يُسرّع لأنّ الوقت متأخّر وعليها العودة إلى البيت، ويقول لها إنه يحبّها، يحبّها كما لم يحبّ من قبل أبداً. تقول له أن ينتبه من جديد. يصرخ عالياً من النشوة. بعد ثوانٍ، يُشعل الضوء من جديد. ينظر كلاهما إلى الآخر بدهشة، كأنهما ارتكبا جريمة قتل. تنهض وترتدي سروالها بقلق وقلبها ينبض بقوة. تقول لها ألا تخاف. وتقول له إنها حمارة لأنها وافقت على فعل ذلك معه. يجلسها على السرير، وتشرع بالبكاء. لكنّه لا يعانقها ولا يمسح دموعها، بل يسحبُ سيجارةً من جيبه، ويشعلها بيديّن مرتعشتين. هكذا تخيلتُ أول مرة دخّن فيها سعد سيجارةً في حياته. دخّن لأنه لم يعرف كيف يُطمئنّها، لأن عقله لم يستوعب الإشباع والندم والقلق والحبّ في الوقت نفسه. ومنذ ذلك الوقت وهو يدخّن، حتّى أقلّع مؤخّراً، بعدما انفصل عن حبيبته.

انطفأت شاشة الخيال الكبيرة التي في رأسي. لم يكن لديّ مزيدٌ من المعطيات كي أستطيع تشكيلَ مشاهدٍ أخرى لحياة سعد مع نجوى في الماضي. لكنّ حياتهما التي بدت لي مشوّقة ومثيرةً للفضول بشكلٍ لا يُصدّق، لم تكن إلّا حياة العشاق المغاربة العادية والطبيعية. قفزتُ من الباص ومثّلتني تكاد تنفجر، ثمّ ركضتُ نحو البيت. كانت أعراض مرضي قد بدأت في الظهور.

بمشقة كبيرة، صعدتُ الدرج نحو سُقَّتِي الواقعة في الطابق الرابع من عمارة سكنية جديدة بحَيِّ بورغون. أدركتُ لوهلة، وأنا واقفةٌ أسترجع أنفاسي، أنني كبرتُ فعلاً، وغمرني شعورٌ ثَقِيلٌ ومرعبٌ أنَّ الزمن يمضي بسرعة مخيفة. ركضتُ نحوَ الحمام وأفرغتُ مثائتي، ثمَّ وقفتُ أمام المرأة ورُحتُ أراقبُ تغيّراتِ وجهي. أمس فقط كنتُ في الثانية والعشرين. كيف مضت ثمان سنوات بهذه السرعة؟ كيف توسّعت مسامُّ بشرتي هكذا؟ متى ظهرت هذه الهالات السوداء حولَ عيني؟ ولماذا لم أنتبه من قبل لهذين الخطيئ اللذين يظهران على جبھتي كلِّما رفعتُ حاجبيَّ؟

تذكّرتُ أمي. كانت مثل جنِّي يظهر ويختفي باستمرار في رأسي، تُفرِّغني، تُحمِّلني ما لا طاقة لي به من القلق. تكره أن تراني سعيدة. حين تسمَع ضحكتي أو تراني أقرأ كتاباً، تتوعّدني مثل إله غاضب. الرّمن خدّاع، يا شهرزاد، وستدفعين ثمنَ ركضك المستمرّ وراء هذه الحماقات. كانت تقصد بالحماقات الدراسة، وقراءة الكتب. عليك أن تفكّري في مستقبلِك، يا شهرزاد، أي في اللحظة التي ستصبحين فيها عجوزاً عاجزةً عن فعل أيّ شيءٍ لنفسكِ بنفسكِ، أي عندما ستصبحين غير قادرةٍ على الحركة وعلى الذهاب إلى الحمام لتبرّزي، هل فكّرتِ في مَنْ سيغيّر حفاظاتكِ؟ عليك أن تفكّري في ذلك اليوم، يا شهرزاد. على كلّ امرأة أن تفكّر في ذلك اليوم. تزوّجي، يا شهرزاد، وأنجبي أطفالك، وكوني أسرتكِ. لا ضير في أن ترغبِي في استكمال دراستكِ، شرطاً ألاّ يُلْهِيك ذلك عن التفكير

في مستقبلِك، أي في اللحظة التي ستصيرين فيها عجوزاً غير قادرة على الذهاب إلى الحمام لتتبرّز.

هكذا كان منطق أمي يعمل، أو هكذا تعودت على تخويفي من الحياة. حين تزوّجت أختي جميلة، التي تصغرني بخمس سنوات، صارت أمي تنادينني بالعجوز البائرة بدل اسمي. كنتُ في الثانية والعشرين، متخرّجة حديثاً من الجامعة، ملأنة بالطاقة، أقرأ كلّ يوم وفي كلّ مكان، وأكتب بانتظام. كان عقلي في الكتابة، وكان عقلُ أمي وساكنة درب الكبير الذي وُلدت ونشأت فيه في فرجي الذي سيبور ورحمي الذي ستنتهي صلاحيته.

كانت هناك علاقة غامضة وملتبسة تجمع ساكنة درب الكبير بفرجي ورحمي. يصعب تحديد ما إن كانت علاقة سلطة أو خوف أو اشمئزاز أو حسد أو افتتان. لذلك قرّرت منذ مدّة طويلة التوقّف عن التفكير في ذلك الموضوع.

في سنّ الثامنة والعشرين، خطبني صاحب صالون حلاقة وتجميل يوجد تحت بيتنا. كان في الخمسينيات، أصلع وذا كرش كبيرة، كأنه حامل في الشهر التاسع. تعرّض لحادث سير قبل سنوات عندما كان يقود نحو الجنوب، ماتت زوجته وعاش هو. كانت أختي نُهى التي تعمل عنده تتمنّى أن يتزوّجها، لترتقي من منصب كوافورة إلى زوجة صاحب الصالون. لكن أحلامها تحطّمت حين جاء بكرشه المائلة إلى اليسار وطلب يدي أنا. فعَل ذلك، بلا حياء ولا حشمة، وهو ينظر مباشرة إلى عينيّ ويتسم مبرزاً أسنانه الصفراء المعوجة. لو كان لديّ رُبع الثقة بالنفس التي كان يتمتع بها هذا الرجل، كنتُ أصبحتُ روائية منذ زمن.

ومع ذلك، كان ذلك أعظم يوم في حياة أمي. ارتدت قُفطانها الأزرق المطرّز الذي لا ترتديه إلا في المناسبات الكبيرة، وطرحة رأس جديدة، جلبتها لها جارتنا صباح من تركيا. وحين أخذت تتكلّم عنيّ كأنّها تبيع أغلفة كنبات،

راحت تحرّك يديّها حتّى يسمع الحاضرون جميعهم رنين أساورها وينتبهوا لها. كانت شقيقة صاحب صالون الحلاقة والتجميل أيضاً ترتدي قُفطاناً مطرزاً ومزيناً بأحجار ملوّنة، وأساور من الذهب، وعلى وجهها طبقة بيضاء من فوندايشن رخيص يشبه الكلس. وبينما راحت الاثنتان تحرّكان أيديهما كأنهما في مسابقة لرينين الأساور، دخلت أختي جميلة بجسدها الثقيل جازةً معها أطفالها الثلاثة. كنتُ محشورةً وسطهنّ، جامدةً وصامتةً مثل خزانة.

حين قُدِّمت أطباق الحلوى، وسُكب الشاي في الكؤوس، بدأت عملية التبادل، أو بالأصحّ، البيع والشراء. قالت شقيقة صاحب صالون الحلاقة والتجميل بافتخار إنّ أخاها يملكُ شُفّةً وسيارة، وقالت أمّي إنّ ابنتها خلوقة وتلقّت أحسن تربية يمكنُ أن تتلقّاها فتاة. قالت شقيقة صاحب صالون الحلاقة والتجميل إنّ الأرباح اليومية التي يجنيها أخوها من صالونه تكفيه لتعيشَ معه امرأةً مثل ملكة، وقالت أمّي إنّ حياة ابنتها تتراوح بين العمل والبيت، ولا تخطو إلى الخارج دون ذلك أبداً. قالت شقيقة صاحب صالون الحلاقة والتجميل إنّ أخاها يبحث عن امرأة تربي له أولاده أحسن تربية، وقالت أمّي إنّ ابنتها حنونةٌ جداً وتحبّ الأطفال الصغار. مقابل هذه العملية: خمسون ألف درهمٍ مهراً.

كنتُ أكره الزواج والأشياء المرتبطة به كلّها، ولم أكن أحتمل الأطفال الصغار، ولم أكن أريد لحياتي أن تتراوح بين العمل والبيت، وكنتُ أشعر بالتقرُّز من نظرات صاحب صالون الحلاقة والتجميل المتأجّجة سعادةً، ومن تخيلي نفسي في حضنه، ومع ذلك لم أستطع النهوض ولا حتّى الاعتراض.

في الليل، أغلقتُ باب غرفتي عليّ، وانزويتُ هناك لثلاثة أيّام، غير عابئة بالطرق المستمرّ ولا بصراخ أمّي وشنائمها وتهديداتها. حين قرّرتُ أن أفتح الباب أخيراً، لم تَبس أمّي بكلمةٍ حول الموضوع، ولم تكلّمني نهائياً. بل إنها صارت تتفادى النظرَ في اتّجاهي، وتفتحُ هاتفها متظاهرةً بتسجيل رسائل صوتية، إذا أنا وجّهتُ لها كلاماً. أحياناً، كنتُ ألوح لها

بيدي أو ألمح لها بوجهي أن تُنهي التسجيل، كي أتحدّث معها، لكنّها لا تتوقّف. كانت مقاطعتها لي تغرز في داخلي سكاكين لا مرئية. تمنيتُ لو أنها تقول شيئاً، لو أنها تلومني، لو أنها تصرخ في وجهي، لو أنها تضربني بالنعل البلاستيكي أو بحزام أبي إلى مؤخّرتي حتّى تحمرّ كما كانت تفعل وأنا صغيرة، ثمّ تحضنني في الأخير كأنّ شيئاً لم يكن. لكنّها كانت تعرف أنّ الصمت أقسى عقوبة للإنسان.

عندما مات والدي في عام 1995، استلمت أمّي زمام الأمور كلّها في البيت، وكان عليها أن تحمل المسؤوليات كلّها على عاتقها وحدّها. كانت تعمل خلال النهار معلّمة في مدرسة ابتدائية، وفي المساء، تنظّف البيت وتغسل ملابسنا وتجهّز طعامنا. كانت جميلة، ما تزال في الثانية من عمرها وقتها، وكنا تتناوب أنا ونهى على تغيير حفاظاتها وإطعامها حين تضطرّ أمّي إلى التغيّب عن البيت. أمّا حين يكون علينا أن نذهب جميعاً إلى المدرسة، كانت أمّي تُلّف حبلاً متيناً حول وسط جميلة، وتربط الحبل بإحكام إلى رجل السرير حتّى يتسنّى لها تركّها وحدّها في البيت.

كانت أمّي متوتّرة على الدوام، غاضبة ومغتمّة، وينبعث منها مزيج من رائحتي البصل والرطوبة. وكلّما كبرنا وازدادت مسؤولياتها، تعاظمت سلطتها وقسوتها، وازدادت تلك الرائحة التي تنبعث من جسمها قوّة وفتكاً. كانت تلك رائحة العرق الذي ينبعث منها وهي تدور مثل حمار الطاحونة، محاولة أن تحمي نفسها من الانكسار. لكنّ القسوة لم تكن تحمي أبداً من الانكسار.

أحبّتنا أمّي كثيراً، لكنّها كرهتنا في الوقت نفسه. كرهتنا، في الواقع، أكثر ممّا أحبّتنا، وتمنّت لنا الموت كثيراً، ودعت الله أن يأخذنا لترتاح، ولأمّتنا على رحيل والدي، وعاقبتنا على وجودنا في هذه الحياة، كأننا أنجبنا أنفسنا بأنفسنا. حملت أمّي طيلة أكثر من عشرين سنة رغبة عميقة في قتلنا، وخوفاً كبيراً، في الوقت نفسه، من أن يصيبنا مكروه. ولأنّها لم

تستطع قتلنا، صارت تسعى بكل ما تملكه من قوّة إلى تزويجنا لمحونا من حياتها إلى الأبد دون أن تضطرّ لقتلنا.

عِشْتُ حياتي وأنا أسعى أن أكون مختلفة عن أمي، أن أعيش حياة غير الحياة التي عاشتها، أن يحملني جسدٌ مختلف عن الجسد الذي حملها. كانت جميلة عكسي تماماً، عاشت حياتها وهي تحاول عبثاً أن تكون نسخة طبق الأصل من أمي. تزوّجت في السابعة عشرة من أوّل رجلٍ يطرق باب بيتنا، وأنجبت أربعة أطفال، وصارت تُمضي حياتها في الطبخ وتغيير الحفّافات وتناول المسمّن والمعجنات والركض مثل كلبة وراء أمي أماً في رضاها. أمّا نُهي، فقد كانت مهووسة بالتجميل وتنفّ الحواجب، وكان لها قلبٌ كالحديد في الوقت نفسه. تركت الدراسة باكراً جداً، وراحت تزيل الشّعْر من عانات النساء والأوساخ العالقة في أظافر أقدامهنّ في صالونات التجميل. ولأنّها تشبه أمي، فإنّ نُهي كانت تعشق، بالإضافة إلى الحديث عن الرجال، التدخّل في حياتي.

لم أتزوّج بصاحب صالون الحلاقة، لكنّ نُهي كرهتني من قلبها كلّها في تلك الفترة. أن تأخذ امرأة من امرأة رجلاً لا يعني فقط أنّ المرأة الأولى فاشلة عاطفياً، بل يعني أنّ هناك مورداً اقتصادياً مهماً قد انتقل من المرأة الأولى إلى المرأة الثانية. تلك الشعور كلّها التي تُشَدُّ في شوارع الأحياء الشعبية ودروبها، السّحل، السّبّ والوعيد، الضرب والجرح أحياناً، قذف السّخر تحت الأبواب، وغرس التعويذات في قطن الوسادات ورميها في البحار، هذا العنف الأنثوي كلّها ليس من أجل الحبّ، ولا من أجل عيون الرجال، بل من أجل العيش. ذات ليلة، اتّهمتني نُهي أنني ارتديت قميصها البنفسجيّ ذي الأزرار البيضاء دون أن أستشيرها. طبعاً، لم يكن القميص سوى ذريعة لكي تعاقبني على إثارتني انتباه صاحب صالون الحلاقة. حين نفيت اقترابي من ملابسها، أمسكتني من شعري، وأترّلت رأسي إلى الأرض في حركة سريعة. وفي غضون ثوانٍ، تحوّل جسدي إلى ممسحة تنظيف. مسحت بي أرضية

الغرفة كلّها، ونظّفت الغَيْرَةَ والغضبَ اللّذَيْن بداخلها، ثمّ قامت، نفّضت ملابسها وخرّجت.

بعد شهرٍ من هذه الحادثة، غادرتُ البيت. وفي هذه الشُّقَّة تحديدًا، بدأتُ حياةً جديدة، بعيداً عن أمِّي وأختي ودرب الكبير. حين أدركتُ أمِّي أنني انتقلتُ للعيش وحدي فعلاً، وأنتي لن أعود، جُنْتُ، وصارت تتصلُّ كلَّ يوم لتسبّني وتصرخ في وجهي. حتّى الرّمن الذي يهدّي أعنف المشاعر، وقانون التعوّد الطّبيعيّ لدى الإنسان، لم ينجحاً في إهمادِ أمِّي. كانت مشتعلّة، حاميةً، حارقةً كزمهرير جهنّم وهي تحاول أن تُجبرني على العودة. لكنّني لم أعد. ومنّ يجرؤ على العودة إلى الحبس بعدما ذاق الحرّيّة؟! ومع ذلك، كنتُ في حاجةٍ إلى كثيرٍ من القوّة، لأنّ الحرّيّة، مثل أيّ شيءٍ جميلٍ في الحياة، لها ثمن.

مَنْ تكون المرأة التي في قلبِ سَعد؟

يومان مرّاً على إرسالي الرسالة لسَعد. خَمَنْتُ أنه لم يردّ، لأنّه ما يزال يحبّ نجوى، وسبّب لي ذلك ألماً فظيماً. ألمٌ لم أستطع إمساكه ولا وصفه ولا حتّى تحديد مكانه في روحي. مزيجٌ من الندم والشعور بالنقص وانعدام الثقة بالنفس والرغبة في تدمير الذات. ثمّة امرأة أخرى أفضل وأهمّ منّي في عالم الرجل الذي يعجبني. كأنّ أحداً دَفَعَنِي من منطقة النشوة والسعادة إلى أكثر مكانٍ مؤلم في العالم: الهامش.

هربتُ إلى الأعمال المنزلية، المتنقّسُ الأهمّ في حياة كثيرٍ من النساء. نفَضْتُ الملاءات والأغطية وحَنَقِي. مسحتُ الغبار وشعوري بأنني مرفوضة. لمَعْتُ زجاج النوافذ وقلبي من الألم. وحين مشيتُ حافيةً فوق أرضية البيت النظيفة ورششتُ رائحة الخزامى في الجوّ، شعرتُ بالسلوان. راحةٌ يعجزُ علم النفس ذاته أن يستوعبها ويفسّرّها.

بمجرّد ما ارتميتُ على كرسيّ في المطبخ، حتّى عاد الألمُ من جديد يتلوّى في رأسي ومعدّتي. أخبرتُ ندى في رسالة صوتية طويلة عن ألمي. سألتُها لماذا لا يحبّني الرجال الذين أحبّهم. قُلْتُ لها إنني أعاني من عُقدة نقص رهيبة، ويلازمني شعورٌ دائمٌ أن الناس الذين أحبّهم يتخلّون عني طول الوقت. كانت نبرة الرّسالة في الثلاث دقائق الأولى هادئةً وحزينة، لكنني سرعان ما تحمّستُ، ووصفتُ سَعداً بالحمّار الغبيّ الذي لا يساوي شيئاً ويعتقد نفسه شيئاً ذي قيمة.

رَحْتُ أَدْعُكَ الْأَوَانِي بَعْفُ وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَى جَوَابِهَا. أُرْسَلْتُ لِي رِسَالَةٌ مِنْ سَبْعِ دَقَائِقٍ لَتَقُولَ لِي بِطَرِيقٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُخْتَلِفَةٍ إِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّنِي وَإِنِّي أَفْضَلُ مِنْهُ. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهَا تَقُولُ ذَلِكَ لِأَنَّهَا صَدِيقَتِي، لَكِنَّ كَلِمَاتِهَا عَرَّتْنِي وَبَرَّدَتْ جَرَحِي. وَفِي لَحْظَةٍ مَا، طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أُنْسَاهُ، لِأَنَّهُ غَالِبًا مَا يَزَالُ مُتَعَلِّقًا بِحَبِيبَتِهِ السَّابِقَةِ. سَمِعْتُ صَوْتَ انْكَسَارِ ظَفَرِي، وَرَأَيْتُ حَمْرَةً فِي الرِّغْوَةِ.

صَوْتُ يَأْتِي وَيَذْهَبُ فِي رَأْسِي مِثْلَ أَزِيْزِ ذَبَابَةٍ، يَسْأَلُنِي مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟

ارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرِيكَةِ فِي الْبَهْوِ، وَمَدَدْتُ قَدَمَيَّ الْمُنْتَفَخَتَيْنِ وَالْمَحْمَرَّتَيْنِ فَوْقَ الطَّاوِلَةِ، ثُمَّ رُحْتُ أَتَرَاوَسُ مَعَ نَدَى، وَأَنَا أَرَأَقِبُ بَيْنَ الْفِينَةِ وَالْأُخْرَى وَوَسْطَايَ الَّتِي انْكَسَرَ ظَفَرُهَا. كَانَتْ تَبْدُو نَاقِصَةً كَأَنسَانٍ بَدُونِ رَأْسٍ. مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟

لَمْ أَسْتَطِعْ إِسْكَاتَ ذَلِكَ الصَّوْتِ. وَبَعْدَ حَوَالِي رُبْعِ سَاعَةٍ، بَعَثْتُ رِسَالَةً أُخْرَى لِسَعْدٍ، اتَّصَلْتُ بِهِ بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً.

- اَعْتَذِرْ جَدًّا، يَا عَزِيزَتِي شَهْرزَادُ! نَسِيتُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رِسَالَتِكَ الْأُولَى. قُلْتُ بِمَرْحٍ:

- أَعْرِفُ. خَمَنْتُ أَنَّكَ قَدْ تَكُونُ مُشْغُولًا، وَلَمْ أَرِدْ إِزْعَاجَكَ. طَلَبْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ. كَانَ صَدَى ضَرِبَاتِ قَلْبِي يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنِي، وَمَعَ ذَلِكَ اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَزُورَنِي فِي الْبَيْتِ.

تَفَقَّدْتُ وَجْهِي عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ فِي الْمَرْأَةِ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ قَرْعَهُ لِلْبَابِ. كَانَ يَرْتَدِي سِتْرَةً خَضْرَاءَ، وَيَحْمِلُ كِتَابًا.

رَحَّبْتُ بِهِ بِأَدَبٍ مُبَالِغٍ فِيهِ، وَصَافَحَنِي بِحَرَارَةٍ، ثُمَّ دَخَلَ. هَمَسْتُ وَأَنَا أُغْلِقُ الْبَابَ:

- هل رآك حارس العمارة؟

التفتُ إليه، وغمَرَنِي شعور غريبٌ بالخوفِ والأمان في الوقتِ نفسه. لم يسبقُ أن كان معي رجلٌ في هذا البيتِ أبداً.

قال بابتسامةٍ مأكرة:

- لا تقلقي، دسستُ في يده عشرين درهماً. لن يتكلّم.

أحسستُ بنفسِي رخيصةً في تلك اللحظة، ثمّ غمرَنِي شعورٌ عميقٌ بالخوف. كيف أدخِلُ رجلاً لا أعرفه إلى بيتي؟

قلْتُ لتلطيف الأجواء:

- قهوة أو شاي؟ على كلّ حال، ليست لديّ سوى القهوة سريعة الذوبان!

ضحك، واطمأنتُ قليلاً حين رأيتُ ابتسامته. عندما عدتُ إلى البهو، كان يتفرّجُ على الكُتُب التي في الخزانة. التقطُ رواية **قواعد العشق الأربعون**، وراح يقلّبُ صفحاتها باهتمام. كان هذا الكتابُ هديّةً من ناجي. تذكّرتُ فرحي مثل مراهقة حين أهداني إيّاه. شعرتُ بالضيق وأنا أفكّر أنه يلزمني الكثير لأنضج. رحتُ أحدثُ سعداً عن جلال الدين الرومي وشمس التبريزي لأريح نفسي.

قال بنبرةٍ معاتبة:

- إنك تحرقين لي أحداث الرواية!

- ألم تقرأها بعد؟

أرجعَ الكتابَ إلى مكانه، والتفتُ إليّ. توجّهتُ إلى النوافذ وأغلقتُ ستائرُها الشفّافة.

- ليس هناك أحدٌ لم يقرأ هذه الرواية، حتّى غير المهتمّين بالأدب!

رمّني بنظرةٍ فارغة.

- لماذا؟

التقت أعيننا. تنفستُ بعمق لأهدئ خفقان قلبي. صعدت الحرارة إلى وجنتي وأذني.

- لأنها تتحدث عن الحب.

ضحك باستهزاء رافعاً حاجبه الأيسر.

- الحب؟!

انكمش قلبي من الخجل، وشعرتُ بالندم لأنني تفوّهت بكلمة حب. عيناه كانتا تخترقاني اختراقاً. لا أعرف لماذا يزداد الرجال جرأة حين تخجل النساء. لم أستطع أن أقول أي شيء.

قال بمرح:

- لا أظنّ أنّ هؤلاء انتبهوا إلى أنّ علاقة الرومي بالتبريزي تُشبه علاقة عاطفية بين مثليين جنسياً!

ارتحتُ قليلاً حين قال ذلك. شربنا القهوة، وتحدثنا عن عائلتي، وأصولنا، وماضي، وذاكرتنا المشتركة كأطفال مغاربة. تذكّرنا ونحن نضحك دموع الناس وخوفهم حين مات الملك الحسن الثاني، والتلفاز بالأبيض والأسود الذي لم تكن فيه سوى قناتين وحيدتين، والهاتف الثابت الذي يُغلق بقفل حديدي حتّى لا يمسه الأطفال، والمقرّرات الدراسية القديمة، وقصص المكتبة الخضراء للأطفال، والعالم بدون هواتف ذكية ولا أنترنت.

حكى لي عن ولّعه بالكتابة والحكايات منذ كان صغيراً، وعن هجرة جدّ والده من مدينة الحُسيمة إلى الجزائر مشياً على الأقدام، تاركاً زوجته وأولاده وراءه، ثمّ عودته إلى المغرب في الثمانينيات بعد أربعين عاماً من الاختفاء. لمستُ يدي يده حين أراني صورته على الهاتف، وأحسستُ بنفسه الدافئ

في عُنقي وهو يقول إن الماضي يسحره، وإنه طالما رغب في كتابة قصة
جده وعائلته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- ماذا عن جدّتك؟

نظر إليّ بدهشة:

- ما بها جدّتي؟

- ما الذي حصل معها حين تركها جدّك؟ ماذا فعلت؟ كيف كانت
حياتها؟

هرّكتفّيه:

- لا شيء. ظلّت تعيش فقط حتى ماتت.

أعددتُ قهوةً أخرى، ورويتُ له بالتفصيل قصة وفاة والدي في حادث
سيّارة فظيع، وكيف تغيّرت حياتنا من بعده. كان ينظرُ إليّ عينيّ بإعجاب،
لكنّه لم يكن مركزاً على كلامي، ولم يسمَعْ نصفَ ما قلّته. أنا أيضاً، انفلتُ
منيّ في لحظة ما، خيطُ الحكي، وسكتُ. ظللنا صامتين، كأننا اتّفقنا على
ذلك، وأخذَ كلّ منّا ينظرُ إلى الآخر كأنّما يسبر أغواره عبر عينيّه. قبلتُ
شفتيّ في رأسي.

- إذاً، كيف وجدتِ قواعدَ العشق الأربعون؟

هزرتُ كتفّي وقلّتُ بمرح:

- لا أعرف. اقرّأها!

أرسلَ زفرةً طويلة، وقال:

- لا أحبّ الروايات التجارية!

سكتنا مرّةً أخرى. سمعتُ أزيز تلك الذبابة التي في رأسي: مَنْ تكون
تلك المرأة التي أحبّها؟

أَمَسَكْتُ نَفْسِي لئَلَّا أَسْأَلَهُ. لَكِنَّ الْكَلِمَات خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيَّ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ:

- هَلْ سَبَقَ وَعَشَقْتَ مِنْ قَبْلُ؟

تَخَيَّلْتُهُ سَيَقُولُ لِي إِنَّ هَذَا أَغْبَى سُؤَالَ سَمِعَهُ فِي حَيَاتِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَكِنَّهُ قَالَ:

- مَرَّاتٍ كَثِيرَةً.

قُلْتُ بِسَخَرِيَّةٍ:

- لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَحِبُّ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِهِ.

- هَذَا هُرَاءُ!

ضَحَكْتُ بِنَشْوَةٍ. قَالَ:

- لَكِنَّ قِصَصَ الْعَشْقِ الْمَدْمُورَةِ نَادِرَةٌ طَبْعاً.

حَدِّقْتُ فِيهِ. وَضَحَّ:

- عِلَاقَاتِي كُلُّهَا تَرَاوَحَتْ مُدَّهَا بَيْنَ شَهْرٍ وَشَهْرَيْنِ، إِلَّا وَاحِدَةً اسْتَمَرَّتْ نَحْوَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ.

سَرَى الْفَضُولَ فِي دَمِي مِثْلَ مَخْذَرٍ.

- عَشْرِ سِنَوَاتٍ! لِمَاذَا انْفَصَلْتُمَا؟

هَرَّكَتَفِيهِ وَقَالَ:

- لَمْ تَتَّفَقْ، فَذَهَبَ كُلُّ مَنَا فِي حَالٍ سَبِيلِهِ.

اعْتَدَلْتُ فِي جِلْسَتِي. كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَعِدَّ قَهْوَةً أُخْرَى، لَكِنِّي لَمْ أُسْتَطِعِ النَّهْوِضَ.

- مَنْ تَرَكَ الْآخِرَ، أَنْتَ أَمْ هِيَ؟

أشعرني بنظرةٍ منه أنني فضولية جداً وأتدخل في ما لا يعنيني. شعرتُ أنني واحدةٌ من نساءِ درب الكبير اللواتي يُطلَلْنَ من النوافذ والأسطح ليعرفنَ ماذا يحصل في حيوات الآخرين. كنتُ واحدةً من نساءِ درب الكبير فعلاً.
قال:

- مثل أيّ شريكَيْنِ ناضجين، جلسنا وتحدّثنا في الموضوع وقرّرنا معاً. كان واضحاً أنه متضايقٌ من الحديث في الموضوع، لكنّه كان يبذلُ جهداً جبّاراً، ليتظاهر بالعكس. نزلت قطرةٌ عَرَقٍ من أعلى جبينه، واختفتْ داخل حاجبه الكثيف.

- أعني مَنْ منكمما طلبَ أن تجلسا وتكلّما في الموضوع؟
حدّق فيّ باستنكار.
وضّحتُ:

- لا بدّ أن أحدكُما طلبَ ذلك. أعني، لا يمكنكما أن تطلبا الانفصال في الوقتِ نفسه ...

حدّق فيّ بنظرةٍ «ما هذا الخِراء؟!»، لكنّه لم يشأ أن يُظهر نفسه ضعيفاً ومتأثراً بالقصةِ إلى تلك الدرجة التي يرفض فيها الإجابة عن أسئلتي.

- اسمعي، كان يحبّ أحدنا الآخر، وعشنا لحظاتٍ جميلة جداً، لكنّ، في السنتينِ الأخيرتين، بدا أنّ أحدنا لم يعد يطيق الآخر. هي من ذلك النوع من النساء اللواتي يُحببنَ أن يفعلنَ ما تمليه عليه رؤوسهنّ، وأنا يصعبُ عليّ التعايش مع هذا النوع. جلسنا وتحدّثنا عن هذا، وتوصّلنا إلى قرار الانفصال. أعني هي أيضاً لم تكن سعيدة.

- ماذا تقصد بالنساء اللواتي يفعلنَ ما تمليه عليه رؤوسهنّ؟
كانت عيناه مفتوحتين على آخرهما. فمهُ أيضاً كان مفتوحاً قليلاً، وشفته جافّتين.

- ماذا؟

كرّرتُ:

- قلتُ إنَّكَ لا تحبُّ النساء اللواتي يفعلنَ ما تُمليه عليه رؤوسهنَّ ...

رمّني هذه المرأة بنظرةٍ «لا تتدخّلي في ما لا يعينكِ»، أو بصورةٍ مغربيةٍ أجمل «ادخلي سوق رأسكِ». في طفولتي، تخيلتُ أن كلّ واحدٍ منّا لديه سوقٌ في رأسه، له الحقُّ في التجوّل فيه والتسوّق منه، ولا ينبغي فعلُ ذلك أبداً في الأسواق الموجودة في رؤوس الآخرين. ومع ذلك، كان المغاربة الذين اخترعوا هذه المقولة، أكثر شعبٍ يعشق الدخولَ في أسواق رؤوس الآخرين. كنتُ مغربية، وكنتُ قادمةً من درب الكبير، وكان عليّ أن أدخل سوقَ رأسي.

- لا تُسيئي فهمي، أنا أحبُّ النساء الحُرّات والقويات، لكنّ، هي كانت تتصرّف بطريقةٍ غير مقبولة.

- كيف؟

مسح جبينه المتعرّق بساعده.

- كانت مثلاً ترتدي ملابس قصيرةٍ وضيقةٍ جداً، وتجعل كلّ مَنْ في الشارع يتحرّشون بها. لم تكن تحترم وجودي، وكانت تضعني في مواقف سيئة جداً. هل هذا مقبول؟

ينبغي أن أوضح أنني لم أكن متفحّقة مع ما قاله سعد أبداً. إذ بالنسبة إليّ، من حقوق النساء الأساسية أن يرتدين ما شئن، ويمشين في الشوارع دون أن يتعرّضنَ للتحرش أو المضايقة، ولا يحقّ للرجال أبداً التحكّم فيهنَّ أو التدخّل في أجسادهنَّ ولباسهنَّ أو اتّهامهنَّ بكونهنَّ مسؤولات عن التحرش الذي يتعرّضنَ له.

لكنني أردتُ أن أبدو له مختلفَةً عن تلك المرأة الأخرى، أن أكونَ في عينيهِ أفضلَ منها. فتحتُ عينيّ متظاهرةً بالصدمة والاستغراب والاستنكار، وقُلْتُ:
- هذا غير مقبولٍ أبداً! أعني لو كنّا في أوروبا، كنتُ سأدافعُ عن حرّيتها في ارتداء ما شاءت، لكننا في المغرب ... أنا لا أجرؤُ حتّى على ارتداء بنطال جينز ضيّق حين أخرج إلى الشارع ...

بمجرّد ما أنهيتُ جملتي، شعرتُ بشيءٍ في صدري يشبه حموضة المَعِدَة. أمّا هو، فقد أراحَه كلامي. اتّكأ على مَسندِ الأريكة، ووضع رِجلاً على رِجل، وواصل:

- صحيح! هذا ما كنتُ أودّ قوله بالضبط. أنا لستُ ضدّ حرّية المرأة، لكن، هي كانت تُبالغ كثيراً.

عَفْتُ نفسي، لكنني واصلتُ الاستماع إليه في تواطؤٍ مُخزٍ.

- حين كنتُ أطلب منها أن ترتدي ملابسَ مستورةً أكثر، أو أقول لها إنني أغار، كانت تصرخ في وجهي، بل إنها أحياناً، كانت تنعتني بالمریض وتخرج من البيت. كانت أنانيةً جدّاً.

تظاهرتُ بالتأثّر والتعاطف.

- مجنونة! ولماذا بقيتَ معها؟

أراح سَعَد رأسه على مَسندِ الأريكة، ووضع يديهِ على بطنه، وقال:

- لم أكن أريدُ أن أتركها بعد عشر سنواتٍ من العلاقة. تعرفين، يا شهرزاد، أنّ هناك كثيراً من الرجال الذين يتركون حبيباتهم بعد سنواتٍ طويلة، ويتزوّجون بأخريات. أنا لستُ هكذا أبداً. كنتُ وفياً جدّاً. كنتُ رجلاً حقيقياً معها.

لم أصدّقه. كان هناك شيءٌ فيه جعلني غير قادرةٍ على تصديقه. أصدر تنهيدةً طويلةً من الأعماق، كأنه يودّ اقتلاع تلك المرأة وإخراجها من عقله.

كانت ما تزال ساكنة في رأسه. صورتها معلقة بين عينيه. عرفت ذلك، لأنه لم يكن ينظر إليّ وهو يتكلم، بل كان ينظر إليها هي، في رأسه. تمنيت لو أستطيع أن أفتح دماغه وأسحب صورتها وأتعرّف إلى وجهها.

- ألهذه الدرجة كنت تحبها؟

نظر إليّ بدهشة، وقال بسرعة:

- كنت أحبها، لكنني نسيته الآن.

لم أصدّقه أيضاً. أردتُ التوقّف عن الحديث في ذلك الموضوع، لأنه سبّب لي انزعاجاً لم أعرف تحديده مكانه في خارطة المشاعر، أهو غيرة أو خيبة أو حسد أو حزن. خرج سؤال آخر من فمي رغماً عني:

- ألم تعرف نساء أخريات من بعدها؟

رمقني بنظرة من يعرف أنني لم أصدّقه. ومع ذلك، ابتسم وهو يقول بتباه:

- عرفت طبعاً نساءً كثيرات، لكنّها كانت مجرد علاقات عابرة.

- هل لأنك كنت ما تزال تحبها؟

رفع رأسه من الأريكة. ارتشف من قهوته الباردة، وقال:

- لم يكن يعرف ماذا يُردن. لم يكن جيّدات كفاية، لكي أبقى معهنّ.

حدّقت فيه بدهشة.

شرح:

- مثلاً، لم يكن مثقّفات ولا قارئات للكتب، ولا حتّى مهمّات بالأدب.

شعرتُ بسعادة لا مثيل لها، لدرجة أردتُ النهوض والرقص.

- هل تريد أن أعدّ لك قهوة أخرى؟

أمسكني من يدي، وأجلسني على الأريكة من جديد.

قال وهو ينظرُ مباشرةً إلى عينيّ:

- لم يَكُنْ جميلاتٍ مثلكِ، ولم تَكُنْ لديهنَّ عيونٌ مثل عيون الغزال كهاتين العينين ...

شعرتُ بالحرّ، لكنني لم أقُل شيئاً ولم أفعل شيئاً. امتدّت يده بعفويةٍ إلى وجهي. سرّت في جسدي قشعريرةٌ وهو يداعبُ خدي بحنان. قرّب وجهه إلى وجهي، وأمسكْتُ يده يدي، وتشابكت أصابعنا، ثمّ قبّلني قبلةً طويلةً ومحمومة. سمعتُ نبضَ قلب، ولم أدرِ أهو نبضه أم نبضي. عندما أبعدَ شفّتيه عن شفّتي، مرّت نجوى في خاطري بدون وجه ولا ملامح. أردتُ أن أسأله مَنْ تكون، وماذا كانت تفعل، وهل كانت هي أيضاً كاتبة. أردتُ أن أطلبَ منه أن يُريني صورتها، لكنّ الخجلَ والكبرياءَ سيطرا عليّ.

حين نهض، رفعتُ رأسي نحوهً وابتسمتُ. طلبتُ منه بخجل أن يبقى قليلاً، لكنّه قال إنّهُ مضطّرٌّ للذهاب الآن، ولم يقلّ السّبب. تخيلتُ أنه قد تذكّرها بالأم، أنّه ندِمَ لأنّه قبّلني، أنّه لا يريد أن يخونها أكثر من ذلك. نهضتُ أيضاً، وتوجّهنا بصمتٍ نحو الباب.

- هل أراك غداً؟

أومأتُ مبتسمةً في استحياء. انحنى بقامته الطويلة نحو وجهي، وأمسك رأسي بين كفّيه هذه المرّة، وقبّلني بلا أيّ تردد.

لم أستطع أن أنام تلك الليلة. بعثت رسالة صوتية طويلة لندی، أحكي لها كل ما جرى مع سعد بالتفصيل. كنتُ أحبُّ التواصل عبر الرسائل الصوتية، لأنها تشبه الحديث إلى النفس، ولأنها تسمح لي بقول كل ما أريد بدون أن يقاطعني أحد.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بخمسٍ وثلاثين دقيقة، وكان مخطوط ترجمة البحث عن الزمن الضائع نائماً فوق بطني. أدركتُ أنني قضيتُ قرابة ساعتين، أحاول القراءة دون أن أستوعب كلمة واحدة. كان ذهني مشوّشاً، ومعدتي تموج بالقلق. لم تقرأ ندى رسالتي. شعرتُ بالوحدة كثيراً. طالما شعرتُ بالوحدة كثيراً.

وضعتُ المخطوط على السرير بجانبني، وأطفأتُ النور. وحين وضعتُ رأسي على المخدة، شعرتُ أنني أريد أن أعانق أحداً، أو بالأصح أن يعانقني أحد. فتحتُ هاتفي وكتبتُ على الفيسبوك: «الوحدة هي أن تظلّ عيوننا مفتوحة في الليل بعد أن تطفأ الأضواء كلها». راودني إحساسٌ غريب أنني عشتُ هذه اللحظة من قبل، أقصد اللحظة نفسها، وليس شعوراً مشابهاً عشتُ في لحظة سابقة. عانقتُ مخدةً، ورُحتُ أتخيل نفسي مع سعد.

كانت الخيالات كلها أحاديث، أحاديث عن مواضيع مختلفة. كان الكلام يتردد في رأسي كما لو أنه لم يكن خيالاً، بل كأنه ذكرياتٌ حقيقية من زمنٍ مضى، مثل ترددٍ كلامٍ قیل من قبل، في مكانٍ لم نعد نتذكره بالضبط، منذ زمنٍ بعيد. أصواتٌ متقطعة، جملٌ غير مكتملة، صورٌ غير مرتّبة، مشاهدٌ

متحرّكة وأخرى ثابتة. أحياناً لم أكن أرى سوى سَعد، واقفاً بلا حَرَاكٍ ينظرُ إليّ. أحياناً لم أكن أرى أيّ شيء، بل أشمّ فقط الرائحة القوية لمزيلِ العَرَق الذي يضعه. أحياناً أرى خُصلات شَعْره المَجْعَد فقط، تلتَمِع تحت ضوئِ ما، ولا أقرّر من أين يأتي ذلك الضوء. أحياناً لم أكن أسمع سوى صوته يكَلِّمني، لكنّ، بدون صورة. يقول لي مثلاً إنه يعشقني، أو إنه يرغبُ في أن يظلّ معي إلى الأبد. كانت فكرةُ أن أظلّ مع شخصٍ ما إلى الأبد تُرعبني، لكنني كنتُ أحلمُ بذلك كثيراً. أحياناً أراه جالساً معي، على الأريكةِ هنا في البيت، يقلّبُ كتاباً في يده، بينما أستطيعُ سماعِ الصوتِ الذي يتردّد في رأسه، وقراءة الأفكار التي تدور فيه. أحياناً، أدخلُ إلى رأسه، وأمشي هناك، كأنني أمشي في غابةٍ مظلمة وموحِشة. أتوقّف عند غرفةٍ من عُرفِ دماغه، ثم أُعلّق على بابها أجمل صورةٍ لي، وأُغادر رأسه.

طالما أصابني الأرق، وطالما أتنّني صورٌ متقطّعةٌ من حياتي الماضية والحاضرة. كلّما أغمضتُ عينيّ في الليل، كان خيالي يتعثّرُ بوجه أمي وهي ما تزال في ريعان شبابها، مغطّيةً رأسها، وقد تدلّت شعيراتُ رطبّةٍ من طرحتها البيضاء. ارتدت دائماً طرْحاً بيضاء مثل الأرامل، ولم تكن قد ترَمَلت بعد. وتصرّفت دائماً كما لو كانت في الستّين، لدرجةٍ يصعبُ عليّ، وأنا أتذكّرها، أن أصدّق أنّها كانت في الثلاثين. ثمّة نمطٌ لدى النساء اللواتي أعرفهنّ، وهو أنهنّ يكفُفنَ على أن يكنّ نساءً بمجرد ما يتحوّلنَ إلى أمّهات. أحياناً أخرى، كان خيالي يتعثّرُ بوجه أبي الذي بلا ملامح. لا أعرف ما الذي يحدث في أدمغتنا حتّى ننسى ملامح أحبّ الأشخاص إلى قلوبنا حين يموتون. أحياناً، كنتُ أسمعُ صراخ نهى الهستيري بدون أيّ سبب عندما كانت طفلة. أحياناً، كنتُ أرى أختي جميلة تمشي، بينما تتحرّكُ مؤخّرتها الضخمةُ يميناً وشمالاً وتهترّ مثل قطعة جيلاتين. أحياناً، كنتُ أسمعُ همهماتِ النساء في درب الكبير وأرى نظراتهنّ المريبة والأوانَ جلابيهنّ وطرحاتِ رؤوسهنّ ونعالهنّ المغبرة. أحياناً، كنتُ أرى جدّتي لأمي تضفر شَعري بيديها الموشومتين وهي تغني

لي أهازيج أمازيغية. لم أكن أفهم ما كانت تغني، لكنه كان يتّجه مباشرة إلى قلبي. أحياناً، كانت تعود لي هذه الأهازيج وتُرَكَّبُ على صورٍ أخرى من حياتي، مثل يوم تخرّجني أو لحظات الكتابة، فلا أعود في حاجةٍ إلى فهمها، لأنني أشعر أنني أُنتمي إليها.

غفوتُ لثلاث دقائق، ثم استيقظتُ من جديد. وضعتُ المخدّة بين فخذي وضغطتُ عليها، ثم أغمضتُ عينيّ مرّةً أخرى. وحين أدركتُ أنّ ما أصابني هو الخوف من الوقوع في الحبّ، رحّتُ أتذكّر الرجال كلّهم الذين أحببتُهم سابقاً. تمرّينُ تعودتُ على القيام به في كلّ مرّة أشعر بالضعف، لأذكّر نفسي بأنّ كلّ شيءٍ ينتهي مع الوقت، حتّى أكثر المشاعر قوّة وعظمتاً، ولأستحضر الأشياء التي تعلّمتُها من كلّ تجربةٍ حبّ مضت.

كنتُ في الثالثة عشرة حين أحببتُ أوّل مرّة. كان اسمه يوسف، وكان يدرسُ معي في الصفّ نفسه. كنتُ أهيّم حبّاً فيه، وأجده أجملَ رجلٍ في العالم. كنتُ بالفعل أراه رجلاً كاملاً الرجولة، بالرغم من أنّ نموّ شاربه لم يكن قد اكتمل بعد. كانت تنبعثُ منه رائحةٌ غريبة تشبه رائحة خروفٍ مغسولٍ بالشامبو، ولم يكن يعرف كيف يكتبُ جملةً صحيحةً باللغة العربية، ولم يكن يهتمّ لوجودي، بل لم يكن يُدركه حتّى. أقفُ مشدوهةً لوقتٍ طويل حين أتذكّر أنني كنتُ أتعمدُ المرور أمامه داخل الفصل، لكي ينتبه لوجودي. ويأتيني الشللُ حين أتذكّر الليالي كلّها التي حلّمتُ فيها بأن أتزوّجه في يومٍ من الأيام.

أحببتُ مرّةً أخرى في الخامسة عشرة، لكنني نسيتُ اسمه الآن. كلّ ما أتذكّره أنّه كان ابن جارتنا نفيسة المعروفة بصدرها الكبير جدّاً، وأنه كان يكبرني بعشر سنوات، وأنه كان يعملُ مساعداً لنجارٍ معروفٍ في حيّنا، وأنه كان يعملُ في المكان نفسه مع فتى غبيّ اسمه فكري كان يهيّم حبّاً فيّ. كان قلبي يتداعى حين أراه. لم يكن لهذا الشابّ أيّ تأثيرٍ في حياتي، كأنّه أتى فقط كي يُنسيّني يوسف، أو بالأحرى كي يجعلني أشمّ رائحته الحقيقية.

في السادسة عشرة، عشتُ أوّل علاقة حبّ، لكنّ، بدون لمسٍ أو قُبْل. كنّا فقط نتصافح وتبادل النظرات ونقِفُ معاً قربَ بابِ الثانوية. أحياناً، كان يُلقِي عليّ مسمعي قصائد نزار قبّاني التي حفظها عن ظهر قلب، وينظر إليّ بعينيهِ الخضراوين البرّاقَتَيْن، فأشعر أنّهُ سيُغمي عليّ. كنتُ أحبّ خطّه الجميل وكونه ولداً مؤدّباً ومحترماً. بكينا كثيراً وهو يودّعني قبل أن يغادر الدار البيضاء لاستكمال دراسته الجامعية في فرنسا. حين عادَ لقضاء عطلة الصيفية في المغرب، التقينا في مقهى، وتحدّثنا بمحبّة أخوية خالصة. تعلّمتُ من هذه العلاقة أنّ الحبّ يمكنه أن يستحيل عدماً بين ليلة وضحاها، لكنّه لا يتحوّل بالضرورة إلى كُره. حين بلغتُ الثامنة عشرة وانتقلتُ إلى الجامعة، تعرّفتُ إلى وائل. أحبّني من قلبه كلّهُ، ولم أبادلَه قطرة حبٍّ واحدة من بحر الحبّ الذي أغرقني فيه، بل قابلتُ عشقه بجفافٍ وأناية. كان يدرسُ الأدبَ الفرنسي ويقضي وقته في القراءة وكتابة شعري رديء. كان نظيفاً ومؤدّباً وخجولاً، ويضع نظّارة طبّية، وأخبرني أنّه لم يستمنّ في حياته مطلقاً. في تلك الفترة، كنتُ قد اكتشفتُ سيمون دي بوفوار حديثاً، وقرأتُ كتابها **مذكَرات فتاة رصينة**، وكنتُ أتوقُّ إلى التمرد على قوالب المجتمع وعيش حياتي بحريّة. لذلك، قبلتُ الخروجَ مع وائل، وسمحتُ له بتقبيلي، بينما في أعماق قلبي، كان يثيرني الشابُّ العابثون المتمردون، وأولئك الذين لا يكتفون لي أيّ مشاعر. ذات يومٍ ماطر، دعاني وائل للغداء في مطعمٍ رخيصٍ للطّلبة. طلبَ سندويشاً بالمرتديلا والبيض المسلوق، وجلسَ أمامي. ما زلتُ أذكر الطاولات البلاستيكية الحمراء الباهتة، ورائحة المرتديلا والبيض المنتشرة في كلّ مكان. كنتُ أعاني من مغصٍ في معدتي ولم أستطع أن أكل. حدّق فيّ بحبٍّ من وراء زجاج نظّارته الدائري، ثمّ امتدّت يده المرتجفةُ ببطء نحو يدي، وقال وهو يبتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء المرتبة:

- أريد أن أتزوَّجكِ، يا شهرزاد، أنتِ المرأةُ التي أريد أن أعيشَ معها ما تبقى من حياتي.

شعرتُ بالرُّعب، وأبعدتُ يدي في قَرَفٍ، ثمَّ صحتُ في وجهه أن آخر شيء يمكن أن أفكر فيه هو الزواج. وفي لحظةٍ واحدة، شُحِبَ وجهه وجفَّتْ شفَتاه واختفت ابتسامته، ثمَّ قال بشفتين مرتجفتين وعينين مملوءتين بالأمل:

- يمكنني أن أخطبكِ من والديكِ فقط الآن، ونستطيع أن نتزوَّج بعد أن نتخرَّج، وأحصل على عمل مناسب.
قُلْتُ بِحِدَّة:

- تحدَّثْ كأني وافقتُ على العرض أساساً! أنا أصلاً ضدَّ مؤسَّسة الزواج، ولن أتزوَّج أبداً.

نهضتُ دون أن أنظر إليه، وغادرتُ المكان. في طريقي إلى البيت، كانت رائحةُ البيض المسلوق والمرتديلاً ما تزال في أنفي. وحين كنتُ أدخلُ المفتاح في الباب، تقيَّأتُ دون سابق إنذار. اكتشفتُ مع وائل أنني امرأةٌ يستحيل وضعي في قالبٍ جاهز.

في الحادية والعشرين، أحبيتُ جهاداً، وظننتُ واهمةً أنه أحبَّني. قال إنَّه يعشقني، لأنني متمرِّدةٌ ومتحرِّرةٌ، ولستُ مثل البناتِ الأخريات. لم يشرح ما الذي يقصده بذلك بالضبط، لكنني كنتُ سعيدةً وأنا أستمع إلى كلماته، شاعرةً أنني فعلاً مختلفة. كابوس الإنسان هو أن يُشبه الآخرين، وجهاد عرَّف كيف يستغلَّ ذلكَ معي جيِّداً. كنتُ حين أخرجُ معه، أحسَّ أنني في عالمٍ آخر. يحدثُّني عن الأدب والفلسفة والسياسة، عن الماركسية والأناركية والنضال، عن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي، عن الثورات وعن تحرُّر الشعوب من القهر والاضطهاد، ثمَّ يقول لي إنَّ امرأةً رائعةً مثلي لا ينبغي أن تعيشَ في مجتمعٍ مريضٍ كهذا. كنتُ معه أنسى أمي وقسوتها

وصراخها وكرهها لي. أنسى موت أبي، وأنسى أختي ودرب الكبير. كان جهاد حينها في السابعة والعشرين، وكان يقضي وقته في المقاهي والبارات، ويدّعي أنه حاصل على الماستر في العلوم السياسية، وأنه قارئ نهم للكُتُب. وحين كنتُ أسأله لماذا لم يحصل على عمل؟ كان يقول لي إنه نَذَر حياته لتنظيف المغرب من الفاسدين. كم كنتُ غبية! سبق وشممتُ رائحة كريهة تنبعثُ من حذائه الرياضي، لكنني أقنعتُ نفسي أنها لا تنبعثُ منه هو، بل من شخصٍ آخر. وسبق وجاء إلى أحد مواعيدنا الغرامية بأسنان ملوّنة بالكرّم ومملوءة ببقايا الطعام. غضضتُ الطرفَ عن ذلك كلّهُ، وأقنعتُ نفسي أن اهتمامه بأشياء أعمق جعله ينسى نفسه ومظهره. الناس لا يصبحون عمياناً فقط حين يقعون في الحبّ، بل يفقدون حواسّهم وقدراتهم العقلية وذكاءهم واحترامهم لأنفسهم أيضاً. ذات يوم، دعاني إلى بيت أحد أصدقائه. قال لي إنه يريد أن يشرح لي وجهة نظره في نظرية التطوّر بعيداً عن الضجيج. توجّهتُ إلى هناك بفَرَح. وحين صرنا وحدنا في الغرفة، لم يمهّلني دقيقة واحدة، وراح يقبلني بفمه الكريه رغماً عني. هربتُ من تلك الغرفة الطلّابية المتسخة وعُدتُ إلى حزن بيتنا ووحديتي. مع جهاد، تعرّفتُ إلى طبقة جديدة من الرجال، أولئك الذين يتخذون من النضال طريقاً لمضاجعة النساء بسهولة، وتعلّمتُ أن من لم ينظّف حتّى جواربه لا يستطيع أن ينظّف البلد من الفاسدين.

عندما دخلتُ للدراسة بسلك الماستر، وقعتُ في حبّ أنس. كان صحافياً في جريدة إلكترونية، وكان يكبرني باثني عشر عاماً. أكثرُ ما أحببتُ فيه هو صدقه، واتّزانه، وكونه شخصاً غير مدّعٍ في زمنٍ كثر فيه المدّعون. كان يقرأ قصائدي ويشجّعني باستمرار على الكتابة. كان يؤمن بي، ويحترمني. الشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو شكله، فقد كان سميناً قليلاً، وكان حوضه مستديراً، وكانت مؤخرته أكبر من مؤخّرتي. لكنني، مع ذلك، أحببته. بل إنني كنتُ أنظر إلى وجهه وعينيّه العسلّيتين

الشفيفَتَيْنِ، أنسى العالم وأنسى حتّى مؤخّرتَه الكبيرة. حين عرفت أمّي أنني أصحابه، نعتّني بالغبية والحِمارَة، ثمّ أمسكتني من شَعْري وأوقعني ومسحت بي الأرض. مِن فرطِ ما كانت أمّي تقوم بهذه الحركة، صارت خبيرةً، لدرجةٍ يستحيل مقاومتُها. بعدما انتهت، رفّعت طرفَ فستانِها الطويل، ومسحت به العرقَ عن جبهتها، ثمّ قالت:

- هذا الرجل لا يحبّك، يا حمارة، لأنّ مَنْ يحبّ امرأةً لا يجلسُ معها في المقاهي ولا يتجوّل معها في الشوارع، بل يجعلُها زوجته وأمّ أولادِه. إذا أرادك فعلاً، فهو يعرف بابَ بيتكم.

غمرني شعورٌ ثقيلٌ بأنني مخدوعة. بسلاسةٍ تامّة، رميتُ نسويّتي وتحرّري ومواقفي وسيمون دو بوفوار في سلّة القمامة، واختلقتُ مشكلةً تافهةً مع أنس، ثمّ بعثتُ له رسالةً كتبتُ فيها: «أنت لا تحبّني، لأنّ مَنْ يحبّ امرأةً لا يجلس معها في المقاهي، بل يتزوّجها. إذا كنتَ تريدني فعلاً، فأنتَ تعرفُ بابَ بيتنا». لم أستعملِ كلماتِ أمّي فقط، بل كنتُ مقتنعةً بكلامِها. في داخل كلّ امرأةٍ جزءٌ مظلمٌ تعشّشُ فيه أمّها مثل وحشٍ صغير، وقد تخرّجُ في أيّ لحظة، وكانت أمّي تسكن جزءاً كبيراً من داخلي.

بقيتُ عازبةً لسنتين تقريباً. وحين بلغتُ الخامسة والعشرين أحببتُ أيّوب، وعِشتُ أجملَ علاقةٍ عاطفية في حياتي. سافرنا معاً إلى مُدُنٍ أخرى، وقضيتُ الليلَ معه، ومشينا مسافاتٍ طويلة تحت المطر، وقرأتُ عليّ شِعراً وأنا نائمة على صدره، وجَلَبَ لي قارورةَ عطرٍ كهديّة. كنتُ أستحقُّ أن أدخلَ إلى موسوعة غينيس للأرقام القياسية بسبب عدد المرات التي كذبتُ فيها على أمّي في تلك الفترة. لكنّها كانت الفترة السعدى في حياتي. كنتُ قد حصلتُ للتوّ على عملي في دار الإبداع للنشر، وكنتُ حرّة كورقة شجرة تذرّوها الرياح، حتّى إنّ بشرتي لم يسبق لها أن كانت صافيةً مثلما كانت في ذلك الوقت. ذهبَتِ البثور والرؤوس السوداء والخوف، وصرتُ أمشي في الشارع مرفوعة الرأس كمنْ حقّق إنجازاً عظيماً. لم يسبق أن

شعرتُ بأنوثتي كما شعرتُ بها في ذلك الصباح الذي تلى ليلةً تخلّصي من بكارتي. لم أشعُر بالخوفِ كما كنتُ أتوقّع، ولا بالألم الذي تحدّثُ عنه النساء في مجالسهنّ الحميمية. بل إنني مشيتُ كثيراً في شوارع المدينة يومها وأنا أفكّر في الحبّ والشّعْر والجمال وتحرّر النساء. أمّا المرأة التي تشبه أمّي، فلم تجرؤ على الخروج أمام قوّتي وثقتي بنفسي. تخلّصتُ من عبءٍ ثقيل، مثل التخلّص من الخجل والذنب والندم.

أحبّتي أيّوب كثيراً، ولم يحاول أن يحدّثني عن تحرّر النساء ليضاجعني. كان واضحاً مع نفسه، غير مراوغ. لم يتحدّث عن النسوية أبداً، ولا عن الماركسية، ولا عن الأناركية، بل لم يَكُن يعرف هذه المصطلحات من الأساس. في يوليو من العام 2014، كان ذاهباً لزيارة عائلته في مدينة أزيّلال. تعانقنا قرب مسجد الحسن الثاني، ونظرنا طويلاً إلى البحر، ثمّ توادّعنا. في اليوم التالي، عرّفتُ من الفيسبوك أن الحافلة التي كان فيها تعرّضت لحادثٍ وانزلّقت عن الطريق مخلّفة خسائر بشرية فادحة.

مات أيّوب وهو ما يزال شاباً في ربيع العمر. انفصلنا دون أن يرغب أحداً في ذلك، وظننتُ من الألم أنني لن أكون قادرةً على نسيانه. لكنّ الزمن كان يمضي تاركاً الذكرى وراءه مثل بيتٍ عزيز، لكنّه بعيد، تتعلّم مع الوقت كيف نعيش بدونه. ومثل أيّ جرحٍ آخر، التأم جرح فراق أيّوب شيئاً فشيئاً، واختفت الآلام والكوابيس والذكريات. ظلّت هناك ندبةٌ صغيرةٌ في مكانٍ ما من روحي، لتذكّرني، كما الندوب كلّها فينا، ما تعلّمته من الألم.

لكنّ الإنسان يمضي دائماً إلى الأمام. ومهما حاول أن يكون مخلصاً للآخرين، يفسلُ في الأخير، لأنّ الإخلاص الطبيعي الوحيد الموجود بداخله هو إخلاصه لنفسه. مضيتُ قدماً إذاً، وأحببتُ مرّةً أخرى. تعلّقتُ بناجي الذي كان وقتها مرتبطاً بفتاةٍ أخرى. انتظرتُ بصبرٍ انفصالهما كما تنتظر امرأةٌ ضعيفةٌ خروج زوجها المحكوم بالمؤبد من السجن. لم أكن أعرف لماذا كنتُ أعرض نفسي دائماً لمواقف كهذه، وكان عليّ أن أعيش هذه التجربة

لأعرف ما هو الشيء غير السوي بداخلي الذي جعلني أحب شخصاً مرتبطاً بشخص آخر، وأتفرّج بصبر على حياته العاطفية، بل وأرقص في عرسه وأحضر عقيقة طفله، وأستمع إلى مشكلاته مع زوجته، في انتظار انفصاله!

انفصل ناجي فعلاً عن زوجته، لكن، حين حدث ذلك، كان قد تحوّل في عينيّ إلى رجلٍ تافه جدّاً، مثلما صار الرجال الآخرون كلّهم الذي أحببتهم في الماضي سخيّين وعاديّين. أدركتُ لاحقاً أنني لم أحبّ ناجي لذاته، بل لاتتمائه إلى عائلة ظننتها مناضلةً ومختلفة. كنتُ أحلم أن تكون لديّ حماة تقرأ الفكر والأدب ولا تدسّ تعويذاتِ السّحر في المخدّات وخرق الحियض مثل حماة أختي جميلة.

أحببتُ هؤلاء الرجال كلّهم، وأردتهم من قلبي كلّهم، مثلما أريدُ سعداً الآن، بالشوق نفسه، واللهفة نفسها. الفرقُ الوحيد أنني في تجاربي الأولى، كنتُ أظنّ أنني سأموتُ بدون الرجل الذي أحبّ، أمّا الآن، فأعرفُ أن هذا كلّهُ سينتهي، وأنني سأستمرّ في الوقوع في الحبّ ما دام فيّ نفس. لذلك، لم أكن قلقاً من الحبّ نفسه، ولم أكن مضطرباً، لأنني معجبةٌ بسعد، بل لأنّ الحبيباتِ السابقات للرجال كلّهم الذين عرفتهم لم يكنّ يخطرن على بالي أبداً، بينما لا أستطيع الآن التفكير في سعد دون التفكير في حبيبته السابقة. هل نبض قلبه لامرأة أخرى، أم نبض لها هي وحدها؟ ولم لا ينبض لأخريات ما دام الإنسان قادراً على أن يعشق مرّاتٍ كثيرة في حياته؟ لماذا لا يزال يتذكّرها بالشوق نفسه؟ لماذا لم تنجَلْ غمّامةُ الحبّ عن عينيه كما انجَلت عن عينيّ أنا؟ أم أنّ الرجال ضعافٌ أمام الحبّ أكثر من النساء؟

كانت الساعةُ الدائريَّةُ القديمةُ الطرازُ المعلَّقةُ على الحائط تُشيرُ إلى الثانية والنصف بعد الظُّهر. قَبَلْتُ كَتِفَ سَعْدِ السمرَاءِ القوية، ونهضتُ مسرعةً أرْتدي ملابسِي لأعودُ إلى العمل. كان مستلقياً على السريرِ مغمضاً عينَيْه، مبتسماً ويتنفسُ بعمق، كما لو أنَّه بين النوم واليقظة.

لم يَكُن اللقاءُ به ذلك اليوم ضمن حساباتي، إذ كان برنامجي أن أقضي النهارَ في العمل، وأتناول غداثي مع ندى، ثمَّ أعودَ إلى البيتِ عند السادسة لأكتب. كنتُ قد قرَّرتُ في الليلة الماضية أن أعودَ للكتابة من جديد، وأُنهي الرواية التي وضعتُ مخطَّطها قبل أشهر، ثمَّ أجدُ ناشراً. كنتُ عازمةً على ذلك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، لكنَّ سَعداً اتَّصل في الصباح، وناداني «حبيبتي»، ودعاني لتناولُ الغداءِ عندهُ في البيت.

عند الظهر، خرجتُ من المكتبِ راکضةً نحوه. لم أُخبرِ أحداً، ولا حتَّى ندى، أنني ذاهبةٌ لزيارته. كنتُ أعْرِفُ أنَّها ستطلبُ مِنِّي التريث، وستقول لي إنَّ الرجال لا يحبُّون النساءَ المتعجَّلات والمتحمَّساتِ مثلي، وستصفُني بالحمارة والكلبة، وكنتُ أريدُ قضاءَ وقتٍ ممتعٍ دون أن ينغصَّ عليَّ أيُّ شيء.

مستعينةٌ بخرائطِ غوغل، عبرتُ زحامَ شارعِ الفداء وأزقته متوجَّهةً نحو العمارة التي يسكنها سَعْد. كان المبنى قديماً ومهترئاً، على سُورهِ المتسِّخِ كُتِبَتْ بخطِّ كبيرٍ عبارة: «ممنوع البول، ومَنْ تبولُ هنا فهو حمار وأمه عاهرة». وكانت هناك رائحةٌ بولٍ خانقة.

رَنَنْتُ جَرَسَ الباب. وبطريقة أشعرثني أنني رخيصة، تطلّعتُ إليّ امرأةٌ في منتصفِ العُمَرِ ترتدي جلباباً باهتاً لم أعرفَ لونه الأصلي. هربتُ بنظرتي إلى الجهة الأخرى، وحين فُتِحَ الباب، التفتُ لأرى إن كانت قد ذهبَت، لكنّها كانت ما تزال واقفةً هناك، واضعةً يدها على نصفِها، تمضغُ علكةً وتُحدِّقُ فيّ بحاجِبَيْنِ معقودَيْنِ.

خطوتُ إلى الداخل بارتباك، وتبعني قِطُّ أسودُ صغير مفقوء العين. انغلق البابُ بقوة، ونبض قلبي. مشيتُ نحوَ الدرج ببطء وقد فقدتُ حماسي كلّهُ بسببِ المرأة ذات الجلباب الباهت. صعدتُ الدرج المظلم المفعمَ برائحة الرطوبة مستعينةً بمصباح هاتفي، بينما كان القِطُّ الأسودُ يتبعني. وحين صرتُ في الطابق الثاني، لاحظتُ أنَّ القِطَّ لم يعد موجوداً. شعرتُ بالخوف. حكّت لي أمي خلال طفولتي قصصاً كثيرةً عن الجنِّ الشرير الذي يتخذُ صفةً قِطُّ أسود، وتتسبَّبُ نظراته الحادّة في الموت. استجمعتُ أنفاسي. كان بابُ الشُقّة رَقَمَ ثلاثة نصف مفتوح، ومع ذلك، قرعته مرّتين. بعد ثوانٍ، ظهرَ سَعد. كان يرتدي مئزرةً ورديةً عليها صور كعكاتٍ ذات ألوانٍ مختلفة.

همس:

- لماذا لم تدخلي مباشرة؟ لقد تركتُ البابَ مفتوحاً، كي لا يسمع الجيران القرع.

همستُ وأنا أدخل:

- آسفةٌ جداً.

وقبل أن يُغلقِ الباب، التفتُ بسرعة لتأكّد أن القِطَّ لم يعد موجوداً فعلاً، لكنّ الظلامَ كان حالِكا في الخارج.

قال سَعد:

- هناك عائلة فضولية تسكن في الشَّقة المجاورة، إنهم لا يكفون عن مراقبتي وإزعاجي بتعليقاتهم.

شممت رائحة خشبٍ وغبار. كان الجوَّ حاراً جداً في البيت، وكانت الشمسُ تلقي بنورها ودفعها على البهو كله. انتبهتُ إلى أنَّ العَرَق كان يبلل بين فخذَيَّ. كنتُ مُحرجةً ومرتبكةً.

واصل:

- خاصّة تلك المدعوّة نعيمة، إنّها مريضةٌ عقلياً تماماً. عندما تراني، تتوقّف وتنظرُ إليّ مطوّلاً من الرأسِ حتّى أخمص القدمين، حتّى أدخل وأغلق الباب. لم أفهم يوماً المغزى من ذلك.

قلتُ بتأسّفٍ مبالغ فيه:

- ناس مريضة! أرجو ألا أكون قد أزعجتُك. لا أريد أن أجلب لك المشكلات. أنا آسفة إذا سببتُ لك أيّ مشكلة.

وكنْتُ في الحقيقة أريد أن أقول: «هل لأنك تستقبل الفتيات كثيراً هنا؟» أو بالأحرى: «هل كانت نجوى تأتي إلى هنا كثيراً؟»

إلى حدود الخامسة والعشرين من عمري، كنتُ أعتذر كثيراً من الناس عن أيّ شيءٍ وكلّ شيء، حتّى ولو لم أرتكب أيّ خطأ. كانت كلمة «آسفة» ترافق معظم جُملي وعباراتي. كان ذلك نابعاً من إحساس عميق أنّي أحمل ذنباً كبيراً في داخلي منذ الأزل. أنا المسؤولة عن تعاسة أمي، لا يمكن أن أسبّب إلا الإزعاج للآخرين وأكون مصدر مشكلاتهم. كأنما كنتُ أعتذر على وجودي في هذه الدنيا. أمي وجدت الكلمة المناسبة لذلك: مذلولة. وقد كنتُ أظنّ أنني لم أعد كذلك، لكن، تبين أنني أخطأتُ.

قال:

- أرجوك، لا تقولي مثل هذا الكلام، اعتبري نفسك في بيتك. اجلسي، سأعدّ القهوة.

طَبَعَ قَبْلَهُ سَرِيعَةً عَلَى خَدِّي، قَبْلَ أَنْ يَخْتَفِيَ فِي الْمَطْبَخِ. كَانَ يَتَعَامَلُ
كَمَا لَوْ كَانَ يَعْرِفُ أَحَدَنَا الْآخَرَ مِنْذُ سِنَوَاتٍ. لَمْ أَخَفْ مِنْ ذَلِكَ. كُنْتُ سَعِيدَةً.
جَلَسْتُ عَلَى الْأَرِيكَةِ الْجُلْدِيَّةِ السُّودَاءِ الْقَدِيمَةِ، وَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً سَرِيعَةً
عَلَى الْبَيْتِ. كَانَتِ الْجُدْرَانُ مَتَقَشَّرَةً، لَكِنَّهَا نَظِيفَةٌ. بِجَانِبِ الْأَرِيكَةِ، هُنَاكَ
مَنْصُدَةٌ خَشَبِيَّةٌ، عَلَيْهَا جِهَازُ تَسْجِيلٍ قَدِيمٍ، وَمَزْهَرِيَّةٌ زُجَاجِيَّةٌ فَارِغَةٌ تَفُوحُ مِنْهَا
رَائِحَةٌ كَالصَّدَأِ. وَبِجَانِبِ الْمَزْهَرِيَّةِ أَشْرَطَةٌ تَسْجِيلُ وَصْفَحَةٌ مِنْ جَرِيدَةٍ كُتِبَ
عَلَيْهَا «رُكْنُ التَّعَارُفِ». تَذَكَّرْتُ كَيْفَ كَانَ يَقْدِّمُ النَّاسُ فِي الْمَاضِي أَنْفُسَهُمْ
عَلَى صَفَحَاتِ الْجَرَائِدِ، لِيَتَعَرَّفُوا عَلَى شُرَكَاءِ حَيَاتِهِمْ، وَضَحِكْتُ فِي سِرِّي.
كُنْتُ أَشْعُرُ بِفُضُولٍ كَبِيرٍ تَجَاهَ حَيَاةٍ سَعْدٍ. وَحِينَ رَحْتُ أَقْلَبُ، بِحَنِينٍ،
الْأَشْرَطَةَ الَّتِي يَحْتَوِي مَعْظَمُهَا عَلَى أَغَانٍ عَرَبِيَّةٍ مِنْ زَمَنِ التَّسْعِينِيَّاتِ، سَمِعْتُ
مُؤَاءً قَرِيبًا. رَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ الْقِطَّ الْأَسْوَدَ الْمَفْقُوءَ الْعَيْنَ وَاقِفًا أَمَامِي
يَنْظُرُ إِلَيَّ دُونَ أَنْ يَتَحَرَّكَ. أَرَدْتُ أَنْ أَرُدَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي سِرِّي، لَكِنِّي نَسِيتُهَا
مِنَ الْخَوْفِ. تَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَطْبَخِ بِسُرْعَةٍ. كَانَ سَعْدٌ مِنْهُمْ كَأَنَّ فِي تَقْلِيلِ
سُلْطَةٍ فِي وَعَاءٍ زُجَاجِيٍّ.

- هَلْ أَنْتِ بَخِيرٌ؟

- أَظَنَّ أَنْ قِطًّا دَخَلَ إِلَى الْبَيْتِ، أَعْنِي هُنَاكَ قِطٌّ فِي الْبُهْوِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ
قَبْلِ، وَلَا أَعْرِفُ مَتَى وَكَيْفَ دَخَلَ!

ابْتَسَمَ، وَقَالَ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ تَقْلِيلِ السُّلْطَةِ:

- لَا تَخَافِي مِنْ شَمَشُونِ. إِنَّهُ قِطٌّ لَطِيفٌ جَدًّا.

- هَلْ هُوَ قِطٌّ؟ اسْمُهُ شَمَشُونُ؟

وَضَعَ السُّلْطَةَ فِي الثَّلَاجَةِ، ثُمَّ رَاحَ يَسْكُبُ الْقَهْوَةَ فِي الْفَنَاجِينِ.

- نَعَمْ، أَعْنِي أَنَّهُ أَصْبَحَ قِطِّي الْآنَ.

هدأت قليلاً حين عرفتُ أنه ليس جنياً متكرراً في صفةٍ قطّ.

- ما هذا الاسم؟

- ماذا؟

- مَنْ فعلَ بالمسكين ذلك؟

التفتَ نحوي، ورمقني بنظرةٍ حادةٍ، ثم قال:

- لم أفهم!

قلتُ بسرعة:

- أقصد، مَنْ فقاً عينه؟

عَسَلَ طبقاً، ثم قال دون أن ينظر إليّ:

- كان هكذا منذ البداية.

لم أعرف عن أيّ بدايةٍ يتحدث، لكنني فهمتُ أنه ينزعج من الحديث عن قطّه. سألتُهُ عن الحمام، وأشار لي أنه على اليمين.

تنفّستُ بعمقٍ وأنا في الداخل. كانت يداي منتفختين ومتعرقّتين. رحتُ أفركهما بعُنْفٍ تحت الماء وأنا أنظر في الوقتِ نفسه إلى وجهي الذي يلَمَع من الرطوبة. كان يتأبّني نفورٌ غريبٌ حين أنظر إلى وجهي في المرأة، لا أدري سببه، أهو صوتُ أمّي الذي يملأ رأسي وكلماتُها الجِلْفَة التي لا تغادرني، أم أنني هكذا خلّقتُ مشيرةً للنفور؟! ومع ذلك، قاومتُ رغبتني في غسله هذه المرّة حتّى لا أفسد أحمر شفاهي.

وقبل أن أخرج، ألقيتُ نظرةً على أغراض سَعد الموجودة في الحمام. كانت هناك فرشاة أسنانٍ إضافية، وقنينةٌ شامبو نسائي. خَمَنْتُ أنّهما لنجوى، وأنها كانت تعيش معه في هذا البيت، أو على الأقلّ، كانت تأتي كثيراً. لم أستطع مقاومة فضولي، ففتحتُ الخزانة الحائطية. كان هناك

مِشْبَكُ شَعْرِ فُضِّي ومَشْطُ نَسَائِيَّ وكرِمْ للتجعيد بنكهة البنفسج مملوء إلى النصف وأحمرُ شفاهٍ اغْبَرَّتْ حَوَاقِفُه. مددتُ يدي نحوَ أحمر الشفاه، ونزعتُ غطاءه. كان وردياً غامقاً. جَرَّبْتُه على ظاهرِ يدي بأريحيةٍ تامةٍ كما تفعلُ النساءُ في محالِّ التجميل. كان لِيناً مثل زبدة وتنبعثُ منه رائحةُ فراولةٍ قوية. خَفَقَ قلبي حين سَمِعْتُ صوتَ سَعْدٍ يناديني لشرب القهوةِ قبل أن تبرد.

حين عُدْتُ إلى الصالون وجلستُ إلى جانب سَعْدٍ، فكَرْتُ في تلك الأغراض كُلِّها بعمقٍ وانتباه. كنّا نشربُ القهوةَ في انتظار أن تبرد السَّلَطة، وكان سَعْدٌ يتحدثُ بلا انقطاع، ويقول في كلِّ مَرَّةٍ إِنَّه جائعٌ جداً. أمّا أنا، فقد كانت رائحةُ الفراولةِ القوية ما تزال في حلقي، وكان آخر شيءٍ يمكنني التفكير فيه هو الأكل.

قُلْتُ:

- منذ متى تسكن هنا؟

فَكَرَّ لبرهةٍ رافعاً عَيْنَيْه إلى السقف، قبل أن يقول:

- أربع سنوات أو أكثر قليلاً.

كانت نجوى تأتي إلى هنا إذن، قُلْتُ لنفسي بمرارة. لكنني ابتسمتُ. كان القِطُّ شمشون واقفاً أمامي يتطلَّع إليَّ بعينه الوحيدة التي لا تَرْمِش. تخيلتُه هذه المَرَّةَ شيطاناً يختبئ في جسدِ قِطٍّ. لم أَكُنْ منزعةً فقط إزاء نظراته، بل مُحَرَّجةً أيضاً، كما لو كان يقرأ ما يدور برأسي.

شربتُ من فنجان القهوة بصمت. كنتُ أتساءل لماذا أؤمن بالجنِّ والشياطين والخرافات؟! ولماذا أحبُّ ذلك؟! حين رفعتُ عَيْنِي نحوَ سَعْدٍ، رأيته ينظرُ إلى الخطِّ الورديِّ على ظاهرِ يدي. شعرتُ كأنه رآني عاريةً.

قال بصوتٍ دافئ:

- تعجيبيني كثيراً، يا شهرزاد.

أحاط خصري بذراعَيْه، وشرعنا في تبادل القبل الطويلة بشبقٍ لا تنقصه
العاطفة. وبين كلِّ قبلةٍ وأخرى، كان يقول إنه يريدُ أن نظلَّ معاً دائماً، وكنتُ
أواصل تقبيله كدلالةٍ على الموافقة.

ودون أن نفتح أعيننا أو نتوقّف عن تبادل القبل، نهضنا واتّجهنا إلى غرفةِ
النوم .. كنتُ أمشي نحوَ الحبِّ بعَيْنَيْنِ مغمضَتَيْنِ، وكان سَعد هو الذي
يوجّهُنِي. حينَ أجلسني على طرف السرير، وشرعتُ أفكّ أزرارَ بنطاله الجينز،
فكرتُ أنّه قد ينظر إليّ كما لو كنتُ عاهرةً متعوّدةً على فكّ أزرارِ بناطيل
الرجال. توقّفتُ عن فكّ الأزرار وقد شعرتُ بمعصٍ خفيفٍ في معدتي، ثمّ
تمدّدتُ على السرير. نسيْتُ قلقي كلّهُ حين امتدّت يدهُ إلى جنتي.

حين فكّ حمالةِ صدري بعَيْنَيْنِ مغمضَتَيْنِ بسهولة تامّة، قفّرتُ نجوى
إلى رأسي، وتخيّلْتُ أنّه يفكّ حمالتها هي. قبّلتهُ أكثرَ لأنفُصَ تلكَ الصورةِ
عن رأسي، فاصطدّمت أسناني الأمامية بأسنانه. توقّفنا عن التقبيل ونحن
نضحك معاً. لمَس وجهي بحنان، وشعرتُ في ما يشبهِ الحدسِ أنّه يتخيّلها
هي بينما يلمسني أنا، أنّه يستعملُ جسدي ليُضاجعها في عقله، أن حديقة
خياله تعيشُ فيها امرأةٌ واحدة هي نجوى.

استلقى إلى جانبي على السرير. كنّا نمارس الحبَّ بتركيزٍ شديدٍ وخشوعٍ
وتفانٍ، كما لو كنّا نُنجزُ عملاً مهمّاً ودقيقاً. كان الجنسُ يحدثُ في رأسي
أولاً، قبل أن ينتقلَ إلى السرير. ناضلتُ لأكونَ طبيعيّةً، لأظهرَ له استمئاعِي
بلا أيّ خوف. أعرفُ نساءً يتظاهرنَ بعدم الاستمتاع بالجنس مع أزواجهنَّ
وشركائهنَّ، ليوهمنَّهم أنّهنَّ غير متعوّداً على ذلك، وأنهنَّ نساء طاهراتُ
وعفيفات. معرفةُ المرأةِ للمتعةِ شيءٌ خطير، تهديدٌ للرجال وللنساءِ على
حدٍّ سواء. ومع ذلك، كان كثيرٌ من الرجال المتزوّجين يتردّدون على عاملات
الجنس بحجّة أن زوجاتهم لا يُشبعنَّهم. قُلْتُ لنفسي وأنا بين ذراعَيْه: يجبُ
على النضال أن يبدأ من السّرير.

لم نُقل أيّ شيء في أثناء ذلك، ولم ينظر أحدنا إلى الآخر، كأن كلّ واحدٍ منّا كان مركّزاً على متعته فقط. وحين انتهينا، رأيتُ جسدي يرتعش مثلما ترتعش شقائق النعمان بفعل النسيم. حينها فقط، التقت أعيننا، وابتسمنا. طبعَ سعدُ قبلةً على جبهتي، ووضعتُ رأسي على صدره لأستريح، ثمّ تذكّرتُ أغراضَ المرأةِ الأخرى التي في الحمام، وتحوّلت لذّتي في بضعِ ثوانٍ فقط إلى ألم. أجلتُ ناظري في الغرفة، ورأيتُ دولابَ ملابسه نصفَ مفتوح. وددتُ لو أستطيع النهوض وفتحَه كاملاً والتفرّجَ على الأشياء الموجودة فيه. كان لديّ حدسٌ قويٌّ أنني سأجدُ فيه أشياء كثيرة تخصّ المرأة الأخرى، وكنتُ أتوق لأعرف أكثر عن حياتهما معاً من خلال هذه الأشياء.

قبل أن أغادر، دفعتُ حمالة صدري تحت السرير في حركةٍ سريعة، وارتديتُ فستاني بدونِها. خمنتُ أن المرأة الأخرى تركت أغراضها هنا ليتذكّرها دائماً وأبداً، وكنتُ أريده أن يتذكّرني مثلها.

لم أتناول الغداء ولا حتّى السلّطة. غادرتُ ركضاً لأقدّم اللقاء الأدبيّ الذي تنظّمه دار الإبداع للكاتب بلال المنصوري بمناسبة صدور روايته الأولى **حكايات قلبي المُحطّم**. كان عقلي فارغاً وعديم الفائدة مثل دلو معلّق في الهواء، وكانت المرأة صاحبةُ أحمر الشفاه الذي انتهت صلاحيّته تترسّخُ في فكري وكياني رويداً رويداً. حين صعدتُ إلى المنصة، مرّت بخاطري فكرةٌ قوية أنني سأعيشُ مع سعد حياةً طويلة.

في المساء، كانت مكتبة دار الإبداع تفوح بالتستوسترون. كان أغلب الحاضرين من الكتاب والقراء والنقاد والمثقفين ذكوراً، باستثناء كاتبتي فقط، وشاعرة واحدة، وثلاث قارئات مشهورات على إنستغرام. وكانت عيناى تبحثان وسط الجموع عن ندى.

لم أر في حياتي زهواً كزهو بلال المنصوري بنفسه وهو يصعد إلى المنصة ببدلته الرسمية الأكبر من مقاسه. ناولته الميكروفون ليتحدث عن حكايات قلبه المحطم، وشردت في الفراغ. تحدثت عن مخاض الكتابة وعن معاناته، لتخرج هذه الرواية إلى الوجود، ثم قال إن عمله احتفى بالنساء، كما لم يفعل أي عمل من قبل، وذلك بسبب العدد الكبير للشخصيات النسائية الموجودة فيه. بعد انتهاء مداخلته، سأله طالب جامعي نحيف ورث الهيئة عن السر وراء نجاحه في كتابة رواية رائعة ومؤثرة كهذه، فأجاب بكل فخر:

- الموهبة طبعاً. أقولها وأكررها، بدون موهبة، لا يمكن كتابة أدب حقيقي.

ثم سأله شاب آخر قدم نفسه على أنه كاتب مبتدئ، عن قراءاته، فرد:

- ينبغي الإشارة أولاً إلى أنني بدأت القراءة في سن مبكرة جداً، ففي السابعة من عمري فقط، كنت ألتهم روايات من قبيل أنا كارنينا والمقامر والشيخ والبحر.

هكذا سارت الأمور في الندوة. وحين انتهت، راح بلال يمشي بين الجموع فرحاً، ويومئ للحاضرين، ويوزع عليهم ابتسامات مصطنعة، ويصافحهم كما

لو كان شخصية مهمة. كان سعيداً، ولم يكن قادراً على إخفاء سعادته، إذ كان يتحرك مثل دجاجة على وشك أن تضع بيضها. رأيته أكثر من مرة وهو يحاول زم فمه في محاولات فاشلة لعدم الابتسام. كان يريد أن يعطي الانطباع بأنه يقوم بعمل جدي وخطير، لكن وجهه كان ينفرج رغماً عنه، فينفتح فمه، وتبرز أسنانه الصفراء التي يبدو واضحاً أنها لم تغسل منذ زمن بعيد.

كان علي أن أغسل وجهي حتى لا أنام من الملل. ذهبت إلى الحمام عابرة البطون الكبيرة والرؤوس الصلعاء والأجساد النحيلة والهيئات الرثة التي تنظر إلى بلال المنصوري بإعجاب كبير. لم أعرف إن كان شعوري بالاختناق بسبب الحر، أم بسبب ذرات التستوسترون المنتشرة في الجو، أم بسبب كثرة المديح الذي أغدق به الحاضرون على الكاتب. كانوا يتحدثون عنه كأن عمله شكّل طفرة نوعية في تاريخ الأدب العالمي، وكان يشكرهم بزهو كأنه كتب عملاً ينافس أنا كارنينا. كنت غاضبة جداً ومشوشة.

حين عدت إلى القاعة، كان بلال المنصوري يوقع نسخ روايته، ويلتقط الصور مع معجبيه. رأيت ندى تتوجه نحوي فاتحة عينيها على آخرهما، كما تفعل دائماً حين تريد أن تقول شيئاً مهماً أو خطراً.

كانت طرحه رأسها قد انزاحت قليلاً إلى الورا، فتدلّت شعيرات سود مبللة على جبهتها المتعركة. مددت يدي نحو رأسها، وسحبت الطرحه إلى الأمام قليلاً. قالت وهي تنظر إلى يدي:

- نجيم يبحث عنك. أين كنت؟

كانت الأصوات مثل فؤوس تحفر في أذني. محادثات غير واضحة من هنا، وأخرى من هناك. سرت دوخة غريبة في رأسي، وتحليت بالشجاعة.

- كنت مع سعد اليوم.

فتحت عينيها الواسعتين أكثر.

- ماذا تقولين؟

خفّق قلبي بسرعة. واصلتُ:

- كنتُ عنده في البيت، ورأيتُ أغراضَ حبيبته السابقة هناك.

أمسكتُ يدي بقوة وضغطتُ عليها:

- اخفضي صوتك. مَنْ قَالَ لكَ إنها أغراضها؟

أبعدتُ يدي عنها دون أن أُرِدّ ومشيتُ باحثةً عن نجيم. كنتُ أكرهُ حين يتحدثُ أحدهم بالمنطق في أشياء أريدُ أنا إعطاءها أبعاداً أخرى. رأيتُ نجيماً منزوياً يتحدثُ مع أحدِ كُتّاب الدار. كان نجيب الحفيظي، في الخمسينيات، وله رأسٌ أصلعٌ كبيرٌ ولامعٌ مثلِ قِدر، وكان قد أصدرَ لحدّ تلك اللحظة خمسةً وثلاثين كتاباً، بين الشُّعر والرواية والقصة والنقد. حين سمعتُ عنه أوّل مرّة، شدّني الفضول للتعرف إلى أعماله، فاشتريتُ روايتَيْن له، لكنني لم أستطع أن أفهم في أيّ منهما عمّاداً يتحدث. كان مشوّشاً في كلامه وكتاباتِه على حدٍّ سواء، ولم تكن له قضيةٌ ولا هدفٌ ولا حتّى فكرة.

اقتربتُ منهما في إحباط. انفجرتُ أساريُر نجيم حين رأيته. فتَح ذراعَيْه كأنّه يريد أن يعانِقني، لكنّه لم يكن يريد أن يعانِقني، ثم قال:

- شهرزاد!

سَكَتَ قليلاً واضعاً أصبعه المرتجف على فمِه كأنه يحاول تذكّر شيءٍ ما. كان نجيم يتميّز بشيئَيْن اثْنَيْن: أصابعُ يَدَيْه القصيرةُ جدّاً بالرغم من طول قامته، ورائحته التي تشبه رائحة الكزبرة. كان له أيضاً نصيبه من الجنون شأنه في ذلك شأن كثيرٍ من الناشرين والكتّاب والسياسيِّين والأساتذة الجامعيِّين والشخصيات الموجودة في مراكز القرار. لا أعرف هل هي مصادفةٌ أنهم، على اختلاف مشاربهم ومجالاتهم ومراكزهم، يبدوون غير مستقرّي القدرات العقلية، أم أنّ وجودَ هؤلاء في المراكز المهمة في البلاد شيءٌ ممنهَج.

رَفَعَ نَجِيمُ أَصْبَعِهِ فِي الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ تَذَكَّرَ ذَلِكَ الشَّيْءَ، ثُمَّ أَضَافَ:

- كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْكَ لِأُخْبِرَكَ بِشَيْءٍ مُهِمٍّ! لَكِنْ، دَعِينَا نَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ فِي مَا بَعْدَ.

كَانَ دَائِمًا حِينَ يَرَانِي، يَقُولُ لِي إِنَّهُ سَيُخْبِرُنِي بِشَيْءٍ مُهِمٍّ فِي مَا بَعْدَ. وَحِينَ يَرَانِي فِي مَا بَعْدَ، لَا يُخْبِرُنِي بِأَيِّ شَيْءٍ، سِوَاءِ كَانَ مُهِمًّا أَوْ لَا، بَلْ وَتَصَرَّفُ كَمَنْ لَمْ يَقُلْ لِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ لَدَيْهِ شَيْئًا مُهِمًّا لِيَقُولَهُ.

كَانَ نَجِيبُ الْحَفِيزِيِّ يَنْتَقِلُ بِنَظَرَاتِهِ بَيْنَ وَجْهِ نَجِيمٍ وَوَجْهِ وَهُوَ يَتَسَمُّ بِسَعَادَةٍ، كَأَنَّهُ يَشَاهِدُ شَيْئًا مُمْتَعًا. وَحِينَ أَنْهَى نَجِيمَ جَمَلَتَهُ، مَدَّ يَدَهُ لِيَسَلِّمَ عَلَيَّ. تَخَلَّصْتُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ وَبَادَلْتُهُ ابْتِسَامَةً مُصْطَنَعَةً. كَانَ مُتَحَمِّسًا جَدًّا وَسَعِيدًا جَدًّا. قَالَ:

- شَهْرزَادَ الْجَمِيلَةَ! مَتَى سَنَرَى كِتَابَاتِكَ الْجَمِيلَةَ فِي كِتَابٍ مَنشُورٍ؟

قَالَهَا وَنَظَرَ إِلَى فَتْحَةِ صَدْرِي. وَحِينَ وَقَعَ نَظَرُهُ هُنَاكَ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزِيحَهُ. قُلْتُ بِمَرَحٍ:

- رُبَّمَا عِنْدَمَا أَبْلُغُ الْأَرْبَعِينَ، وَأَصْبَحُ نَاضِجَةً بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ لِأَكْتُبَ رِوَايَةً تَسْتَحَقُّ الْقِرَاءَةَ.

قَالَ وَعَيْنَاهُ مَا تَرَالَانَ عَلَى صَدْرِي:

- أَنْتِ نَاضِجَةٌ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ، ثُمَّ إِنَّكَ جَمِيلَةٌ، وَشَابَّةٌ. أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّكَ سَتَلْقَيْنِ نَجَاحًا كَبِيرًا كِرَوَائِيَّةً، ثَقِيَّ بِي.

كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْجَحِيمِ، لَكِنِّي قُلْتُ بَدَلَ ذَلِكَ:

- لَا يَهَمُّ جَمَالُ شَكْلِ الْكَاتِبِ، يَا أَسْتَاذَ نَجِيبٍ. مَا يَهَمُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ النَّصُّ الْأَدَبِيُّ جَيِّدًا.

نَظَرَ إِلَى نَجِيمٍ وَهُوَ يَضْحَكُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ. ذَلِكَ النَّوعُ مِنَ الضَّحَكَاتِ

التي يُصدِرُها الكبار حين يرون طفلاً صغيراً يقوم بأشياء لطيفة، أو يقول كلاماً أكبر من عمره. سَكَتَ عن الضحك، ووضع يَدَيْه وراء ظهره، ثم رَفَعَ حاجِبَيْه وهو يقول:

- أنتِ امرأة، الأمرُ مختلف.

أخفيتُ غضبي جيداً تحت ابتسامةٍ مصطنعة، وقُلْتُ بهدوء:

- لكنني لا أَقبلُ هذا الكلام، يا أستاذ نجيب!

نظرَ كلاهما للآخر، وابتسما، كما لو أنهما يشاهدان حيواناً لطيفاً يحاول المشيَ على اثنتين في السيرك.

كرِهْتُ نفسي لأنني أظَلُّ هادئةً في مواقف كهذه. أَلقيْتُ نظرةً شاملةً وسريعةً على المكان بحثاً عن ندى، لكنني لم أستطع رؤيتها. بدلاً عنها، رأيتُ امرأةً في منتصف العمر ذات شَعْرٍ مصبوغٍ بالأشقر تتوجّه نحوي. لم أتعرفَ إليها إلا حين اقتربت. حليلةٌ مستغفرة، شاعرةٌ لها خمسةٌ دواوين شِعْريّة، تحملُ عناوينها كلّها كلمةً رغبة. وصدرت لها مؤخراً روايةٌ بعنوان **صهيل الرغبة** كتابات حليلة كلّها مملوءة بالإحياءات الجنسية، ولا يُمكن العثورُ على قصيدةٍ لها لا تُعبرُ فيها عن رغبتيها في أن تكون في حضن رجل. كان صدرُها الكبير يتحرّكُ تحتَ قميصها الضيّق الوردِيّ البراق. ابتسمت بفمِها المصبوغ بأحمر شفاهٍ قان، ومدّت يَدَها لتصافحني وهي ما تزال تبعد عني مسافةً مترين أو أكثر.

- أينَ اختفيتِ؟ اشتقنا إليك وإلى كتاباتكِ الجميلة على فيسبوك!

مددتُ يدي لأصافحها، فسحبَتني نحوها بقوة، وعانقتني كما لو كنّا صديقتين قديمتين. شممتُ رائحةً عطرٍ قوية وجذابة تنبعثُ من عنقها. لا أعرفُ لماذا كانت سعيدةً هكذا برويتي. شعرتُ أنني مُجبرةٌ على تهنيتها على إصدار روايتها الأولى.

قالت بسعادة:

- لقد تجاوزت اللايكات على خبر إصدار روايتي **سهيل الرغبة** أربعمائة وخمسين لايك، أكثر حتى من ديواني **رغبات مسجونة**! أظن أنني سأتوقف عن كتابة الشُّعر وأتفرَّغ لكتابة الرواية.

كنتُ أبحثُ بعَيْنَيَّ عن ندى.

- الرواية أنجحُ من الشُّعر. اسأليني أنا!

سَحَبَتْ هَاتِفَهَا الذكيَّ من الحقيبة، وأرّنتي صورتها وهي تحمل الكتاب في يدها، ثم سألتني، بنبرةٍ لاذعة، لماذا لم أضع لايك عليها؟
لم تكن ندى موجودةً في أيِّ مكان. كم كنتُ أشتاق إليها حين أكون مع هذا النوع من البشر!

- قل لي، لماذا توقفتِ عن الكتابة على فيسبوك؟
قُلْتُ:

- لأنّ كتاباتي ليست جيّدة بما يكفي لتُنشر.

قالت بنبرةٍ حماسية:

- عليك أن تعودتي للكتابة، يا شهرزاد! اكتبي. اكتبي عن الأثني بداخلك، عن آلامك ورغباتك. يجب أن تكون الكتابةُ الهواء الذي تننفسينه، الماء الذي تشربينه، كي تبقى على قيد الحياة. فالكتابة هي ماء الحياة.

ماء الحياة؟

سألتها بنبرةٍ لاذعة:

- لماذا لا يطلب أحدٌ من الرجل أن يكتب عن الذكر بداخله؟

سَكَتَتْ لوهلة وهي تفكّر في سُؤالي، ثم قالت كأنها تُلقي شِعراً:

- لا يمكنكِ المقارنة بينهما، فالأنتى هي جمال هذه الحياة، وأصل هذا الوجود. الأنتى مركز الكون. بدونها، سيكون العالمُ بشعاً، بشعاً جداً، يا شهرزاد.

ظهرت ندى أخيراً. رأيتها تتحدثُ إلى القارئات المشهورات على إنستغرام.
- هل سيكون هناك طعامٌ بعد التوقيع؟ أنا جائعةٌ جداً، والوقتُ متأخراً!
أومأتُ لها مُبتسمة، وتوجهتُ نحو ندى، عابرةً طاولةً بلال المنصوري.
كان قد باعَ نسخَ روايتهِ كلَّها تقريباً.

كانت القارئاتُ الإنستغرامياتُ يتحدثُنَ بشغفٍ كبيرٍ عن الكتبِ وأناقةِ الأغلفةِ واقتباساتهنَّ المفضَّلة. يفتحُنَ هواتفهنَّ ويلتقطنَ الصورَ وينقُرْنَ على لوحاتِ المفاتيحِ بسرعةٍ كبيرة. كان لكلِّ واحدةٍ منهنَّ أكثر من عشرين ألفَ متابعٍ يصفقونَ لهنَّ ويشجعوهنَّ، ما يجعلُ نشرهنَّ صورةَ كتابٍ ما، اعترافاً بذلك الكتابِ وإقراراً بأهميَّةِ محتواه. القارئاتُ اللواتي ينشرنَ صورَ الكتبِ على إنستغرامِ أهمُّ من كتابِ تلكِ الكتبِ أنفسهم. أحياناً، كان الأمرُ يصلُ إلى درجةٍ أنهنَّ يتلقينَ التهاني على صدورِ بعضِ الكتبِ، فقط لأنهنَّ نشرنَ صورها وأعلنَ صدورها. والحقُّ أن عوالمهنَّ كانت خلابة، وكُنَّ يسوقنَ، عبر الصورِ والفيديوهات، لحياةٍ رائعةٍ مملوءةٍ بالكتبِ والمكتباتِ الضخمة والشموعِ وأنواعِ القهوةِ والفناجينِ المختلفةِ الأشكالِ والألوانِ ولحظاتِ غروبِ الشمسِ والمشي على البحرِ وباقاتِ الوردِ الجميلة. حياةٌ بدونِ عمَلٍ ولا مسؤولياتٍ ولا تعبٍ ولا قُبْح. حياةٌ سعيدة، أسعدَ من حياةِ القراءِ الحقيقيينَ والكتابِ أنفسهم.

قالت Nassima 1994، وهي تلتقطُ مقطعَ فيديو لكيسٍ مملوءٍ بالكتبِ في يدها:

- متى تُصدرين كتابكِ الأوَّل، يا شهرزاد؟ أعدكِ أنكِ عندما تفعلين، سألتقطُ له صورةً جميلةً جداً، وأنشره على صفحتي.

قاطعتها AhlamBooks12، وكانت مدمنةً على نشر اقتباساتٍ
سخيفة من الروايات:

- صحيح! أنا شخصياً سأستلم مهمةً تسويق كتابك، وسترين كيف
سينجح!

قالت Souad_bookish5، وكانت تنشر دائماً صوراً لمقتنياتهما
الجديدة من الكتب، وتدّعي، في كلّ بداية سنةٍ جديدة، أنها قرأت في
السنة الماضية ستّمائة وخمسة وستّين كتاباً، وتحبّ استعمال كلمة «بازخ»
في كلّ جملة تقولها:

- كتاباتُ شهرزاد رائعة وباذخة! أنا متأكّدة أنني سأقرأ روايتك في جلسةٍ
واحدة فقط.

كنتُ متخمةً بالابتسام رغماً عني. حين توجّهتُ ندى إلى المنصة وأعلنت
انتهاء اللقاء وفتح البوفيه، اندلّق الحاضرون إلى الباحة دفعةً واحدة. اغتنمتُ
خلوّ القاعة، ورويتُ لندی تفاصيل ما حدث بيني وبين سعد. كانت تستمع
إليّ وعيناها مفتوحتان على آخرهما، كأنني كنتُ أخبرها أنني ضاجعتُ
تمساحاً.

- لماذا أنتِ سهلةٌ هكذا؟ كان عليك أن تصبري أكثر. هل تعلمين أن
كلّ ما يفعله سعد، منذ تركته تلك الفتاة، هو البحثُ عن فتياتٍ أخريات
ومضاجعتهنّ؟

لم تكن ندى تكبرني إلاّ بسنةٍ واحدة. ومع ذلك، كنتُ أشعر أنّها أختي
التي تكبرني بعشر سنوات، أو أمّي التي تريد مصلحتي. كنتُ أثقُ فيها لدرجةٍ
أستطيع أن أتركها تقودني إلى أيّ مكان وأنا مغمضة العينين، وأستشيرها
قبل أن أقدم على أيّ شيء في حياتي. كنتُ أثقُ في حدسها وذكائها، وفي
مواقفها من الرجال، بالرغم من أنّ علاقتها بهم لم تتجاوز علاقتها بوالدها،
وشاباً صاحبته ذات مرّة، ثم تركته، لأنها خافت أن يعرف والدها.

قُلْتُ مدافعةً عن نفسي:

- لقد نظرَ مباشرةً إلى عينيّ، وقال إنه يريدني. لا أظنّ أنه يكذب!

لم أفهم لماذا كانت غاضبة! قالت:

- لا تظنّين؟ هل أنتِ حمارةٌ أم ماذا؟ طبعاً يريدكِ، في السرير، لأنكِ
لقمةٌ سهلة! يا لغباك، يا شهرزاد!

كنتُ مثلَ مراهقةٍ متهافئة. صرختُ:

- لماذا تصرخين في وجهي الآن؟ لماذا تتعاملين معي كأنكِ أمّي؟
هدأت:

- الرجال، يا عزيزتي، يُطبّخون على نارٍ هادئة، وأنا أريد مصلحتكِ فقط،
لأنني أعرفهم جيّداً ... لكن، إن شئت، لن أَدْخُل من الآن فصاعداً.

أُطلّقت رصاصتها المسمومة وذهبت. رمقتُ جسدها البدين بغضب
بينما تبتعد متوجّهةً نحو الباحة. كنتُ أريد أن أقول لها أن تنتظر لتنصّحي،
وكنتُ أريد أن أشتّمها وأقول لها أن تبتعد عن حياتي في الوقت نفسه.

التقيتُ ندى أوّل مرّةٍ خلال حفل توقيع روايةٍ قبل ستّ سنوات. كانت
واقفةً وحدها في زاويةٍ بعيدة ترمق الحاضرين بعينين مندهشتين. لم
أفهم إلا لاحقاً أنّ تلك الفتاة النحيّة جدّاً التي رأيتُ ذلك اليوم لم تكن
مندهشة، بل إنّ عينيها تكونان مفتوحتين هكذا حين تركز أو تفكر ملياً
بشيء ما. يمكن للمرء بسهولة أن يقول إنّ ندى تنوي ضربه إذا رأى عينيها
المفتوحتين ونظراتها الحادّة موجّهة نحوه. شعرتُ بهذا مرّاتٍ كثيرة في
بداية صداقتنا، وكانت تستفزّني حين أقول لها شيئاً مهماً، فتجمّد في
مكانها وتفتح عينيها وتطلّع إليّ بدّل أن تُجيب. كانت قد انتقلت حديثاً
إلى الدار البيضاء، وكان والداها قد أقسما أنها لن تذهب للعمل والعيش

بعيداً عنهما مرةً أخرى، وأنَّهما سيَقضيان على الجنِّي الذي يسكنُها، والذي جعلُهما يقبلان، على مضض، سفرها للدراسة بالعاصمة.

في الواقع، لم يكن هناك أيّ جنِّي، ولم تكن صديقتي مسكونة كما أقنعت والدَيها بذلك لسنوات. روت لي ندى أن قصّة الجنِّي خُطّة استعملتها، لكي تحصل على ما تشاء دون أن تضطرّ للدخول في معارك مع والدَيها. كانت حين تُريد أيّ شيء تعرف أنّ والدَيها سيرفضانه، تسقط على الأرض، وتجمدُ هناك، ثمّ تتطلّع إلى الفراغ فاتحةً عينيها على آخرهما، كأنها رأت شيئاً لا يستطيعان رؤيته. وحين ينتشرُ الهلع في البيت، ويبدأ كلّ مَنْ فيه بتحريكها في محاولة لإيقاظها، يبدأ الجنِّي الذي بداخلها بالحديث بصوتٍ غليظ، ويهدّد كلّ مَنْ في البيت أنّه سيأخذُ بكارَتها إذا لم يدعوها تحصلُ على ما تريده. تقول ندى إنّ والدَها يخافُ من الجنِّ، ومن الجنِّي الذي بداخلها هي خاصّة، أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر في الدنيا، لدرجة أنّه حين كان يراها متمدّدةً على الأرض فاتحةً عينيها، تختلطُ، من شدّة فرعه، سورُ القرآن وآياته في لسانه، فيخرجُ مزيجٌ عجيبٌ من سورة الفلق وآية الكرسيّ مع أجزاء غير مكتملة من أدعية وأحاديث نبوية. حين تسمع ندى هذا المزيج، تغيبُ بؤبؤَ عينيها، وتغرغرُ اللعابَ في حَنَجَرَتِها، ثمّ تتظاهرُ بفقدان الوعي. وبهذه الطريقة فقط، استطاعت أن تذهبَ للدراسة بالرباط، ثمّ للعمل بالدار البيضاء. مكتبة سُر من قرأ

كانت عائلته ندى فقيرةً جداً، فقيرةً لدرجة أنهم أحياناً لم يكونوا يجدون كسرة خبز يأكلونها. تروي صديقتي أنّها، خلال طفولتها، كانت تجلسُ مع إخوتها الأربعة إلى طاولة الأكل الفارغة من الأكل، ويبدوون معاً في تخيل الأطباق الشهية، ثمّ يمثلون أنهم يأكلونها. في أماسي الشتاء الباردة، حين يشتدّ الجوع وتأكّل القِطط صغارها، تقول ندى إنها كانت تدخلُ إلى المطبخ وتخلطُ الطحين بالماء، ثمّ تضيفُ عليه بعضَ البهارات، تكونُ

عجينة سميكة وتضعها في الفرن. وحين تُخرجها ساخنةً، يلتف حولها إخوتها الصغار ويأكلون بسعادة.

تقول ندى بسخط إن والدَيْها مختلفان عقلياً، لأنهما يريانِ إجابَ خمسة أطفال وسط الجوع شيئاً عادياً وطبيعياً جداً، لكنهما لا يتقبلان أبداً خروج هؤلاء الأطفال للعالم للبحث عن كسرة خبز، خاصة إذا كان هؤلاء الأطفال إناثاً. تنظر إليّ بعينيها المصدومتين وتضيف:

- على الإنسان أن يضع دائماً قياساً لنُبضِ معتقداته وأفكاره ومسلماته، ويراجعها إذا رأى أنها أقوى من رغبته في الحياة.

حين انتقلت إلى الدار البيضاء، وأصبح لها، لأول مرة في حياتها راتب شهري، أصبحت ندى تأكل بشراهة. كانت تشتري الأطعمة الجاهزة والسندويشات والشوكولا، وتأكل طول الوقت، لدرجة أن راتبها كان ينقضي في منتصف الشهر. أحياناً، كانت تضطر إلى الاقتراض لتأكل. كأنما كانت بذلك تعوّض على فراغ أبدِي في قلبها، لم يملأه المال ولا مرور الزمن ولا النسيان ولا حتّى الحرية الواهمة التي ظنّت أنها تعيشها بعيداً عن عائلتها. ومع الوقت، تحوّلت الفتاة النحيفه الواقفة في زاوية بعيدة ترمق الحاضرين بعينين مفتوحتين على آخرهما إلى امرأة ذات جسد سمين، يزن خمسة وتسعين كيلوغراماً.

كنتُ أعرف أن هناك ثقلًا ما يريض على صدر صديقتي، شيئاً يفوق ثقل جسدها بأضعاف. روت لي ذات يوم أنها أرادت دائماً أن تخلع الحجاب، وأن الجنّي الذي خلّقه استطاع أن يحقق لها أشياء كبيرة ومستحيلة، لكنّه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية الصغيرة، إذ كان مجرد التفكير في الموضوع يُشعرها بخوف دائم ومستمرّ، كما لو كان والداها يتطلّعان من مكان ما إلى ما يدور في رأسها. كانت هناك أصوات مزعجة في داخلها، وراحت تحاول إسكاتهما بالأكل.

لم تنجح ندى في إسكات الأصوات التي تَصِحّ بداخلها، وظلّت تتطلّع بأسى إلى غير المحجّبات، كما يتطلّع طفلٌ جائعٌ إلى كسرة خبزٍ في يدٍ غيره. رأيتها أكثرَ من مرّةٍ وهي تركّزُ نظرها أكثرَ ممّا ينبغي في شعور النساءِ وآذانهنَّ وأعناقهنَّ وصدورهنَّ وسواعدهنَّ ورفيف فساتينهنَّ. حين كنّا نذهبُ إلى محالّ الملابس، كانت تقضي أوقاتاً طويلةً تتفرّج على الشورتات، والتنانير القصيرة، والأقمصة التي بدون أكمام، ثمّ تضعها عليّ، وتطلّع إليّ بالعينين المندهشتين أنفسهما محاولةً إقناعي بشراء الثوب، كأنني كنتُ نسختها غير المحجّبة، وكأنّ جسدي مكانٌ تحقّق فيه ما رغبت فيه نفسها دائماً. ففتحتها في هذا الموضوع ذات يومٍ ونحنُ نتسوّق في محلّ للملابس. كانت تُعدّلُ طرحةً رأسها أمام المرأة، واضعةً الدُّبوس الذي تُحكّم به الطرحةً بين شفتيّها. كانت تسبّبُ لي الجنون حين تضعه هناك، وأتخيّلُ طول الوقت أنها ستبتلعه. اقتربتُ منها وقُلْتُ لها إنّها تستطيع خلع الحجاب في الدار البيضاء، وارتدائه فقط حين تذهبُ لزيارة والديها في دِمْنات. كنتُ أظنّ أن نبرتي المرحّة وأنا أقولُ جملتي ستجعلها متحمّسةً، لكنّها توقّفت عن ضبط الطرحة وتطلّعت إليّ بعينيها الجاحظتين في نظرةٍ تمزج بين الدهشة والاستنكار وعدم التصديق، وقالت:

- ماذا تقصدين؟

تراجعتُ عن فكرتي الأولى وقُلْتُ:

- أو ربّما تخلعيه نهائياً وتقولين لوالديك إنّ الجنّ الذي بداخلك هو السّبب.

وبدل أن تضحك، ظلّت جامدةً في مكانها لثوانٍ، رافعةً يديها إلى أعلى، مُحكمةً الطرحةً بهما، ثمّ قالت بسخريّةٍ والدُّبوس الصغير يتحرّكُ بين شفتيّها:

- هل تقصدين أنني سأخرج إلى الشارع بدون حجاب؟

- أليسَ هذا ما تريدينه؟

التفتت إلى المرأة من جديد، ونظرت إلى نفسها بعينين قلقتين، ثم راحت تضبط الطرحة بيدَين ترتجفان، وصاحت:

- هذا مستحيل!

كانت تلك الطرحة قد صارت جزءاً من رأسها، مثل أنفها وعينيها، ولم يكن الحصول على رأسٍ عارٍ بتلك البساطة التي تخيلتها. لكن، حتى الآن، لم تكن تلك مشكلة ندى. كانت مشكلة صديقتي أنها تحمل جسداً يزن خمسة وتسعين كيلوغراماً، وتمشي به في طريق الحياة الطويل والشاق، بينما لم تكن تملك في ذلك الجسدِ ستمتراً واحداً.

كان الهواء منعشاً في الباحة الخلفية لدار الإبداع، وكانت الظلمة قد بدأت تلقي ظلالها على المكان. فبدت الأشجار المحيطة بالباحة وسط السواد المائل إلى الزرقة موحشةً بشكلٍ باهر. وحين اشتعلت الأضواء، وانبلجت الوحشة، لاحَت ندى وسط الجموع وهي تتناول بنهم قطعة حلوى. اعترتني رغبةٌ عارمةٌ في عناقها بقوة، لكنني كنتُ قلقةً أن تقول لي أشياء لا تعجبني، فتراجعتُ ورحتُ أفرجُ على الحضور بمَلَل. كان بلال المنصوري يمضغُ بلا هوادة، وحليمة مستغفر تحمل في يدها صحناً بلاستيكيًا، ملأته بأنواع المملّحاتِ كلّها المعروضة في البوفيه. أمّا نجيب الحفيظي، فقد كان يُدخل في جيب سرواله قطعتين أو ثلاثة من بريوش التونة، مقابل كلّ قطعة يتناولها. وفي حدود الساعة التاسعة مساءً، كان جيبه قد صار منتفخاً ومزيتاً بشكلٍ واضح. كان الجميعُ قد نسيَ الأدبَ

والإبداع والكلمات الكبيرة التي تفوّهوا بها خلال حفل التوقيع، ومضوا إلى الحالة البدائية التي يخشى فيها الإنسان انقضاء الطعام. في المغرب، كلُّ حفلٍ توقيعٍ يُقدّم فيه الأكل هو، فقط، فرصةٌ للأكل وملء الجيوب بالحلويات والمملّحات. كنتُ أستطيع أن أتفهّم تهافُت الطلّبة الجائعين والفقراء على البوفيهات، لكنني لم أستطع أن أفهم أبداً النقاد والأدباء والفنّانين والممثّلين والسياسيّين من آكلي الرّيع وهم يضعون حلويات جوز الهند مع بَرَيُوش التونة في جيوبهم في الوقتِ نفسه.

تمشّيتُ مع ندى قليلاً قبل العودة إلى البيت. كنّا متعبَتَيْن، لكننا ضحكنا حتّى البكاء ونحنُ نتذكّر جيوب نجيب الحفيظي المملوءة بالزيت. وقبل أن تودّع إحدانا الأخرى، كنّا قد توصّلنا إلى خلاصةٍ مهمّةٍ جدّاً: على نجيب الحفيظي أن يؤلّف كتاباً بعنوان **جيوبٌ مثقلَةٌ بَبَرَيُوش التونة** على غرار **جيوبٍ مثقلَةٌ بالحجارة** لفرجينيا وولف.

عندما دخلتُ إلى البيت، وارتميتُ على الأريكة، فتحتُ الجيميل على الهاتف. كان سعد قد بعث لي رسالةً يقول فيها إنه أعاد تنشيط حسابه على فيسبوك، وإنه بعث لي دعوةً إضافة، بالإضافة إلى مفاجأةٍ أخرى ستُعجبني. فتحتُ حسابي وقبّلتُ دعوته. كنتُ سعيدة، لكنّ توقّي لاكتشافِ صفحته وقراءة قصائد الحبّ التي كتبها لنجوى كان أقوى من كلّ شعورٍ آخر بالحبّ أو السعادة.

في الصباح، وبينما كنّا نشربُ قهوتنا في المكتبة، قبل مجيء نجم،
سألني ندى بفضولٍ ممزوجٍ بأسى مصطنع:

- ما بهما عيناكِ محمرّتان هكذا؟

قلتُ بلسانٍ ثَقِيلٍ:

- لا شيء. لم أتم جيداً ليلة أمس. ظللتُ أتقلبُ في الفراش حتّى الرابعة صباحاً.

قالت بنبرةٍ ساخرة:

- لقد رأيتُ إعلان سَعد عن علاقَتِكِما العاطفية على فيسبوك! لا بدّ
أنّكِ لم تنامي من السعادة!

نظرتُ إليها شَرّاً، ولم أردّ.

أضافت وهي تنظرُ إلى السقف:

- لا بدّ أنّه يريدُ أن يُغيظَها.

نبّض قلبي بعُنف، وانبجست حرارةٌ حارقة من أُذُنَيَّ.

- ماذا تقولين؟

نظرتُ إليّ هذه المرّة باستنكار، ونهضتُ من أمامي دون أن تردّ. كان هناك
ضجيجٌ في أُذُنَيَّ لا أعرف من أين يأتي، ولم أكن قادرةً على الرؤية بوضوح.

جَرَّتْ كَرْتُونَةً نَحْوَهَا وَسَحَبَتْ مِفْتَاحاً مِنْ حَقِيئَتِهَا. وَقَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ الْكَرْتُونَةَ، تَوَقَّفَتْ لِبَرَهَةٍ وَهِيَ تَحَدِّقُ فِي وَجْهِهِ بِعُطْفٍ، ثُمَّ قَالَتْ:

- لَا تَقْلَقْنِي، كُنْتُ أَمْزَحُ. أَصْلاً، لَا مَجَالَ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَكُمَا.

قَالَتْهَا وَمَرَّرَتْ الْمِفْتَاحَ عَلَى لَصَاقِ الْكَرْتُونَةِ فِي حَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ، وَحَسِبْتُهَا مَرَّرَتْ سَكِيناً عَلَى صَدْرِي وَفَتَحْتَهُ. رَاحَتْ تَسْحَبُ الْكُتُبَ بِيْطَاءً. لَمْ أَكُنْ أُرِيدُهَا أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ أَمْرَ نَجْوَى يَهْمُنِي إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ، فَفَرَّرْتُ الْإِنْسِحَابَ مِنْ تِلْكَ الْمَحَادِثَةِ بِهَدْوٍ. نَهَضْتُ بِيْطَاءً كَأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَنْبَجِسَ اسْمُ نَجْوَى مِنْ حَرَكَاتِ جَسَدِي، أَوْ تَتَدَقَّقَ رَائِحَتُهَا مِنْ عَقْلِي. وَحِينَ عَبَرْتُ الْكَوْلُورَ الْمَظْلَمَ مَتَّجِهةً إِلَى مَكْتَبِي، تَمَنَّيْتُ لَوْ أَمُوتَ. كُنْتُ غَاضِبَةً وَخَجِلَةً مِمَّا فَعَلْتُهُ الْبَارِحَةَ، وَغَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى التَّوَقُّفِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ. فَكَّرْتُ كَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُحْظُوظٌ، لِأَنَّ التَّفْكِيرَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَخْجَلَةِ وَالْمَقْرَفَةِ وَالسَّيِّئَةِ لَيْسَ لَهُ رَائِحَةٌ. لَوْ كَانَ لَاسْتِدْعَاءُ الذِّكْرِيَّاتِ رَائِحَةً، لَمْتُ فَعْلِيّاً مِنَ الْخَجَلِ أَمَامَ نَدَى.

لَمْ أَتَمَّ لَيْلَةَ الْبَارِحَةِ أَبَداً. غَفَوْتُ قَلِيلاً عِنْدَ السَّادِسَةِ وَالنِّصْفِ صَبَاحاً، وَاسْتَيْقَظْتُ فِي السَّابِعَةِ لِلِاسْتِعْدَادِ لِلْمَجِيءِ إِلَى الْعَمَلِ. ظَلَلْتُ مُسْتَيْقِظَةً مِثْلَ بَوْمَةٍ أُحَدِّقُ فِي شَاشَةِ الْهَاتِفِ كَأَنِّي بِصَدْدِ إِجْرَاءِ تَحْقِيقٍ مَهْمٍّ حَوْلَ قَضِيَّةٍ خَطِيرَةٍ، وَقَدْ كُنْتُ فِي الْوَاقِعِ، أَتَقَصَّى صَفْحَةً سَعَدَ عَلَى فَيْسْبُوكَ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلْتُ الْعِشَاءَ، اسْتَلْقَيْتُ مُبَاشَرَةً عَلَى السَّرِيرِ، وَفَتَحْتُ الْهَاتِفَ بِسَعَادَةٍ. كَانَ اسْمُ سَعَدَ مَكْتُوباً بِالْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ Saad Jabrane، وَتَحْتَهُ تَقْدِيمٌ قَصِيرٌ، هُوَ مَقُولَةٌ لِمَارْسِيلَ بَرُوسْت: «إِنَّا نَتَمَتَّعُ بِمَوْهَبَةِ اخْتِرَاعِ الْحِكَايَاتِ كِي نُدْغِدَغَ الْمَنَا». آخِرُ مَنَشُورٍ عَلَى صَفْحَتِهِ بِتَارِيخِ أَمْسٍ 27 يُونِيو 2018: Saad Jabrane is in a relationship with Shahrazad. رَأَيْتُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَرَّاراً وَأَنَا أَبْتَسِمُ، ثُمَّ أَخَذْتُ أَمْرٌ مَنَشُورَاتٍ سَعَدَ وَاکْتَشَفْتُ عَالَمَهُ الْإِفْتِرَاضِي.

مَنَشُورٌ بِتَارِيخِ 10 مَارَسٍ 2018: «رَبِّمَّا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْسَى عَيْنَيْكَ

الدافئتين، بشرتكِ النقية، أحلامكِ المذهلة، لكن، كيف أنسى قلبي الذي أخذته معك؟»

في اليوم نفسه، نشر: «شيئان لا حدودَ لهما: الكونُ وغباءُ الإنسان».

منشورٌ بتاريخ 17 فبراير 2018: «شباب، أرجوكم، مَنْ مِنْكُمْ يستعمل هاتفاً من نوع آيفون ويعرف كيفية تحميل الموسيقى فيه بطريقةٍ مجانية؟ أحتاج ذلك على وجه السرعة. شكرًا لكم».

منشورٌ آخر بتاريخ 13 فبراير 2018: «هل العاشق يلهثُ فعلاً وراء مَنْ يُعذِّبه؟»

منشورٌ بتاريخ 6 يناير 2018: فيديو لراقصة الباليه الإسبانية مارتا غونزاليس تتفاعل مع مقطوعة بحيرة البجع رغم إصابتها بالزهايمر!

منشور في السابع والعشرين من ديسمبر 2017: «نريدُ بلداً خالياً من الفاسدين وتجار الدين!»

منشور في الثالث من ديسمبر 2017: رابط مقال بعنوان «الصورة النمطية للكاتب .. فنجان قهوة وسيجارة وفيروز».

الخامس من نونبر 2017: صورةٌ تُظهر فنجاني قهوة على طاولةٍ في أحد المقاهي، أصابع امرأةٍ أظافرها مقضومة وبشعة ومصبوغةً بلونٍ أزرق سماوي، نظارة شمسي نسائية، قنينة ماء وكتاب لم أستطع رؤية عنوانه.

لم يكن على الصورة سوى أربعة تعليقات، الأول لبروفایل مُسمّى أحلام آيت الحاج تقول فيه بالإنكليزية: «ما الذي حدث؟»، والثاني لسعد يردّ عليها: «تعالِي إلى الخاصّ، وسأحكي لكِ كلَّ شيء». أمّا التعليق الثالث، فلبروفایل مُسمّى صابر المسفيوي يعاتب سعداً والفتاة التي معه على غيابهما الطويل عن أصدقائهما. ردّ سعد على هذا التعليق: «حدثت أشياء كثيرة، يا عزيزي، لكنّ كلَّ شيء على ما يُرام الآن، أتمنى أن أراك قريباً، إن شاء الله».

لم أستطع أن أصبر أكثر. كنتُ سأجنُّ لأعرف هل الأصابع البيضاء ذات الأظافر البشعة المصبوغة بأزرق سماوي لنجوى أم لا. مررتُ أصبعي بسرعة على شاشة الهاتف، ودخلتُ إلى الألبوم الصور.

كان الألبوم مملوءاً بعشرات الصور المختلفة والشهية. نبض قلبي بقوة كأنني في موعد حبٍّ في أثناء المراهقة أو في مقابلة عمل مهمة وحاسمة. ظللتُ متسمرةً في مكاني لوهلة أحاول استيعاب الإثارة التي في تلك اللحظة، قبل أن أضغط على إحدى الصور بشكل عشوائي.

كانت الصورة منشورة في صيف العام 2017، يظهر فيها سعد واقفاً في الشارع، مرتدياً تيشيرت أسود عليه صورة نيتشه، وحاملاً في يده كيس تسوق. كان واضحاً أنه سعيد جداً لدرجة لم تكن هناك حاجة لأن تنفج شفتاه لنعرف ذلك، لأنَّ عينيَّه كانتا بتبسمان. علّق على الصورة: «بعدسة أعلى شخص في العالم».

كنتُ أشعر كما لو كنتُ أتناول مخدراً لذيذاً، وأودُّ أن أستهلكه كله لحظة واحدة. بأصبع مرتجف، ضغطتُ على صورة أخرى تعود إلى العام 2016. كان يظهر فيها سعد في أحد شوارع أمستردام، لكنّه لا ينظر إلى الكاميرا، بل يبدو منشغلاً بمشاهدة شيء آخر، لا أحد يعرف ما هو. كان واضحاً أنَّ الصورة لم تكن عفوية، وأن سعد هو الذي طلب التقاطها، وتعمّد أن يبدو كما لو لم يكن قد انتبه إلى الكاميرا. دخلتُ إلى التعليقات، لأعرف مَنْ يكون مرافقه في هذا السّفر. كنتُ أقرأ متمنيات أصدقائه له بالاستمتاع بالسفر وأنا أفكر في نجوى. كانت حاضرة في عقلي كما لو أنها موجودة في الصورة. رأيتُ بروفایل أحلام آيت الحاج مرةً أخرى. علّقت: «استمتعا بوقتكما، عزيزاي، اشتقتُ إليكما كثيراً، ولا تنسيا ما طلبتُهُ منكما»، وأضافت في نهاية التعليق إيموجي يغمز، مثل أي شخص يتلذذ بكشف جزء صغير من سرِّ ما، فقط لإثارة فضول الآخرين.

وفي غمرة بحثي المحموم عن نجوى، رأيتُ صوراً كثيرة لفناجين قهوة، ولوحاتٍ فنيّة مشهورة، وكُتّابٍ معروفين، وكُتُب، صوراً لشروق الشمس وغروبها، صور شواطئ، صوراً لشمشون وهو يتطلّع بعينه الوحيدة والحزينة، صوراً لنوافذ منقّطة بالمطر، صور حقائب ومحطّات قطار، صور كؤوس شاي، صوراً ظهرت فيها بالخطأ أجزاء صغيرة من قناني بيرة أو كؤوس نبيذ أو أطافر أيدي نساء. كانت الساعة تُشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ولم أكن قد شِبتُ بعدُ من التفرّج على الصور وقراءة التعليقات، بل إنّ تكلس جسدي بسبب الجلوس في وضعية واحدة خلال ساعات لم يُننني عن الاستمرار في عملية البحث عن نجوى. حين كنتُ أتعب، كنتُ أنهضُ وأمشي ذهاباً وإياباً في البيت، أو أفتح نافذة البهو لبضع دقائق، لأشم قليلاً من الهواء، أو أسند ظهري إلى الأريكة ممدّدة رجليّ على الطاولة أمامي. كنتُ أفعل ذلك كلّه دون أن أتوقّف عن تمرير أصبعي على شاشة الهاتف بحثاً عن صورة لنجوى.

أخيراً وجدتها. عند حلول الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، رأيتُ صورة امرأة جميلة ترتدي قميصاً أبيض أكبر من مقاسها، منحنية قليلاً بظهرها وهي تلاعب كلباً كبيراً، لكن، رافعة رأسها عالياً وهي تضحك. كان فمها مفتوحاً على آخره، بينما ظهرت تجاعيد رفيعة حول عينيها. حدّقتُ بأزرار قميصها المفتوحة وبصدرها الأبيض المكتنز بإعجاب. كان شعرها الأحمر الفاتح مسرّحاً في كعكة رخوة، بينما تدلّت خُصلات فوضوية مجمّعة منه على وجهها. أعجبتُ بشعرها، لدرجة أنني أطلقت ضحكة مستخفّة وحسودة، وقلتُ لنفسني إنّ هذا ليس لونها الطبيعي على أيّ حال، لأنّ حاجبَيْها كثيفان وغامقان.

كانت عينا نجوى بنيتين غامقتين، وأدناها صغيرتين. وكانت الأذن الظاهرة في الصورة بها ثلاثة خروم واضحة، لكنها لا تضع أقرطاً. أنفها كان مستقيماً ومزينا بخارقة صغيرة جداً وبرّاقة. شفتاها رفيفتان، لدرجة أن شفتها العلوية

اختفت حين ضحكت بينما ظهرت أسنانها البيضاء وقواطعها الطويلة التي تشبه قواطع أرنب. نظرتُ إلى وجهها المملى قليلاً، وإلى الغمّارة تحت وجنتها اليمنى، وتذكّرتُ أنني، في بداية مراهقتي، كنتُ أتمنى لو كانت لديّ غمّارة، بل إنني كنتُ أحسد الفتيات اللواتي لديهنّ غمّازات، وأراهنّ أكثر جمالاً من الأخريات وأكثر حظاً في الحبّ. عندما كبرتُ، فهيمتُ أنني فقط كنتُ أكره نفسي. لم أكن واثقةً من نفسي لدرجة تمنيتُ دائماً أن أكون مثل الأخريات، وأن أمتلك ما يمتلكه، حتّى لو كان الأمر يتعلّق بنقص أو عيب. في العاشرة، كنتُ أتمنى لو كنتُ مثل زميلتي في الدراسة أسماء التي تعاني من ضعف في البصر وترتدي نظّارة. في الثانية عشرة، كنتُ أرى زميلتي نهيلة التي تمشي مقوّسة الظهر وتُخرج الصوت من أنفها وهي تتكلّم أجمل فتاة على الإطلاق، وكنتُ أتساءل لماذا أنا بشعة هكذا ولستُ جميلة مثلها. كنتُ أنظر بإعجاب مشوّب بالحسد إلى الفتيات اللواتي يأكلنّ أظافرهنّ، واللواتي يعانين من النحافة المفرطة أو من النّمش أو من تأخر في البلوغ. تمنيتُ دائماً أن أكون أيّ خِراءٍ آخر غير نفسي.

لم أكن قد رأيتُ نجوى من قبل، ولا أعرف لماذا كنتُ متأكّدة أنّ الفتاة التي تضحك في الصورة هي نفسها، لكنني قرّرتُ أنّها كذلك. كانت ملامحها متناسقة بشكل لا يُصدّق، وفتنتني الوشوم التي تحملها على جسديها. كانت كلمة Solitude المنقوشة على صدرها مباشرة تحت كتفها أخاذة. لا أعرف هل أخذني الوشم لأنه كان جميلاً فعلاً أم لأنّ كلمة الوحدة كانت آسرة دائماً بالنسبة إليّ، وتوحي لي بأعمق المشاعر وأقربها إلى حقيقة الإنسان: الكتابة والوحشة والتعرّي والحزن والموت؟ كانت نجوى رائعة بشكل مؤلم كالحقيقة، وقد طوّت كُم قميصها بشكل فوضويّ، فبرزَ وشم آخر باللغة العربية تحت الزغب الخفيف على ساعدها: **تُنسى كأنك لم تكن**. فكّرتُ أنّ الراوية التي أخذت منها هذه الصورة بحيث يبدو كلا الوشمين متعمّدة، وأنّ سعد كان يعشق وشم حبيبته إلى هذه الدرجة التي جعلته يلتقط لها صورة رائعة

كهذه. تذكّرتُ حين قال لي إنه تخيّل أنّ لديّ وشماً على ساعدي، ولم أنزعج لأنه أرادني أن أشبه أكثر امرأة أحبّها، لأنّها على كلّ حال أفضلُ منّي. كنتُ في حالةٍ قلبيةٍ غريبة، غيرَ قادرةٍ على الشعور بأيّ شيءٍ على الإطلاق، لا بالغيّرة ولا بالحزن ولا حتّى بالكبرياء. كنتُ مثل قِدرٍ فارغٍ يحترق فوق النار، لا يعرف أنّه يحترق.

أمّا حالتي العقلية، فكانت تشبه الحالة العقلية لمن يحاول حلّ معادلة رياضية صعبة. كانت رؤية هذه المرأة والتطلّع لمعرفة المزيد عنها، والربطُ بين الأشياء التي قيلت عنها والأشياء التي أراها أمامي، وعقد المقارنات بيني وبينها، شيئاً متعباً وممتعاً في الآن نفسه.

حين وقّع نظري على وشوم نجوى، تذكّرتُ كم كنتُ أودّ أن أنقش جملةً على جسدي، كلماتٍ تبقى معي حتّى أموت، شيئاً لن يستطيع الزمن محوّه مثلما يمحو الشباب والجمال والنضارة. كنتُ في الثالثة والعشرين حين أردتُ أن أنقش على ظهري عبارة سيلفيا بلاث **إنّ تدفق الدّمِ شغفٌ، ولا يمكن إيقافه**، لكنني كنتُ جبانةً جداً، وأخافُ من أمّي. أمّا نظراتُ الآخرين إليّ وما يمكن أن يقولوه عنيّ، فكان يجعل رُكبتيّ ترتجفان وقلبي يسقط من مكانه. كنتُ كتلةً هشةً من انعدام الثقة بالنفس.

لكنني لم أشعر بالغيّرة من نجوى في تلك اللحظة، ولم يثر كبريائي، بل شعرتُ بالخزي، كأنني رأيتُ جبنِي عارياً أمامي. كانت نجوى بهيئةً ومبتهجةً وراضيةً، أو هكذا أردتُ أن أتخيّلها، وكنتُ بائسةً.

بحزنٍ هائل، قرأتُ ما كتبه سعد تعليقاً على الصورة المنشورة على فيسبوك قبل سنتين:

حياتي قبوٌ مظلمٌ ورطب
وابتسامتك ضوءٌ مُنعش
وهواء

تعرفين كيف تغسلينني من قذارتي
كيف تُضيئين أكثر زواياي قتامةً
كيف تُشرعين نوافذي
على العالم

لم يكن تفرّجي على الصوَرِ يطفئُ نارَ فضولي، أو حتّى يخفّفُها. إذ كلّما رأيتُ صورةً جديدةً، تشوّقتُ لرؤية المزيد، وكلّما عرفتُ شيئاً جديداً، نُقْتُ لاكتشاف أشياء أخرى. كانت معرفَةُ تلك المرأة بالنسبة إليّ ممتعةً وفاتنةً كمعرفةٍ سرٍّ من الأسرار. في لحظاتٍ ما، كنتُ أنزعج من نفسي حين أفكّرُ أن هذا يُسمّى تطفلاً على حياة الآخرين وحشراً للأنف في ماضيهم وأسرارهم وشؤونهم الخاصّة، لكنني سرعان ما كنتُ أستدركُ أن الحياة الخاصّة لا تبقى حياةً خاصّة حين تُنشر على مواقع التواصل. كنتُ أهدّي شعوري بالذنب بلوم سَعد، لأنّه شارك هذه التفاصيل كلّها مع أربعة آلاف شخصٍ افتراضي، فأشعرُ بالعزاء، وأستمرّ في البحثِ بإصرار.

رأيتُ صورةً أخرى لنجوى تلك الليلة، وأشعرني بعضها بالمتعة والألم في الوقت نفسه. كانت هناك صورةٌ تعود إلى صيف العام 2015، يظهران فيها معاً، يعانق بعضهما الآخر مثل صديقين حميمين، وليس كحبيبين. كانا يرتديان قميصين متشابهين، عليهما صورة نيتشه مرتدياً لباس السوبرمان، وكان سَعد محيطاً عُنق نجوى، بحيثُ تدلّت يده من كتفها. كانت نجوى تضحكُ مثل مارلين مونرو في صورها، رافعةً رأسها إلى فوق، فاتحةً فمها المصبوغ بأحمرٍ قانٍ على آخره. كانا مبتهجين لدرجةٍ يُخيّلُ للواحد أنّ السعادة هربت من الدنيا واختبأت في تلك الصورة. بآلم، قرأتُ التعليقَ المرفق: «صديقان إلى الأبد».

كانت مشاهدتي لتلك الصوَرِ تعيدُ حبَّ نجوى وسَعد إلى الحياة من جديد، فأشعرُ أنّهما ما يزالان معاً، جالسين جنباً إلى جنب، مرتدين

تَشِيرَتَيْنِ مُتَشَابِهَيْنِ وَيُضْحِكُنْ بِقُوَّةٍ مِثْلَ صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ. مَنْ قَالَ لَنَا إِنَّ
الْمَاضِي انْتَهَى؟ إِنَّهُ مَجْرَدُ عَالَمٍ آخَرٍ مُوَازٍ لِعَالَمِنَا، يَتَابَعُ حَيَاتُهُ فِي دَوَاخِلِنَا وَفِي
الصُّورِ الَّتِي التَّقَطُّنَاهَا وَفِي الذَّاكِرَةِ. كَانَتْ نَجْوَى مَا تَزَالُ مُوجُودَةً فِي تِلْكَ
الصُّورِ وَفِي رَأْسِ سَعْدٍ، وَهِيَ تَحْتَفِلُ بِعِيدِ مِيلَادِهَا السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ، مَقَرَّةً
وَجْهَهَا الَّذِي ظَهَرَتْ عَلَيْهِ بَثْرَتَانِ إِلَى عَدْسَةِ الْكَامِيرَا، وَهِيَ بِشَعْرِ بَنِي غَامِقٍ
وَحَاجِبَيْنِ رَفِيعَيْنِ وَشَفَتَيْنِ غَيْرِ مُصْبُوعَتَيْنِ بِأَحْمَرِ شِفَاهِ، حَامِلَةً قِطًّا مَرْقُطًا
بَيْنَ يَدَيْهَا، رَافِعَةً إِيَّاهُ إِلَى أَعْلَى كَمَا يَفْعَلُ الْكِبَارُ حِينَ يَلَاعِبُونَ صِغَارَهُمْ. وَهِيَ
تَرْتَدِي زِيَّ التَّخَرُّجِ الْأَسْوَدِ الطَّوِيلِ، وَتَمْسِكُ شَهَادَةً بَيْنَ يَدَيْهَا مَبْتَسِمَةً كَأَنَّهَا
سَتَبْقَى سَعِيدَةً إِلَى الْأَبَدِ، وَهِيَ بِشَعْرِ قَصِيرٍ، وَبَدُونِ وَشُومٍ عَلَى جَسَدِهَا.
كَانَتْ نَجْوَى خَالِدَةً فِي تِلْكَ الصُّورِ، وَكَانَ خُلُودُهَا يُشْعِرُنِي بِالْأَلَمِ.

لَمْ أَكْتَفِ بِمُشَاهَدَةِ الصُّورِ وَقِرَاءَةِ التَّعْلِيقَاتِ فَقَطْ لَيْلَتَهَا، بَلْ إِنِّي ضَغَطْتُ
لِأَسْتَكْشِفَ مَنْ ضَغَطَ لَائِكَ عَلَى التَّعْلِيقَاتِ، وَحَسِبْتُ عُمَرَ نَجْوَى انْطِلَاقًا
مِنْ تَارِيخِ نَشْرِ صُورَةِ عِيدِ مِيلَادِهَا، وَبَحِثْتُ إِنْ كَانَتْ صَفَحْتُهَا عَلَى فَيْسِبُوكِ
مُوسُومَةً فِي إِحْدَى تِلْكَ الصُّورِ، لِأَشَاهِدَ صُورًا أَكْثَرَ، وَأَعْرِفَ أَشْيَاءَ أُخْرَى
عَنْهَا. كُنْتُ أَفْعَلُ هَذَا كُلَّهُ وَأَنَا أَفَكِّرُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ فَقَطْ: أَنْ حَبِيبِي مَا يَزَالُ
يُحِبُّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ، لِأَنَّهَا أَفْضَلُ مِنِّي وَأَجْمَلُ مِنِّي وَتَسْتَحِقُّ الْحُبَّ أَكْثَرَ مِنِّي.

حِينَ بَرَعَ الصَّبْحُ، أَلْقَيْتُ هَاتِفِي عَلَى الْأَرِيكَةِ وَقَدْ تَسَرَّبَ إِلَيَّ الْقَلَقُ. كَانَ
قَدْ انْتَشَرَ فِي أَعْضَائِي تَعَبٌ غَرِيبٌ مَمْزُوجٌ بِالْإِحْسَاسِ بِالذَّنْبِ. حَرَكْتُ رِجْلِي
بِصُعُوبَةٍ، وَشَعَرْتُ بِالْأَلَمِ فِي رِكْبَتِي حِينَ خَطَوْتُ لِأُعْلِقَ النَّافِذَةَ. لَمْ يَكُنْ فِي
تَغْرِيدِ طَيُورِ الصَّبَاحِ أَيُّ سُلُوَانٍ لِي. اسْتَلْقَيْتُ عَلَى الْكَنَبَةِ وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي
بِقُوَّةٍ مُحَاوَلَةً إِزَالَةَ نَجْوَى مِنْ عَقْلِي. حَضَنْتُ مُخَدَّةً، ضَاغِطَةً عَلَيْهَا بِشِدَّةٍ،
لَيْسَ لِأَنِّي أَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ، بَلْ لِأَنِّي كُنْتُ أَخَافُ أَنْ أَفْقِدَنِي وَأَنْفَلَيْتَ مِنِّي.
وَلَا أَدْرِي مَتَى غَفُوتُ.

وضعتُ رأسي المثقل باللذة على صدرِ سَعدِ العاري، وتنقَّستُ عميقاً.
أحاط جسدي بذراعِهِ، وراح يداعِبُ شَعْرِي. كنتُ أُحِبُّ أن يُمسَدَ رأسي
حتَّى يغلبني النوم. ربّما كنتُ قِطَّةً في حياةٍ سابقة، أو ربّما كان ينقصُني
الحنان، كما كانت أختي جميلة تقول حين أطلبُ منها أن تلعبَ بخُصَلاتِ
شَعْرِي ونحنَ مراهقتان. كان بيديها سِحْرٌ، بمجرد أن تلمَسَ رأسَ أيِّ واحدةٍ
منّا في البيت، تنامُ مباشرةً. كان ذلك في زمنٍ مضى، حين كانت مشكلاتنا
تُختَرَلُ في عددِ الدقائق التي مسَدَت لي فيها شَعْرِي مقابلَ الوقتِ الذي
لعبتُ فيه أنا بخُصَلاتِها. جميلة أصبحت مجنونةً وغاضبةً منذ أن صارت
أمّاً، وأصبحت تكرهني.

أغمضتُ عينيّ، وسَرَت في جسدي رغبةً عميقةً في النوم. كنتُ أشعر
بحبِّ سَعدِ ملتصقاً في جلدي، عبر رائحته ولُعا به وملَمَسِ بشرته. لذلك،
أردتُ أن يبقى رأسي على ذلك الصدر إلى الأبد. خُيِّلَ لي في لحظةٍ ما أن
أيّوب هو الذي يحوطني بذراعِهِ، وشعرتُ بحزنٍ خفيف على موته. حكيتُ
لسَعدِ عن أيّوب الأسبوع الماضي، لكنني لم أُخبره أنه هو الذي فضَّ بكَارتي.
حين سألتني مَنْ فَعَلَ ذلك، نبَضَ قلبي بقوةٍ وقلْتُ له إنَّ بكَارتي فُضَّت
بسببِ حادثةٍ درّاجة. كنتُ أخشى أن تتغيَّرَ نظرته إليّ إن أخبرته بالحقيقة،
أن يظنَّ أنني عاهرة، ويترُكني. حين تطلَّع إليّ بعينيهِ اللتين جحظتا وصارتا
حمراوين، شعرتُ أنني سأموتُ من الخوف، ورُحْتُ أسردُ الحادثةَ المفترضة
بالتفصيل، ثم رُحْتُ أضيفُ بعضَ البهاراتِ على كلامي، مثل فكرةٍ أن شَرَفَ

المرأة لا يوجد بين فخذَيْها، وأنّ ثلاثين في المائة من نساء العالم يولدن بدون غشاء بكاره، وأنّني لم أستمتع بالجنس مع رجلٍ مثلما فعلتُ معه.

كان غاضباً جداً كأنّني خُنْتُه، وكنتُ خائفة، لكنّ، مستمتعةً أيضاً برؤية الغيرة في عينَيْه، بالرغم من أنه لم يعرف الحقيقة، وبالرغم من أنّ أيّوب لم يُعد موجوداً في هذا العالم. خاصّمني ليومين كاملين، وحين التقينا، نسينا كلّ شيء.

دخل نسيّم عليلٌ من النافذة، وتناهت إلينا أصوات أطفالٍ يلعبون الكرة في الخارج. ضمّني سعد إليه أكثر دافئاً رأسي في عنقه، ووجهه في شعري، ثمّ قال:

- أحبُّ رائحة شعرك كثيراً.

قلتُ:

- أستعمل شامبوان بنكهة جوز الهند.

ضغط عليّ بذراعه، وصاح:

- شهرزاد! لماذا أنتِ حلوة هكذا؟

قلتُ:

- أنا حلوة فقط في عينيك، يا حبيبي!

قال:

- أنتِ تعرفين أنكِ حلوة في الأحوال جميعها. فلماذا تكذبين الآن؟

حملتُ رأسي من على صدره، وجلستُ أمام جسده المستلقي. كان يتبسّم، وعيناه مغمضتان.

قلتُ بنبرة مفعمة بالدلال:

- أنتَ الذي تكذب! أخبرتني أنك نسيتَ حبيبتكَ السابقة، بينما لا تزال تحتفظُ بصورها على صفحتك!

فتحَ عينيه، واختفت ابتسامته. رمقني شراً، لكنني واصلتُ:

- هيا، أخبرني كلَّ شيء. مَنْ تكون تلكَ المرأة؟ ولماذا لا تزال تحتفظُ بصورها على صفحتك؟

قال بنبرةٍ لاذعة:

- نسيتُ أن أمسحها.

سادَ صمتٌ طويل بيننا. كنتُ أفكرُ في كلامه، وتذكّرتُ بألم تلكَ الليلة التي قضيتها في النباش في صفحته.

أضاف بنبرةٍ تجمع بين التوسّل والغضب:

- شهرزاد، أرجوك! لا تُفسدي هذه اللحظة، من فضلك. إنها مجردُ صورٍ على فيسبوك، ولا تعني أيَّ شيء!

ظلمتُ صامتةً لوهلة. كان فضولي لأعرف قصةَ نجوى أكبرَ من غيرتي على سعد منها. تضايقتُ من ذلك، لكنني تطلّعتُ إلى سعد بحزنٍ وغضب.

قام وجلسَ قبالي على السرير. أمسكَ يدي وقال بهدوء هذه المرأة:

- حسناً، سأمسحُ تلكَ الصورَ كلّها، إذا كان هذا ما تريدان. لكن، أرجوك، لا تُفسدي هذه اللحظة.

كنتُ خائفةً من غضبه ومن خسارته، لكنّ تفكيري أنّه لا يحبّني على أيّ حال كان يعزّيني ويشجّعني على الاستمرار في الإلحاح. قلتُ:

- ألم تكنَ لتمسحها لو لم أخبرك بذلك؟

نظرَ إليّ بنفاد صبر. أضفتُ في استياء:

- لقد قرأتُ كلَّ شيءٍ كتبتُهُ عنها، كلَّ شيءٍ. ويبدو من كلامِكَ أنك كنتَ تحبُّها كثيراً، وأنها كانت أهمَّ شيءٍ في حياتِكَ.

قاطعني بنبرةٍ حادة:

- لا تُصدِّقي كلَّ ما يُنشر على فيسبوك. تلك مجرَّد مظاهر، أمَّا الحقيقة، فلا يعرفها إلا مَنْ عاش تلك الحياة بتفاصيلها. نحنُ لا نُظهر أمام الآخرين إلا الأشياء الجميلة، ونحتفظ باللحظات المؤلمة لأنفسنا، بل ونُخبِّئها أحياناً، لأننا أنفسنا نرفض أن نراها. فلا تنخدعي!

قُلْتُ بهدوء هذه المرأة:

- حسناً، أنا آسفة. أعلم أنك لا تكذب، لكنني وددتُ فقط أن أعرف هذا الجزء من حياتِكَ، لأنَّكَ تهمني، يا سَعد.

كانت نظرته مترددة، كأنه يسألني إن كنتُ متأكدة من رغبتني في سماع قصَّته. أو مأتُ مبتسمة.

وكمَنْ يمشي في حقل الغام، بدأ سَعد يسرد قصَّته مع حبيبته السابقة بحذر، خوفاً من أن يقول شيئاً يجرح مشاعري أو يجعلني أغضب. لكنَّه بمجرَّد ما رأيته محافظةً على ابتسامتي، اطمأنَّ وراح يحكي تفاصيل كلِّ شيء، من البداية.

التقى سَعد مع نجوى في نهاية سنة 2007 عندما كان طالباً في سلك الماجستير في كليَّة الآداب بالرَّباط. كانت نجوى حينها تتسكَّع في المدينة، بعدما هربت من بيت والديها في مدينة أكادير. كانت شابةً جميلةً وذكيةً ومتمرَّدة وطموحة، لكن، هشةً وحسَّاسةً زيادةً عن اللزوم ومهزوزة الثقة بالنفس أيضاً. رآها سَعد أوَّل مرَّة في مطعم الوجبات الخفيفة بالكليَّة. كانت ترتدي بنطال جينز وتيشيرت وحذاء رياضياً، وكانت جالسةً وحدها تمصُّ حلوى

عودية، وأمامها حقيبة ظهر كبيرة ومتسخة، مدت رجليها فوقها غير مكتثرة لأي شيء. كان سعد حينها شاباً غراً وتنقصه التجربة، وسحره ذلك الوضع الذي ينم عن لا مبالاة وتمرد واضح. تناولت بقايا سندويتش كانت موجودة في صحن بلاستيكي فوق الطاولة، دخت سيجارة، ثم راحت تبحث في حقيبتها عن شيء ما. في تلك اللحظة، قام سعد وتوجه نحوها وتحدثا للمرة الأولى. وحين ارتاحا في الحديث واطمأنت له، أخبرته أنها تعرضت لبعض المشكلات، وأن أصدقاءها طردوها من البيت، وأنها جائعة جداً. تعاطف معها، ودعاها لتناول سندويتش دجاج. لن ينسى، يقول، نظرة الشَّبَع والسعادة في عينيها حين تطلعت إليه بعدما تناولت السندويتش. هكذا بدأت قصة حبهما. لم يكن حباً من أول نظرة، ولا من أول لمسة، بل من أول سندويتش!

فتنته حياتها. كانت في الحادية والعشرين، مطلقة حديثاً، هاربة من أبوين مهملين ومن حياة بائسة. تركت دراستها في الجامعة، وطفلها البالغ من العمر سنتين، وتوجهت إلى العاصمة بحثاً عن حياة أفضل. قالت له وقتها إنها خلقت بطموح أكبر من الأمومة ومن العواطف، وإن على الإنسان أن يغمض عينيّه ويمشي إلى الأمام دون أن يذرف على ماضيه دمعاً واحدة. كانت قوية وهشة في الوقت نفسه، يقول، طموحة وكسولة في الوقت نفسه. وبقدر ما كانت حساسة أحياناً، كانت بلا مشاعر أبداً في بعض الأحيان، وبقدر ما كانت عطشانة للاستقرار، بقدر ما كانت مجبولة على الهرب أيضاً. فهم سعد لاحقاً أن هذه المرأة قادمة من مكان لا يمكن إلا أن يجعلها عرضة للتناقضات. حكّت له أنها تعرضت للاغتصاب وهي في العاشرة من طرف أخيها الذي يكبرها بعشر سنوات، وأن أمها على علم بذلك، غير أنها سكنت بجبن. حكّت له أيضاً أنها أُجبرت على الزواج، لأنها كانت تخرج كثيراً خلال مراهقتها وتصاحب الشباب وتدخل إلى البيت في أوقات متأخرة. كانت تفعل ذلك خوفاً من النظر في وجه أمها، وقالت له إن عينيها لم تلتقيا أبداً

منذ أن كانت في الخامسة عشرة. يفتح سَعد عَيْنَه بدهشة ممزوجة بالحزن والافتتان (وأَتخَيَّلُ أَنَّهَا النَظَرَةُ نَفْسُهَا الَّتِي كَانَتْ فِي عَيْنَيْهِ حِينَ سَمِعَ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَوَّلَ مَرَّةٍ)، ويقول: «أَيَّ حَيَاةٍ هَذِهِ الَّتِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ الْمَرْءُ إِلَى وَجْهِ أُمِّهِ؟!»

أَحَبَّ سَعد نَجوى بِجُرُوحِهَا وَمَشْكَلاتِهَا وَغَرَابِطِهَا كُلِّهَا، وَكَانَتْ السَّنَوَاتُ الْأَوَّلَى مِنْ عِلَاقَتِهِمَا، يَقُولُ سَعد، رَائِعَةً بِالْمَقَايِيسِ كُلِّهَا. انْتَقَلَتْ لِلْعِيشِ مَعَهُ فِي الْغُرْفَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَأْجِرُهَا وَهُوَ طَالِبٌ، وَكَانَا يَخْرُجَانِ كَثِيرًا، وَيَسْتَمْعَانِ إِلَى الْمَوْسِيقَى، وَيَشَاهِدَانِ الْأَفْلَامَ فِي السِّينِمَا حِينَ يَسْمَحُ الْجَيْبُ بِذَلِكَ. حِينَ بَدَأَ الْعَمَلُ فِي التَّرْجُمَةِ، اسْتَأْجَرَ سَعد بَيْتًا، وَانْتَقَلَ مَعًا إِلَى هُنَاكَ. يَقُولُ بِنَدَمٍ وَحَسْرَةٍ إِنَّهُ مَنَحَ لِنَجْوَى أَجْمَلَ حَيَاةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَحْلُمَ بِهَا امْرَأَةٌ مِثْلُهَا، وَإِنَّهُ كَانَ يَنْفَقُ عَلَيْهَا وَيَشْتَرِي لَهَا الْهَدَايَا وَالْمَلَابِسَ وَكُلَّ مَا رَغِبَتْ فِيهِ نَفْسُهَا.

لَكِنَّ نَجْوَى الَّتِي كَانَتْ مَا تَزَالُ فِي اتِّصَالٍ مَعَ وَالِدَتِهَا بِسَبَبِ ابْنِهَا، كَانَتْ تَعِيشُ غَضْبًا وَأَلَمًا دَائِمِينَ بِسَبَبِ الْأَخْبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَصْلُهَا عَنْ أُخْيِهَا. حِينَ سَمِعَتْ أَنَّهُ أَصْبَحَ مَلْتَحِيًا، وَرَأَتْ مَنْشُورَاتِهِ الدِّينِيَّةَ عَلَى فَيْسْبُوكِ أُغْمِيَ عَلَيْهَا. وَحِينَ تَزَوَّجَ وَعَرَفَتْ مِنْ أُمِّهَا أَنَّهُ أَجْبَرَ زَوْجَتَهُ عَلَى ارْتِدَاءِ النِّقَابِ، دَخَلَتْ فِي اكْتِنَابٍ حَادٍّ، لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ إِلَّا حِينَ قَطَعَتْ عِلَاقَتَهَا بِعَائِلَتِهَا، وَتَخَلَّتْ عَنْ ابْنِهَا نَهَائِيًا.

فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، عَادَتْ نَجْوَى لِلدِّرَاسَةِ فِي الْجَامِعَةِ، وَاسْتَطَاعَتْ النِّجَاحَ بِمِيزَاتٍ مُشْرِفَةٍ جَدًّا، وَالْحَصُولَ عَلَى عَمَلٍ فِي الْجَامِعَةِ فِي مَا بَعْدَ، فَتَحَسَّنَتْ حَيَاتُهُمَا، وَانْتَقَلَ إِلَى الدَّارِ الْبَيْضَاءِ حَيْثُ اسْتَأْجَرَا الشُّقَّةَ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا سَعد الْآنَ.

كَانَ سَعد، طِيلَةً حَدِيثُهُ، يَكْرِّرُ بِحَسْرَةٍ أَنَّ كُلَّ مَا حَقَّقَتْهُ نَجْوَى فِي حَيَاتِهَا كَانَ بِفَضْلِهِ، وَأَنَّهَا، لَوْلَاهُ، مَا كَانَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَالَةِ الضِّيَاعِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُهَا. - كَانَتْ مُحَطَّمَةً بِالْكَامِلِ، وَأَنَا أَصْلَحْتُهَا، وَصَنَعْتُ مِنْهَا مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ.

قُلْتُ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ:

- لَأَتَّكَ اشْتَرَيْتَ لَهَا سِنْدَوِيْتَش دَجَاجٍ مِنْ مَطْعَمِ الْجَامِعَةِ؟

رَمَقْنِي بِنَظَرَةٍ غَضَبٍ حَادَّةٍ، وَتَحَوَّلَ حَزْنُهُ الْمَمْرُوجُ بِالْاِفْتِتَانِ إِلَى حَقْدٍ، ثُمَّ قَالَ:

- لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى نَسْوِيَّتِكَ الْآنَ! تِلْكَ الْمَرْأَةُ كَانَتْ أَفْعَى، وَظَلَّتْ تَمَصُّ دَمِي لِمَدَّةِ سِنَوَاتٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هَدْفِهَا، ثُمَّ بَدَأَتْ تَخْتَلِقُ الْمَشْكَلَاتِ كَيْ تَنْفَصَلَ عَنِّي.

انْقَضَتْ عَلَيْهِ:

- لَكِنَّكَ قُلْتَ سَابِقاً إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَتَّفِقِينَ عَلَى الْانْفِصَالِ.

- نَعَمْ، لَكِنَّهَا كَانَتْ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ. أَنْتِ لَمْ تَرَيِ مَاذَا كَانَتْ تَفْعَلُ، لِذَلِكَ تَدَافَعِينَ عَنْهَا.

قُلْتُ فِي احْتِجَاجٍ:

- لَا أُدَافِعُ عَنْهَا! أَنَا أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَفْهَمَ!

قَالَ بِسُرْعَةٍ وَبِحِمَاسٍ:

- اسْمَعِي، إِذْنِ، إِذَا كُنْتَ تَرِيدِينَ أَنْ تَفْهَمِي. تِلْكَ الْمَرْأَةُ أَكْبَرُ أَفْعَى عَرَفْتُهَا فِي حَيَاتِي. لَقَدْ كَانَتْ تَتَظَاهَرُ بِالْبَرَاءَةِ، بَيْنَمَا كَانَتْ، فِي الْحَقِيقَةِ، تَبْحَثُ فَقَطْ عَنْ مَصْلَحَتِهَا، وَبِمَجَرَّدِ مَا أَصْبَحَ لَهَا رَاتِبٌ، أَصْبَحَتْ تَخْرُجُ كَثِيراً وَحْدَهَا، وَتَخْتَلِقُ الْأَعْذَارَ لئَلَّا تَقْضِيَ وَقْتُهَا مَعِي، وَتَمْضِي الْوَقْتَ كُلَّهُ فِي الْمَقَاهِي مَعَ الذُّكُورِ! أَنَا مَتَأَكَّدُ أَنَّهَا كَانَتْ تَخُونَنِي!

- وَلِمَاذَا بَقِيتَ مَعَهَا وَأَنْتَ مَتَأَكَّدُ أَنَّهَا تَخُونُكَ؟

قَالَ:

- لَمْ أَكُنْ مَتَأَكِّدًا ... كُنْتُ أَشْكُ فِي ذَلِكَ.

قُلْتُ:

- مجرد الشك في هذا الموضوع خطير!

قال بسرعة:

- طبعاً، وأنت تعرفيني جيداً، لا أستطيع البقاء مع شخص أشك في وفائه. لقد تأكدت في ما بعد من إخلاصها، لكن ما كانت تفعله لم يكن يناسبني.

قلتُ محتجّة:

- أنتَ تغَيّرَ كلامك!

صاح بغضب:

- أنتِ مَنْ تقاطعينني. دعيني أكمل كلامي أولاً... حين عرضتُ عليها الزواج، رفضت بحجة أن الزواج مؤسسة فاشلة. أنتِ قولي لي الآن، هل هناك امرأة في هذا العالم لا تريد أن تتزوج؟ كلهنّ يحلمنّ بذلك، وحين يرفضنّ، فذلك لأنهنّ لا يؤمننّ بالأشخاص وليس بمؤسسة الزواج.

- وما أدراك؟ ربّما كانت فعلاً لا تؤمن بمؤسسة الزواج!

رمقني شرّاً لبرهة، ثم قال:

- نجوى لم تقرأ مقالاً في حياتها، ولا تعرف ما معنى مؤسسة الزواج.

- لا نحتاج لقراءة المقالات والكتب لنعرف معنى مؤسسة الزواج!

- شهرزاد! فقط استمعي إليّ وستفهمين ما أتحدث عنه.

روى لي، بكثيرٍ من الحماس الممزوج بالاستياء، أن حبيبته السابقة كانت تتمتعُ بشخصية ساحرة، وأنوثة طاغية، وأنّ وعيها بأنوثتها جلبَ لهما كثيراً من المشكلات. فمن جهة، كان سعد يغارُ عليها من الرجال الذين يحاولون التقربَ إليها طول الوقت، ومن جهة أخرى، كانت ثقة نجوى بنفسها تتعاضد، لأنّها تعرفُ تأثيرها على الرجال، وتعرفُ أنّ الجميع كانوا يحاولون نيل إعجابها

ورضاها. كانت تتلقَى هدايا قيّمة في المناسبات وأعياد الميلاد، وكلماتٍ غزلٍ حين تنشرُ صورَها على مواقع التواصل، ودعواتٍ للغداء أو العشاء من طرف أساتذة جامعيّين، واعتراقاتٍ حبٍّ من رجالٍ وحتى من نساء. بل إنّ هناك مَنْ سقطوا على رُكبِهِم أمامها، وقَدّموا لها خواتِمَ زواج، وهناك مَنْ اتّصل بها ليلاً وهو سكران، ليخبرها كم يعشقُها، وهناك رجالٌ بشوارِبهم بَكّوا لأنها رفضتهم. أحياناً، كانت تتظاهرُ بالإشفاق عليهم، وأحياناً تحتقرهم وتنعتهم بأشنع الأوصاف أمام سَعد، وأحياناً تتخذهم مادّةً للضحك والسخرية، لكنّها، في قرارةِ نفسِها، يقول، تستمتع بتقرّبهم منها ومحاباتهم لها، وإلا فلماذا تقبل هداياهم وتردّ على رسائلهم؟

تطلّعتُ إليه شَرّاً غير مصدّقةٍ لكلامه. أضاف:

- أنتِ لم تسمعي أيّ شيءٍ بعد. حين قلتُ لكِ إنها أفعى، فأنا أقصد ذلك. هل تعلمين أنّ هذا هو السببُ الذي جعلها ترفض الزواج مِنّي؟
- كيف؟

- إنها تعرف أن المرأة تفقدُ جاذبيّتها للرجال بمجرد زواجها، لأنّ لا أحد يجرؤ على أن يقربها، احتراماً لزوجها، أمّا المرأة غير المتزوجة، تظلّ دائماً متاحةً في نظر الرجال حتّى لو كانت مرتبطةً بشكلٍ جدّيٍّ بأحدهم. وهي باختصار، أرادت أن تحافظ على هذا الوضع، أن تكون مستقرّة في علاقةٍ جادة، وأن تكون متاحةً وجذّابةً للرجال في الوقت نفسه.

شعرتُ بشيءٍ يشبه لذة الفوز. قلتُ:

- لهذا انفصلتما إذن، وليس لأنكما لم تتّفقا بخصوص أمور الحياة البسيطة كما قلتَ لي في البداية.

ارتدى سرواله الداخلي، وتمدّد مجدّداً على السرير:

- هل تريد أن أخبرك بكل شيء منذ اللقاء الأول؟ هناك أشياء معقدة يصعب شرحها في جمل بسيطة.

استلقيت بجانبه، ودفنت رأسي من جديد في عنقه مثل قطة محتالة، ثم قلت مرققة صوتي أكثر من اللازم:

- مثل ماذا؟

نظر إليّ وقد اختفى الغضب من عينيه. لا أفهم كيف يؤثر الصوت الناعم على الرجال لهذه الدرجة. أضفت:

- لا تغضب مني، أرجوك. أردت فقط أن أعرفك أكثر... يهمني كثيراً ما حدث معك في الماضي، لأنني أحبك.

تنفّس عميقاً، ثم قال «حسناً». كان يبدو أنه يبحث عن كلمة يبدأ بها الحكيم.

كان واحداً من أولئك الرجال كبار السن الذين يصطادون الفتيات الشابات، ستينياً ذا بطن كبيرة وصلعة لامعة. يرتدي دائماً بدلة زرقاء غامقة، ويدهن الخصلات الطويلة المتبقية في رأسه بمادة زيتية، ويلصقها فوق صلعته، ثم يمشي في الحياة كأنه قد نجح في إخفائها. كان أستاذاً جامعياً يدرّس في الكلية نفسها التي تعمل فيها نجوى كأستاذة مساعدة، وكان مؤطراً لبحثها في الدكتوراه في الوقت نفسه. كان ينتظر دائماً أن تبلغ الساعة منتصف الليل، كي يرسل لها على الوتساب عناوين البحوث والمراجع التي ستعتمد عليها في بحثها، ويسألها إن كانت تتقدّم في العمل، وإن كانت تحتاج للمساعدة، ويبعث لها قصائد حبّ رديئة طالباً رأيها فيها، ويتصل بها متحدثاً بصوت يشبه فحيح الأفاعي، ويدعوها لشرب القهوة معه في الكلية في اليوم التالي.

كان مزعجاً لدرجة كبيرة، والأمر لا يتعلقُ بشكله أو مظهره، بل بأفعاله ونظريته للحياة. فقد كان أستاذاً جامعياً، لكنه لم يكن يعرف كيف يكتب جملةً صحيحةً بالعربية، وكان يقدم نفسه ككاتبٍ روائيٍّ، بالرغم من أنه لم يكتب أي رواية. كانت هاتان أكثر نقطتين غامضتين في حياته.

وبالإضافة إلى ذلك، كان الأستاذ الجامعي يظن أن الجُمْل الغريبة وغير المفهومة التي يكتبها هي شِعْر يمكن أن يوازي شِعْر بودلير ومحمود درويش. باختصار، كان ينبغي أن يكون في مستشفى للأمراض العقلية أو في سجن، لكنه وُجِدَ بدلاً عن ذلك في الجامعة.

كانت نجوى تردُّ على رسائله الغريبة هذه كلها، وتحمل الحديث معه لساعاتٍ طويلة، خوفاً من خسارة عملها، وخشية أن يتسبب في تأخير بحثها أو إلغاءه. كان واضحاً أنه يريد أن يذهب معها أبعد من العلاقة المهنية، بالرغم من كونه متزوجاً وأباً لشابَّتين في عمرها.

مع مرور الوقت، أصبحت نجوى تلتقيه خارج أسوار الكلية بحجة أنه يساعدها على نشر مقالاتها المرتبطة ببحث الدكتوراه. كان يأتي من الرِّباط حتَّى الدار البيضاء ليراها، وكانا يشربان القهوة معاً، أو يتناولان الطعام، ولم يكن سَعْد قادراً على منعها من ذلك أو حتَّى على التعبير عن رأيه، إذ كانت تغضب وتبدأ بالصراخ بهستيرية متَّهمة إياه بالحسد وبالرغبة في تدمير مستقبلها المهني.

ذات يوم، بعد انتهاء لقائهما في أحد المقاهي عند الساعة التاسعة مساءً، اقترح الأستاذ أن يُوصَلَ نجوى إلى البيت بسيَّارته، ولأن الوقت كان متأخراً والمطر كان يهطل بغزارة، وافقت، وركبت إلى جانبه. وفي الطريق إلى البيت، انحرف عن الطريق وأوقف سيَّارته في مكانٍ خاوٍ. لم تعرف نجوى في أيِّ مكانٍ بالضبط حدث ذلك، لأنَّ الظلمة كانت حالكة، ونوافذ السيَّارة

كانت مضببة بالمطر، لكنها تذكر جيداً أنها رأت أشجاراً على طول الطريق وصندوق قمامة، أمّا البيوت، فقد كانت بعيدة جداً. أمسك رأسها بين يديه وقبلها، ثم حرك السيارة من جديد، وأوصلها إلى البيت.

ببرود تام، روت نجوى لسعد تفاصيل ما حدث، ووصفت له بالتفصيل قبلة الأستاذ الجامعي الطافحة باللعب، وشفته الرفيعة والجافتين وهما تلثمان شفثيها. قالت له إنها لم تشعر بأي شيء، لا باللذة ولا بالخوف ولا حتى بالقرف، لأنه، في نهاية الأمر، لم يأخذ منها أي شيء يذكر! وأخبرته أن كل ما يشغل بالها هو أن تنهي بحثها وتصبح دكتورة، وأنها لن تضيع وقتها والمجهود كله الذي بذلته من أجل أن تبين للعالم أنها ضحية قبلة لا تعني أي شيء على الإطلاق.

هكذا، وببرود تام أيضاً، تركت له الخيار بين أن يظل معها بعد ما حدث، أو يتركها إذا أراد.

قضى سعد ليلته مستلقياً على الأريكة في البهو يفكر في الموضوع، بينما كانت هي تغط في نوم عميق في الغرفة. ولأن كرامته وكبرياءه لم يسمحا له بقبول أن يكون مع امرأة قبلها رجل آخر، اتخذ القرار بالانفصال. في الصباح، تركها نائمة في الغرفة، وذهب لمقابلة نجيم لتوقيع عقد ترجمة البحث عن الزمن الضائع. حين عاد إلى البيت ليخبرها بقراره، كانت قد غادرت.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

كانت عيناه تقدحان غضباً، لكن نبرته كانت هادئة:

- لا شيء. لم أرها منذ ذلك الوقت، ولم أسأل عنها حتى. ينبغي على المرء أن يمتلك شجاعة ترك الأشخاص الذين لا يريدونه.

أردتُ أن أسأله أكثر، لكنني شعرتُ بالإحراج، ولم أقل شيئاً. وحين رحنا
نرتدي ملابسنا، فكّرتُ في جملته الأخيرة بعمق وألم وأنا أستحضر وجه أمي.
أخذنا حاسوبينا وتوجّهنا إلى مقهى شعبيّ بشارع الفداء لنكتب. كنّا قد
اتفقنا على الكتابة جنباً إلى جنب، كي يشجّع بعضنا البعض على إنهاء
روايّتنا. شبكتُ يدي بيده، ومشينا صامتين. شعرتُ في تلك اللحظة
التي اشتبكت فيها أصابعنا أنه يفكر في نجوى، وأقلقني ذلك. جلسنا
في المقهى، وراح هو يكتب بشراهة وبدون توقّف، بينما أخذتُ أحّدق
في شاشة حاسوبي في قنوط. كلّ ما كنتُ أريده هو أن أعود إلى البيت،
لأبحث عن تنمّةٍ لقصة نجوى.

مع اقتراب عيد الفِطْرِ كنتُ أشعر بمغصٍ مستمرٍّ في مَعِدَتِي. كنتُ قلقَةً جدًّا من الذهابِ إلى بيتِنَا من جديد ورؤية أُمِّي. لم أَكُنْ أريدُ ذلك، لكنْ، كان من المستحيل ألا أذهب. كنتُ أعرفُ أنني سأرى أشياء لا أرغبُ برؤيتها، وأسمعُ أشياء لا أرغبُ في سماعِها، وأُني لن أقدرُ على النطقِ بكلمةٍ واحدة أمامها. عدمُ قدرتي على التعبير عن رفضي لبعض الأشياء كان يجعلني أشعر بكرهية فادحةٍ لنفسي.

تمسَّكتُ بيدِ سَعْدٍ مثل غريقٍ يتمسَّكُ بقشةٍ. تطلَّعُ إليَّ بعينين فارغتين خامدتين وهو يودُّعُني قربَ ساحةِ الحَمَّامِ، أبعدَ يَدِهِ ببرودٍ عن يدي. ومع ذلك، أردتُ أن أُعانِقَهُ. اقتربتُ منه أكثر لأُضمِّمَهُ، لكنَّهُ ابتعد. كانت السماء ملبَّدةً بالغيوم، والحرارةُ مرتفعةً، والمدينةُ صاخبة. تطلَّعتُ إليه أسأله بعينيَّ عن السَّببِ. كان المغصُ في مَعِدَتِي يزداد. قال ببرودٍ وقد ارتسمت ابتسامُهُ ساخرةً على شفتَيْهِ:

- نحن في المغرب، والقُبَلُ ممنوعةٌ في الشوارع والأماكن العامَّة كما تعلمين.

كنتُ أعرفُ أنَّ تلك ليست إلا حُجَّةً لكي لا يقترب مِنِّي، لكنني لم أستطع أن أقول شيئاً. وحين أدارَ ظهره لي، تذكَّرتُ صورَه كُلَّها وهو يعانقُ نجوى في الشارع. راقبتهُ حتَّى اختفى، ثمَّ مشيتُ ببُصَّةٍ في الحلق مثل طفلةٍ ضائعة. لم أعرفُ متى وكيف وصلتُ إلى بورغون. كانت رِجْلاي متورمتين من

المشي، وحين لاحظتُ ذلك، شعرتُ برغبةٍ عميقةٍ في البكاء. كانت ندى تنتظرني قربَ بابِ العمارة، حاملةً سطلاً بلاستيكيًا في يدها، ومعلقةً حقيبةً كبيرةً على كتفها. كان حاجباها الكثيفان معقودين، وبدت من بعيد كما لو أنَّ هناك طائراً فوقَ عينيها. صاحَت قبل أن أصلَ إليها:

- الحمام سيُغلق أبوابه بعد قليل وأنتِ تمشين بهذا البطء! صدق مَنْ قال إنَّ الحبَّ لا يؤدي إلا إلى الهاوية.

كنتُ قد وصلتُ إليها. قلتُ بنبرةٍ لاذعة:

- مَنْ قال إنَّ الحبَّ لا يؤدي إلا إلى الهاوية؟ لم أسمع بهذا المثل من قبل!
قالت بجِدَّة:

- اغربي عن وجهي، واجلبي أغراضك، لأنني لن أنتظر أكثر من هذا.
حينَ أحضرتُ أغراضَ الحمام، مشينا صامتتين. هي أيضاً لم تكن تريد الذهاب إلى بيتِ والدَيها. كان العيد يعني لها الكثير، وكانت قد اشتاقت إلى والدَيها كثيراً، لكنَّها كانت تكره أن تكون في دِمْنات. شعرتُ بالغيرة لأنها ستغادر الدار البيضاء صباح الغد.

في الحمام، سألتني وهي تدعك بطنها الضخمة المترهلة بكيسٍ خشن:

- هل تريدان معرفة اسم حبيبة سعد السابقة؟

عندما انتهت من جملتها، نظرت إليّ بمكر وفضول كأنها تريد أن ترى ردّة فعلي. لم أكن أريد أن أبين لها أنني مهتمةٌ إلى تلك الدرجة، لكنَّ العرض كان مغرياً جداً، ولم يكن من الممكن رفضه. أوَمأتُ بخجل.

واصلت:

- سألتُ أحلام آيت الحاج ... هل تذكرينها؟ الفتاة السمراء ذات الشَّعرِ

الخشِن ... كُنْتُ قَدْ حَدَّثْتُكَ عَنْهَا وَأَرَيْتُكَ صَوْرَهَا عَلَى فَيْسِبُوك ... تَوَقَّفِي
عَنِ اللَّعِبِ بِذَلِكَ الصَّابُونِ وَانْظُرِي إِلَيَّ!

رَفَعْتُ رَأْسِي، ثُمَّ صَحْتُ:

- لَا أَلْعَبُ بِالصَّابُونِ! أَنْتِ الَّتِي تَتَحَدَّثِينَ بِطَرِيقَةٍ مُمِلَّةٍ!

قَالَتْ وَهِيَ تَمُدُّ لِي الْكَيْسَ:

- حَسَنًا، حُكِّي لِي ظَهْرِي، إِذْنَ.

أَمْسَكْتُ الْكَيْسَ. أَضَافَتْ:

- سَأَلْتُهَا عَنْهَا وَأَعْطَتْنِي اسْمَهَا الْكَامِلَ.

قَالَتْهَا بِفَخْرٍ، كَأَنَّهَا عَرَفَتْ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الدَّوْلَةِ.

- مَا اسْمُهَا؟

صَاحَتْ:

- لِمَاذَا تَحْكِينَ بِرَفْقٍ هَكَذَا؟ اضْغَطِي بِقُوَّتِكَ كُلِّهَا!

- مَا اسْمُهَا؟

- نَجْوَى صَابِرَ.

لَمْ أَقُلْ شَيْئًا. شَعَرْتُ وَأَنَا وَسَطَ الْبَخَارِ وَالْأَجْسَادِ الْعَارِيَةِ كَأَنِّي فِي حُلْمٍ.

التَفَتْتُ إِلَيَّ وَرَمَقَتْنِي بِدَهْشَةٍ، ثُمَّ قَالَتْ:

- أَلَسْتُ مُهْتَمَّةً بِالْمَوْضُوعِ؟

قُلْتُ:

- وَمَاذَا سَأَفْعَلُ بِاسْمِهَا؟

ظَلَمْتُ تَحَدِّقُ بِي بِالدَّهْشَةِ نَفْسِهَا، وَلَمْ تَنْبَسْ بِكَلِمَةٍ. كَأَنَّهَا أَدْرَكَتْ

لِلتَّوَّانِ الْإِسْمَ لَنْ يَنْفَعَنِي فِي شَيْءٍ. قَالَتْ لِتَجْعَلَ الْمَوْضُوعَ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةٍ:

- ليس هذا فقط. عَرَفْتُ أشياءَ أُخرى عنها ...

قاطعتها في قنوط:

- أرجوك، يا ندى، لا أريدُ أن أعرفَ أيَّ شيءٍ عن تلكِ المرأة!

قُلْتُها ونَدِمْتُ. ضَحِكْتُ بصوتٍ عالٍ:

- هل تغارين؟

نهضتُ وألقيْتُ الكيسَ أمامها دون أن أقول كلمةً واحدة، ثم أخذتُ سطلي وتوجَّهتُ نحو الصُّبُور. كنتُ غاضبةً جدًّا، ليسَ من ندى فقط، بل من نفسي أيضاً، لأنني ما زلتُ أشعر برغبةٍ شديدة في التعرُّفِ إلى نجوى. جلستُ على الأرضية، ورحتُ أراقبُ في شroud البخارِ الكثيف الذي يتصاعد في الجوِّ، والنساءَ العارياتِ المتمدِّداتِ على الأرض مغمضاتِ أعينهنَّ في سَكينة، كأنهنَّ يسبحنَ في بطونِ أمهاتهنَّ، كأنما ليس وراءهنَّ ماضٍ يؤلمهنَّ ولا أمامهنَّ مستقبلٌ يؤرِّقهنَّ. كأنهنَّ حين يخلعنَ ملابسهنَّ في المدخل، يخلعنَ همومهنَّ معها، وكأنهنَّ لا يغسلنَ أوساخهنَّ فقط، بل آلامهنَّ أيضاً. كيف ينسينَ كلَّ شيءٍ بهذه السهولة ولا يتوقَّف عقلي عن التفكير لحظةً واحدة؟

كان السطلُّ قد امتلأ تقريباً حين جاءت امرأةٌ ذاتُ جسمٍ سمينٍ ملطَّخٍ بالحناء. نظرتُ أولاً إلى نهديها المترهلَّين والطويلين والمتدليَّين على بطنها مثل حبَّتيِ باذنجانٍ ضخمتين، ثم إلى وجهها الملطَّخِ بقناعٍ من الطين. وقبل أن أعيَ ماذا تريد، كانت قد جرَّت سطلي نحوها في حركةٍ سريعة، ووضعت سطلها تحت الماء المتدفِّق.

حافظتُ على رباطةِ جأشي، وقُلْتُ بهدوء:

- اسمحي لي، يا خالتي، لكنَّ سطلي لم يمتلئ بعد. لماذا أبعدته؟

نظرتُ إليَّ بغضب، ولم تردِّ. ظننتُ أنَّها خرساء. نهضتُ ورأيتُ امرأةً عجوزاً منهمكةً في حَكِّ بطنها. سألتُها:

- هل هذه السيِّدةُ خرساءُ؟

قالت لي بإشارةٍ من رأسِها وعينيَّها أن أترك الموضوعَ يمرّ، لكنني لم أتحمّل. قرّبتُ سطلي من سطليها، وقُلْتُ:

- أرجو، يا خالتي، أن تدّعي سطلي يمتلئ أولاً، ثمّ بعدها يمكنكِ أن تملئي سطلكِ.

لم تزدُ. التفتت بدورها إلى المرأة العجوز. كانت هذه المرأةُ تدهنُ جسمها بالصابون البلدي. قالت لها باستنكار:

- قِلَّةُ الأدب انتشرت كثيراً مؤخراً، وأصبحت سهلةً مثل «السلام عليكم». صحتُ:

- ماذا تقولين؟

هزّت المرأةُ العجوز رأسها دلالةً على الموافقة، واستطعتُ رؤيةَ حاجبيها من وراء البخار الكثيف وهما يرتفعان. كانت المرأةُ ذات النهدين اللذين يُشبهان حبّتي باذنجان تنظرُ إليّ هذه المرأةُ وهي تمضغُ علكة. لا أدري من أين جاءتها العلكة، لأنها لم تكن تمضغ أيّ شيءٍ في البداية. وبعدَ برهة صمتٍ قالت:

- أولاً، لستُ خالتك. ثانياً، هذا دوري وأنتِ مَنْ استوليتِ عليه.

كان قلبي ينبضُ بعنفٍ من الغضب، لكنني لم أصرخ ولم أنبس بكلمة. مشيتُ خطوتين نحوها، ثمّ وقفتُ أمامها. وكما فعلت هي تماماً، أبعدتُ سطليها في حركةٍ سريعة ووضعتُ سطلي تحت الماء المتدفّق.

لم تمرّ ثانيةٌ واحدة حتّى أحسستُ بشغري يُجرّ إلى الورا بعنف، ثمّ برأسي يُسحبُ إلى أسفل. لم يكن لديّ لا الوقت ولا القوة لمقاومتها. وحين اصطدم جسدي النحيل بأرضية الحمّام، كانت الأجساد العارية الموجودة

كلّهما في المكان قد اجتمعت حولنا في مشهدٍ عبثي. لم أستطع رؤية ندى بينها.

صرختُ:

- اتركي شعري!

كنتُ متمدّدةً على ظهري. قالت امرأةٌ حولاءٍ حاجباها مقوَّسان بحيث تبدو حزينةٌ بشكلٍ مأساويّ:

- ما الذي حصل؟

قالت المرأة ذاتُ النهدين اللذين يشبهان حبّتي باذنجان باستنكارٍ وغضب:

- لقد استولت على دوري، وأبعدت سطلي بلا حياء ولا حشمة، ثمّ ملأت سطلاًها! هل يمكنكُ أن تتخيّلي؟

صحتُ وأنا أتألم:

- هذا غير صحيح! اسألي المرأة العجوز الجالسة هناك! لقد رأت كلّ شيء!

قالت امرأةٌ نحيلة شفتاها رفيعتان جداً وشاحبتان جداً لدرجة تبدو وكأنّ ليس لديها شفتان:

- إنّها خرساء!

جرت المرأة ذاتُ النهدين اللذين يشبهان حبّتي باذنجان شعري أكثر إلى الوراء. كانت قد بدأت تنظّف بجسدي الأرض، لكنّ، لا أحد استطاع إنقاذي من بين يديها. أخيراً، رأيتُ ندى من بين الأجساد العارية. كان جسّمها ملطّخاً بالجناء. ظلّت تحدّق فيّ بعينين مفتوحتين على آخرهما كأنّها لا تعرف ما الذي ستفعله.

صرختُ:

- اتركي شَعْرِي!

قالت ندى:

- اتركي شَعْرَهَا!

قالت امرأة لم أستطع رؤيتها:

- العني الشيطان، يا خدّوج، واطركي شَعْرَهَا!

وضعت المرأة الحولاء يدها على فمها وقالت في فرع:

- يا إلهي! ربّما لن تتركها أبداً!

ظلمت تحت رحمة المرأة ذات النهدين اللذين يشبهان حبّي باذنجان لبضع دقائق أخرى. وقبل أن تتركني، بصقت عليّ، ووصفتني بالعاهرة، ثم سكبت سطل الماء الذي ملأته أرضاً وغادرت المكان.

حين نهضت وتوجّهت إلى مكاني، اقتربت منّي امرأة سمينة ذات شَعْرٍ طويلٍ جداً ورفيعٍ جداً، وهمست في أذني:

- أرجوك، لا تغضبي منها. الجميع يعرف أنها جئت بعدما تركها زوجها، ولا أحد يغضب منها حين تفقد صوابها.

كنت غاضبةً جداً. صحتُ محتجةً:

- هذا ليس شأني. سأقدمُ شكايّةً بالتعرّض للاعتداء، ولديّ شهود!

واصلت المرأة ذات الشَعْر الطويل جداً بالنبرة الهامسة نفسها:

- لقد تخلّى عنها وعن ابنهما وذهب ليعيش مع حبيبته السابقة. آه لو ترين حسرتها وألمها! كم بكّت المسكينة وكم تعذّبت.

بدأت أستمع لها باهتمام.

- آه لو رأيت كيف كانت قبل ثلاث سنوات فقط! كانت جميلة جداً وطيبة جداً وعاقلة جداً. لكنها كانت أيضاً حساسة جداً، ولم تتحمل ما حدث لها. لقد بكّت حتى جفّت دموعها، وأصبحت تدخّن كثيراً ولا تنام أبداً... تخيلت نفسي مكانها. تخيلت أن سعداً يتركني ويعود إلى نجوى، وشعرت بالفرع. حولت المرأة ذات الشعر الطويل جداً نظرها إلى ندى وواصلت:

- قولي لصديقتك إن المسامح كريم.

كنت أدعك جلدي بقوة، وأتخيل نجوى وسعد يسيران في الشوارع يداً في يد سعيدين وغير عابئين بي. تخيلته يقول لي إنه ما زال يحبها ثم يتركني. تخيلتني وحيدة من جديد. تخيلت حياة فارغة وتعيسة. تخيلت أنني سأشعر مرة أخرى أنني منشفة تنظيف، يمسح فيها الجميع أرجلهم، ويمرّون دون أن يهتموا لها. تخيلت أنني سأتذكر أبي من جديد في الليالي الطويلة والقاسية، وأني سأتذكر بالضبط صورتنا ونحن نمشي يداً في يد، سعيدين وغير عابئين بأي شيء.

- لماذا تُلحق النساء بأنفسهنّ هذا الأذى كله من أجل الرجال؟

قالت ندى بدهشة طفلة لم تُجرب الحب، ولم تعرف ألمه. لم أنبس بكلمة. كنت شاردة أنظر إلى المرأة ذات الشعر الطويل جداً وهي تبتعد ببطء، وإلى شعرها الرفيع جداً وقد علق بشق مؤخرتها. سكبت آخر سطل ماء على رأسي، لكنني لم أشعر بالراحة ولا بالانتعاش. لو أنني أستطيع أن أشق جسدي وأفتحته، لتدفقت إلى الخارج أنواع الآلام والعِلل والمثالب كلها. تمنيت لو أستطيع أن أغسل جسدي من الداخل.

قَرَرْنَا، سَعِدَ وَأَنَا، أَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَزَوَّجَ. كُنْتُ سَعِيدَةً جَدًّا، وَأَقْنَعَنِي أَنَّهُ يَحِبُّنِي بِشِدَّةٍ، وَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ نَعِيشَ مَا تَبَقِيَ مِنْ حَيَاتِنَا مَعًا. اخْتَرْنَا مَعًا الْبَيْتَ الَّذِي سَنَعِيشُ فِيهِ، وَارْتَدَيْتُ الْفَسْتَانَ الْأَبْيَضَ الطَوِيلَ، وَقَبَّلَنِي مِنْ شَفَتِي أَمَامَ الْجَمِيعِ كَمَا فِي نَهَايَاتِ الْأَفْلَامِ السَّعِيدَةِ. سَافَرْنَا لِقِضَاءِ شَهْرِ الْعَسَلِ، وَذَهَبْنَا إِلَى الْمَطَاعِمِ، وَمَشِينَا فِي الشُّوَارِعِ يَدًا فِي يَدٍ وَنَحْنُ نَبْدُو أَسْعَدَ زَوْجَيْنِ فِي الْعَالَمِ.

لَكِنْ، بَعْدَ مَرُورِ فَتْرَةٍ، عَادَتْ نَجْوَى مِنْ جَدِيدٍ إِلَى حَيَاةِ سَعِدِ. التَّقْيَا بِالْمَصَادِفَةِ فِي مَعْرِضٍ لِلْفَنِّ التَّشْكِيلِيِّ، وَتَحَدَّثْنَا. لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ أَخْبَرَهَا أَنَّهُ اشْتَاقُ إِلَيْهَا، وَدَعَاهَا إِلَى الْعِشَاءِ. جَاءَتْ مَرْتَدِيَةً فَسْتَانًا أَبْيَضَ قَصِيرًا، وَحِذَاءً ذَا كَعْبٍ عَالٍ، وَرَاحَتْ تُقَلِّبُ كَأْسَ نَبِيذٍ أَبْيَضَ بَيْنَ أَصَابِعِهَا الطَّوِيلَةِ وَالرَّفِيعَةِ، بَيْنَمَا تَرْمُقُهُ بِنَظَرَاتٍ مُغْوِيَةٍ. كَانَتْ جَمِيلَةً جَدًّا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَكَانَتْ ابْتِسَامَتُهَا فَاتِنَةً، وَكَانَتْ تَعْرِفُ ذَلِكَ. لَا يَكْفِي أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً كَي تَكُونَ فَاتِنَةً، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ أَيْضًا.

سَكَنْتَ عَقْلَهُ مِنْ جَدِيدٍ. وَمِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي، صَارَا يَلْتَقِيَانِ فِي مَوَاعِيدِ رُومَانِسِيَّةٍ، وَيَذْهَبَانِ فِي رِحَالٍ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَيَمْشِيَانِ تَحْتَ الْمَطَرِ، وَيَمَارِسَانِ الْحُبَّ. وَجَدَ عِنْدَهَا مَا لَمْ يَجِدْهُ عِنْدِي: السَّعَادَةُ وَالْجَمَالَ وَالْإِثَارَةَ وَالرَّغْبَةَ فِي الْحَيَاةِ. لَمْ نَنْفَصِلْ، لَكِنَّ حَيَاتِنَا تَوَقَّفَتْ بِشَكْلِ مَا، لَمْ يُعَدِّ يَقْتَرِبُ مِنِّي، أَوْ يَقْبَلْنِي، أَوْ يَحْلُمُ مَعِي، أَوْ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى عَيْنَيَّ. لَمْ يَتْرَكْنِي، لَكِنْ، حَدَثَ مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، رَأَيْتُ امْرَأَةً أُخْرَى فِي عَيْنَيْهِ.

كان التفكير في ذلك خانقاً ومؤلماً ومزعجاً ومخيفاً. لم أكن قادرةً وأنا أشاهد فيلم Much point إلا أن أتخيل حياةً بئسَةً لي، وأرى نجوى في الفاتنة سكارليت جوهانسون، ونفسي في شخصية الزوجة الغبية غير المرغوب فيها. وفي كلِّ مرَّةٍ يرتمي فيها البطل في أحضان حبيبته المثيرة، كنتُ أتخيل أن سَعداً يتخلَّى عني ويذهبُ إلى نجوى، فيتزحلقُ الخوفُ من دماغي ويسقط في مَعِدتي مُحدثاً دويّاً قوياً في جسدي كلَّه.

كنتُ متضايقةً من احتمال أنه قد يفكّر في نجوى وهو يضاجعني أنا، من فكرة أن أكون شيئاً ثانوياً، وعاءً لتفريغ رغبته في نجوى وطريقة ينسى بها حبّه الكبير لها. لكنني لم أستطع التوقّف عن التخيل. ثمة جزءٌ مني كان يتلذّذُ بذلك الألم الذي تخلّقه تلك الخيالاتُ القبيحة، ولم أعرف لماذا كنتُ أعاقبُ نفسي.

تفقدتُ علبةَ رسائلني على الهاتف والمسنجر والوتساب مرّاتٍ عديدة، وتساءلتُ إن كنتُ قد خطرتُ على باله هذه الليلة، أم أن الشيء الوحيد الذي يفكّر فيه ويملاً خلدَه هو نجوى؟! حاولتُ أن أقلب الأدوار. أن أكون أنا سكارليت جوهانسون المحبوبة، وأن تكون نجوى المرأة المسكينة التي هجرها زوجها من أجل امرأةٍ أخرى. لكنني لم أستطع. ولم يكن ذلك مُقنعاً بالنسبة إليّ، بل كان مستحيلاً. لا يُمكن لنجوى أن تكون إلا سكارليت جوهانسون الرائعة والمرغوبة. لأن نجوى تركت سَعداً وذهبت لتعيش حياتها، بينما ركضتُ أنا إليه، بسهولة تامّة، مثل كلبة جائعة أُلقيت أمامها بقايا لحمٍ وعظام. كرهتُ نفسي وأنا أفكّر في ذلك. لكن، إذا افترضنا أن الرجال يميلون إلى النساء الغامضات وصعبات المنال واللواتي يتركن أسئلتهن معلقةً بلا أجوبة، وأنهم ينفرون من النساء اللواتي يشعرون أنهن سيبقين بالرغم من كلِّ شيء، وأنهم يحبّون مَنْ تضع رجولتهن تحت الاختبار طول الوقت، فأنا لا أساوي شيئاً في نظر سَعد.

لكنني لم أستطع يوماً أن ألعب هذه اللعبة، أن أجِرَّ الحبلَ قليلاً، ثم أطلقه، أن أعطي القليلَ فقط، وأسحبَ كلَّ شيءٍ من رجل. لم أستطع أن أجعل رجلاً أحبه يُجنَّ من أجلي. وفي المراتِ كلّها التي أحببتُ فيها، تحوّلتُ دائماً إلى قطعةِ حبٍّ شفّافةٍ وهشةٍ، إلى سيلٍ شغفٍ ينهمر. كنتُ حين أحبّ أتدفّقُ، أعطي كلَّ ما لديّ، وأكشِفُ نقطَ ضعفي وأسراري كلّها. كأنني أضعُ قلبي على الطاولة، وإلى جواره سكّيناً كبيرة، وأقول لهم: ها هو ذا قلبي هنا، افعل به ما شئتَ، إن شئتَ قطعْهُ، وإن شئتَ أرجعْهُ إلى صدري، وإن شئتَ خبئْهُ في قلبك. وكانوا دائماً يقطّعونهُ أجزاء، يمرّقونه، ويعبثون بأشلائه.

لكن قلبي لا ينتهي، ولا يموت، ولا يتشوّه. إنّه يتجدّدُ ويلدُ نفسه باستمرار.

حينَ انتهى الفيلم، حدّقتُ في ندى التي نامت مثل طفلٍ متعبٍ واضعةً رأسها على فخذيّ، ثم قرأتُ رسالةً من سعد يقول فيها إنه ما زال في طريقه إلى الحُسيمّة. قال أيضاً إنه اشتاق لي وفكّر في طول هذا الوقت، لكنني لم أصدّقهُ. كنتُ محاصرةً بنجوى لدرجةٍ لم أستطع الاستمتاع بأيّ شيء، ولا حتّى بالحبّ.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. غمرني شعور رهيب بالوحدة والقلق وأنا أستمع إلى شخير ندى النائمة على فخذِي. لم أنهض، رغم ذلك، لأنام في الغرفة، بل أمسكتُ هاتفي وأسندتُ ظهري إلى الأريكة، ورحتُ أبحث عن نجوى صابر على فيسبوك.

في شريط البحث، كتبتُ الاسم كاملاً بالأحرف اللاتينية. كانت هناك بروفايلات كثيرة بهذا الاسم. نجوى صابر بدينة وذاتُ شَعْرٍ أسودَ طويل، تعمل في مركزٍ للاتصال بالدار البيضاء. نجوى صابر بصورةٍ قَطيْنٍ أبيضين صغيرين، تقول إنها أمٌ فخورةٌ بأبومتيها، وتنشرُ صورَ أطفالٍ ورُضع، لا ندري إن كانوا أبناءها فعلاً أم أنها حصلت على هذه الصور من الأنترنت. نجوى صابر محببة تدرس في كلية الحقوق، وخبأت وجهها في صورة البروفايل بإيموجي أصفر مبتسم. نجوى صابر استعملت فلاتر لتصغير الأنف وتكبير الشفتين. نجوى صابر لا تنشر شيئاً على صفحتها سوى صور الممثلات التركيات وهنَّ يكيْن بقوة وعنف، ومشاهد رومانسية من المسلسلات التركية مرفقةً بأغاني عربية حزينة. نجوى صابر لا يوجدُ شيءٌ على صفحتها سوى صورة وحيدة لوردة حمراء. نجوى صابر تنشر صوراً لنساءٍ شبه عاريات بمؤخراتٍ وصدورٍ كبيرة مرفقةً برقم هاتف، وتقول إنها متوقفة لمن يريد قضاء ليلة حمراء ولا في الأحلام. نجوى صابر لا تنشر سوى آياتٍ من القرآن وأحاديث نبوية وصور نساءٍ منقبات. نجوى صابر تخرج في مسيراتٍ للدفاع عن فلسطين، وتشارك في ندواتٍ لحماية حقوق النساء، وعلى غلاف صفحتها كُتب بالخط العريض

«جسد المرأة ثورة وليس عورة». نجوى صابر بلحية كثيفة وجسد رجالي، لكنها تضع أحمر شفاه، وترتدي ملابس نسائية. نجوى صابر تكتب نصوصاً رديئة باللغة العربية، وتوقعها باسمها وتقول إنها شاعرة. نجوى صابر ترتدي جلباباً مغربياً ضيقاً يُبين منحنيات جسدها وحوضها الممتلئ، ويتابعها اثنا عشر ألفاً وستة وخمسون ذكراً. نجوى صابر مهووسة بوصفات التجميل الطبيعية وعضوة في مجموعة «المغربيات أجمل نساء الكون». نجوى صابر مهووسة بنفسها، بحيث نشرت، حتى الآن، ألفاً وخمسمائة وسبعاً وستين صورة لانعكاسها في مرايا المصاعد والحمامات والمحال التجارية.

ولم أجد نجوى صابر التي أبحث عنها.

تطلعتُ بقلق إلى ندى التي تدلّي خيطاً رفيعاً من لعابها والتصق بثوبٍ فستاني. كانت قد توقفت عن الشخير. استمعتُ إلى تنفّسها المنتظم، وحين تأكدتُ أنها ما تزال نائمة، دخلتُ إلى إنستغرام.

نساءٌ كثيرات يحملن الاسم نفسه، لكنهنّ مختلفاتٌ عن النساء الموجودات على فيسبوك. في إنستغرام، هناك نساءٌ حقيقياتٌ بصورٍ حقيقية. صادفتُ نجوى صابر، طبّاخةٌ مصرية مشهورة يتابعها نحو عشرين ألف شخص، ونجوى صابر مصورة فوتوغرافية مغربية تعيش في دبي، ونجوى صابر مهووسة بنشر صور أغلفة الكتب إلى جانب فناجين القهوة، قبل أن أجدَ نجوى صابر التي أبحث عنها. نجوى صابر التي تعيشُ في رأسي.

كانت صفحتها مفتوحة للعموم، يتابعها نحو ألفين وخمسمائة شخص. فيها صورٌ شخصيةٌ كثيرة، ملتقطة في أماكن متنوّعة، ومن زوايا مختلفة. صورٌ بالبيكيني على شاطئ البحر. صورٌ التقطتها بنفسها لانعكاسها في مرايا المصاعد. صورٌ في الطبيعة وفي الصحراء وفي أحياء قديمة لمُدُن مغربية. صورٌ ترتدي فيها فساتين سهرة، وأخرى ترتدي فيها بناطيل جينز وتيشيرتات

واسعة. صورٌ لمباني الدار البيضاء القديمة. صورٌ لقطط الشوارع. صور قاعات سينمائية قديمة من عهد الاستعمار، أغلقت الآن أبوابها. صورٌ لها مع كلبٍ ضخْمٍ اسمه مايك. صورٌ كُتِبَ وروايات. صورٌ لها وهي تعملُ على حاسوبها متظاهرةً بالجِدَّةِ الشديدة. صورٌ قديمةٌ جداً للقطِّ شمشون في بيتٍ سَعِدَ الذي كان بيتها أيضاً ذات يوم.

شاهدتُ مقطعَ فيديو لها وهي تسير في الشارع ليلاً بفستان سهرة أسود لامع وحذاء ذي كعبٍ عالٍ. كانت تغني بصوتٍ رديءٍ، وتلفتتُ إلى كاميرا الهاتف بين الحين والآخر وهي تضحك. ظهرت في مقطع فيديو آخر جالسةً على الأريكة في البيت وهي تقرأ شِعْراً لنزار قبّاني ببطء وبصوتٍ جهوريٍّ، ضاغطةً على الأحرف، كأنها تحاول إقناعنا بعمق مشاعرها وتأثيرها الكبير بمضمون القصيدة. رأيتها في مقطع فيديو ثالثٍ تُلَاعِبُ كلبها مايك، وفي رابعٍ تطفئ شموع عيد ميلادها الحادي والثلاثين، وفي خامسٍ بدون ماكياج ولا رتوشات تتحدّث عن آثار السوشال ميديا السلبية على حياة الإنسان.

كان صوتُها قوياً وبه بُحّة، وكانت حركاتُها مفعمةً بالأنوثة. لا أدري إن كانت تتحرّكُ هكذا عمداً، أم أنّها تتصرّف بشكلٍ عفويٍّ. كانت كلّما تحرّكت، تدلّت خُصَلاتٌ من شَعْرِها المَجْعَد على وجهها، لكنّها لم تكن تُبَعِّدها، بل تستمرّ في فعل ما تفعله، بدون أدنى انزعاج. وكلّما تدلّت خُصلة على وجهها، كنتُ أَلَمَسُ وجهي في تضايق، كأنّ تلك الخُصَلات تدلّت عل وجهي أنا.

كانت رؤيتها تتحرّك تهرّ أعماقي، كأنني أتفرّج على شخصٍ أعشقه، لكن، بدون رغبةٍ جنسية. نبضٌ سريعٌ ومحمومٌ يسري في كلّ جزءٍ من أجزاء جسدي. الشعورُ نفسه الذي يراودنا في اللحظة التي تسبق القفز من مكانٍ مرتفع، لكنّه مستمرٌّ في الرّمن. كانت ندى قد بدأت تشخر من جديد، بينما كان أنفُها يُصدر صفيراً مزعجاً. عاودتُ التفرّج من جديد على صورٍ وفيديوهاتٍ نجوى. كنتُ أودّ الاحتفاظ بملامح وجهها وحركاتها وكلماتها وصوتها وألوان ملابسها، فشاهدتُ كلّ مقطع فيديو مرّةً ثانية، بتركيزٍ شديد. أحياناً، كنتُ

أوقف الفيديو في لحظة مُعَيَّنة، وأدقَّ النظرَ في تفاصيل وجهها وجسدها في تلك اللحظة بالضبط، في شفتها العليا وهي تتشني وتختفي وراء أسنانها الأمامية البارزة، في التجاعيد الخفيفة التي تظهر حول عينيها وهي تضحك، في الخطوط الرفيعة التي تبقى في جوانب فمها بعد أن تتوقَّف عن الضحك، في زرقه إبطها حين ترفع يدها قليلاً إلى فوق وهي تشرح شيئاً بحماس، في الشعيرات الخفيفة التي على ساعديها، في التواءات بطنها حين تجلس متقوسّة الظهر، في ماركة الحذاء الرياضي الذي ترتديه، وفي طول كعبها العالي. أحياناً كنتُ أعود إلى لقطات سابقة وأعيد مشاهدتها من جديد. لحظة نساها مثلاً وهي ترفع طبقة صوتها في محاولة فاشلة لتغني إديث بياف. انزياحها عن النطق الفرنسي الصحيح في كلمات معيّنة مثل تلك التي تحتوي حرفي U وE، انفلات بعض الحروف من كلماتها وهي تتحدّث بسرعة، إغماضها لعينيها وعضّها لشفتها السفلى حين تتكسر كلمة على لسانها أو تتذكّر أنها هفّت بخصوص شيءٍ قالته أو معلومةٍ ذكرتها. كنتُ أريد أن أحفظها عن ظهر قلب، أن أكون قادرةً على استرجاعها في رأسي كلّما رغبتُ في ذلك، أن أراها دونما حاجة للدخول إلى صفحتها من جديد.

كانت نجوى من أولئك النساء اللواتي يُدرِكن ذروة الكمال حين يبلغن الثلاثين، وكانت تتصرّف على نحوٍ يجعلُ المرءَ متأكّداً أنها متفطنة لجمالها وفنتتها. نظرتها كانت تقول ذلك. كلّ شيءٍ فيها كان ينمّ عن وعي عميق بجاذبيّتها. حتّى حين تبسم كاشفةً عن أسنانها التي تشبه أسنان أرنب، وحين تضحك بقوة، وحين تُغمض عينيها، وحين تحرّك يديها بشكلٍ طبيعيّ وهي تتكلّم، كانت تنضح بطاقة جنسية واضحة. حين خرجتُ من صفحتها، تحوّلت الدهشة والفضول والأدريالين في عروقي إلى غيرة خالصة، لكنّ الأمر لم يكن يتعلّق بسعد ولا بحبّه لها، بل بنا نحن الاثنين فقط، امرأة لامرأة.

ببرود، سلّمتُ عليّ أمّي في مدخل البيت. لم يتلامَس خدّانا، ولم تنظر إليّ. كان حاجباها معقودَيْن كما لو كانت ناقمةً على العالم، وقد كانت في الواقع غاضبةً من وجودي. أمّا نُهى التي كانت منهمكةً في غسل الأواني، فقد تجنّبت عناقِي، وتحجّجت أن يديها متّسختان ومبلّلتان.

كانت في بيتنا تلك الرائحة التي كانت له قبل سنوات. رائحة الكولونيا ممزوجةً برائحة طبخٍ قديمة ورائحة موادّ تنظيف. تلك الرائحة التي تكون للبيوت كلّها، لكنّنا لا نشمّها إلّا حين نغادرها ونعود لها بعد مدّةٍ طويلة. جلستُ إلى جانب أمّي في صمت. في كلّ مرّة أراها فيها، كان يجتاحُنِي مزيجٌ من الأملِ في أن تهتمّ لأمرِي وتَسأل عن أحوالي، واليأسِ من معرفتي المُسبّقةِ بأنها لن تفعل. ظلّت لساعاتٍ تشتكي من مشكلاتها في الحياة، وقالت إنها تعاني من الأرق والروماتيزم وقصر البصر والكوابيس وآلام الظهر وعدم القدرة على المشي، ثمّ أضافت أنّ إنجاب الأطفال هو السبب في المصائب كلّها التي يمكن أن يعاني منها المرء. حين انتهت من تعداد المشكلات الصحيّة والنفسيّة، بدأت في الشكوى من المشكلات الماديّة. مددتُ لها مبلغاً من المال، وكنتُ أنتظرُ فقط أن أرى ابتسامةً على شفتيّها، لكنها لم تبتسم. راحت تعدّ الأوراق النقدية بحاجِبَيْن معقودَيْن، وفشلتُ مرّةً أخرى في شراء حبّها.

في المساء، جاءت جميلة حاملّةً رضيعها، ومحفوفةً بأطفالها الثلاثة

الآخرين. كانت قد اكتسبت المزيد من الوزن، وأصبحت تبدو أكبر سنّاً منّي، وأكبر حتّى من نُهى. لكنّ، لم يبدُ أنها كانت تهتمّ لذلك، ولم يبدُ أنّ أحداً يهتمّ لذلك. عانقتها أمّي بحرارة وقبّلتها من وجنتيّها. كانت أمّي فخورةً بها كأنها هي من اخترعت الكهرباء، بينما كانت، في الواقع، لا تفعل شيئاً سوى الأكل والضراط وتبرز الأطفال.

جلّسنا جميعاً في الصالون. كانت نُهى منشغلةً بهاتفها. أمّا جميلة، فكانت تقوم بمهامّها الأساسية في قرص أطفالها والصراخ في وجوههم كلّما تعاركوا أو بكّوا بدون سبب. ورغم القرص والضرب والصرّاح، لم يكفّ الأطفال عن الحركة ولا عن الصراخ ولا عن البكاء. كانوا يصعدون باستمرار فوق الطاولات، ويقفزون فوق الكنبات، ويجرّون الأشياء والأجهزة من أماكنها، ويعبثون بأيّ شيء موجود في البيت، ويعانون كلّهم من التبول اللاإرادي. كان واضحاً أنّهم مصابون بفطرت النشاط ونقص الانتباه، لكنّ، لم يكن ممكناً تنبيه جميلة إلى ذلك، لأنها لن تصدّق على أيّ حال. بالنسبة إليها، هناك الأمراض الجسدية التي تُعالج عند الطبيب، وهناك السّحر والعين اللذان يعالجان عند الفقهاء والرّقاة، وهناك الحمق، وهذا لا علاج له أبداً. أمّا أطفالها، فهم فقط عديمو التربية، ويحتاجون إلى الضرب كي يُقوّم سلوكهم.

في حوالي العاشرة ليلاً، كانت ليليان، البالغة من العمر خمس سنوات ونصف، تحاول أن تصل إلى شيء في خزانة الأواني، وكان أمين، البالغ من العمر أربع سنوات ونصف، قد بدأ يقفز فوق الكنب، وكان سليم، البالغ من العمر ثلاث سنوات، قد أدخل جسده الضئيل بين الحائط وطاولة التلفاز. كانت جميلة تتحدّث بفخر عن ملابس العيد التي اشترت لهم، والملابس الداخلية الجديدة التي اشترت لنفسها، والحلويات التي جهّزت، وعن راحتها النفسية العميقة، لأنّ زوجها ترك لها ما يكفي من المال، وذهب لقضاء العيد مع عائلته بعيداً عنها. كانت أمّي ترفع حاجبيها بين كلّ جملةٍ وأخرى

تقولها ابنتها المفضلة، وتُعَقَّبُ كأنها تخاطب نساء خفياتٍ إلى جانبها «أرأيتِ؟ الرجالُ الحقيقيون ما زالوا موجودين في هذا الزمن الذي قلَّ فيه الرجال»، «أرأيتِ؟ المرأةُ الحقيقية هي التي تعرف كيف تجعل زوجها يهتمَّ بها»، «أرأيتِ كم هي رائعةُ حياةِ المرأةِ مع زوجها؟».

أمّا نُهى، فقد حدَّثتنا عن مرشحي العرسان الذين تعرَّفت إليهم، وأرَّنا صورهم على الهاتف. كانوا أربعة: بوشعيب، المطلِّق البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، والذي تُصِرُّ هي على مناداته شُعَيْب لأسباب جمالية. أحمد، البالغ من العمر تسعة وأربعين عاماً، ويريدها زوجةً ثانية، لكنَّه وعدَّها، بالمقابل، أنه سيكتب لها شُقَّةً باسمها. سعيد، البالغ من العمر خمسة وثلاثين، لكنَّه بدون عمل، وشرطه أن تقبل السَّكَن مع عائلته وتكَلِّف بالإنفاق عليه. ثمَّ هناك حسن، صاحب صالون الحلاقة والتجميل الذي تعمَل عنده، والذي سبق وطلب يدي. حين نطقت اسمه وقالت إنه بدأ يتقرَّب منها مؤخَّراً، نظرت إليَّ بجانب عيناها.

قالت أمِّي:

- أفضل واحد بين هؤلاء كلَّهم هو ذاك الذي سيكتبُ لكِ شُقَّةً باسمكِ.
على البنت أن تفكِّر في مستقبلها قبل أيِّ شيء.

أومأت جميلة موافقة.

أضافت أمِّي:

- حسن أيضاً جيّد، إذا تزوّجته، ستسلمين زمام الأمور كلّها في الصالون.
أومأت جميلة.

- شُعَيْب أيضاً جيّد لولا أنه مُطلِّق. لا ينبغي على المرأة أن تثق بالمُطلَّقين
على الإطلاق، لأنهم متعوّدون على التخلّي عن النساء.

أومأت جميلة.

- أمّا ذلك البطاليّ الصغير، فلا شيء يُرجى منه.

أومأت جميلة.

- ومع ذلك، لا تتركه. لا أحد يعرف ما الذي سيحدث في المستقبل.

أومأت جميلة.

لم أقل رأيي. لم يكن لديّ رأي. كنتُ شاردةً في غطاء الكنبَةِ الأحمر الغامق المزين بخيوطٍ ذهبية، ألتقطُ بعض كلامهنّ، وأتذكّر بحزن حين كان أبي يستلقي هنا، ويطلب منّي أن أحكّ له رأسه حتّى ينام.

قالت جميلة:

- وما العيبُ في ذلك؟ أختُ زوجي الصغرى أيضاً كانت تتعرّف إلى كثير من الرجال في الوقت نفسه، قبل أن يتقدّم لها جمال، زوجها الآن. على الفتاة أن تزيد من فرص عثورها على زوج، شرط ألاّ تخطئ مع هؤلاء الرجال.

قالت أمّي رافعةً حاجبيّها كأنها تُنذر بشرّ قادم:

- لكنّ إيمان تلك أفعى، إنها خطيرة وليست مثل أختك نهى!

صاحت نهى مدافعةً عن نفسها:

- لا تظنّي أنني سهلةٌ إلى هذه الدرجة.

عقدت أمّي ما بين حاجبيّها. قالت جميلة بغضب:

- أمّي معها حقّ. إنها فعلاً أفعى! هل تذكرين ما فعلتهُ معي في عيد الأضحى الماضي؟ لقد حصلتُ على الحصّة الأكبر من اللحم، بينما ظلّت ثلاجتي فارغة! ندمتُ لأنني تشاركتُ الأضحية معهم، وقلّتُ لعمر إن هذه

آخر مرة أفعل فيها هذا ... لكنّ الدنيا دوّارة والحقّ لا بدّ أن يظهر في آخر المطاف ...

كانت جميلة تصف بلدّة وتشفّ كيف فسّد اللحم في ثلاجة أخت زوجها وازرقّ لونه، حين سمعنا صراخاً قادماً من المطبخ. انطلقنا إلى هناك مسرعاتٍ، ووجدنا سليماً داخل آلة الغسيل.

تلك الليلة، رأيتُ نجوى في منامي. كانت جالسةً على الكنبِ في بيتنا مرتديّة فستان عرس، وإلى جانبها يجلس حسن، صاحب صالون التجميل، بصلعته اللامعة، وكرشه الضخمة، مرتدياً بذلةً بنيّة أكبر من مقاسه. وكانت أمي هناك، ترتدي فُقطاناً أبيض عليه زخارف ذهبية، وتضع أساور من الذهب في يديها المزيّنتين بالحِناء، وترغرد.

صباح العيد، جاء جمعٌ من الأقرباء الرجال، مرتدين جلابيب صُفْر وبيّض أنيقة، كان بينهم أخوالي وأعمامي، وأقرباء آخرون بعيدون. التحقت النساءُ بعد قليل، مرتدياتِ قفاطين وأساور ذهبية، محفوفاتٍ بأطفالهنّ، مسرورات، وضاحكات. جلس الرجال في الصالة المخصّصة للضيوف، والتي تُلفّ كنباتها كلّ سنةٍ بأغطيةٍ جديدة، وذهب الأطفال ليلعبوا في الخارج، بينما اجتمعت النساء في الصالون ذي الكنبات القديمة التي يبلغ عمر أعطيّتها ثمانية وعشرين عاماً.

ورّعت نهى أطباق الحلوى على الطاولات، وانتشرت رائحة الشاي بالنعناع في الجوِّ. ومع ذلك، لم أشعر بأيّ دفءٍ عائليٍّ ولا حتّى حينٍ لطفولتي. النساء اللواتي جننَ كلّهنّ كنّ يرافقن أزواجهنّ، إلّا زهرة، بنت خالة والدي، جاءت كالعادة وحدها، حاملةً طبقاً به حلويات، وكثيراً من الهدايا للأطفال. كنتُ أحبّ تلك المرأة، وكانت تُثير فضولي بشجاعتها وقوّة شخصيّتها وحفاظها على جمالها وأناقتها رغمَ بلوغها السّتين من العمر.

بعد تطوّر الأحاديث بين النساء، سحبتُ نهى إلى المطبخ وسألْتُها:

- أَلَمْ تنزوّج زهرة بعد؟

رمقَني شرّاً، وقالت باقتضاب:

- لا، لم تتزوّج.

قُلْتُ بدهشة:

- لماذا؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

قالت بنبرة لاذعة:

- وهل يمكن أن تتزوّج في هذا العمر؟

قُلْتُ:

- ولم لا؟ إنها ما تزال جميلة، ثم إنَّ عبد العزيز صاحب مقهى موناكو كان يموت فيها، وكان مستعدّاً أن يفعل أيّ شيء ليتزوّجها.

توجّهتُ إلى حوض الغسيل، وبدأتُ بعصر إسفنجة التنظيف، بهدوءٍ وانتباه، كأنها تتأهّب لغسل الأطباق، ثمّ قالت دون أن تنظر إليّ:

- لقد رفضتِ الزواج منه.

سألتُ بفضول:

- لماذا؟

قالت بنبرة ساخرة دون أن تتوقّف عن عصر الإسفنجة:

- قالت إنها لا تستطيع، وإنَّ الأمر أقوى منها. وأنتِ تعرفين جيّداً ماذا تقصد.

سألتُ:

- هل ما تزال تتحدّث عن أبي؟

قالت:

- تفعلُ ذلك دائماً، وأمام أمّي، كي تُثير غيظها.

توجَّهْتُ إلى الصالون، وجلستُ وسطَ النسوةِ أراقبُ زهرة. كانت تجلسُ مستقيمةَ الظهر، وازدعةً رِجلاً على رِجل، بينما برزت رِجلُها البيضاء الخالية من الزغب الصافية من الشوائب من فتحة القُفطان. كانت التجاعيد واضحةً في وجهها، لكنّه كان ما يزال محافظاً على صفائه ونضارته، أمّا عنقها، فكان طويلاً، وبه شاماتٌ صغيرة ذات لونٍ بُنيّ فاتح. كانت أجمل امرأةٍ بين الحاضرات كلّهنّ في نظري، وطالما نظرتُ إليها بافتتان منذ طفولتي. ربّما لأنني لم أستطع فهمَ جمالها. ربّما لأنها كانت مختلفةً عن النساء الأخريات. ربّما لأن حياتها كانت دائماً غامضةً بالنسبة إلينا جميعاً. كانت تزورنا أحياناً، وكانت تحضّر مع العائلة في الأعياد والمناسبات وتشارك في الاحتفالات وتحدّث مع الجميع، لكنّها لم تشبه أحداً أبداً. ربّما لذلك كنتُ أُحبّها، أو ربّما كنتُ أُحبّها لأن ماضيها مشوّقٌ مثل قصّةٍ خيالية، أو ربّما لأنها كانت الحبّ الأوّل لأبي، أو ربّما لأنها آخر مَنْ سمع صوته قبل أن يموت.

زهرة هي بنتُ خالَةِ والدي، وحبيبته السابقة أيضاً، وهذا هو سببُ كراهية أُمّي الشديدة لها. ورغم أنّ أُمّي لم تخبرنا بهذا أبداً، لكننا كلّنا كنّا نعرف أنّ والدي كان مرتبطاً بزهرة في الماضي، وأحبّها كثيراً، ورغب في الزواج منها.

بكثيرٍ من المبالغة والبهارات، حكّت لنا جدّتي لوالدي قبل وفاتها بسنوات القصّة المثيرة لابنة أختها. كانت زهرة شابةً رائعةَ الجمال، وكان الشباب كلّهم يتمنّون أن يظفروا بحبّها ويتزوّجوها. وكانت، بالإضافة إلى جمالها الفَتّان، ذكيّةً وناجحةً، إذ استطاعت الحصول على البكالوريا والعمل كمرمّضة، على خلاف كثيرٍ من الفتيات في سنّها في ذلك الوقت اللواتي كنّ يعملن كخادماتٍ في البيوت أو يجلسن في البيت في انتظار زوج. كانت زهرة حين تمرّ بقامتها الطويلة وجسديها الممتلئ وبشرتها البيضاء المشعّة،

تقول جدّتي، يلتفت الجميع، ويدوخ الرجال، وتموت النساء غيرة وحسداً. بل إنّ هناك من طلق زوجته لأنه أحبّها وأراد الزواج منها، ومن حاول الانتحار لأنه عشّقها ولم يستطع الظفر بها. أمّا النساء، فحاولن القضاء عليها بشتّى الطرق، حتّى إنّ هناك من صرفت ثروة للحصول على مخ الضبع ولسان الحمار لتسحرها، ومن سرقت خرق حيضها ودفنتها في المقابر. لكن سحر زهرة، تؤكّد جدّتي، كان دائماً يفوز في الأخير.

كانت زهرة تكبر والدي بسبع سنوات. حسب جدّتي، فإنه أحبّها منذ كان طفلاً في التاسعة أو العاشرة، وكانت هي وقتها شابة في السابعة عشرة، في كامل جمالها وأنوثتها. ظلّ والدي وفيّاً لحبّها حتّى كبر وصار شاباً، وحين تخرّج معلّماً، طلب يدها للزواج. كانت السنوات الثلاث التي ظلّت فيها زهرة مخطوبة لوالدي أجمل السنوات في حياة العائلة، قبل أن تنتهي علاقتهما فجأة بسبب سحر قويّ، تقول جدّتي.

في البداية، كانت جدّتي تحكي لنا هذه القصة حين تكون والدتي غائبة عن مجالسنا. وبعد وفاة والدي، أصبحت تحكيها أمامها دون أن ترمش لها عين. وحين كانت تصل في القصة إلى لحظة انفصال والدي عن زهرة بسبب السحر، كانت تنظر إلى أمي بجانب عينيها. لكنّ أمي ظلّت تلتزم الصمت، حتّى لا تُشعرنا أن الأمر يتعلّق بقصة حقيقية عاشها والدي. لم تكُن جدّتي تحبّ أمي، وعرفنا في ما بعد، أنها قاطعت والدي، لأنه تزوّج منها، ولم تصالحه حتّى وُلدت نهى.

تقول جدّتي إنّ زميلة لوالدي في مهنة التعليم سرقت خرقه حيض زهرة، وعملت بها سحراً، ثم ألقته في أعماق البحر. لم يَنه ذلك السحر علاقة زهرة ووالدي فقط، بل إنّ زهرة أصبحت تتقرّر من الزواج، وظلّت ترفض الخطّاب حتّى بلغت سنّ اليأس.

في صيفي العامَيْن 1993 و1994، كانت زهرة تزورنا كثيراً في البيت. كنتُ صغيرةً جداً، لكنني أذكر أنها كانت تأتي دائماً محمّلةً بالحلويات والساكر وبذور دوّار الشمس، تجلس مع والدَيّ في الصالون، حيث يتحدثون طوال المساء، ويشاهدون التلفاز، ويشربون الشاي. كانت فرحتي بالساكر التي تجلبها لنا زهرة كبيرةً جداً، لدرجةٍ لم أستطع أن أفهم أن نظراتِ أمي الخامدة وابتساماتها الباهتة ولحظاتِ صمتها الطويلة كانت دليلاً على انزعاجها من وجودِ هذه المرأة في حياتنا، بل إن ذاكرتي احتفظت بهذه الفترة من حياتي في خزانة الذكريات السعيدة.

كانت زهرة في نهاية الثلاثينيات من عمرها وقتها، لكنّها كانت تبدو أصغر سنّاً من أمي التي تصغرها بخمس سنوات أو أكثر. كانت زهرة أجمل وأكثر رقياً وأناقةً. تأتي مرتديةً فساتين بألوان بهيجة، وجلابيب فاخرة، وأحذية بكعوبٍ عالية. أذكر جيّداً أحمر شفّتها الوردِيّ الفاتح، وشعرها البنيّ الناعم المنسدل على كتفَيها، وعُرقها، وسنّها المغلّفة بالذهب، والتي كانت تزيدها جمالاً كلّما ضحكت. أمّا أمي، فقد كانت غاضبةً على الدوام، متوتّرة ومصابةً بالصداع. لا أذكر إلا جلبابها البنيّ القديم الملتصق إلى جلدها، وشعرها الملفوف في طرحة بيضاء، وبيجاماتها الطويلة والواسعة، وشبشبها البلاستيكي الذي يُصدر أصواتاً أشبه بالضراط حين تمشي. كانت رائحةُ زهرة مثل رائحةِ زهرةٍ طيّبة، وكانت أمي مفعمةً طول الوقت برائحةِ الثوم والبصل وموادّ التنظيف.

كانت زهرة تتصرّف في بيتنا كأنه بيتها، تجلسُ بكلّ أريحية، وتمدّد أحياناً على الكنبه وهي تشاهد التلفاز. كانت تُلقِي النكات، وتضحك كثيراً، وتمازح والدي، وتلمسه وهي تتحدّث، كأنّ تضربه إلى كتفه أو ذراعه ضربةً خفيفةً، أو تنغزه في بطنه. بالنسبة إليّ، كانت أياماً سعيدةً فعلاً، لأنّ البهجة التي كانت تُدخلها زهرة إلى قلب والدي كانت تجعله يسمح

لنا باللعب كثيراً، والسهر حتى منتصف الليل، ومشاهدة الأفلام المصرية القديمة معهم. أمّا بالنسبة إلى أمي، فكانت زياراتُ زهرة جحيماً لا يُطاق. ومع ذلك، لم تكن تقول أيّ شيء، وكانت تحاول أن تتصرّف كما لو كانت غير مهتمة. عند منتصف الليل، وبعد أن يغادر والدي لإيصال زهرة إلى بيتها بسيّارته، كنتُ أرى الدموع في عيني أمي.

في تلك الأيام، كان يُعرض مسلسل رهينة الماضي المكسيكي مدبلجاً إلى العربية الفصحى، وكان الجميع في عائلتنا يشبّه زهرة ببطلته غوادالوبي، وعندما تكرّس هذا التشبيه، صاروا ينادونها غوادالوبي، ويطلقون عليها هذا الاسم حين يتحدثون عنها في غيابها. مع مرور الوقت أصبحت زهرة هي غوادالوبي، وغوادالوبي هي زهرة. وحين كانت العائلة تجتمع وقت عرض المسلسل، وتظهر بطلته على الشاشة، كانت جدّتي لأبي تقول وهي ترمق أمي بجانب عينيها: «اسكتوا، اسكتوا، زهرة تتكلّم الآن!»، فترسم على شفّتي أمي ابتسامةً واهنة، وتردّ عليها بسخرية مسمومة: «لم نكن نعلّم أنك تفهمين اللغة العربية، يا خالتي!». تردّ عليها جدّتي بثقةٍ منقطعة النظير وهي تتطلّع إليها بحقد: «هؤلاء مكسيكيون، والمكسيكيون يتحدثون بالمكسيكية، وليس بالعربية ... معلّات آخر الزمن».

عندما رأت أمي أن زهرة أصبحت تأتي دائماً، بحجّة أنها من العائلة، وأنه لا مفرّ من هذه المواجهة مع المرأة التي أحبّها زوجها في الماضي، جرّتنا معها - أختي وأنا - إلى سوق درب عمر، ذات أحد، واشترت جلباباً جديداً وحذاءً بكعبٍ عالٍ. كان الغضبُ يتطاير من عينيها وحركاتها وهي تقيس الأحذية في المحالّ، وتجرب المشي بها، وتتفاوض مع البائعين حول ثمنها. خمد غضبها حين استقرّت أخيراً على حذاء أسود لامع ذي كعبٍ عالٍ جداً. أخذته إلى البيت بسعادة، لكنّها لم تلبسه أبداً.

مات أبي في حادثِ سيارَةٍ فظيع حين كان متوجّهاً إلى بيت زهرة ذات ليلةٍ مطيرة. عرفنا أن زهرة اتّصلت به، لكنّ أمّي لم تخبرنا أبداً بحيثياتِ القصّة، حتّى بعد أن كبرنا. مات أبي وخبأت أمّي الحذاء ذا الكعبِ العالي في أرضية خزانة ملابسها، ولم تلمسه طيلة أكثر من عشرين عاماً، وظلّت مقتنعةً أن زهرة انتزعت منها زوجها. أمّا جدّتي، فظلّت مقتنعةً أن أمّي فصلت ابنها عن زهرة، وأن ابنها ما كان ليموت في أجمل سنين شبابه لو أنه تزوّج بنت أختها.

كبرت زهرة في السنّ، واكتسبت قليلاً من الوزن، وارتدت الحجاب، لكنّها ظلّت جميلةً ويانعةً كما عرفتها دائماً. كانت جالسةً أمامي في صالون بيتنا، تنظر إليّ وتبتسم بحبّ. شعرتُ بالحنين عندما رأيتُ سنّها الذهبية، وبادلتها الابتسامة. كانت المرأة الوحيدة التي يُشعرُني النظرُ إليها بالأمان، وتقول لي قصّتها ألا أخاف من الوحدة.

في اليوم التالي، تسلّلتُ إلى غرفةِ أمّي وسحبْتُ الحذاء الأسود اللامع ذا الكعبِ العالي من الخزانة. مسحتُ طبقةَ الغبار الكثيفة التي استقرّت فوقه، ووضعتُه في حقيبتِي، ثمّ غادرتُ.

بمجرّد ما وصلتُ إلى البيت، وقبل أن أتخلّص من ملابسي المبلّلة بالعرَق، جلستُ على الأريكة وارتديتُ حذاء أمّي ذي الكعبِ العالي، ثمّ رحتُ أسير به في البهو الكبير ذهاباً وإياباً محاولةً تقليد مشية عارضات الأزياء. أحببتُ كيف تبدو ساقاي وهما مرتفعتان أكثر من المعتاد عن الأرض، لكنّ مشيتي كانت، في الواقع، تشبه مشية بطريق.

نكثتُ وعدي لنفسي أنني لن أرتدي الكعبِ العالي أبداً في حياتي مهما كلف الأمر، وأنني سأكون متصالحةً مع ذاتي، وأتقبّل قصر قامتي. كانت بداخلي رغبةٌ قوية في أن ألتقي سَعداً في المرّة القادمة بقامةٍ جديدة. مشيتُ في البهو، وانعطفتُ شمالاً داخله إلى غرفة النوم، ثمّ توقفتُ قليلاً أمام المرأة أتملّ ساقَي اللتين تبدوان مختلفتين. أحببتهما لدرجة عدتُ للسير في البهو من جديد، ثمّ مشيتُ نحو المرأة في غرفة النوم مرّة أخرى، ثمّ إلى الحمام. كنتُ معجبةً بخصري النحيل وكتفيّ المرتفعتين وصدري البارز. دخلتُ إلى المطبخ ورحتُ أجرب القيام بالأشياء العادية وأنا أنظر إلى العالم من فوق بستمراتٍ إضافية. فتحتُ الثلاجة، وأخرجتُ أفخاذ الدجاج من المجمّد، ثمّ غسلتُ يديّ تحت الصنبور. كان ذلك فقط كافياً كي أشعر بالإرهاق، ومع ذلك راودتني رغبةٌ عارمةٌ في التنظيف حين رأيتُ الأواني في حوض الغسيل. قاومتها. كنتُ أتصدّي لنفسي في كلّ مرّة أشتهي فيها القيام بأعمال التنظيف، وأذكرها أنّ أوّل خطوةٍ لتحرّر النساء هي تخلّصهنّ من سطوة المطبخ على عقولهنّ.

سِرْتُ ذهاباً وإياباً في البهو مرّة أخرى، لكنّ مشيتي بالكعب العالي لم تتحسن. فكّرتُ في نجوى وهي تسيرُ بكلّ أريحية بكعبيها العالي في الفيديو الذي نشرته على إنستغرام، وتساءلتُ لماذا استطاعت كثيرٌ من الفتيات أن يتعلّمنَ مثل هذه الأشياء وعجزتُ أنا عن ذلك؟! شعرتُ باليأس. خلعتُ قميصي وحمالة الصدر والثُورة، وتمددتُ على الأريكة دون أن أخلع الحذاء. كنتُ أحاول إيجاد تبريراتٍ لفشلي في المشي بهذا النوع من الأحذية. قلتُ لنفسي إنها تؤذي الظهر، وتسبّبُ آلام المفاصل والإجهاد والتورّم في أعصاب القدم، وإنّ النساء اللواتي يرتدينها فارغات. لكنني بعد قليلٍ فقط، وجدّتي، دون أن أشعر، أدخل إلى إنستغرام وأشاهد بإعجاب مقطع الفيديو الذي تظهر فيه نجوى بالكعب العالي. تفرّجتُ عليها ثلاث مرّات وهي تغني إديث بياف، ثمّ توقّف عن الغناء وهي تضحك، بينما تسير، بكلّ أريحية، بذلك الحذاء اللعين الذي يبلغ طوله عشرة سنتيمتراتٍ على الأقلّ. راقبتها بحسد وهي تلتفتُ إلى مصوّرِها دون أن تلتوي قدمها أو تفقد توازنها. خلعتُ الحذاء ورميته أرضاً بعنف. لم أكن، في الواقع، غاضبةً من النساء اللواتي يعرفنَ كيف يمشينَ بالكعب العالي، بل من نفسي. كنتُ غاضبةً، لأنني لم أتعلّم ذلك عندما كنتُ أصغر سناً، لأنني تهرّبتُ دائماً من ذلك، لأنني استخففتُ بقريناتي حين كنّ يتعلّمنَ وضع الماكياج والسير بالكعب العالي وطُرق إغواء الرجال، ولأنني، بدل ذلك، كنتُ أكتبُ نصوصاً ساذجةً عن الحبّ والأمل، وأحلم بتغيير العالم. كنتُ غاضبةً لأنّ العالم لم يتغيّر، لأنّ المرأة الأولى التي كان ينبغي أن أتعلّم منها الأنوثة كانت صلبةً وخشنةً وقاسيةً، لأنني لم أعرف كيف أعطف على كتاباتي وكلماتي، لأنني كنتُ أشعر بالذنب بدون سبب. ألقىتُ رأسي المتعب على مسند الأريكة وبكيتُ. بكيتُ بقوة، وبألم عميق، كأنّ جرحاً مفتوحاً داخل قلبي ارتطم بصخرة.

مرّ شهران دون أن أدخل إلى صفحةِ نجوى على إنستغرام، ودون أن أبحث عن اسمها على فيسبوك. فكّرتُ فيها كثيراً، وخطرتُ ببالي وأنا أكتب وأعمل، بل حتّى وأنا أبادل القُبَل مع سَعد أو ونحن نمارس الحبّ. كنتُ أتخيّل كيف كان يقبّلُها في الماضي، وكيف كان يمسك يديها الرقيقتين، وكيف كان جلده يقشعر حين تلامس أصابعه أصابعها. حاولتُ مراراً أن أردع نفسي عن تخيّل تلك الأمور، لكنني لم أنجح في ذلك. كان سَعد يقول لي أشياء قبيحةً وسلبيةً عنها، من قبيل إنها امرأة فارغة وتافهة وذات عقليةٍ عاهرة، أو إنّه لم يكن يحبّها فعلاً، لكنني لم أكنُ قادرةً على تخيّل أيّ شيءٍ آخر غير تطلّعهِ إليها بحبّ. كنتُ أعرفُ أنه يكذب، لأنّه لم يستطع أن يجعلها تبقى معه، وكنتُ أعرفُ أنّ كثيراً من الرجال يصبحون حقودين حين تتركهم امرأة، وأنّ أعدى شيءٍ لديهم هو أن يعرفوا أن امرأةً يمكن أن تعيش حياتها بشكلٍ أفضل بدونهم، ومع ذلك غضضتُ الطرفَ عن حقارةِ سَعد، وقرّرتُ أن أبقى معه، لأنّني لستُ لنفسي أنني أفضلُ من نجوى.

في تلك الأيام، تقربَ بعضنا من بعضٍ كثيراً، واكتشفتُ أننا معاً، لأننا نتشابه في انكسارنا. كان كلانا يحاول أن ينسى آلام الماضي ويبنى حياةً جديدة، وكان كلانا يؤهم نفسه بالسعادة مع الآخر، ليهرب من شيءٍ ما. كنّا نلتقي كثيراً، وتنسلّل إلى شقّته أو شقّتي خُفيّة عن أنظار الحراس

مثل لَصَيْنَ مَتمَرِّسَيْنَ، أو نرشوهم كي نستطيع الدخول إلى الشُّقَّةِ نفسها دون أن يهددنا أحدٌ بالاتِّصال بالشرطة. كان يحبُّ أن يكون معي، ليهرب من حبه لنجوى، وكنتُ أحبُّ أن أكون معه، لأنني أريد الهربَ من نفسي.

ينبغي أن أخبر الذين سيقروون هذه الكلمات بعد قرني أو أكثر، حين ستكون الأوضاع في المغرب قد تغيَّرت بفعل قوَّة الزمن، أنَّ غالبية المغاربة كانت لهم حياةٌ جنسيةٌ خارج الزواج، وأنَّ الناس الذين ينزعجون من رؤية رجلٍ وامرأةٍ يدخلان إلى شُقَّة، سبقَ ومارسوا الجنس بدون زواج، وأنَّ كثيراً من النساء المتزوَّجات اللواتي يغضبن حين يعرفن أنَّ امرأةً ورجلاً غير متزوَّجين يوجدان تحتَ سقفٍ واحد، لم يكنَّ راهباتٍ طاهرات، بل سبقَ ومارسنَ الجنسَ من الدُّبر أو بدون إيلاج قبل زواجهنَّ، وأنَّ كثيراً من الرجال الذين يتَّصلون بالشرطة حين يعلمون أن هناك حفلةً مختلطةً في إحدى الشقق يستمنون على النساء اللواتي يعرضن مؤخراتهنَّ ونهودهنَّ على يوتيوب. أمَّا حُرَّاس العمارات، فيكفي وضعُ عشرة دراهم في جيوبهم، ليتوقَّفوا عن نصبِ أنفسهم حُرَّاساً للطهارة والشرف.

كان لا بدَّ لشخصين مثلنا - سعد وأنا - تخصيص ميزانية، لنستطيع أن نوجد تحت سقفٍ واحد، حتَّى لو كان ذلك فقط للجلوس في الصالون وشرب القهوة والحديث عن مشاريعنا وأحلامنا المشتركة.

في تلك الأيام، كانت لدينا أحلامٌ مشتركة، وكنتُ أشعر برغبةٍ كبيرة في أن أعيش ما تبقى من حياتي معه. كنتُ أتدخَّل في أمور حياته وملبسه ومأكله وبيته، وأمثُل دورَ المرأة التي تهتمُّ بحبيبها وتعتني به، فأكوي قمصانه، وأساعده على ارتداء معطفه، وأذكره بمواعيده مع الناشرين ومواعيد ذهابه إلى الحمام والحلاق، وأساعده في كتابة الإيميلات للناشرين لاقتراح روايته الأولى، وأبعثُ له روابط مقالاتٍ عن التغذية السليمة، والمُعْ زجاج نوافذ

بيته، وأرتّب سريريه، وأرافقه إلى المحالّ لمساعدته على اختيار ملابسه وأحذيته، وأحمّم شمشون كلّ أسبوع. كنتُ أريد أن أُبينّ له، عبر ذلك، أنني امرأة مثالية، وأني أستحقّ الحبّ أكثر من أيّ امرأة عرفها من قبل، وبالأخصّ نجوى.

في يوم الخميس المصادف للسابع من أكتوبر 2018، صدرت ترجمة **البحث عن الزمن الضائع**. كنّا مبهجين جدّاً، وقضينا اليوم كلّهُ معاً في دار الإبداع. في المساء، اشترينا قِئِنَّة نبيذ أحمر، وتوجّهنا إلى بيت سعد. ومن سعادتنا، دسّنا ثلاثين درهماً هذه المرّة في يد حارس المبنى. التفتَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً وهو يضعُها في جيبه، ليتأكّد أن أحداً لم يره، ثمّ ابتسم كاشفاً عن فمه الذي بدون أسنان. بعدما تأكّد سعد أن بابَ شُقّة جارته نعيمة مغلق، ناداني لأصعد. دخلنا إلى الشُقّة، وتبادلنا القُبْل قبل أن يجلب كأسين للنبيذ. طلبَ مِنِّي أن أتبيّه وهو يمدّ لي كأسِي، وقال ضاحكاً إنّ كوؤس النبيذ كلّها التي اشتراها انكسرت، لأنّه كان يسهر كثيراً في السنوات الأخيرة. تخيلتُ أنه كان يسهرُ مع نجوى، وتخيلتُهما معاً في وضع حميميّ تحت ضوء الشموع بعدما ثملا بفعل النبيذ. أردتُ أن أسأله إن سهرَ معها في الماضي فعلاً، لكنني تحكّمتُ في نفسي، ورُحتُ أحدثه، بدل ذلك، عن ذكرياتي مع مراجعة البحث عن الزمن الضائع، وأمدحُ ترجمته ولغته العربية.

ارتشف من كأسِهِ بلذّة، ثمّ أمسكَ كلتا يديّ، وأخذَ ينظر إلى عينيّ، مثلما يتطلّع العاشقون إلى أعينُ حبيباتهم في الأفلام الرومانسية. قفرَ شمشون وجلس في حجرِي، لكنني لم أُمسّد رأسه كما أفعل عادةً. كنتُ أشعر أن سعداً سيقول شيئاً مهماً.

قال بنبرةٍ جادّة:

- بما إننا نقضي معظم وقتنا معاً، وبما إننا نحتاج أن نكون وحدنا تحت سقف واحد بلا أي مشكلات، وبما إنني طبعاً أحبك، وأظن أنك أيضاً تحبينني، فكرت أن الحل هو أن ينتقل أحدنا، ليسكن مع الثاني.

كنت متحمسة للفكرة، لكن القلق من أن أقضي وقتي أختبئ من الجيران استولى عليّ. وخشيت، في الوقت نفسه، أن أحرته إذا رفضت اقتراحه. أضاف بسرعة:

- والطريقة الوحيدة لكي نعيش حياتنا في هدوء ودون مشكلات هي الزواج.

لم أقل شيئاً. نظرت إليه لبرهة في صمت. كان يتطلع إليّ بأمل كأنني أملك مفاتيح سعادته. كان هناك خليط عجيب من القلق واللذة في داخلي. وحسبت من الارتباك أنني أصبت بالشلل. حركت يدي وأبعدتها عن يده، لتأكد أنني سليمة، ثم أرجعت شعري إلى الوراء في حركة سريعة. لم أعرف هل أفرح لأنني سأتزوج الرجل الذي أحبه كما يحدث في الأفلام، أم أحرزن لأننا فقط مضطران لذلك، أم أشعر بالانتصار لأنني، أخيراً، أستطيع أن أثبت لأمي أنني أيضاً امرأة، امرأة حقيقية، امرأة محترمة ثمة رجل يرغب في استكمال حياته معها، وليس كما تظن هي أنني لا أصلح لشيء. كان عليّ أن أخرج من نفسي وأتطلع إلينا من الخارج كما لو كنت شخصاً آخر كي يبدو الأمر مثل مشهد في فيلم رومانسي، وكى أشعر بالسعادة.

لكنني، مع ذلك، لم أرد أن أبين له أنني مغتبطة جداً لأنه عرض عليّ الزواج. ارتديت قناع الجدّة، ثم قلت أخيراً:

- اتفق معك أن الزواج قد يجعل حياتنا أسهل، لكنني لا أريد أن تتسرّع. ينبغي مرة أخرى أن أخبر الذين سيقروون كلماتي بعد قرن أو أكثر أن

كثيراً من الزيجات التي كانت تحصل في المغرب، ليست بهدف الزواج في حد ذاته. فالكبت الجنسي، وعدم توقّر الفرص للشباب لإشباع رغباتهم الطبيعية، يجعلهم يسرعون في الزواج. ثمّ هناك فئة أخرى تلوذ إلى الزواج حتّى تستطيع عيش حياتها العاطفية والجنسية كما تريد، فالمساكنة ليست حلاًّ مريحاً، والفنادق تشترط وجود عقد زواج، كي يستطيع رجلٌ وامرأةٌ تشارك غرفةً واحدة، وكثيرون لا يستطيعون إخبار عائلاتهم أنهم في علاقاتٍ جادّةٍ ما دام ليس هناك عقد زواج.

أمسك يدي مرّةً أخرى، وقال بنبرة متوسّلة:

- أنا لا أريد أن أتزوّجك لأنني مضطّرٌّ لذلك، بل لأنني واقعٌ في حبّك. داعبتُ كلماته كبريائي الهشّ. تعانقنا بحنان وقبّلني بعاطفة. نظرتُ إلى شمشون النائم بيننا بسلام، وشعرتُ أنّ حياتي ستكون أجمل، وأنني سأتخلّصُ من نجوى إلى الأبد.

وافقتُ على الزواج من سَعد في أقرب وقت، وقرّرنا أنْ منتصفَ شهر ديسمبر سيكون مثاليًا، وأنَّ الشهرَيْنِ المتبقيَيْنِ على ديسمبر كافيان لإخبار أمي بالموضوع، والتعرّف إلى والدَي سَعد، والتجهيز لإقامة حفلٍ صغير يومَ كتابة العقد عند العدول.

كان أهمُّ وأصعبُ شيءٍ هو إخبارُ أمي. فبالرغم من أن الزواج في حدِّ ذاته مدعاةٌ للفخر، إلّا أن الزواج بدون مهر وبدون حفلٍ زفافٍ مدعاةٌ للخزي، لأن المرأة التي تقبلُ أن تمنح نفسها لرجلٍ مقابل لا شيء لا قيمة لها. تخيلْتُها تنتقدُني وتهينُني وتحتقرُني، وتخيلْتُني صامتةً أمام ذلك. لم أكن أشعر بالخوفِ منها بقدر ما كنتُ أشعرُ بالقرَفِ من نفسي حين أصمتُ أمامها، ولذلك كنتُ قلقةً لدرجة أنني أمضيتُ ثلاثة أيّامٍ متتالية بوجعٍ لا يُطاق في معدتي.

ورُحْتُ أُسوِّف.

قضيتُ شهر أكتوبر كلّهُ أبحثُ عن أفضلِ مؤجّراتِ الملابس التقليدية، وكلّ يومٍ بعد العمل، كنتُ أذهبُ لشراء الأشياء التي تلزُمُني لحياتي القادمة كامرأةٍ متزوّجة. اشتريتُ كريّمات وملابس داخلية جديدة وفساتين نومٍ مشيرة وأقراطاً من الذهب وقنينةَ عطرٍ وبلُعةً بيضاء مطرّزةً بزخارف ذهبية. أحياناً، كنتُ أذهبُ لأجربَ القفاطين في محالِّ بيعِ الملابس التقليدية، وأمضيتُ أوقاتاً طويلةً في المحالِّ أجربُ أحذيةً بكعوبٍ عالية، قبل أن أستقرّ على زوجٍ من الأحذية بكعبيْن لا يتجاوزان سنتمترَيْن. كنتُ

أخشى أن أترحلّق أمام المدعوّين في يومٍ زواجي. فعلتُ كلّ ما يلزم ولم أستطع أن أتحدّث مع أمّي.

وبينما كنتُ أحكي لسعد عن يومياتي في الأسواق ومشترياتي ذات سبتٍ مشمس، بعد أن مارسنا الحبّ، وقع نظري على الملاءة المنكمشة على طرف السرير. كان سعد يُمسّد رأسي الموضوع على صدره كالعادة، حين نهضتُ فجأةً، وبدأتُ في ارتداء ملابسِي.

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

قلّتُ:

- نسيّتُ الشراشف!

نظرَ إليّ باستهجان، وقال:

- هل يمكن أن تنسيّ موضوع المقتنياتِ قليلاً؟

قلّتُ بحماس:

- يجب أن نغيّر كلّ شيءٍ في هذه الغرفة.

جرّني من يدي نحوه مازحاً، ثمّ أحاط خصري بذراعيه وهو يقول:

- هذا ليس مهماً...

أردتُ أن أقول له إنني أفكّر بحبيبته السابقة كلّما استلقيتُ على هذا السرير، لكنني أفلتُ خصري من بين ذراعيه وقلّتُ بدل ذلك:

- لم يعد أماننا وقتٌ كثير.

لم يقل شيئاً. شعرتُ بطاقة غضبٍ في الجوّ. قلّتُ لتلطيف الأجواء:

- لماذا لا تذهبُ معي؟ خالي مصطفى كان يرافق زوجته دائماً لاقتناء الأغراض الخاصة بالبيت.

قال:

- لا، شكرًا، لستُ مهتمًا بمثلِ هذه الأشياء.

قُلْتُ:

- حسنًا، كما تشاء.

كنتُ ما أزال أودّ إقناعه بالذهاب معي. أضفتُ وأنا أرتّبُ شَعْرِي
أمام المرأة:

- في الحقيقة، أحبُّ الرجال الذين يهتمّون بمثل هذه التفاصيل. إنَّهم
نادرون جدًّا.

قُلْتُها وراقبتُ انعكاسه في المرأة. كان يرمقني بعينين جاحظتين خاليتين
من الحبِّ، مملوءتين بالاستنكار:

- ماذا تقصدين بأنك تحبّين الرجال؟

نبض قلبي بقوة، وشعرتُ بالخوفِ يحفر في معدتي وبطني مثل فأس.
التفتُ إليه وقُلْتُ بصوتٍ ضعيف:

- لم أقل إنني أحبُّ الرجال.

قال بامتعاض:

- قُلْتِ إنك تحبّين الرجال الذين يهتمّون بمثل هذه التفاصيل، وقد
قُلْتُ لك سابقاً إنني لستُ من هؤلاء الرجال. ماذا يعني هذا؟

كانت عيناه جاحظتين وحمراوين، وكان صوتي ضعيفاً لدرجة لم أشعر
بكلماتي تخرج من بين شفَتَيَّ:

- أنا لا أحبُّ أحداً غيرك، يا سعد ...

قال:

- اذهبي الآن، وسنحدّث عن ذلك لاحقاً.

- عماذا ستحدّث؟

ألقى رأسه على المخذة، وجرّ الملاءة نحوه مغطياً جسده، ثم التفت إلى الجهة الأخرى بحيث لم أكن قادرة على رؤية وجهه. مشيت نحوه بخوف، وكرّرتُ:

- عماذا ستحدّث، يا سعد؟

غطى رأسه بالملاءة.

- هل غيرت رأيك؟ ألم تعد تريد الزواج مني؟

سمِعته يقول من تحت الملاءة:

- لم أقل ذلك. اذهبي الآن واتركيني وحدي.

شعرت أنني سأتقيأ قلبي من الخوف، لكنني تماسكتُ، ومشيتُ نحو الباب بجسدٍ متخشّب. كانت أفكارِي مشوّشة، ولم يستطع دماغي أن يفرز فكرةً متماسكةً واحدة. خيلتُ لي نجوى تصرخُ في وجه سعد بأعلى صوتها بعدما قال لها كلاماً مشابهاً، ثم تغادر البيت وتقرّر ألا تعود أبداً. أشعرتني هذه الصورة بالسّلوان. وحين صرتُ في الخارج، كان خوفي قد هداً قليلاً.

استقللتُ سيارةً أجرة، لأذهب إلى سوق درب السلطان. وفي طريقي إلى هناك، راقبتُ شوارع الدار البيضاء الرمادية بقرف، وتحول الخوفُ في داخلي إلى غمامة حزنٍ كثيفةٍ وخانقة. في لحظةٍ ما، قرّرتُ أن عليّ أن أخبر أمي. ربّما كنتُ أودُّ فقط أن أسمع مرّةً أخرى أنني سأتزوَّج من سعد لأطمئن. شعرتُ أنني أحبه كثيراً، لكن، بالعميق. سحبتُ هاتفي من الحقيبة، ودخلتُ إلى محادثتي مع أمي على الوتساب. كانت آخرُ رسالة بيننا بوستا منسوخاً من مجموعة نسائية فيسبوكية اسمُها المغريات أجمل نساء الكون، بعثته أمي قبل خمسة أشهر، ولم أعلّق عليه.

وكأنني أعيشُ في حلقةٍ مفرغةٍ من الهَرَبِ، رحتُ أقرأ النصَّ من جديد حتى أؤخِّر الاتصال بأمِّي.

«كانت فتاةً جميلةً جدًّا، وجهها ساحر، وجسدها فاتن، وعُرفت في الحيِّ كلِّه بحسن تربيتها ودماثة أخلاقها. مشكلتها الوحيدة أنها، لسببٍ غامضٍ لا يعرفه أحد، كانت ترفض الخطَّاب كلِّهم الذين يأتونها، بالرغم من وسامتهم واستقرارهم المادِّي واستعدادهم للزواج. وكان شابٌّ من الحيِّ مهتمًّا بها بشكلٍ كبير، فبالإضافة إلى إعجابه بها، كان مستغرباً من كون فتاةٍ جميلةٍ مثلها ما تزال عازبةً. شدة الفضول إليها، وذهب لخطبتها، لكنها رفضته هو أيضاً. حينها، قرَّر أن يتحدَّث معها بصراحة، ليعرف سرَّها الغامض. سألها: «لماذا لا تريدين الزواج منِّي؟ هل ينقصني شيء؟»، أجابته بخجل: «لا». سألها: «لماذا لا تريدين الزواج منِّي إذن؟». وراحت الفتاة تتهرَّب من الإجابة، فوعدها الشابُّ أنه سيحفظ سرَّها إن هي أخبرته بالحقيقة، وأنه سيقبل بها زوجةً مهما كان ما ستخبره به. فرَوَّت له الفتاة أنها كانت مرتبطةً في الماضي بشابٍّ من حيِّهم كانت تحبُّه كثيراً، وكان هذا الشابُّ قد وعدها بالزواج، فأخطأت معه وأخذ شرفها. وبعد فترة، تركها وتزوَّج من فتاةٍ أخرى.

صُدِمَ الشابُّ ممَّا سمِعَه، لأنه لم يتخيَّل أن فتاةً محترمةً كهذه قد تفقد بكارتها بهذا الشكل. وأفصحت له الفتاة أنَّ رفضها للخطَّاب راجعٌ إلى خوفها من أن يكتشفوا، بعد الزواج، أنها ليست بِكُرا، ويفضحوها. وبالرغم من صدمته الكبيرة، لم ينكث الشابُّ وعده، وتزوَّجها، وسترها، وأنجبا كثيراً من الأطفال، وعاشا حياةً عاديةً مع أبنائهم حتى كبروا وتزوَّجوا بدورهم.

ذات يوم، وبعد مرور سنواتٍ عديدة، أعدت الزوجة ما لذ وطاب من الأطعمة، ودعت أبناءها وأحفادها لتناول الغداء. كان الجميع جالسين في البهو يتناولون الطعام ويتبادلون أطراف الحديث ويضحكون، حين سألت الزوجة زوجها بدلال: «ما رأيك في طبق اللحم الذي أعددتُه اليوم؟». ووسط صدمة الجميع، أجابها: «سيئٌ مثل الصباح الذي تلى ليلة دُخلتنا تماماً». ومن شدة الصدمة، أصيبت الزوجة بسكتة قلبية، وماتت.

هذه قصة حقيقية، حدثت لامرأة تعرفها أمي شخصياً، أرجو أن تقرأنها بترؤ وانتباه، وتأخذن منها العبرة. نهاية كل فتاة تضيع شرفها واضحة، وهي الفضيحة، عاجلاً أو آجلاً».

اخترق الاشمئزاز جلدي وسممه. تطلعتُ من النافذة إلى الشارع الرمادي، وضغطتُ على نفسي الجبانة لأفعل ما يجبُ عليّ فعله، ثم ضغطتُ أخيراً على زرّ الاتصال.

بعد ثانية أو ثانيتين، ردّت أمي. كنتُ متأكّدة أن الهاتف كان بيدها، وأنها كانت في مجموعة المغربيات أجمل نساء الكون تقرأ مثل هذه البوستات المقرّفة. قالت بجفاف:

- قولي.

شرحتُ لها أنّ والدي شابٌ أعرفه سيأتيان لخطبتي بعد شهر، وأنا سنعقد الزواج في اليوم نفسه، ولن نقيم حفل عرس. ظلّت صامتة لبرهة، وسمعتُ في ذلك الصمت أنواع السبّ والشتم كلّها. كنتُ أعرفُ جيداً وفي مكانٍ عميقٍ من روحي أنها تشعرُ بالنفور منّي، وأنها تودّ لو تنعتني بالذيلة والحمار والغبية. كانت أنفاسُها تتسارع كأنّها تقوم بعملٍ مضمّن، لكنها لم تقل أيّ شيء.

- هل تسمعيني؟

قالت ببرود:

- أسمعكِ.

- أَلن تقولي شيئاً؟

- ما الذي تريدني أن أقوله لك؟

- أيّ شيء.

- ليس لديّ أيّ شيء أقوله لك.

- ألا تريدن استقبالهم؟ هل ستتركينني وحيدة في هذا اليوم؟

- وهل لديّ خيار آخر غير أن أستقبلهم؟ أنا مضطّرة لذلك. أن تتزوّجي بلا عرس أفضل من أن تبقي على هذه الحال!

- أيّ حال؟

- هذه الحال التي أنتِ فيها الآن. تعيشين وحيدة كأنّ ليس لديك أمّ ولا أب ولا عائلة ...

- أنا سعيدة هكذا، يا أمّي.

- سعادتك لا تهمّ عندما تسبّين الضرر لأمّك وأختيك! الناس يتحدثون عنّا منذ زمنٍ طويل. لو كنتِ مضطّرة للعيش وحيدة، لكنّا تفهّمنا وضعك! هل تعرفين ما الذي يقولونه عنكِ؟

- لا أريد أن أعرف ما الذي يقولونه عنيّ.

- هكذا أنتِ دائماً عنيدة وغبية وأنانية، ولا يهتمّ أحدٌ على الإطلاق، لكنّ، كوني متأكّدة أنّكِ ستدفعين ثمن أفعالك عاجلاً أو آجلاً!

- ماذا تقولين، يا أمّي؟!

- لو أَنَّكَ كُنْتَ تَسْمَعِينَ الْكَلَامَ، لَخَرَجْتَ مِنْ بَيْتِ وَالِدِكَ عَرُوساً مَعَزَّةً
مَكْرَمَةً مِثْلَ الْبَنَاتِ الشَّرِيفَاتِ وَالْمَحْتَرَمَاتِ كُلِّهِنَّ.

- لماذا تقولين هذا، يا أُمِّي؟

- هذا الرجل الذي ستزوّجينه نفسه سيذكرك بهذا طيلة حياتك.
سيذكرك أَنَّكَ ذليلة ورخيصة، وسيتعاملُ معك على أَنَّكَ مقطوعة من شجرة.
- أُمِّي!

- هذا مصيرُ البنات اللواتي يهربن من بيوت آبائهن وينفلتن من القيود،
ويعتقدن أَنهن نزقات ...

أقفلتُ السَّمَاعَةَ، لكنَّ صوتَ أُمِّي ظلَّ يتردّد في رأسي، قوياً ومُدوّياً:
ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً.

في السوق، انطلقتُ أشقّ طريقي بين المحالّ وعرباتِ الباعة المتجولين
محاولةً الحفاظ على ثباتي. كانت جملة «ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً»
ما تزال تتردّد في رأسي، بل إنني صرّْتُ أراها في كلّ مكان، في عيون
بائعاتِ المسمّن وهنّ يتطلّعن إلى ساقَيّ، وفي لافتاتِ بائعاتِ الخضر
الجاهزة للطبخ للموظّفات، وفي الابتساماتِ المستفزة لبائعي العطور
المزوّرة وهم يرشّون عطورهم عليّ بدون موافقتي، وفي النظراتِ الشهوانية
لبائعي البيجامات والملابس الداخلية وهم يعرضون عليّ حمالاتِ صدرٍ
للشراء. ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً، لأنّك وُجِدْتَ في هذه الدنيا.
ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً، لأنّك عبءٌ على أُمّك. ستدفعين الثمن
عاجلاً أو آجلاً، لأنّك تجرّئين على الخروج إلى الشارع بفستان قصير.
ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً، لأنّ جسدك نحيلٌ وشَعْرُكَ مُسدّلٌ على
كتفَيْكَ، ولا تشبهين هؤلاء النساء السمينات ذوات الأثداء المتدلّية اللواتي
ينظرن إليك. ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً، لأنّ هؤلاء النساء اللواتي
يتطلّعن إليك يقاسين الفقرَ والحرمان. ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً،

لأنك تهريبن من المتحرشين وتلعنينهم في داخلك. ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً. كلمات تطفو في الهواء حولك، تخترق مسام بشرتك، وتمنعك من التنفس. تجعلك تدفعين الثمن كل يوم.

كنت أتصبب عرقاً حين دخلتُ إلى محلٍّ لبيع الشراشف. نظر إليَّ البائع ذو الشعر الأسود اللامع من رأسي حتى أخمص قدمي، قبل أن يمدَّ لي مجموعة ملاءات لأختار بينها، ثم جلس على كرسيٍّ واضعاً رجلًا على رجل، وأخذ يتفرَّج على ساقيَّ بالأريحية نفسها التي أتفرَّج بها على سلعته. كنتُ أتطلعُ إلى الملاءات وأحاول التمييز بين أنواعها بتركيز كبير، لكنني كنتُ قادرةً على رؤيته وهو يخترقُ جسدي بنظراتِ الشهوة. لم نُطوِّر نحنُ النساء، عبر التاريخ، ملكة القيام بمهامَّ متعددة في الوقت نفسه فقط، بل طوَّرنَا أيضاً القدرة على الإحساس بنظراتِ الرجال تخترق أجسادنا دون أن ننظر إليهم. إحساسٌ بوخز مزعج في الجلد، يتبعه شعورٌ بالقشعريرة، ثم بالاشمئزاز.

- كم ثمنُ هذا الطقم الأبيض؟

ظلَّ صامتاً قليلاً، ثم نهض من الكرسيِّ بثقل كأنه أفاق من حلم، وقال:

- ثلاثمائة درهم، لكنني سأخفّض ثمنه من أجل عينيك الجميلتين.

لو كنتُ في الثامنة عشرة، لغضبتُ واحتججتُ على كلماته، وخرجتُ من المحلِّ في الحال، لكنَّ اثنتي عشرة سنةً إضافية من الحياة في المغرب كانت كافية لتقتل في داخلي القدرة على الشعور بالصدمة من الظلم والبساعة. كنتُ أعرف أنَّ أسوأ شيءٍ يمكن أن يحدث للإنسان هو أن يصير هادئاً وبارداً أمام القبح، لكنني تجاهلتُ كلامه وقلتُ:

- سأخذه بمائتين.

هرَّ رأسه دلالةً على الرفض القاطع، ولمع شعره في الضوء.

- لقد اشتريته بمائتين وخمسين، يا جميلتي، وإذا بعته لك بمائتين،

فهذه خسارة لي.

اقترب مني، فشممت رائحة نكهة نعناع قوية في شغره. كان من ذلك النوع الذي لا يمكن تخمين أعمارهم بالضبط، إذ يُحتمل أن يكون في الثلاثين كما يُحتمل أن يكون في الخمسين. مدّ لي طقماً آخر من الملاءات.

- هذا بمائتين وخمسة وخمسين درهماً. إنه ناعم جداً ومناسب للفتيات الجميلات.

رمى الأطقم التي كانت في يدي على الكرسي، وخرجت من المحل دون أن أنبس بكلمة، ثم انطلقت أبحث عن محل آخر. كان جسدي يتصبّب عرقاً، وفمي جافاً، وكانت نظرات «ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً» تخترقني باستمرار. نظرات تنزّ بالحسد والغيرة والاستهجان، خاصة من أولئك النساء اللواتي أصبحت أجسادهنّ تشبه عجينة رخوة. في الغالب، تكون هؤلاء النسوة متزوّجات برجالٍ مثل أولئك الذين يتطلّعون إليّ في الشارع بشهوة، وتكون التجاعيد قد غرّت وجوههنّ، ويكُن قد فقدن بعضاً من أسنانهنّ، ويكُن في الثلاثينيات والأربعينيات فقط، لكنهنّ يبدون أكبر من أعمارهنّ بعشرة أو عشرين عاماً. كان خليط البؤس، والجهل، والخبز، والمسمّن، والكسكس، والرفيسة، ووصفات التسمين، وعدم الوصول إلى النشوة الجنسية، والفساد على المستويات جميعها في هذا البلد، يجعل نساءً شابّات يبدون مثل بقرات.

كانت رؤية هذه الأشياء كلّ يوم ترهقني. توقّفت عند دكان صغير لشراء قنينة ماء. أسندت ظهري إلى سور الدكان، وشربت نصف لتر دفعة واحدة. وحين حاولت أن أعبر إلى الجهة المقابلة، مرّت سيارة أجرة، وسارت ببطء وسط الزحام. كان رجلٌ مُسنّ واقفاً وسط الطريق يحمل كيساً كبيراً على كتفه. توقّفت سيارة الأجرة الحمراء، وأخرج السائق رأسه من النافذة وهو يزعم طالباً منه أن يفسح الطريق. ترنّج الحمّال، وكاد يسقط، لولا أن شاباً ساعده على حمل الكيس إلى الجهة الثانية. تحرّكت السيارة بسرعة، وتطاير وحلّ ملطّخاً ساقيّ وفستاني.

أردتُ أن أصرخ في وجهه، أن أقولَ له أن يتبَّه، لكنّ فمي ظلّ مغلقاً كالعادة.

في الجهة المقابلة، كانت فتاة ذات شَعْرٍ أحمر مجعّد منحنية تمسحُ ساقَيْها، بينما تلَعَن وتَسبّ سائق سيارَةِ الأجرة. قالت له إنه حمارٌ ومتخلفٌ وحقيرٌ ومتأخّرٌ عقلياً. شعرتُ أوّل الأمر بالسلوان، ثمّ بالدهشة، ثمّ بالتوتّر. وقبل أن أنظرَ إلى وجه المرأة ذات الشَّعْرِ الأحمر، مرّت سيارتان أمامي. كانت المرأة قد أدارت ظهرها. لكنني استطعتُ رؤية قامتها الطويلة، وجسمها الممتلئ، وفستانها القصير، وبشرة رِجْلِها البيضاء، وحذائها ذي الكعب العالي. عرفتُ أنها هي. نجوى. نجوى بشحمها ولحمها وشَعْرها الأحمر المجعّد الذي لا يمكنني أن أمتلك مثله. ركضتُ في اتّجاهها، لكنني لم أنجح في اللحاق بها، لأنها كانت تبعدُ عني بنحو خمسين متراً. رأيتُ جسدها المشدود وظهرها المستقيم ومشيتها التي تشبه مشية عارضات الأزياء، وتذكّرتُ أنني لم أمش يوماً في حياتي بظهرٍ مستقيم ورأسٍ مرفوع هكذا. كانت هناك دائماً انحناءة في ظهري كأنني أحملُ صخرة لا مرئية تُثقلني وتوجعني، وطالما شعرتُ بالآم فظيعة وأنا أحاول الجلوسَ مستقيمة الظهر. تبعْتُها وأنا أدعو الله أن تلتفتَ لأرى وجهها في الواقع، وإن كانت تبدو جميلةً فعلاً كما في الصور. لكنّها لم تفعل. كانت تسير نحو وجهتها غير مكتثرة لي ولوجودي في هذا العالم. لم أكن أودّ أن أرى وجهها فقط، بل أن أعرفَ أيضاً ما يحمله الكيسُ البلاستيكي الأسود الذي في يديها، وما الذي جعلها تأتي إلى السوق، وإلى أين تتّجه الآن، وهل هناك أحدٌ بانتظارها. هل جاءت لتشري ملاءاتٍ جديدةً مثلي، لأنها ستتزوَّج قريباً، أم فقط لتشري طعاماً لكلبها مايك؟ هل تسكُن في الجوار، أم عليها أن تستقلَّ سيارَةَ أجرةٍ مثلي لتعود إلى البيت؟ هل ستعود الآن إلى بيتها وتُعِدّ عشاءها بنفسها، أم هي مدعوّة للعشاء مع واحدٍ من معجبيها؟ ماذا ستتناول في عشاءها؟ ومتى ستنام؟ هل تسهر كثيراً مثلي، أم أنها تنام باكراً

لتحافظ على صحتها ونضارة بشرتها؟ هل لديها حبيب أم أنها من أولئك النساء الوحيدات اللواتي يعانقن دباذيب قطنية كبيرة حين يستلقين في أفرשתهن أو يضعن سيقانهن على مخدات قبل أن يستسلمن للنوم؟ هل ترتدي بيجامات في البيت، أم تظلّ بملابس الخروج؟ كيف تبدو وهي ترتدي بيجامة من القطن ونعلاً بيتياً من البلاستيك؟ هل تبقى جميلة هكذا، أم أنها تصبح امرأة عادية مثل النساء جميعهن حين يَكُنّ في بيوتهنّ؟

كنتُ أتصبّبُ عرقاً وأنا أتبعُها، ولاحقْتُها كما لو لم تكن لديّ حياة أو مستقبل، كما لو أن حياتي غير مهمّة أمام حياتها. أمّا هي، فقد كانت تمشي بثبات نحو حياتها المألوفة بالنسبة إليها، الغامضة بالنسبة إليّ. رشّ رجلٌ شيئاً ذا رائحةٍ مقرفة على وجهي وهو يقول «خذي كوكو شانيل، يا مادموزيل». صرّخت امرأةٌ سمينّة في وجهي أن أتّبها، بعدما اصطدمتُ بها وأوقعتُ حقيبتها أرضاً. ورأيتُ فماً بأَسنان سوداءٍ محطّمةٍ يضحكُ قريباً من وجهي، ثمّ حاجبين معقودين، ثمّ صوتاً يستغفر الله، ثمّ زعيقاً يشبه زعيقَ أمّي حين تغضب، ثمّ صوت امرأةٍ يردّد «ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً». لم أعرف إن كان الصوتُ قادماً من الخارج أم من رأسي، لأنّ الأصوات التي تأتي من الخارج أحياناً لا تكونُ أصواتاً، بل صدىً لأصواتٍ قادمةٍ في الواقع من رؤوسنا. شعرتُ أنّ الجميع يتطلّعون إليّ باستهجان كأنهم انتبهوا إلى ما يحدث في رأسي، واجتاح معدتي خليطٌ من الخجل والندم، وصعدت حرارته إلى وجهي. بطأت مشيتي قليلاً، لكنني لم أتوقّف عن مطاردةٍ نجوى. كانت قد خلّبت لبّي لدرجةٍ كنتُ مستعدّةٌ لتحمل أقبح الأحاسيس في سبيل رؤية وجهها.

كانت حبّات العرق تطفّر من أعلى رقبتني وتنزل باردةً على ظهري. ترتّحتُ وكِدْتُ أسقط أرضاً لولا أنني تمسّكتُ بعربةٍ بائع متجوّل. تناهت إليّ رائحة النعناع قويّة ومدهشة، وراودني شعورٌ أنني تذكّرتُ طفولتي كلّها دفعةً واحدة. رفعتُ رأسي حين سمعتُ الصوتَ الواهنَ للبائع العجوز يخبرني أن النعناع

طريّ وجيّد وبدرهم واحدٍ فقط. كان وجهه متغضّناً، وعيناه الغائرتان تلمعان كأنّ بهما دموع، وحين مددتُ له خمسة دراهم مقابل باقةٍ نعناعٍ واحدة، ابتسمَ بغمٍّ خالٍ من الأسنان، ولمعت عيناه الحزنتان أكثر. سحبتُ هاتفي وكتبتُ بسرعةٍ على فيسبوك: يُمكن قياس حجم البؤس والتعاسة في بلدٍ ما بعدد الوجوه المتجمّعة قبل الأوان والأفواه التي بدون أسنان أو بأسنان معوجةٍ أو محطّمةٍ أو سوداء. كم لدينا في المغرب؟

حين رفعتُ رأسي، كانت نجوى واقفةً في الجهة المقابلة، تقلّبُ أحذيةَ أطفال عند عربةٍ متجوّلة، وبدت لي مشرقةً وجميلةً مثل وردةٍ طرية وسط صحراء. استجمعتُ قواي لِلحاق بها وقد قرّرتُ أن أُعطيها باقة النعناع. كان السيناريو جاهزاً في رأسي: ألقي عليها التحية، وأخبرها أنني اشتريتُ باقة النعناع فقط لأنني تعاطفتُ مع البائع، ولستُ في حاجةٍ إليها، وأسألها بأدبٍ إن كانت تودُّ أخذها. مشيتُ بسرعةٍ ناسيةً الخجل والندم، لكنّ شاحنةً كبيرةً مرّت من الرقاق سائرةً ببطء، وحجبت عني المرأة ذات الشَّعر الأحمر المجعد. وحين نجحت الشاحنة في الخروج من الرقاق، كانت نجوى قد اختفت نهائياً.

ستدفعين الثمن عاجلاً أو آجلاً. دقّت هذه الجملة في رأسي مرّةً أخرى مثل ناقوسٍ مزعج، وعرفتُ أنني مُتعبَةٌ وعليّ أن أعودَ إلى البيت. مشيتُ وأنا أحمَلُ إحباطاً عارماً في بشرتي، وحبّاً غريباً لنجوى مثل حبّ الناس للقصص. فكّرتُ أنّ الناس يحبّون الحكايات ليس فقط بسبب الفضول، بل لأنها أيضاً تحدّثهم عن آلامهم، وتربط معاناتهم بمعاناة البشر كلّهم الذين سبقوهم على هذه الأرض. هل ما أشعر به تجاه نجوى هو مجرد فضول لمعرفة قصّتها، أم أنها تجعلُ ألماً غائراً في داخلي ينبضُ وينطقُ ويستجيب؟

لم أكن أعرف السبب بالضبط، لكنّ حياتي كانت باهتةً لدرجةٍ كنتُ في حاجةٍ إلى أيّ شيءٍ زاٍ يمنحني القدرةَ على الدهشة. كنتُ كالمتيّة من الداخل.

في منتصف شهر نونبر زارت نجوى مدينة أمستردام، والتقطت صوراً أمام القصر الملكي وعلى الجسر المطل على نهر أمستل. وفي التاسع عشر من الشهر نفسه، تناولت شريحة لحم مقليه مع الخضار في مطعم بالدار البيضاء. وفي الثاني من ديسمبر، انضمت إلى نادٍ رياضي لأخذ دروس في اليوغا. مساء اليوم نفسه، كانت في مصعدٍ بنايةٍ ما، والتقطت صورةً أمام المرأة مرتديةً فستاناً أسود طويلاً، لكنه لا يغطي كتفيها اللتين انسدل عليهما، كالعادة، شعُرها الأحمر المجعد. في الخامس عشر من ديسمبر، نشرت صورةً غلاف رواية بعنوان **نساء رائعات**، وأعلنت أن كتاب صديقتهما سيصدر قريباً، ودعت الناس لحضور حفل توقيعها الأول الشهر القادم. قالت في التعليقات أيضاً إنها تعرف كاتبة الرواية منذ سنواتٍ عديدة، وإنهما كانتا زميلتين في الثانوية، وإنها قرأت الرواية عندما كانت ما تزال مخطوطاً وأعجبته كثيراً، وإنها تحب قراءة هذا النوع من الروايات التي تملؤها الأفكار الجريئة، ثم جادلت أحدهم في التعليقات حول معنى الصداقة الحقيقية، وقالت إن الصداقة الحقيقية هي أن يظلَّ اثنان صديقين حتى لو فرقتهما طرق الحياة ومشاعلها، والدليل على ذلك هو علاقتها المتماسكة مع الكاتبة مع أنهما لم تلتقيا ولم تتحدثا منذ سنوات.

كان يوم الخامس عشر من ديسمبر يوم زواجي. ارتديت قُفْطاناً أبيض مزيناً بزخارف ذهبية وحذاءً عالي الكعب. استعملت كريم التجعيد بنكهة البنفسج الذي تركته نجوى في بيت سعد، ووضعت أساور كثيرة في يدي،

ثُمَّ جَلَسْتُ عَلَى كُرْسِيٍّ مَغْلَفٍ بِثَوْبٍ أَخْضَرَ مَلَكِيٍّ، وَأَخَذْتُ أَتَلَصَّصُ عَلَى حَبِيبَةِ زَوْجِي السَّابِقَةِ مِنْ خِلَالِ صَفْحَتِهَا عَلَى إِنْسْتِغْرَامٍ.

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ سَعْدٌ وَعَائِلَتُهُ، قَالَتْ أُمِّي:

- انْتَبِهِي أَنْ تَفْتَحِي ذَلِكَ الْهَاتِفَ أَمَامَ عَائِلَةِ زَوْجِكَ! سَيَقُولُونَ إِنَّكَ لَسْتَ امْرَأَةً صَالِحَةً لِلزَّوْجِ ... عَلَى الْأَقْلَ حَاوِلِي أَنْ تَخْفِيَ ذَلِكَ عَنْهُمْ الْيَوْمَ.

عِنْدَمَا جَاءَ سَعْدٌ، وَجَلَسَ إِلَى جَانِبِي، خَرَجْتُ مِنْ صَفْحَةِ نَجْوَى بِسُرْعَةٍ، وَرَحْتُ أَنْفَرِّجَ عَلَى الْمَدْعُوعِينَ مِنْ أَقْرِبَائِنَا، وَأَسْتَمِعَ إِلَى تَعْلِيقَاتِ زَوْجِي السَّاخِرَةِ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمُ الْغَرِيبَةِ. كَانَتِ النِّسَاءُ يَتَصَرَّفْنَ كَمَا لَوْ كُنَّ عَلَى وَشِكٍ اخْتِرَاعِ شَيْءٍ مَهْمٍّ وَضُرُورِيٍّ لِلبَشَرِيَّةِ. يَنْهَضْنَ كُلُّ مَرَّةٍ بِلَا أَيْ سَبَبٍ، وَيَتَجَوَّلْنَ فِي الْبَيْتِ، وَيَدْخُلْنَ إِلَى الْمَطْبَخِ مَمْسِكَاتٍ أَطْرَافَ قَفَاطِينِهِنَّ، ثُمَّ يَعْدُنَ إِلَى الصَّالُونَ وَهِنَّ يَتَهَامِسْنَ مُحَرِّكَاتٍ أَسَاوِرَهُنَّ الْقَصْدِيرِيَّةِ الْمَغْلُفَةِ بِالذَّهَبِ. كَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَحَاوُلُ أَنْ تُثَبِّتَ وَجُودَهَا فِي الْحَفْلَةِ، وَلَمْ تُكُنْ أَيْ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَقُومُ بِشَيْءٍ يُذَكِّرُ. أَمَّا أُمِّي، فَقَدْ كَانَتْ تَتَصَرَّفُ كَمَا لَوْ كَانَتْ إِمْبَرَاطُورَةً أَوْ سُلْطَانَةً. كَانَتْ سَعِيدَةً جَدًّا، لَكِنَّهَا لَمْ تُخْبِرْنِي بِذَلِكَ أَبَدًا. كَانَتْ سَعِيدَةً مِنْ أَجْلِ نَفْسِهَا، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِي.

حِينَ دَخَلْتُ زَهْرَةً مَرْتَدِيَةً قُفْطَانًا فَخْمًا وَأَنْيَقًا، وَحِذَاءً عَالِي الْكَعْبِ، رَمَقَتْهَا أُمِّي بِجَانِبِ عَيْنِهَا مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى أَخْمَصَ الْقَدَمَيْنِ، ثُمَّ تَظَاهَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَمْ تَرَهَا. هَمَسَتْ فِي أُذُنِي مِمَّا رَحَّةً وَهِيَ تُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا أَنْسَى أَنَّ اللَّهَ أَوْجَدَ الطَّلَاقَ فِي حَالَةٍ لَمْ يَنْجَحْ زَوَاجِي، وَقَالَتْ إِنَّ الْوَقْتَ لَا يَفُوتُ أَبَدًا لِنَجْدِ سَعَادَتِنَا، ثُمَّ ذَهَبَتْ وَجَلَسَتْ وَاضِعَةً رِجْلًا عَلَى رِجْلِ فِي حَرَكَةٍ أُنِيقَةٍ. بَعْدَ قَلِيلٍ، دَخَلَ خَالِي مُصْطَفَى وَزَوْجَتُهُ وَابْنَتُهُ الْوَحِيدَةُ الْمَدْلُلةُ سَنَاءً. كَانَتْ سَنَاءً فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ، فَتَاةٌ مَتَوَسِّطَةُ الْجَمَالِ، بِوَجْهِ مَلِيٍّ بِحَبِّ الشَّبَابِ، وَشَعْرٍ بِجَذُورٍ خَشَنَةٍ وَأَطْرَافٍ مَسْرَّحَةٍ. كَانَتْ سَنَاءٌ قَدْ اعْتَادَتْ عَلَى تَسْرِيحِ شَعْرِهَا بِاسْتِعْمَالِ مَكْوَاةِ الْمَلَابَسِ، لِأَنَّ الْأَلَاتِ الْخَاصَّةَ بِتَنْعِيمِ الشَّعْرِ لَمْ تُكُنْ

تجدي مع شَعْرُهَا الخشن. نظرَ إليها الحاضرون جميعهم بذهولٍ واستنكارٍ، لأنها جاءت مرتديةً ثُورَةً قصيرةً وضيقةً. وفي الأخير، دخلت أختي جميلة محاطةً بأطفالها. كان حاجباها معقودَيْن، وبدا جسدها بالقُفْطَانِ مثل جسد امرأةٍ في الخمسين من العمر لا تعتني بنفسها.

كان الجميعُ يتفرَّج علينا كأننا دميّتان في واجهةٍ محلّ. قال سَعد:

- أتمنّى أن تنتهي هذه المهرلة بسرعة، ونذهبَ إلى بيتنا. اشتقتُ إليك كثيراً، وتعبتُ من البقاء بهذا الجلباب السخيف!

ضحكتُ، ثمّ همستُ في أُذُنِه بدلال:

- لو أنك تزوّجتَ بنجوى، هل كنتَ ستقيم حفلاً كهذا أم عرساً حقيقياً؟
تفاجأ من سُؤالي، ثمّ بانّت على وجهه علاماتُ غضب.

- لماذا لا تردّ؟

قال دون أن ينظر إليّ:

- لو تزوّجتَ بتلك التافهة، لأقمتُ عرساً طبعاً، لأنّ ذلك ما يملأ عقلها.
قلْتُ دون أن أنظرَ إليه أيضاً:

- ما الذي يملأ عقلها؟

- الأشياءُ التافهة.

- لماذا تتحدّثُ إليّ بهذه الطريقة؟

- لا أريد الحديثَ عن تلك المرأةِ في يومِ زواجي!

- لماذا أنتَ غاضبٌ منها هكذا؟

- لستُ غاضباً منها!

- بلى!

- لماذا تتحدّثين عنها؟

جاءت أمّي، وطلبت منّا أن نقوم ونجلس إلى الطاولات، لأنّ الأكل جاهز. جلسنا إلى الطاولة مع أمّي ونُهي ووالديّ سَعد. كانت والدته شاحبةً ونحيفةً جدّاً مثل هيكل عظمي، ترتدي عباءةً سوداءً واسعة، وتغطّي رأسها بطرحةٍ مَرخِيّةٍ على كتفَيْها. أمّا والدّه، فقد كان قصير القامة، ذا أنفٍ طويل، ويرتدي قميصاً أزرق غامقاً، وسروالاً أسود، وحذاءً له شكلٌ قارب. لم يَكن سَعد يشبه أيّاً من والديّه.

اقتربتُ من أذنّه، وكرّرتُ:

- لماذا لا تريد أن تجيبني؟ لماذا أنتَ غاضبٌ منها إلى هذه الدرجة؟

همس:

- قُلْتُ لكَ إِنِّي لَسْتُ غاضباً منها! إنها مجردُ حشرة، ولا تعني لي أيّ شيء!

- لماذا تنعُثُها بالحشرة؟

لم يردّ. كان والداه يتبادلان أطراف الحديث بالأمازيغية، وشاركهما الحديث. نظرتُ إلى نهى التي كانت شاردةً في الفراغ، ثمّ إلى أمّي التي كانت مركّزةً في تقطيع دجاجةٍ محمّرةٍ إلى نصفين بيديها. التزمتُ الصمتَ في خيبة.

قالت أمّي وقد ارتسمت على شفتيّها ابتسامةٌ زائفة:

- هكذا هم شباب اليوم، لا يحبّون كثرة الهرج والضحيج، ولا يعرفون الصبر أبداً. في زمننا، كانت الفتاة تُخطّب، ثمّ تتزوّج، وتنتظر أشهراً وربما سنواتٍ بأكملها، قبل أن تذهب إلى بيت زوجها.

ردّت عليها والدّة سَعد:

- آه على ذلك الزمن! كانت الفتاة تُرْفَ إلى بيت زوجها على ظهر بغلة، ومع ذلك، كانت لها مكانة أفضل من بنات اليوم اللواتي يُرْفَقْنَ في سيارَاتٍ من آخر طراز!

قالت أمي لوالدة سعد وهي ترمقني بجانب عينيها بين الجملة والأخرى:
- ومع ذلك، لا يمكن أن نقول إن بنات اليوم كلهنّ لسنّ مهتمّات بهذه الأمور. فقد تزوّجت بنتُ أختي الصيف الماضي وهي في السابعة عشرة من عمرها، وأقامت عرساً لم يشهد درب الكبير مثله في حياته. أمّا ابنتي جميلة، فلم تخرج من بيتِ والديها إلّا بعد أن دفع زوجها عشرين ألف درهم مهراً لها! كانت والدَةُ سعد تنظر إلى ساقِي بنتِ خالي سناء الجالسة إلى الطاولة المجاورة. واصلت أمي:

- سألتُ ابنتي شهرزاد «لماذا لا تريدان إقامة عرسٍ، يا ابنتي؟»، فقالت لي: «أمي، أنا لستُ مهتمةٌ بهذه الأمور إطلاقاً، من الأفضل أن نوَقِّرَ المال لمستقبلنا على أن نُضَيِّعه في عرسٍ».

فَصَلَّتْ والدَةُ سعد فخذاً عن دجاجةٍ محمّرة، ووضعتُها في صحنِها. تنقّست أمي بعمق، ثمّ أكملت:

- الزمنُ تغيّر كثيراً، يا أختي فضيلة.

قالت والدَةُ سعد بأسفٍ واضح:

- لقد ذهب زمنُ الحِشْمَةِ، يا أختي فاطمة، وصارت الفتيات يرتدين تنانير قصيرة، ويخرجنَ بسيقان عارية، فماذا تنتظرين منهنّ؟

غمست أمي قطعة الخبز في المَرَق وتناولتها بتلذّذ. قالت قبل أن تبلع لقمَتَها:

- صحيح، ولهذا السبب صرنا نرى المصائب والكوارث، وافتقدنا الخيرات

التي كانت منتشرة في ما مضى. حتى النقود لم تعد لها القيمة نفسها التي كانت لها من قبل. لقد صرّت تخرجين في الصباح وفي حقيبتك خمسمائة درهم، وتعودين في المساء خاوية الوفاض.

أومأت فضيلة موافقةً، وقالت:

- والله، لن أكذب عليك، يا أختي فاطمة، إذا قلتُ لك إنني أذهبُ إلى السوق حاملةً في حقيبتَي ألف درهم، ولا تكفيني إلا لشراء دجاجة واحدة وقليل من الخضروات، أمّا الفواكه والأجبان والحلويات، فقد صارت بعيدة المنال على الفقراء مثلنا. في زمننا، كانت عشرة دراهم تكفي لشراء خروف! لقد افتقدنا البركة بسبب انتشار الفتن.

قاطعها زوجها وهو يرفع حاجبيه بجديّة:

- إنها الحربُ على الإسلام، يا فضيلة.. لقد نجح الغربُ في نشر أفكاره وأسلوب حياته في بلادنا الإسلامية، وأصبحت بناتنا يلبسن مثل بناتهم، وشبابنا يقلّدون شبابهم في قصّات شعورهم ووشومهم وأفكارهم. وبحجّة التحرّر والحدّاث، ذهبت الرجولة في مهبّ الريح، ولم نعد نعرف الرجال من النساء.

أومأت أمّي وفضيلة موافقتين دون أن تنبّسا بكلمة، لأنّ فميهما كانا مملوءين بالدجاج والخبز.

كانت تُهي تأكل وتتراسلُ عبر هاتفها في الوقت نفسه، غير مهتمة بهذه المواضيع، لكنّها بمجرد ما سمّعت أن الرجولة ذهبت في مهبّ الريح، رفعت رأسها، وبدأت تُنصت للحديث باهتمام.

أضاف والدُ سعد رافعاً يده المملوءة بالمرقّ كأنه يُلقي مداخلّة في قناة الجزيرة:

- الهدفُ من هذا كلّهُ إضعافُ العرب، وإبادتهم جماعياً.

عادت نُهي إلى التحديق في شاشة هاتفها ومراسلة عشاقها، وظللنا - سَعد وأنا - نُنصت إلى الحديث باهتمام. كنتُ مندهشةً من السلسلة التي يتناقشون بها في هذا الكمّ الهائل من المواضيع والقضايا المعقّدة، ومن قدرتهم على الربط بينها. وعندما انتهوا من الأكل، تحدّث والدُ سَعد عن المؤامرة الصهيونية- ماسونية، وربطت والدته بين النضال من أجل الهوية الأمازيغية والإلحاد، وقالت أمي إنّ كلمة كوكا كولا ليست مجرد اسم بريء لماركة مشروب غازي، لأنّك إذا قرأتها بالمقلوب، ستجدُ جملةً أخرى وهي: «لا مكّة لا محمّد!» تحدّثوا عن هذه الأشياء كلّها بأريحية الخبراء، واتفق بعضهم مع بعض وهم يتجشّؤون الدجاج المتبلّ بالكركم والسمن والرتجيل.

قرّرتُ أن أنسى موضوع نجوى. عندما نهض الجميع ليغسلوا أيديهم، وانفردتُ بسَعد، تذكّرنا تلك القصة الغريبة التي انتشرت عام 2005، وتداولها الناس عبر رسائل الهاتف المحمول، ثمّ عبر الأقراص المدمجة. كنتُ في السادسة عشرة حين سمعتُ بها أوّل مرّة، وفُزعنا حين أرّتنا زميلةً في المدرسة اسمُها فرح كانت تملك هاتفاً محمولاً وتلصق أظافر اصطناعية طويلة، صورةً كائنٍ يشبه جرّذاً، لكنّ، لديه شعْرٌ وأذنان ونهدان متدليّان كالتي لأنثى الإنسان. ارتعبنا أكثر حين أخبرتنا فرح أنّ هذا الكائن في الأصل فتاةٌ من سلطنة عُمان كانت تُنصت للأغاني الغرامية في الوقت الذي كانت أمّها تُرتّل فيه القرآن. طلبت هذه الفتاة من أمّها عدم إزعاجها والذهاب لترتيل القرآن في مكانٍ آخر، لكنّ الأمّ أصرت أن تبقى في مكانها، فأخذت الفتاة المصحف من يد أمّها ورمّت به أرضاً. وفي تلك اللحظة بالذات، مسّخها الله وتحولت من فتاة جميلة إلى حيوانٍ غريب ومقرّر.

ظلّت صورة ذلك الكائن العجيب والمخيف تلاحقني في أحلامي لوقتٍ طويل خلال مراهقتي. واشترت أمي قرصاً مدمجاً يحتوي هذه الصورة، ومعها صورة الفتاة التي يُفترض أنها هي قبل أن تتحوّل إلى مسخ، وفي الخلفية، كان يُرتّل القرآن بنبرة مأساوية تهرّني من الداخل.

بعد مرور سنوات، بعث لي أيّوب رابطاً يشرح حقيقة تلك الصورة، واكتشفت أنها تعودُ إلى عملٍ فنيّ شمعي لفنانة أسترالية، تخيلت فيه عملية تناسخ البشر مع الحيوانات.

بعد الغداء، عُدنا إلى الكرسيّ المغلف بثوب أخضر ملكيّ، وجلسنا لالتقاط الصور. كانت كاميراتُ الهواتف كلّها مصوّبةً نحونا. وتكلّفتُ أختي نهى بإعطائنا التعليمات حول الوضعيات التي ينبغي أن نكون عليها لالتقاط الصور. التقطنا صوراً وأنا أمدّ لسعد كأس حليب ليشرب منه. وصوراً أخرى وأنا أتناول ثمرةً من يده، وأخرى ونحن ننظر إلى الكاميرا متعانقين. ثمّ التُقِطتُ لنا صورٌ مع كلّ فردٍ من أفراد العائلة المدعوّين إلى الحفلة. كنّا متعبين من الابتسام ومن افتعال الوضعيات المختلفة. وحين ظننا أننا انتهينا من هذا الملل، أصدرت نهى تعليماتها بأن يقبل سعد جبّتي، لالتقاط صورٍ جديدة. وحين لامست شفتاه جبّتي، همّس لي أنه أحبّ رائحة شعري جداً، وأنّ هذه النكهة أفضل من نكهات منظّفات الشّعر كلّها التي استعملتها من قبل.

في أثناء جلوسنا لتناول الحلويات مع الشاي، جاءت ندى أخيراً. شعرتُ بالسّلوآن حين أمسكتُ يدي، وقبلتني من وجنتيّ بحرارة، متمنيّة لي السعادة الأبدية مع زوجي. رمقتها أمّي بنظرة إعجاب طويلة، لأنها ممثلة الجسم، وترتدي الحجاب، وقالت بصوتٍ مرتفع:

- ما شاء الله عليك، يا ابنتي، كم أنت جميلة ومقبولة!

احمرّت وجنتا ندى خجلاً، وجلست إلى جانبي.

كان الرجال في ذلك الوقت جالسين في الصالة المخصّصة للضيوف، ومعهم سعد. وحين انفردت النساء ببعضهنّ، بدأت النميمة. كانت زوجة خالي مصطفى ذات البشرة العسلىة والشّعر المصبوغ بالأصفر تتحدّث،

بكثيرٍ من الأسى، عن جارتها المتزوجة من مُقَدِّم الحَيِّ، والتي تعاني من معاملة زوجها السيئة لها. قالت:

- المسكينة لطيفة، بعدما بلغت الخمسين وكبر أولادها صارت تسمعُ ألفاظاً مشينة لا تسمعها إلا مَنْ يبعن أجسادهنّ ... إنه يسبّها ويشتمها بالفاظٍ لا أستطيع تكرارها على لساني، وبصوتٍ مرتفع لدرجة أن جميع مَنْ في الحيّ سمع ذلك! وهذا كله لأنها اكتشفت خيانتها لها واحتجّت! الرجال لا يقدّرون العشرة ولا الحب ولا الزواج! لقد بدّلها بأخرى كما يبدّل جواربه! قالت أمي بنبرة الحكيمة العليمة:

- الحبّ؟ ليس هناك شيء اسمه حبّ، يا أختي نجاة! الحبّ مجرد بدعة طريفة اخترعها مَنْ لا يحظون بالاحترام، ليضطربوا على أنفسهم.

رفعت نُهى حاجبَيْها الرفيعَيْن المرسومَيْن بقلم أسود، وقالت:

- المهمّ ليس الحبّ. المهمّ هو الاهتمام، أن يُشعرك الرجل بقيمتك.

قالت والدّة سعد:

- لو كان الرجال يطبّقون فقط تعاليم الإسلام، لكانوا يحترمون زوجاتهم!

قاطعتها زوجة خالي:

- اسمحي لي أن أقول لك، يا سيّدة فضيلة، إن الأمر ليست له علاقة بالدين، فهذا الرجل، إذا سمّيناه رجلاً، يذهب إلى الجامع يومياً، ويؤدّي الصلوات في أوقاتها، ويدّعي أنه مؤمن، لكنه يسبّ زوجته أمام أولاده بالفاظ بذيئة.

قالت أمي بثقة:

- نحن لدينا مسلمون بدون إسلام.

قالت نُهى وهي تنظر إلى أظافرها الطويلة المصبوغة بالأحمر:

- ما يجبُ أن تميّزي به كأمراة عن الأخريات هو ما يعطيه لك هذا الرجل. شخصياً، إذا اشترى لي بيتاً وسيارة وأنفق عليّ وغطّى احتياجاتي، فليخُنني كما يشاء، لا يهمني الأمر. الرجال كلّهم خائنون أصلاً.

ضحكت بنتُ خالي سناء منتشيةً بكلامِ نهى. رمقتها والدّة سعد شرراً، ثمّ قالت:

- المشكلةُ في بعض النساء اللواتي لا يجدن أيّ حرجٍ في إغواء رجالٍ متزوّجين، وتدمير حياتهم الزوجية.

قالت أمّي:

- هؤلاء لسنَ نساءً، هؤلاء أفاع.

قالت زهرة بصوتٍ هادئ:

- المشكلةُ في نظري ليست في النساء اللواتي يُغوين رجالاً متزوّجين، وإنما في هؤلاء الرجال أنفُسهم، لأنهم هم من يكذبون على زوجاتهم ويخونون ثقتهم، ويفعلون أشياء بدون علمهنّ.

رمقتها أمّي شرراً، وواصلت كلامها موجّهةً إياه لوالدّة سعد:

- كم من زواجٍ دُمّر، يا أختي فضيلة، بسبب أفعال هؤلاء النساء، وكم من أسرةٍ تشتّت وتيتّم أطفالها.

وضعت يدها على صدرها، وأغمضت عينيها بقوة، ثمّ أكملت:

- لا تجعليني أتكلّم أكثر من هذا، يا أختي فضيلة، فهذه الأمور تُحرّضني جداً.

لكرّتي ندى بمرفقها، ورّبت جميلة على كتف أمّي بحنان. ابتسمت زهرة بثقة، كأنها ترتفع عما قالته أمّي، وركّزت نهى بصرها في شاشة هاتفها مبتسمةً بعدما قرأت رسالةً وصلتها. قالت زوجةُ خالي إنّ عليها أن تتركنا

لتذهب إلى الحمام، وتسلق ابنُ أختي الأكبر خزانة الأواني في البهو مثل
قرد. نهضت سناء وهي تسحبُ طرف ثُورتها القصيرة إلى الأسفل، ونظرَ
الجميع إلى ساقِها مرّةً أخرى. سألتها ندى بدهشة إن كانت لا تشعر بالبرد
في هذا الجوّ القارس، فحرّكت رأسها يميناً وشمالاً دلالةً على النفي، مترقّعةً
عن النطق بأيّ كلمة.

قالت والدة سعد:

- أرى أن المشكلة اليوم في العلاقات خارج إطار الزواج، فالشاب يتعرّف
إلى فتياتٍ كثيرات، ويرى اللحم منذ المراهقة، وحين يحينُ وقتُ الزواج
وتُقدِّح عليه فتاةٌ جيّدة يرفضها بحجّة أنه يحب فتاةً أخرى، أو لا يقنّع بسرعة،
لأنه رأى، خلال حياته، فتياتٍ مختلفات، وجرب كل شيء.

سألت ندى باندهاش:

- اللحم؟

لكنّ أحداً لم يرّد عليها. أما زوجة خالي، فلم تنهض ولم تذهب. كانت
ما تزال تُنصت إلى كلام فضيلة باهتمام. وحين نهضت، ظلّت واقفة نصف
ساعة تشرح أنّ الرجل الذي لديه حبيباتٍ سابقات أفضل من الرجل الذي
لم يعرف أيّ فتاة من قبل، لأنه جرب وشبع ويريدُ علاقةً جادة الآن. أمّا
أنا، فلم يكن يهمّني أيّ شيءٍ من هذا، لا الرجل الذي لم يعرف امرأة من
قبل، ولا الذي سبق وكانت لديه حبيبة. ما كان يهمّني هو الحبيبة السابقة
نفسها. فكّرتُ في ما يمكنني فعله لأتعرّف إليها أكثر، وتصوّرتُ أنني أبعثُ
لها رسالةً على إنستغرام، وأطلبُ لقاءها. لكنّ، بصفتها من؟ إنها ليست
كاتبة ولا شاعرة ولا فنّانة ولا مفكّرة ولا شخصيةً مهمّة في البلد. إنها مجرد
امرأة عادية تحاول أن تربط اسمها باسم كاتبة، لكي تُوهِم الناس أنها شيء
ذو قيمة. منعّت نفسي من الانزلاق مرّةً أخرى. كانت النساء ما زلن يتكلّمن،
وكانت أصواتهنّ تأتيني مختلطةً وبلا معنى كما لو كنتُ في حلم. رأيتُ

أختي جميلة تحمل نعلًا بلاستيكيًا أحمر اللون، وتتوجّه بهدوء نحو ابنها الذي تسلّق خزّانة الأواني كأنها تتأهّب لقتل صرصارٍ طائر. شعرتُ أنّي أريد أن أدخلَ إلى إنستغرام. لكنني رأيتُ ابن أختي ينفِلُ من خزّانة الأواني ويسقط أرضاً مثل ذبابةٍ ميّنة، بعدما ضربته أمّه ضربةً قويةً إلى مؤخّرتِه. صرخَ الطفلُ البالغ من العمرِ خمس سنواتٍ ونصفٍ عالياً، وهددته أمّه وهي تغلقُ فمّه أنها ستحرقُ يديه ورجليه في المِرّة القادمة إذا أعاد فعلته. وحين انتهى الجميع بالطفل متوسّلين جميلة أن تدعه وشأنه، لأنّه ما زال صغيراً، أمسكتُ هاتفِي ودخلتُ إلى إنستغرام.

نبّض قلبي حين دخلتُ إلى صفحة نجوى. كانت قد نشرت للتوّ صورةً لها في ساحة الحَمّام، مرتديةً معطفاً أسودَ طويلاً، وقبّعةً من الصوف رمادية اللون، وتحمل حقيبةً جلدية سوداء صغيرة الحجم من نوع غوتشي. لا أعرف هل كانت الحقيبة حقيقية أم مزوَّرة، لأنني لم أكن من النوع الذي يميّز بين الحقيقي والمزوّر في ماركاتِ الحقائب، لكنّ طريقة حملها لها بحيث تظهر جيّداً في الصورة جعلتني متيقّنة أنها حقيقية. اعترتني رغبةٌ جارفةٌ في الذهاب إلى تلك الساحة لرؤيتها في الواقع، لكنني حاولتُ مقاومة ذلك الشعور عبر التفكير في زواجِي وفي مدى حُبّي لسعد. ومع ذلك لم أشعر بالسُلوَان. ظلّت صورةُ نجوى بالمعطف الأسود الطويل تمرّ في رأسي مثل طيفٍ حالم، مثل شخصيةٍ هاربةٍ من قصّةٍ قديمة.

- ما بك؟

التفتُ إلى ندى التي كانت تحدّقُ فيَّ بعينيّ جاحظيّ ومندهشيّين.

- لماذا؟

- يبدو وجهك متشجّجاً كأنك ستنفجرين. اصبري قليلاً. لم يتبقّ الكثير.

- هل وجهي متشجّج؟

- أنتِ دائخة! اخرجي لتشمي بعض الهواء ...

أدركتُ وأنا أخرجُ من البيتِ وأشمُ رائحةَ الشتاء اللذيذة أنني مريضةٌ رسمياً بالحبيبة السابقة لزوجي، وأنَّ هذا المرضَ سيستمرّ طويلاً، وأنني لن أستطيع مقاومة. جاءني هذا الإدراكُ مثل وحي. كان البردُ قارساً في الخارج، وكانت المصابيحُ المضاءُ في الشارع المقفر، والريح الباردة التي تهبّ تبعثُ في داخلي إحساساً بالوحشة لم أشعر بمثله في حياتي. كانت الشوارعُ والسطوح فارغة، والشبابيك مغلقة، وحدها جارتنا فاطمة المدعوةُ تيمة كانت تطلُّ من سطح بيتهم المقابل لبيتنا، محرّكة رأسها السمين يميناً ويساراً مثل رادار. كانت غالبية النساءِ في درنا يقضين أوقات فراغنٍ في الإطلال من نوافذ بيوتهنَّ أو سطوحها، يتفرّجن على أطفالهنَّ وهم يلعبون، أو يتحدثنَّ إلى جاراتهنَّ، أو ينادين أزواجهنَّ الذين خرجوا لشراء الخبز طالباتٍ منهم ألا ينسوا الحليب والنعناع. أحياناً، كنَّ يبحثنَّ عن أيِّ سببٍ للإطلال، لأنهنَّ، في الحقيقة، يعشقن التفرّج على الحياة في الخارج، ويخشين أن يفوتهنَّ شيء مما يحدث فيها. فكّرتُ أن النساءَ طوَّرنَ هذا السلوك، سلوك الإطلال من النوافذ، لأنهنَّ مُنعن طويلاً من الوجود في الشارع عبر التاريخ، ورغبنَّ بشكلٍ جارف في معرفة ما يجري هناك.

لكنَّ تيمة كانت مختلفة، وكان لديها شيءٌ مميز من باقي النساء، فهي لا تطلُّ لتنادي أطفالها، لأنها لم تُنجب أطفالاً، ولا تطلُّ لتنادي زوجها، لأنها لم تتزوج أبداً بالرغم من بلوغها الخامسة والأربعين، ولا تطلُّ لتبادل أطراف الحديث مع الجارات، لأنها لم تنجح في نسج علاقةٍ مع أيِّ واحدةٍ منهنَّ. كان الإطلال من السطح، بالنسبة إلى تيمة، غايةً في ذاته، شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه يعطي معنىً لحياتها الخاوية. ومهما كانت حالة الطقس، كان رأس تيمة الذي يشبه قُلَّة ضخمة يبرز من سور السطح طول الوقت، في الصيف والشتاء، في النهار والليل، لدرجةٍ تحوّل رأسها إلى جزءٍ من هذا السور، ولم يعد ممكناً تخيله بدونه. لو أن تيمة تعلّمت وأكملت دراستها

وحصلت على عمل، هل كانت ستقضي وقتها ملتصقةً إلى ذلك الحائط، بدون شغل ولا مشغلة؟

بلغتني من الداخل موسيقى أغنيةٍ مصريةٍ بهيجة، وشعرتُ بالرَّعب حين فكَّرتُ أنني أشبه تيمة، بالرغم من أنني تعلَّمتُ وأتممتُ دراستي وحصلتُ على عمل. تخيلتُني مرَّةً أخرى أتوجَّه إلى ساحة الحَمَام بِقُفْطَانِي باحثةً عن نجوى، وقرَّرتُ للمرَّةِ الألف أنَّ عليَّ أن أتوقَّف. بعد قليل، شعرتُ بأنفاسٍ خفيفةٍ ودافئةٍ في مؤخرة رقبتي، وأتاني صوتُ سَعد هادئاً كالعادة:

- ماذا تفعلين هنا؟

- لا شيء. ضاق نَفْسي في الداخل، فأردتُ أن أشمَّ قليلاً من الهواء.

قال:

- الجوُّ بارد جدًّا، فلندخل، ونجهِّز نفسينا لنذهب.

رَفَعَ رأسه ليشمَّ الهواء بعمق، فاتبَّه إلى وجودِ تيمة. أضاف بسرعة:

- سنبِتُ الليلة معاً، ولن نضطرَّ بعد الآن للاختباء من أحد أو تبرير أيِّ شيء لأيِّ شخص.

سَحَبَ ورقةً توصيل عقدِ الزواج من جيب جلبابه، ورفعها في الهواء بفرح كأنَّه يُريها لتيمة التي تنظر إلينا دون أن ترمش لها عين.

كان سعيداً جدًّا، وكانت سعادته واضحةً في عينيَّه وحركاته وصوته المتحمَّس. كنتُ سعيدةً أيضاً لأنني معه، لكنَّ سعادتي كان يشوبها قلق. كنتُ متضايقةً من فكرة أن أكون قد تسرَّعتُ في زواجي منه، ليس لأنني قلقَةٌ من احتمال أنه قد تزوَّج بي لينسى امرأةً أخرى، بل لأنني كنتُ أخشى أنَّ زواجي منه كان من أجل التعرُّفِ إلى هذه المرأة الأخرى أكثر، أن هذا الزواج لم يَتِمَّ لأنني معجبةٌ بسَعد، بل لأنني مسحورةٌ بحياة نجوى، وأريد أن أشاركها شيئاً من تلك الحياة، وأمتلك جزءاً مهماً من ماضيها. أردتُ أن أسأله إن كان

قد تزوّج بي فقط ليضاجعني بدون مشكلات، وتراجعتُ، لكنني كنتُ قد رفعتُ رأسي نحوه وحدّقتُ فيه.

- قولي لي، يا حبيبتي، ما بكِ غير متحمّسة هكذا؟

- كلاً، أنا متحمّسة جداً.

- أرجوكِ، يا شهرزاد، دعينا ننسى تلك المرأة والنقاش الذي حصل حولها اليوم! أقسمُ لكِ أنها لا تساوي حتّى ظفراً من أظفار رجلِك. دعينا نكنّ سُعداء.

- أنا سعيدة جداً.

حين خلا البيتُ من الضيوف، سحبتُ ندى إلى غرفةٍ نهى، لتتكلم على انفراد بينما أُغيّر ملابسِي. خلعتُ الحذاء العالي الكعب، ثمّ القُفطان، ووضعتُهما في حقيبةٍ كبيرة، ثمّ جلستُ على السرير وأنا مُنهكة. كنتُ أشعر بخيبةٍ كبيرة، لأنني لستُ بالسعادة التي تخيلْتُها، بالرغم من أنّ الأمور سارت على ما يُرام.

قالت ندى:

- واضحٌ أنّ سَعدَ يحبكِ كثيراً، وستعيشان حياةً زوجيةً وعاطفيةً سعيدة. لا تقلقي.

- لستُ قلقة.

قالت بمرح:

- ولماذا أنتِ متجهّمة هكذا؟

- في الحقيقة، أنا أفكّر في امرأةٍ منذ وقتٍ طويل، ولا أستطيع إخراجها من رأسي.

لم أكن متأكّدة إن كنتُ قد قلّتُ هذه الجملة في رأسي فقط أو أنني

تَفَوَّهْتُ بِهَا فَعَلًا، حَتَّى رَأَيْتُ عَيْنِي نَدَى مَتَّسِعَتَيْنِ تَرْمِقَانِنِي بِاسْتِغْرَابٍ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَمْتُ وَبَدَأْتُ أُغَيِّرُ مَلَابِسِي مُحَاوَلَةً أَنْ أَجْعَلَ الْأُمُورَ طَبِيعِيَّةً.

- ماذا تقصدين؟

خَلَعْتُ الْقَمِيصَ وَاقْشَعَرَّ بَدَنِي.

- أَقْصِدُ أَنَّي مَهْوُوسَةٌ.

- كيف؟

قُلْتُ وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْ مَلَابِسِي فِي الْحَقِيقَةِ:

- سَأُحْكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ، لَكِنْ، أَرْجُوكِ، لَا تُتْلِقِي عَلَيَّ أَيَّ أَحْكَامٍ مُسَبَّقَةٍ.

قَالَتْ بِهَدْوٍ هَذِهِ الْمَرَّةُ وَهِيَ تَرْمُقُ جَسَدِي الْعَارِي الْمُرْتَجِفَ بِحَيَادٍ:

- أَخْبِرْنِي بِالْحَقِيقَةِ، وَأَعِدْكِ أَنَّ هَذَا سَيَبْقَى سِرًّا بَيْنَنَا. هَلْ أَنْتِ مِثْلِيَّةٌ؟

- لَا، نَهَائِيًّا .. عَلَى أَيِّ حَالٍ، لَا أَظَنَّ ذَلِكَ.

- ماذا يعني، إذن، أَنَّكِ تَفَكِّرِينَ فِي امْرَأَةٍ مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ؟ وَمَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرَأَةُ؟

ارْتَدَيْتُ سُرْوَالِي الْجِينِزَ، وَكُنْزَةً مِنَ الصَّوْفِ بِسُرْعَةٍ.

- اصْبِرِي قَلِيلًا!

كَرَّرْتُ:

- قُولِي لِي، إِنَّنِي أَمُوتُ فَضُولًا لِأَعْرِفَ!

- الْأَمْرُ جَادٌّ، يَا نَدَى. هَذِهِ الْمَرَأَةُ لَا تَغَادِرُ رَأْسِي أَبَدًا، أَفَكَّرَ فِيهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْضِيَ يَوْمٌ دُونَ أَنْ أَدْخُلَ إِلَى صَفْحَتِهَا عَلَى إِنْسْتِغْرَامٍ لِأَعْرِفَ مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ. أَحْيَانًا، أَفْعَلُ ذَلِكَ بَدُونِ شُعُورٍ. لَا أَسْتَطِيعُ التَّحَكُّمَ فِي نَفْسِي. لَقَدْ شَاهَدْتُ فَيْدِيُوهُاتِهَا مِائَاتَ الْمَرَّاتِ، وَأَمْضَيْتُ لَيَالٍ بِكَامِلِهَا أَقْرَأُ التَّعْلِيقَاتِ عَلَى صُورِهَا.

ارتسمت على وجهها علامة استفهام كبيرة.

- كأنتي مسكونة، يا ندى. هل يمكن أن يكون أحدٌ قد سَحَرَنِي؟

- مَنْ تكون هذه المرأة؟

- نجوى.

- نجوى نفسها؟! حبيبة سَعَد السابقة؟!

- نعم.

ارتسمت الصدمة على وجهها ممزوجة بالأسف.

- هل أنتِ مِثْلِيَّة؟ لماذا تزوّجتِ من سَعَد إذن؟

- لقد قُلْتُ لكِ إنني لستُ مِثْلِيَّة! إنني فقط أفكّر فيها طول الوقت،
وأشعر أنني أريدُ في كلّ مرة معرفة المزيد عنها.

- لماذا؟

- لا أعرف.

قالت باستخفاف:

- إنها ليست حتّى جميلة إلى ذلك الحدّ الذي يجعلكِ مهووسةً بها.
أعني أنها مقبولة، لكنّ، ليس لديها أيّ شيءٍ مُميّز.

- حقّاً؟

- نعم، ولا تعرفُ حتّى كيف تنسّق الملابس! ترتدي أحذية رياضية مع
فساتين سهرة، وتظنّ أنها أنيقة ومختلفة!

- حقّاً؟

- هل تغارين منها؟

خارت قواي عندما سمعتُ هذا الكلام، وجلستُ على السرير من جديد. شعرتُ أن ندى لن تفهمني، وأن ما قلته لها لم يشرح لها فكرتي جيداً. ملامحها المستخفة عندما عرفت أن ما يجعلني أفكر في نجوى ليس عشقاً، جعلتني أتردد في قول المزيد لها، لأنها لن تفهمني على أي حال. أردتُ أن أشرح لها أن شعوري تجاه نجوى يشبه هوساً صرفاً بشخصيتها وبحياتها، لكنني خشيتُ أن تعتبرني ضعيفاً وهشاً وغير واثقٍ من نفسي. أردتُ أن أخبرها أنني أتخيلها طول الوقت، وأني سبق وتجادلتُ مع سعد بسببها، وأني أحياناً، أودّ لو أدخل إلى رأسه، لأتفرّج على ذكرياتهما معاً، وأعرف حقيقة علاقتهما وسبب انفصالهما. كنتُ على وشك أن أخبرها أنني رأيتُ نجوى مؤخراً في السوق، وأني لستُ متأكدة إن كانت هي فعلاً، أم أنني كنتُ أهلوس، لكن رؤيتها، على أي حال، أنستني سبب وجودي هناك. كدتُ أروي لها أحداث ذلك اليوم أيضاً، لكنني تراجعْتُ. نهضتُ وقلتُ بدل ذلك:

- ليس فعلاً ... أعني أن الأمر ليس له علاقةً بسعد. لا تقلقي، أظن أن الأمر طبيعي، فهي امرأة جميلة وناجحة، واستطاعت أن تصبح أستاذة جامعية، بالرغم من سنّها الصغيرة.

رمقتني ندى شرراً.

- سنّها الصغيرة؟ المرأة تقتربُ من الأربعين وأنتِ تقولين إنها صغيرة في السنّ، ثم إنها ليست أستاذة جامعيةً فعلاً، إنها أستاذة مساعدة فقط ...

- لا يهمّ. المهمّ أنها استطاعت أن تصلَ إلى هذا المركز!

رمقتني ندى باستغراب.

- لماذا تدافعين عنها؟

رفعتُ الحقيبة الكبيرة عن الأرض، وقلتُ:

- لا أَدافع عنها.

هزّت ندى كتفَيها في استهجان، وأدارت ظهرها لي مغادرةً الغرفة.

- اذهبي واسألَيها كيف وصلت إلى هذا المركز إذن .. أظنّ أنكِ مجنونة!

لمعت فكرةُ اللقاء بنجوى في رأسي لأوّل مرّةٍ بتلك الجديّة. ولمَ لا؟ إنها أفضل طريقةٍ كي أرى هذه المرأة عن قُرب. ربّما سيشفى لقاءُها مرضي بها وشوقي إليها. ربّما ستنطفئ هذه الهالة التي تتراءى لي حولها. ربّما سينتهي كلّ شيءٍ حين أسمعها تتفوّه بالسخافات التي تكتبها على مواقع التواصل. ربّما ستبدو لي، كما يقول سعد، مجرد حشرةٍ لا تساوي أيّ شيءٍ في هذا الكونِ الشاسع.

في تلك الليلة، رأيتُ نجوى في منامي. جاءتني مرتدية المعطف الأسود نفسه، وحاملة حقيبة غوتشي سوداء اللون. طرقت باب بيتنا في عمارة السعادة عند منتصف ليل ممطر، مبللة الشعر والثياب. وكما في الأحلام كلها التي رأيتها فيها، لم يكن وجهها واضحاً، لكنني كنتُ أعرف في كل مرة أنها هي. في ليلة زواجي، دفعتني من أمام الباب بطريقة عنيفة، ودخلت. وعندما صارت في وسط البهو، راحت تنادي سَعداً بصوت مرتفع وبجنون، كمن ضببت شريكها متلبساً بخيانتها. في الحلم كانت هي زوجة سعد، وكنتُ أنا عشيقته التي يخونها معي. أفقتُ من هذا الحلم في الثانية صباحاً مرعوبة وبفم جاف كأنه رمال صحراء قاحلة. ما أفرغني، في الحقيقة، ليس الحلم نفسه، وإنما سبب الحلم. خشيتُ أن يكون هوسي بنجوى ناتجاً عن غيَرتي منها، أن يكون الحلم مجرد تمثيل للغيرة التي توجد في لا وعيي. لكن، لماذا سأغارُ من شخص ينتمي إلى ماضٍ لم أكن فيه؟

هرعتُ إلى المطبخ، وشربتُ كأس ماء دفعةً واحدة، ثم فكّرتُ بألم في قدرة الحكي المذهلة على إعادة إحياء الماضي وجعل أحداثه تبدو كما لو أنها حصلت للتوّ. فهمتُ أنني لهذا السبب أغارُ من نجوى.

بعد تلك الليلة، صرتُ أحلم بها كل يوم تقريباً. تأتيني في المنام بالوجه المضطرب نفسه، لكن، في وضعيات مختلفة.

يوم السبت، رأيتها مستلقية على الشاطئ بجسدها الرائع، مرتدية

بيكيني، وواضعة نظارة سوداء، مستمتعة بأشعة الشمس. إلى جوارها، نجلس - سعد وأنا - نراقب تموجات البحر الهادئة والسماء الزرقاء في الأفق. لم تكن حبيبة سعد السابقة في قصة الحلم، ولم يكن أحداً يعرفها.

بعد برهة، اختفيت أنا من جوار سعد، وتحولت إلى مجرد متفرجة في الحلم. صار زوجي مستلقياً على الشاطئ وإلى جواره نجوى، يتحدثان بكلام غير مفهوم، ويضحكان بقوة، سعيدين جداً، مناسبين لبعضهما، كأن أحدهما خلق للآخر.

بعد يومين، رأيتُ في منامي أنني التقيتها. تقابلنا في مقهى فرنسا، ورحنا نتحدث عن الأدب وعن رواية نساء رائعات. قلتُ لها إنني أفكر منذ زمنٍ طويل في أن أكتب رواية، لكنني عاجزة عن ذلك، بسبب انشغالات الحياة الكثيرة، وبسبب الخوف من ألا أكتب شيئاً جيداً. قالت لي ألا أحاول لأنني سأفشل فشلاً ذريعاً.

في اليوم التالي، حلّمتُ بها أيضاً. كنّا جالستين معاً في بيتٍ لا أعرفه في الواقع، لكنّه كان في الحلم البيت الذي تشارك السّكن فيه. كنّا صديقتين مقرّبتين. أو بالأحرى، كانت بمثابة ندى في حياتي. كان لها اسم آخر وحياة أخرى، وكنتُ أحبّها كثيراً. أسندت مِغصَمها إلى الطاولة، ورأسها إلى راحة كفّها، وراحت تُنصتُ لي وأنا أحكي لها عن هوسي بنجوى، كما لو أنها ليست نجوى.

ليلة الخميس، حلّمتُ أنني في حفلٍ توقيع. وكنتُ أقدم رواية نساء رائعات التي تحمل اسمي أنا. تقدّم الكاتب بلال المنصوري نحوي بابتسامته البليدة، ومدّ لي نسخه من الرواية لأكتبُ له إهداءً. كتبتُ له: «في وجه رداءك، أشهر هذا الكتاب». عندما استيقظتُ، سجّلتُ هذه الكلمات في مفكرة صغيرة، لأستخدمها عندما أكتب روايتي الأولى.

في الليلة التالية، رأيتُ حلماً آخر، لكن، لم يكن لي أي دور في قصته.

كنتُ بمثابة المتفرّجة فقط. رأيتُ نجوى نائمةً على بطنها في سريري، وإلى جانبها يقفُ سعد بجسدٍ عارٍ متطلّعاً إليها باشتهاء. رفعتُ ثَوْرَتَهَا الطويلة المزيّنة بالورود، وكشفتُ عن ساقَيْها البيضاوين وسروالها الداخلي القطني، ثم رفعتُ رأسها قليلاً نحوه، ورمقتهُ بعُجْجٍ كأنها تدعوه لامتطائها. صعدَ سعد فوقها ومارسا الحبَّ بشغف. في الصباح، استيقظتُ منفعة، ومارستُ الحبَّ مع زوجي بشوقٍ ونهم، لكنني بمجرد ما ارتديتُ ملابسِي وخرجتُ من البيت، شعرتُ بندمٍ مرٍّ وخانقٍ.

ومع ذلك، دخلتُ إلى صفحتيها ذلك الصباح أيضاً وأنا في مكتبي، وألقيتُ نظرةً على بوستاتها. كانت تذكّر أصدقاءها بقاء صديقتها حول رواية نساء رائعات، اللقاء الذي سأحضره بدون أيّ تردّد لأراها. لم أكتفِ - لم أكن أكتفي أبداً - وعدتُ إلى بعض البوستات القديمة للتحديق فيها مجدداً وقراءة التعليقات عليها للمرّة الألف، متخيّلةً أنني سأجدُ فيها شيئاً جديداً. بعدما أصابتنِي التُّخمة من إنستغرام، انتقلتُ للبحث عنها على فيسبوك، لكنها لم تكن قد عادت بعد.

وبكثيرٍ من الفضول والحماس واللذة، كرّرتُ العملية نفسها خمس أو ست مرّاتٍ ذلك اليوم. وككلّ مرّةٍ، كانت تتأبني بعد الانتهاء من ذلك، سلسلتهُ مشاعر متتابعة بالترتيب نفسه: غيرةٌ ثم خوفٌ ثم كبرياءٌ ثم غضبٌ ثم حزنٌ ثم ندمٌ. في الليل، راقبتُ إيقاع تنفّس زوجي بتركيز، وحين صارَ بطيئاً ومنظماً ويتخلّله شخيرٌ، وتأكدتُ أنه غارقٌ في النوم، استدردتُ على جانبي الآخر، وفتحتُ هاتفي لأدخُلَ إلى صفحةِ نجوى مرّةً أخرى. في اللحظة التي أتأهّبُ فيها للدخول إلى صفحة حبيبة زوجي السابقة، أكون في حالةٍ من التوق والاندفاع، بحيثُ لا أفكرُ أبداً في المشاعر الأخرى التي ستُعذّبني في ما بعد. كنتُ مستعدةً لدفع نفسي طويلاً الأمد من أجل الحصول على لحظةٍ لذةٍ واحدةٍ يقدّمها لي التلصّص، وكنتُ قد تحوّلتُ إلى متلصّصةٍ كبيرة وخبيرة.

طَبَعْتُ قَبْلَهُ عَلَى خَدِّ سَعْدِ الْمَرْزُوقِ مِنْ خُرُوجِي وَتَرَكُهُ وَحْدَهُ فِي الْبَيْتِ فِي يَوْمِ عُطْلَةٍ. قُلْتُ لَهُ وَأَنَا أَمْسَحُ أَثَرَ أَحْمَرِ الشَّفَاهِ فِي وَجْنَتِهِ إِنَّهُ لِقَاءُ نَسَائِي، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ رَجُلٌ بَيْنَنَا. أَبْعَدُ وَجْهَهُ وَقَالَ بَنْبِرَةً لاذعة إنه لم يكن يعرف أنه يُفْسِدُ عَلَيَّ لِقَاءَ اتِي مَعَ صَدِيقَاتِي. لَمْ أَرُدَّ. كَانَ قَلْبِي يَنْبُضُ كَأَنِّي مَتَوَجِّهَةٌ لِاجْتِيَازِ اخْتِبَارٍ مَهْمٍّ. وَاکْتَفَيْتُ بِعِناقِهِ قَبْلَ أَنْ أَنْطَلِقَ لِرُؤْيَا نَجْوَى.

لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْكَرَ أَنِّي - طَوَّلَ اللَّقَاءَ الْأَدْبِيَّ حَوْلَ رِوَايَةِ نِسَاءِ رَائِعَاتٍ - كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ سَعْدٌ عَلَى عِلْمٍ بِالْحَدَثِ وَيَدْخُلُ إِلَى الْقَاعَةِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ. هَوَسَنِي بِنَجْوَى جَعَلَنِي أَدْخَلَ فِي دَوَّامَةِ الْكَذِبِ الْمَظْلَمَةِ، مِثْلَ الْمَدْمُونِ تَمَامًا. وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ أُخْبِرَ زَوْجِي أَنِّي أَهِيْمُ هَوَسًا بِحَبِيبَتِهِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ مَدْعَاةٌ لِلْعَارِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ. كَأَنَّ فَعْلَ الشَّيْءِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ لَيْسَ مَدْعَاةٌ لِلْعَارِ، وَإِنَّمَا مَعْرِفَةُ الْآخِرِينَ بِهِ.

وَرَأَيْتُ نَجْوَى لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، أَوْ رُبَّمَا الثَّانِيَةِ. لِأَنِّي لَمْ أَتَأَكَّدْ بَعْدُ أَنَّ تِلْكَ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي السُّوقِ هِيَ ذَاتُهَا. حِينَ دَخَلْتُ إِلَى الْقَاعَةِ الصَّغِيرَةِ لِمَكْتَبَةِ الْقَلَمِ بِحَيِّ الْمَعَارِيفِ، لَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِلْبَحْثِ عَنْهَا بَيْنَ الْحَاضِرِينَ، إِذْ تَعَرَّفْتُ إِلَيْهَا مَبَاشَرَةً بِشَعْرُهَا الْأَحْمَرَ الْمَجْعُدِ وَقَامَتِهَا الطَّوِيلَةِ. كَانَتْ وَاقِفَةً مَعَ الْكَاتِبِ نَجِيبِ الْحَفِيطِيِّ، وَكَانَتْ أَطْوَلَ مِنْهُ قَلِيلًا، لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْقِيَامِ بِأَيِّ مَجْهُودٍ لِلنَّظَرِ إِلَى فَتْحَةِ صَدْرِهَا الَّتِي كَانَتْ مُقَابِلَةً لَوَجْهِهِ تَمَامًا. لَمْ يَرْفَعْ وَجْهَهُ أَبَدًا لِلنَّظَرِ إِلَيْهَا وَهِيَ تَحَدِّثُهُ، وَظَلَّ مُتَسَمِّرًا فِي صَدْرِهَا كَأَنَّهُ فَاقِدٌ لِلْوَعْيِ.

كانت ترتدي فستاناً قصيراً رغماً عن أنف الشتاء. رأيتُ ركبتيها الأعمق قليلاً من لون بشرتها، والحداء العالي الكعب الذي ظلّت واقفةً به لمدة طويلة دون أن تتعب. كانت تتحدّث مع نجيب، وتوزّع الابتسامات هنا وهناك على الحاضرين، قبل أن تتوجّه إلى الصفّ الأمامي من الكراسي وتتخذ لها مكاناً هناك.

تبعثها وجلستُ وراءها مباشرةً. ثمّ رُحْتُ أنظر إلى شَعْرِها الكثيف وخُصَلاته المَجْعدة. غرقتُ في غابة شَعْرِها الحمراء المذهلة، غير مكترثةً للتقديم الذي بدأ للتوّ ولا للكاتبة التي تتحدّث. رفعتُ يديها، فرأيتُ خواتم فضية سميكة في أصابعها البيضاء الطويلة. لم أنتبه من قبل إلى أن يديها كبيرتان إلى تلك الدرجة، ولو لم تكونا بيضاوين صافيتين من الزغب، لكانتا مثل يدي رجل. أمسكتُ شَعْرِها كلّهُ بقبضةٍ من يديها وأرجعتهُ إلى الأمام لينام على صدرها. رأيتُ حُبيبات عَرَقٍ وشعيرات سوداء خفيفة في مؤخرة عنقها. وحين كانت تحركُ رأسها قليلاً، كنتُ أحدّق في الشامات البنية الفاتحة التي استقرّت على عنقها. وكنتُ أظاهر أنني أحاول الاعتدال في جلستي، لأنهُضَ وألقيَ نظرةً عليها من فوق، لكنني لم أكنُ أستطيع رؤية شيءٍ إضافيٍّ رغم ذلك. وفي المَرَّة الأخيرة التي نهضتُ فيها، سقطَ قَلَمي وتدرجَ تحت الكرسيّ الذي تجلس عليه. وحين حاولتُ التقاطه، رأيتها تنحني بسرعة، وتتناوله، ثمّ تلتفت إليّ، وتنظرُ إلى عينيّ مباشرةً رافعةً حاجبيها كأنّها تسألني إن كان القلمُ لي. كان قلبي يدقُّ بشدّة. ومن فرطِ الدهول عَجَزَ وجهي عن الانفراج حين ابتسمتُ بعمق وهي تمدّ لي القلم. ظللتُ أحدّق فيها كالبلهاء قبل أن أمدّ يدي المرتجفة وأمسكه. أردتُ أن أشكرها، لكنّ كلمة شكراً خرجتُ من شفتيّ دون أن أحرّكهما، أو ربّما قلّتها في نفسي فقط. كنتُ متكلّسة، جامدة كتمثال وأنا أراها تستديرُ من جديد لتشاهد صديقتها الكاتبة تتحدّث عن روايتها. تململتُ في مكاني، أغمضتُ عينيّ وتنقّستُ عميقاً في محاولة فاشلة لاسترجاع عقلي الذي أخذتهُ نجوى. كنتُ أريدُ الاستيقاظ من تلك

اللحظة التي تشبه حُلماً، لكنّ دماغِي رَفُضَ الاستجابة لي، وراح يسترجع وجه
نجوى التي التفتت إليّ قبل قليل، والخطوط الرفيعة التي ظهرت على جبهتها
عندما رفعت حاجبَيْها، والتجاعيد الخفيفة التي ظهرت حول عَيْنَيْها حين
ابتسمت، والبثرة الحمراء الكبيرة على ذقنها. فكّرتُ أنها ربّما تكون حائضاً أو
اقتربَ حيضُها حين أيقظني صوتُ مسيرِ التقديم وهو يُعلن في الميكروفون
أنّ حصّة المداخلات قد بدأت.

استرجعتُ الأصواتَ من حولي، والمَشَاهِد والألوان، وانتبهتُ إلى أنّ
معظم الحاضرين كانوا رجالاً. حينها فقط، استطعتُ رؤية الكاتبة التي لم
أذكر اسمها ولم أستطع سماعه بعد. كانت تبدو في أواخر الثلاثينيات،
وترتدي بدلة رسمية زرقاء غامقة، بينما انسدلَ شعُرها البنيّ الناعم الذي
تخلّله خُصلاتٌ شقراء على كتفَيْها. كرهتُ نفسي، لأنني كنتُ مسلوّبة
ومأخوذة، لدرجة لم أذكر من تقديمها لروايتها سوى صوتها الحادّ جدّاً.
وقرّرتُ أن أنتبه هذه المرّة.

كان أوّل مَنْ أمسك الميكروفون ليتدخّل هو نجيب الحفيظي. كان جالساً
في الصفّ الأمامي، واستطعتُ التعرفُ إليه من رأسه الأضلع البيضويّ
الشكل. قال بنبرة مُفعمة بالإعجاب، بينما تُسمَع أنفاسه القوية بين جملة
وجملة في الميكروفون بوضوح:

- كاتبتنا الجميلة، أولاً شكراً على التقديم القيّم والجميل الذي ألقَيْته
علينا في هذا اليوم الجميل، وفي هذه المكتبة الرائعة. أودّ أن أقول إنه
يُسعدني جدّاً أن أرى كاتباتِ جُميلاتِ شاباتِ مثلكِ يكتسحن الساحة
الأدبية بحضورهنّ القويّ والجميل، للتعبير عن صوتِ الشباب في المغرب،
فنحن في حاجةٍ إلى أصواتِ نسائيةٍ شابةٍ، تضيفي الجمال على هذا القبح
المحيط بنا كلّهُ. وأودّ أن أقول أيضاً إنّ همومَ النساءِ تعنينا جميعاً في هذا
البلد، وكان لا بدّ من نساءِ جُميلاتِ وراقياتِ مثلكِ أن ينقلنَ هذه الهموم
لنا، لنراها عن قُرب ونلمسها ونُحسّها ونستشعر أهمّيّتها. سؤالي هو: ما

رأيك في وضعية الأدب النسائي بالمغرب؟ وأودّ في الأخير أن أشكركِ على حضوركِ الجميل، وعلى إضافتكِ هذه اللمسة الأثوية الرائعة على هذا الحدث الثقافي المهمّ، كما أتمنّى لكِ مسيرةً أدبيةً موفّقة، ودُمتِ أجملِ الكاتباتِ وأرقّهنّ.

كان آخرون قد بدؤوا يرفعون أيديهم، ليتدخلوا، لكنّ مُسيّر النقاش قال إنّهُ سيعطي الميكروفون للكاتبة، لتُجيب على الأسئلة أولاً بأولّ.

أمسكتِ الكاتبة الميكروفون، وضحكت ضحكة خفيفة قبل أن تبدأ في التعليق على المداخلة. تخيلتُ أن نجيب الحفيظي، بعد ذلك الاستمنااء كلّهُ، قد انتشى عندما رأى ضحكتها. تنفّستِ الكاتبة عميقاً، كأنّها لم تجد ما تقوله إزاء هذا الموقف، ثمّ قالت بابتسامةٍ واثقة وهي توزّع نظراتها على الجمهور:

- أشكر الأستاذ نجيب الحفيظي على مداخلته وعلى مجاملته، فالمجاملاتُ مُفرحةٌ بصفةٍ عامّة. لكنني لن أُجيب عن سؤاله، وسأطرحُ سؤالاً أهمّ: لماذا لا يتوقّف الناس عن وصفي ووصف كثير من الكاتبات بالجماليات، مقابل وصف الكتاب الذكور بالمبدعين؟! إنّهُ من المزعج جداً لي ككاتبة أن أقابل في كلّ ندوةٍ أدبيةٍ أو حتّى على مواقع التواصل الاجتماعي بهذا الوصف، كأن كلّ ما يميّزني هو جمالي. يُزعجني ذلك، لأنني أفكر أنّ هؤلاء الناس يشترّون روايتي ويقرؤونها من أجل عيون جمالي، وليس لأنهم واثقون في كتاباتي وأفكاري وإبداعي. وبما إنّ الجمال لا يدوم، أتساءل الآن، أمام الحضور، عندما سأ تقدّم في السنّ أكثر ويذهب جمالي وأفقد رِقّتي، هل سيستمرّ هؤلاء في القراءة لي؟

سكتت قليلاً، ثمّ قالت وهي تنظر إلى نجيب الحفيظي:

- الأستاذ نجيب الحفيظي، عندما تصفون الكتاب الذكور بالمبدعين، وتُصرونّ على وصف الكاتبات الإناث بالجماليات، فأنتم تعترفون ضمناً

أَنَّ ما سيبقى ويدوم إلى الأبد هو كتاباتُ الرجال، وتحكمون على كتاباتِ النساءِ بالزوال والنسيان بمجرد زوال جمالهنّ. الجمال ينتهي، يا أستاذ نجيب، والإبداع يخلد. ولذلك، إذا أحببتَ ما أكتبه، سأكون أسعد إذا وصفتني بالمبدعة أو حتّى بالكاتبة الجيدة، أو فقط بالكاتبة، بكلّ بساطة.

صفقت نجوى بحرارة على صديقتها الكاتبة، وتبعها الجمهور يصفقون أيضاً. وعندما رأى نجيب أن الجميع يصفقون، وقّف وراح يصفق للكاتبة مثل فُقمة في السيرك.

لا أعرف متى وكيف انزلتُ مرّةً أخرى، لكنني غرقتُ في عالم نجوى الجالسة أمامي من جديد. كنتُ أترصدُ حركاتِ جسديها وأنا أفكرُ في الطريقة التي سأقترب منها بها في نهاية اللقاء. هل أوقفها حين تنهض وأشكرها مرّةً أخرى على التقاطها قلّمي من الأرض، ثمّ أعرفّها بنفسي بعد ذلك، أم أنتظر حتّى تخرج من المكتبة أولاً، ثمّ أتبعها وأكلّمها في الخارج؟ هل أطرح عليها سؤالاً ما عن صديقتها الكاتبة، أم أكتفي بإخبارها أنّ شغرها جميلٌ جدّاً، ثمّ أسألها بعد ذلك عن نوع الصباغة التي تستعملها، لتحصل على هذه الدرجة من الحمرة، أو نوع الكريم الذي تدهنه به، ليصبح مجعّداً هكذا؟ أصابعُ وكريمات خلال لقاءٍ أدبيٍّ؟! ولم لا؟ لكن، ربّما من الأفضل أن أقول لها إنّني قرأتُ نساء رائعات ووجدتها روايةً رائعةً حقّاً، وأشكرها، لأنها أعلنت عن صدورها في صفحتها على إنستغرام. لكنني لستُ من متابعيها على هذه المنصّة، وأدخُل إلى صفحتها كمتلصّصةٍ فقط، ولن يكون من الجيد أن أُبين لها ذلك.

وفي غمرة تفكيري المزمّن فيها، رأيْتُها تنهض من الكرسيّ، وتمدّ يدها نحو الميكروفون، ثمّ تمسّكه بين يديها المرتعشتين. وبعد فترةٍ صمتٍ قصيرة لم تكن تشوبها سوى وشوشات الحاضرين، تنفّست عميقاً، وضجّت بسعادة كأنها حصلت على جائزةٍ وتأهّب لإلقاء كلمةٍ بخصوصها، ثمّ قالت:

- أشكرُ القائمين على تنظيم هذا الحفل، والحاضرين على مشاركتهم في إنجاح هذه الفعالية الثقافية الرائعة. وددتُ فقط أن أقول إنني فخورة بصديقتي الكاتبة الرائعة إكرام البكاري، التي عملت بجهد، لتُنجز روايتها الأولى **نساء رائعات**، ويشرفني أنني كنتُ إلى جانبها خلال مراحل كتابتها كلّها لهذا العمل، ويشرفني أيضاً أنها لم تتوانَ عن الأخذ بنصائحي وملاحظات المتواضعة. وأتمنى لها مسيرة موفّقة، وأن تصبح روائيةً مشهورةً يوماً ما.

لم أكن أعرف أنها وقحةٌ إلى هذه الدرجة. كانت تتحدّث كما لو أنّها هي كاتبةُ الرواية، وأن **نساء رائعات** ما كانت لتُكتب لولا وجودها إلى جانب الكاتبة! لاحظتُ أن إكرام البكاري لم تستطع إخفاء انزعاجها من مداخلة نجوى، إذ إنّ ابتسامتها اختفت فجأةً، وراحت تُرجع شِعْرَها إلى الوراء في توتر، وتمسح جبينها دون أن تنظر إلى نجوى.

ومع ذلك، لم يخفُ اهتمامي بنجوى، وظللتُ أترصد حركاتها طيلة مدة اللقاء. رأيتها تمشي بين الحضور بخيلاء، وتتبادل المجاملات والابتسامات والأحاديث مع الجميع، وتلتقط الصور، وتتقربُ من الكتاب والنقاد والصحافيين الحاضرين، كأنّها تحاول كسبَ مودّتهم، وكأنّ هذه الفعالية نُظّمت للاحتفاء بها هي وليس بكاتبة الرواية. وصل غرورها لدرجة أنها اقتعدت كرسياً قرب الكاتبة التي توقّعت نسخ كتابها، وراحت تجيب بدلها عن أسئلة الحضور حول كواليس كتابة الرواية، وسبب اختيار الموضوع، وطقوس الكتابة.

تبادلتُ حديثاً سريعاً مع نجيب الحفيظي الذي سألني مرّةً أخرى عن موعد إصدار كتابي الأوّل، ثم قرّرتُ التوجّه لاقتناء نسخة موقّعة من الرواية. نبّض قلبي بقوة حين اقتربتُ وشممتُ رائحةً عطر نجوى القوية، لكنني تمالكتُ نفسي لئلا أظهر توتّري، وحتى لا يظهر ارتجافي الداخلي على جسدي. وفي اللحظة التي أمسكتُ فيها نسخةً من الكتاب متظاهرةً بالاهتمام، رنّ هاتفني في الحقيبة، فقفزتُ من مكاني. تخيلتُ أنّ سعداً هو

الذي يتّصل، لأنه وصل ورآني. أَلقيْتُ الكتابَ على الطاولة، فأوقعتُ نُسخاً
أخرى أرضاً، لكنني لم أهتمَّ ورُحْتُ أبُحِثُ وسطَ الفوضى التي في الحقيقة
عن الهاتف وأنا أَلقَيْتُ يَمَنَةً وَيَسرةً بحثاً عن سَعْد.

وأَتاني صَوْتُها، قَلِقاً ولكن، هادئاً:

- هل أنتِ بخير؟

التفتُ إليها وقد تولّدت في إبْطِي حرارةً رهيبية، وصَعِدَتْ إلى أُذُنِي
ورأسي، ثمّ انتشرت في كامل جسدي. كان حاجباها معقودَيْن، وظهرت
تجاعيد بينهما. لم يتوقّف الهاتف عن الرنين. أخرجتُ من الحقيقة عُلبة
القوطِ الصحيّة بدلاً عن الهاتف.

قُلْتُ بابتسامةٍ بلهاء:

- نعم ... سأشتري الرواية. أمهليني لحظةً. أحاول إيجادَ هاتفي.

كانت الكاتبة منشغلةً بجمهورها وبتوقيع نُسخِهِم، ولم تنتبه إليّ. قالت
نجوى مبتسمة:

- على رِسلكِ. خذي وقتكِ.

وضعتُ حقيبتِي على الأرض، وانحنيتُ أبُحِثُ عن الهاتف. كان الرنينُ
قد توقّف حين عثرتُ عليه أخيراً. قرأتُ رسالةً سَعْد الذي اتّصل ثلاث مرّاتٍ
متتابعة: هل أنتِ بخير؟ قَلِقْتُ عليكِ لأنك لا تجيبين. أنا في انتظاركِ، لا
تتأخري كثيراً، يا حبيبتي!

تنفّستُ عميقاً، وكتبتُ له أنني في الطريق إلى البيت. وحين رفعتُ
رأسي، وجدتُ نجوى تنظر إليّ وقد انفجرت شفتاها عن ابتسامةٍ ساحرة.

- ما اسمكِ؟

أخذتُ أحَدَقَ بها وقد انعقدَ لساني من فرط الدهشة. أضافت:

- إنها تسأل عن اسمكِ الكامل من أجل الإهداء.

- مَنْ؟

- الكاتبة!

التقطتُ نسخَ الكتاب التي أوقعتُ وأنا أفكرُ إن كنتُ سأكذب وأختبئ وراء اسمٍ آخر، لكنني بعدَ برهة من التردد، أخبرتها باسمي الحقيقي.

قالت وقد حوّلت نظراتها إلى الفراغ كأنها تحاول تذكر شيء ما:

- شهرزاد الراوي ... كأنني رأيتُ هذا الاسم في مكانٍ ما.

نبّض قلبي داخلَ معدتي هذه المرة. خشيتُ أن أكون قد ضغطتُ لايك على إحدى صورها بالخطأ. ومع ذلك، فقد كنتُ حذرةً جداً في التعامل مع الموضوع، لأنّ شيئاً كهذا لا يحتمل الخطأ أبداً. أسوأ شيءٍ يمكن أن يحدث للمتعلّص على مواقع التواصل الاجتماعي هو أن يضغط لايك بالخطأ، خاصةً إذا كان الأمر يتعلق بمنشورٍ قديم.

قلْتُ ضاغطةً على أنفاسي في محاولةٍ للحفاظ على توازني:

- لا أعرف ... لا أظنّ أنني أعرفكِ، لكننا قد نكون صديقتين على فيسبوك.
ما اسمكِ؟ أو بالأحرى ما اسمكِ على فيسبوك؟

قالت وهي تمُدّ يدها نحو هاتفي:

- نونا صابر بالأحرف اللاتينية ... هذا اسمي على فيسبوك، أعطني هاتفك لأكتبه لك.

فتحتُ تطبيق فيسبوك، وأعطيتها هاتفي بدون أيّ تردد، لأنّ الطمع في متابعتها على هذا الموقع أيضاً أعمى بصيرتي وأبطل قدراتي العقلية. وفي اللحظة التي كانت تُمسكه فيها، تذكرتُ سجلّ البحث الذي يحتوي اسمها مكتوباً بالطرق الممكنة كلّها. لم أكن متأكّدة تماماً أنني مسحته. تمنّيتُ فعلياً

أن تنشق الأرض وتبتلعني، ولم أجد فرصة لاستعادة الهاتف، لأنها كانت قد بدأت تكتب اسمها في شريط البحث. شعرتُ بخوفٍ يشبه خوف الإنسان من أن يضبطه أحدٌ يحترمه وهو يستمني. لم يكن أمامي، إذن، إلا أن أدعوا الله، مثل أيِّ يائسٍ، ألا ترى اسمها وتكتشف أنني أتلصص عليها،

ورحتُ أراقب قسَماتِ وجهها وهي تكتب الاسم. وعندما رأيتُ أنها لم تتغيّر، شعرتُ بقليلٍ من الاطمئنان.

بعثت دعوة صداقةٍ من حسابي إلى بروفائِلها، وأعادت الهاتف لي وهي تقول بنبرةٍ مصطنعة:

- تشرفتُ بمعرفتك، يا شهرزاد.

أمسكتُ هاتفي، وضغطتُ على شريط البحث، لكن النتيجة المقترحة الوحيدة التي كانت تظهر هي نونا صابر. استعدتُ أنفاسي.

نونا صابر إذن. ذكرني هذا الاسم بأولئك النسوة اللواتي يضعنَ أسماء مستعارة أو صيغاً مصغرة لأسمائهنَّ ليدلّلنَ أنفسهنَّ، لأن لا أحدَ في العالم يدلّلهنَّ، أو لتخفيف أسمائهنَّ التي تبدو غليظة أو قديمة جداً بالنسبة إلى جيلهنَّ، بحيثُ تصبح خديجة كاتي، وفاطمة فاتي، وثريا توتو، ونجاة جوجو، وفضيلة فوفو. لقد منحت مواقع التواصل الاجتماعي للناس كلَّهم حقَّ تغيير أسمائهم واختيار الأسماء التي يرغبون في أن يُنادوا بها فعلاً، دون الحاجة إلى رفع دعاوي قضائية ضدَّ آبائهم. وفي هذا العالم الافتراضي الذي أصبح أكثر قوّة من الواقع نفسه، لا نعرف الناس إلا بالأسماء التي اختاروها بأنفسهم لأنفسهم، وحتى إذا عرفناهم بأسمائهم الحقيقية قبل فيسبوك، فإنَّ أسماءهم المستعارة، من فرط وجودنا في هذا العالم، تلتصق في مخيلاتنا دون أن نشعر وتصبح أسماءهم الجديدة.

نونا صابر إذن. مَنْ يا تُرى كان يدلّلها بهذا الاسم؟ أهي أمّها كانت تنادياها هكذا خلال طفولتها، أم هو سعد الذي أحبّها، أم هي نفسها

اختارت هذا الاسم لتُنادى به؟ هل كان أخوها الذي اغتصبها قبل سنواتٍ عديدة يناديها بهذا الاسم أيضاً؟ ولماذا ستحتفظ به ما دامت قد قطعت كل ما يربطها بأهلها بسبب سكوتهم الجبان عن اعتداء أخيها عليها؟ فكّرتُ في هذه الأشياء كلها في طريقي إلى البيت، وواصلتُ التفكير فيها عندما وصلتُ أيضاً.

لم يقل سعد شيئاً، ولم يسألني عن ندى. عرفتُ من الأوراق المتناثرة على الطاولة والتي كُتبت عليها أشياء غير مفهومة، ومن علبة السجائر الموضوعة هناك، أنه كان يعمل على روايته. خلد إلى النوم باكراً، وتبعه شمشون إلى غرفة النوم، وبقيتُ أنا في البهو، بحجة أنني سأحاول الكتابة أيضاً. فتحتُ الحاسوب، وكتبتُ جملتين فقط، ثم فقدتُ تركيزي تماماً.

كانت فكرة أن أكون قد وضعتُ لايك على إحدى منشورات نجوى بالخطأ قد بدأت تضغطُ عليّ، وتدفعني دفعاً لأدخل من جديد إلى صفحتها وأتأكد. ومع ذلك، ظللتُ أحدّق في شاشة الحاسوب محاولة الكتابة. كانت الكتابة دائماً بالنسبة إليّ مثل ممارسة الحبّ، أمّا الآن، فقد أصبحت بمثابة اغتصاب. رحتُ أكتب أيّ شيء، لأقنع نفسي أنني أفعلُ شيئاً ذا قيمة في حياتي، ولأدرب نفسي على التجلّد أمام أفكار المريضة، ثم رحتُ أقرأ مقالات عشوائية عن عالم النشر في المغرب، وأشهد حوارات قصيرة لكتّاب مشهورين على يوتيوب. كنتُ أبحثُ عن أيّ شيء يشجّعني ويُلهمني، لكنّ، دون جدوى. لم أكن قلقاً فقط، بل كنتُ أشعرُ بطرقٍ في رأسي، كأنّ فيه أعمال بناء أو إصلاح. دخلتُ إلى إنستغرام، ورحتُ أتفرّجُ على الصور هناك. ضغطتُ فكرة الدخول إلى صفحة نجوى على دماغي مرّة أخرى، وبررتُ ذلك لنفسِي بأنّ عليّ التأكّد أنني لم أضغط لايك بالخطأ، هكذا أرتاح ولا أدخل مرّة أخرى.

تفرّجتُ على الصور كلّها مرّةً أخرى، واحدةً واحدة، بحذرٍ شديد، مثل
لصٍّ تسلَّلَ إلى بيتٍ أحدهم ويبحثُ عمّا يسرقه دون أن يثيرَ أيّ ضجة. ثمّ
دخلتُ إلى فيسبوك، وتسلَّلْتُ إلى صفحة نونا صابر.

كان آخر منشورٍ صورةٍ لها مع الكاتبة إكرام البكاري خلال لقاء اليوم، نشرتها
قبل ساعتين، وعلّقتُ عليها: «لا حدودَ لمتعة اللقاء. مع كاتبة رواية نساء
رائعات، الجميلة والرقيقة إكرام البكاري. شكراً للأستاذ نجيب الحفيظي،
صاحب العين التي ترى دائماً الأجل».

تأكّدتُ في تلك اللحظة، أنها لم تفهم شيئاً حين صَفَّتُ قبل ساعات
على كلام الكاتبة حول الجمال والإبداع. وعرفتُ أنهما لا يمكن أن تكونا
صديقتين، وأن نجوى فقط تحاول الانتساب إلى أيّ شيءٍ معروف بحثاً عن
الأضواء. نظرتُ باستخفافٍ إلى وجهها المبتسم، وأسنانها البارزة، وشعرها
الأحمر المجعد، وفستانها المثير، والطريقة التي لَقَّت بها عُنق الكاتبة كأنها
صديقةٌ حميمة، والابتسامة المصطنعة على وجه إكرام التي تبدو مُتعبَةً من
التقاطِ الصور. في الخلفية مجموعاتُ أشخاصٍ بوجوه غير واضحة يتبادلون
أطراف الحديث. وراء نجوى مباشرةً، وعلى بُعد أمتارٍ فقط، وقفت امرأةٌ
قصيرةُ القامة، ذاتُ بشرةٍ غامقة وشعرٍ بنيٍّ طويلٍ وناغم، ترمقها بنظراتٍ
ممتلئة بالدهشة والإعجاب، بينما جعل وميضُ كاميرا الهاتف بؤبؤيها
برتقاليّين، فبدت مثل جنّية. تلك المرأة كانت أنا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

بعدها عرفتُ صفحةً نجوى على فيسبوك، دخلتُ في دَوَّامةٍ جديدةٍ من المشاعر، كان الكبرياءُ سيِّدَها. لم أستطع يوماً، بالرغم من ملاحظتي المحمومة لها على هذا الموقع، وتلصّصي عليها، والبحث عن تعليقاتها وبوستاتها القديمة، والتفرّج على صورها، أن أقول لها أيّ شيء أو أُعلّق عليها بصفحتي التي تحمل اسمي. لم أسمح لنفسي بذلك، لأنني أدركتُ بوضوح، بعدما رأيتُ جانبها المتملّق، أنّ هذه المرأة لن تستطيع أن تساوي حتّى ظفراً من أظفار رجلِي. لطالما كرهتُ المتملّقين، واعتبرتُ التملّق ضعفاً ودليل شعورٍ بالنقص وتمثلاً مقرفاً من تمثّلات الزيف والتكلّف والخضوع. لكنّ ما نراه واضحاً بعقولنا، تعجّرُ مشاعرنا أحياناً على الإيمان به والتصرّف وفقه. كنتُ لا أزال أشعرُ بالرغبة القوية نفسها في معرفة أيّ شيء عن هذه المرأة، وبالفضول نفسه، وبالتوق الذي لا أستطيع التحكّم فيه لملاحظتها على مواقع التواصل الاجتماعي.

كأنّما كنتُ أفعل ذلك بدون وعي. وحين أنتهي أشعر بكثير من الاحتقار لذاتي. كيف وصلتُ إلى هنا؟ كيف وصلت شهرزاد، الفتاة التي تحسبُ نفسها شامخةً والتي تحلُم أن تصبح روائيةً كبيرةً إلى هذا المكان الذي تفوح منه رائحةُ الإهانة، قويةً وسيئةً وعفنةً مثل رائحةِ صندوق قمامة؟!

كنتُ أرى سَعداً وهو يرسل مخطوط روايته الأولى لدور النشر والأمل يُشعّ من عينيه، بينما كنتُ أراقبُ حياتي بجمودٍ وهي تمرّ من أمامي، عاجزةً عن الإمساكِ بها وعيشها. كنتُ أيضاً أحاول الكتابة بكلّ ما أُوتيتُ من رغبةٍ

متبقية لي في الحياة، لكن، مشتتة الذهن والتركيز. وفي يوم ميلادي الحادي والثلاثين، كتبتُ صفحتين كاملتين. كنتُ مرعوبةً من فكرة أن تنقضي حياتي دون أن أستطيع تحقيق حلمي، وكنتُ أودّ اللحاق بالزمن.

بتصميم كبير، واطبْتُ على التلصص على نجوى، فأنشأتُ عناوين بريد إلكتروني جديدة، فتحتُ بها ثلاث حساباتٍ على فيسبوك بأسماء مستعارة. كان ذلك بمثابة نوافذ جديدة فتحت لي للإطلاع على عالمها، والتعرُّف إليه أكثر. أسميتُ الملفَّ الأوَّل الذي أنشأته جورج صاند، واختبأتُ وراء هذه الاسم مثلما اختبأتُ الكاتبة الفرنسية أمانتين أورور لوسين وراءه تماماً، غير أن أمانتين توارت وراء هذا الاسم لتحمي نفسها من استهتار المجتمع بالكتابات التي تحمل أسماء نسائية، أمّا أنا، فقد تخفيتُ به، لأنني لا أجرؤ على ارتكاب الحماقات باسمي الحقيقي. اخترتُ صورةً جميلةً بالأبيض والأسود لجورج صاند، ومهنة كاتبة، وتاريخ ميلاد أقل من عمري بستين، ونشرتُ مقاطع من روايات وأشعار، وأضفتُ أصدقاءً إلى لائحتي، لأمنح بروفائلي المصداقية، ثم أرسلتُ طلب صداقة لنونا صابر.

وفي انتظار أن تقبلني صديقة لها على فيسبوك، لم أقف مكتوفة اليدين، بل أخذتُ أخلق شخصيةً أخرى. على إنستغرام، شرعتُ في البحث عن نساء بشكل عشوائي، والاطلاع على صورهنّ. راحت ضحيتي بسبب جمالها، فتاة اسمها سلمى باعزير. لم أكن مهتمةً بمعرفة أي شيء عنها، واكتفيتُ بانتقاء أجمل صورها وتسجيلها على هاتفي، ثم عدتُ إلى فيسبوك، لأقوم بجريمتي دون أن يشعر بي أحد.

أنشأتُ ملفاً جديداً، واخترتُ له اسمَ نورا المبروك، ووضعتُ فيه صورَ سلمى باعزير، ثم جعلتها فتاةً عازبة، وُلدت في يوليو عام 1993 بمدينة سَلَا، ودرست في كلية العلوم، وتعمل مسوّقةً في مركز اتصال بالدار البيضاء، وتحبّ الطبخ والتسوّق والخروج مع صديقاتها. وعندما أصبح البروفايل مكتملاً، أضفتُ نونا صابر.

أما الملف الثالث، فقد قرّرتُ أن يكون رجلاً. رجلاً وسيماً ومثيراً. تسلّلتُ إلى إنستغرام مرّةً أخرى كِلِصّة، وكتبتُ عشوائياً أسماءَ رجاليّة إسبانية، اخترتُ أكثرهم وسامةً بالنسبة إلى معايير المجتمع: شَعْرٌ كثيفٌ وناعم، تتدلّى خُصَلّته على وجهٍ مثاليّ. بشرةٌ سمراء. عيانٌ عسليّتان. حاجبان كثيفان. ذقنٌ عريض. لحيّةٌ سوداء خفيفة. صدرٌ شاسعٌ ورحب. كتفانٍ قويّتان. كان اسمه خوليو سيرانو، ويعمل غوّاصاً، ولا أدري هل كانت الصور له فعلاً، أم أنه بدوره سرّقها من شخصٍ آخر؟! سجّلتُ نحو عشرٍ من صورهِ، وتوجّهتُ إلى فيسبوك، حيثُ نَقِدتُ حماقتي.

في الفيسبوك، سمّيتُهُ غوستافو سانشيز، وجعلتُهُ ممرّضاً في مستشفى كارلوس الثالث بمدرّيد، يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، ويحبّ الرياضة والسباحة والغوص وكمال الأجسام. ولكي أجعل صفحته تبدو حقيقية، أضفتُ إلى لائحة أصدقائه عشرات الإسبان. كتبتُ أولاً اسم إلينا بالأحرف اللاتينية على شريط البحث، وضغطتُ على أوّل إلينا عرضتها عليّ نتيجة البحث. كان اسمُها إلينا موراليس. دخلتُ إلى لائحة أصدقائها، وأضفتُهم كلّهم، ثم دخلتُ إلى صفحة أحد هؤلاء الأشخاص الذين أضفتُهم، وأضفتُ أصدقائه أيضاً. ظللتُ أعمل على هذا الملف بدقّة وتفانٍ لأيّام، وأنشُر كلَّ يومٍ صوراً على الصفحة، واقتباساتٍ بالإسبانية من رواياتِ كارلوس زافون وإيزابيل ألييندي أخذتها من الأنترنت. وحين اكتمل الملف وصار يبدو حقيقياً وواقعياً، أرسلتُ طلبَ صداقة لنونا صابر.

كنتُ محظوظة جداً أن قبلتُ نونا صابر طلباتِ صداقتي في الحسابات الثلاثة، لكنّ، كان عليّ أن أقضي الأيام التالية أدخلُ إليها باستمرار، وأنشُر صوراً وبوستات مختلفة حتّى لا أُثير الشكّ حولها. كنتُ أستمتع بالاختباء وراء هذه الحسابات، وبتقمّص شخصياتٍ مختلفة وأنا أُعلّق على صورِ نجوى الجديدة ومنشوراتها. مستعينةً بترجمة غوغل، كتبتُ لها تعليقاً بالإسبانية من حساب غوستافو سانشيز، أتغرّل فيه

بجمالها، وردّت عليّ في تعليق آخر: «موتشا غراسياس»، وضعتُ إلى جانبه قلباً أحمرّ وبقاةً ورد.

ومن حساب جورج صاند، علّقتُ على قصائد الشُّعر التي تنشرها لشعراء مختلفين. قلْتُ لها إنني أفضّل ما كتبه محمود درويش خلال السنوات الأخيرة من حياته على شِعْره النضالي، وردّت في تعليقٍ مقتضب «أنا أيضاً». وقلْتُ لها، في تعليقٍ آخر على قصيدة حبٍّ لنزار قبّاني، إنَّ هذا الشاعر لا يتكرّر، ومحاولات تقليده كلّها من قبل بعض الكتاب والشعراء اليوم لا تُنتج لنا إلا أدباً رديئاً. ردّت ببرودٍ واقتضاب «فعلاً».

ومن حساب نورا المبروك، علّقتُ على منشورٍ لها تشتكي فيه من حركة المرور في الدار البيضاء. قلْتُ لها إنَّ التخلف يطالُ كلّ شيء في هذا البلد، وإننا تعبنا من أبواق السيّارات التي لا تسكُت، والقذارة في كلّ مكان، والشوارع المتسخة، وروائح الأزبال، ومياه الصرف الصحيّ التنتنة، والأسوار الملوّثة بمختلف أنواع الشوائم. اكتفت بإيموجي غاضب رداً على تعليقي، وانسحبت.

كنتُ أدخل كلّ يومٍ وأعلّق عليها. أفعلُ خُفيّةً عن سَعد حينَ أكون في البيت. أحياناً أدخل إلى الحمام وأغلق الباب بالمفتاح، وأجلس على التواليت، ثمّ أكتب تعليقاتٍ لنجوى. كنتُ أحاول الحصول على أيّ معلومات جديدة عنها، والتعرّف إلى آرائها ومواقفها إزاء مختلف المواضيع والقضايا. أحياناً، أنتظر أن ينام زوجي لأخذ كاملَ وقتي في التغرّل بها وبشعرها المجعد وعينيها العسلّيتين من خلال بروفايل غوستافو سانشير، مستمتعةً بالنّصب عليها، وبرودٍ أفعالها التي تبينُ فخراً كبيراً وغبطة بالغة. أحياناً، أعدّ أطباقاً تتطلّب كثيراً من الوقت، فقط لأبقى وحدي في المطبخ لمُدِّ طويلة. وبين تبيل الدجاج ووضعه على النار لينضج، أقتعد كرسيّاً وأدخل لأطلّ على نجوى وأعلّق على بوستاتها. وحين أضع سمكةً كبيرةً في الفرن، أتحدّجُ بخوفي من احتراقها، وأبقى في المطبخ لأستطيع الدخول إلى عالم نجوى

دون أن يزجني أحد. أحياناً يدخل سعد خلسةً ويلقني بذراعَيْه ويقبِّلني في عنقي، فأُسرع في إغلاق الهاتفِ وقلبي ينبض بسرعة. أحياناً، أقتعد كرسيّاً في البهو مقابلةً لزوجي المنشغل بالترجمة، وأدخل إلى أحد هذه الحسابات المزوّرة من اللاتوب، ثم أشرع في التلصّص والتعليق، بينما أستمع إلى غليان الأدرينالين داخل معدتي. وكان الاطمئنان يتغلغلُ إلى داخلي ويُنعش أعماقي مثل نسيم خفيف حين أسمعُه يطرق الطاولة بعلبةِ سجائره المغلقة، لأن ذلك يعني أنه في أقصى لحظات التركيز والإلهام. وحين أسمعُ صرير الأريكة القديمة، أُسرع في إغلاق الصفحة، وأفتح تطبيق الورد، حيث لم أكتب سوى بضع فقراتٍ في روايتي. أحياناً، ينهض سعد بكلّ عفوية ويتوجّه نحوي ثم ينظرُ إلى شاشة حاسوبي، فأتظاهر بالكتابة والتفكير العميق. أكتب جملاً وعباراتٍ بلا أيّ معنى، ثم أمسحها. وعندما ينتبه إلى أنني ما زلتُ في الصفحتين الأولين من الرواية، وينظر إليّ باستغراب، أقول له إن ما كتبته لم يعجبني، فقررتُ محو كل شيء. أقول له ذلك بكلّ ثقة وأنا أحدق في عينيّه، ثم أزيد لأضفي المصدقية على كلامي أن الكتاب الجيدين هم مَنْ يمتنعون بالقدرة على الحذف.

كنتُ أطلّ على عالم نجوى من خلال هذه الحسابات وأنا في العمل أيضاً. أغلق باب مكتبي، وأشرع في ممارسة تلك التي أصبحت هوايتي المفضّلة: التنكّر والتقرب من نجوى. في الواقع، كانت لحظات وجودي في المكتب لحظات سعادةٍ خالصة، لأنني أكون وحدي. ولا ينغص عليّ انزوائي سوى نجيم حين يأتي ليقول لي إنه سيخبرني بشيءٍ مهمّ لاحقاً، أو ندى حين تدخل، دون استئذان كالعادة، لتسأل عن أحوالي وتعرف أخباري. حتّى ندى تغيّرت كثيراً في الأشهر الأخيرة، وأصبحت قليلة الكلام، كثيرة الشرود والتفكير. كان ينبغي عليّ، مثل أيّ صديقة حميمة، أن أهتمّ بها أكثر، أن أسأل عن أحوالها، وأجد طريقةً لمعرفة ما يدور في خاطرها، لكنني لم أفعل. كنتُ مشغولةً على الدوام، أو أشعرُ بنفسي كذلك، أو بالأحرى،

وهو شيءٌ ينبغي أن أعترف به بالرغم من كمّ الأنانية التي ينطوي عليها، كان لديّ أهمّ من ندى. كانت لديّ نجوى.

سريعاً، مررتُ من مجرّد التعليق على بوستات نجوى إلى مراسلتها على الخاصّ. تسلّل إحساسٌ بعدم الاكتفاء إلى داخلي، ووجدتُني أكتب لها رسالةً بالفرنسية من خلال بروفایل نورا المبروك، قلتُ فيها:

«مرحباً نجوى، أتمنّى أن تكوني بخير. أردتُ فقط أن أسألكِ عن نوع الصباغة التي تضعينها في شعرك، ودرجتها. أحببتُ ذلك اللون، وأودّ أن أجربه. أتمنّى ألا أكون قد أزعجتكِ. في انتظار جوابكِ 😊».

لم تقرأ نجوى الرسالة إلا بعد ثلاثة أيّام، ولم تردّ إلا بعد أسبوع، وباقتضاب شديد: «لا أذكر صراحةً، لكن، شكراً على مجاملتكِ». وتّرني جوابها. خرجتُ بسرعةٍ ودخلتُ من بروفایل غوستافو سانشير، وبعثتُ لها رسالةً بالإنكليزية كتبتُ فيها:

«كَمْ أنتِ جميلة! جمالكِ طبيعيٍّ ومتمردٌ ولم أر مثله في حياتي».

قرأت الرسالة في الحال، وردّت:

- Muchas gracias 🙏

لا يمكنني أن أصف المشاعر التي كانت تموج في داخلي وأنا أرى تأثيري عليها. تجوّلتُ في مكّتي ونظرتُ من النافذة الصغيرة إلى الشارع وأنا أفكر أنني أستطيع أن أحكم قبضتي عليها من خلال غوستافو سانشير هذا. فعلى ما يبدو، تعاني نجوى من عُقدة الدونية تجاه الأجانب، وخاصةً الأوروبيين، وربما تذهبُ عقدتها أبعدَ من ذلك. قد يكون هدفها، مثل كثيرٍ من النساء المغريات، الارتباط برجلٍ أجنبيٍ للتخلّص من مشكلات الرجال المغاربة وعقدِهِم. قضمتُ قطعةً شوكولا وهرعتُ إلى هاتفِي بسرعة، وكتبتُ لها: «كيف حالكِ؟». ردّت في الحال بإنكليزية مملوءة بالأخطاء:

- كيف سيكون حالي في هذا البلد السعيد؟ ☺

سألتها:

- لماذا؟

قالت:

- لأنّ الحياة في هذا البلد صعبة جداً. ☹

بأريحية تامّة، دخلت نجوى في محادثة طويلة معي، وقد حسبت أنها تتحدّث مع رجل إسباني وسيم ذي عَيْنَيْن عسليّتين ولحية خفيفة وجسد رياضيّ. رجل أوروبيّ مهتمّ بها وقد يحبّها ويُنقِذها من الحياة القاسية في هذا البلد. قالت لي إنّها تفكّر في الهجرة منذ وقت طويل، لكنّها لم تجد بعدُ الفرصة لذلك، وإنّها تسافر كثيراً إلى أوروبا لتغيّر الجوّ قليلاً وتنسى المغرب ومشكلاته. كتبتُ لها:

- تعالي إلى مدريد، ستحبّينها كثيراً، وأنا بنفسني سأفرّجك على هذه المدينة الساحرة، ربّما تحبّينها وتقرّرين العيش فيها. ☺

تحمّست أكثر حين قرأت هذا الكلام، وقالت إنّها أصلاً تفكّر في زيارة إسبانيا منذ وقتٍ طويل، وأضافت:

- أحبّ إسبانيا كثيراً ☺، وأجد الإسبان أقرب إلى طبعنا: سأقول لك سرّاً، عندما كنتُ طفلةً صغيرة، كنتُ أتمنّى أن أتزوّج برجلٍ إسباني، بسبب المسلسلات المكسيكية التي كنّا نشاهدها ☺.

كتبتُ لها:

- هناك رجلٌ إسباني ينتظركِ هنا ☺.

بعثتُ هذا الإيموجي ☺، لكنّ هذا لا يعني بالضرورة أنّها ضحكتُ فعلاً. ربّما تكون فقط منفعلةً وراء شاشة هاتفها، متأثرةً بالكلام الذي قرأته للتوّ، وربّما بدأت تحلُم بنفسها عروساً لغوستافو سانشير.

ردّت:

- في الحقيقة، لقد تعبْتُ من العلاقاتِ العاطفية مع المغاربة.

- لماذا؟

تأخّرتُ كثيراً في الجواب. كنتُ أراها تكتب وتمسح ما كتبتهُ، ثمّ تبدأ الكتابة من جديد، قبل أن تقول أخيراً:

- لأنني عشتُ علاقاتٍ فاشلة كثيرة. لا أقول إن الرجال المغاربة سيئون، لكنهم فقط لا يصلحون لي، وأنا لا أصلح لهم. إنني، يا غوستافو، امرأةٌ متفتّحة بعقليةٍ أوروبية، والرجال المغاربة لا يريدون هذا النوع من النساء، للأسف الشديد، إلّا لممارسة الجنس أو العلاقات العابرة. أمّا حين يفكّرون في الزواج، فإنهم يبحثون عن نساء تقليديات، يُشبهن أمهاتهم ⑤. قُلْتُ لها:

- مَنْ هؤلاء الحقراء الذين رأوا فيكِ امرأة لا تصلحُ إلّا للجنس والعلاقات العابرة؟ أخبريني عن مكانهم، وسأتي حتّى المغرب، لأكسّر وجوههم ⑥. ضحكّت، أو بالأحرى، أرسلت ⑦:

- النساء جواهر، يا عزيزتي نجوى، ويجب أن لا تُعطى الجواهر إلّا لمن يقدّر قيمتها ويعرف كيف يحافظ على لمعانها ونقاها وإشعاعها. أظنّ أن هؤلاء الذين كنتِ مرتبطة بهم لم يقدّروك كما ينبغي، ولم يقدّروا جمالك، ولم يعتبروا تفتحك ميزة قلّما نجدها في أيّامنا.

قالت:

- صحيح! لذلك لم أستطع البقاء مع أيّ واحد منهم أكثر من بضعة أشهر. أنا، يا عزيزي غوستافو، امرأةٌ عنيدة، ولا أقبلُ بأنصاف الأشياء. إمّا أن تقدّر قيمتي وتكون معي على هذا الأساس، أو لك أن تبخل وتبحث عن امرأة أخرى تعبثُ معها.

كنتُ أفكرُ في ما سأقوله لها لأحمسها أكثر، حين أضافت:

- للأسف، يا عزيزي غوستافو، هناك، في هذا العالم أشخاص كثيرون ممن يعتبرون طيبة القلب ونقاء السريرة سذاجةً، ولا يتوانون في استغلالهما من أجل الاحتيال على الناس. أنا حقاً امرأةٌ طيبة، طيبةٌ جداً، لكنني لن أسمح لأيٍّ أحد، مهما كان، باستغلالني والنصبِ عليّ.
قُلْتُ:

- أنتِ بالذات، يجب أن تكوني مع رجلٍ يحترمك ويقدرُك. جمالُك وحده يجعلُك تستحقين أن يمنحك رجلٌ كلَّ شيءٍ لتكوني سعيدة.
قالت:

- شكراً ♡

ثم أضافت:

- لكنّ الجمالَ يصبح أحياناً نقمة ♡.

- لماذا تقولين هذا؟

- إنني أُنهم طول الوقت بأنني حصلتُ على منصب أستاذةٍ جامعية بسبب جمالي! هل يمكن أن تتخيل هذا؟
قُلْتُ:

- الناس الحسودون الحقودون كثر في هذا العالم. لا تهتمّي لهم، يا عزيزتي.

قالت:

- لقد زرتُ أوروبا كثيراً، ولم أرَ مثل هذا الكمّ من الحسدِ هناك. وبالمناسبة، كنتُ في أمستردام مؤخراً، وتعرّفتُ عبر تطبيق تندر على شابٍّ هولندي وسيم، دعاني إلى العشاء، وتعامل معي كما لو كنتُ

أميرة. لم يتعامل معي أي مغربيّ كما تعامل معي هذا الشاب الهولندي.
الأوروبيون يحترمون المرأة كثيراً.

أردتُ أن أتقرب إليها أكثر. فكّرتُ أن مشاركة الأسرار والحديث عن أمور حميمة ستجعلها تثق بي أكثر، وتفشي لي أسرارها وأمورها الحميمة أيضاً.
- أتعرفين، يا نجوى؟ بما إننا متفاهمان بخصوص كثير من الأمور، أريدُ أن أخبركِ بسرّ.

ردّت في الحال:

- ما هو؟

- كنتُ مرتبطاً بفتاة مغربية لمدة سنتين، وكنا متفاهمين إلى درجة كبيرة.
لم أتفاهم مع امرأة إسبانية مثلما تفاهمتُ مع هذه الفتاة. كنا منسجمين إلى أبعد حدّ. لديّ قناعة أن المغريات هنّ أرقّ النساء في العالم، وأكثرهنّ أنوثّة، ويعرفنّ كيف يجعلنّ الرجال يقعون في حبّهنّ.

تخلّلتها ستطير من الفرح حين قرأت هذا الكلام، لكنها تحكّمت في نفسها وقالت:

- لا عجب أن المغريات يتزوّجن من الأجانب كثيراً. هذه أرقام وإحصائيات، يا عزيزي، وليس مجرد كلام ☺.

لم أردّ. خرجتُ من المسنجر، ودخلتُ إلى صفحتها على فيسبوك. تأملتُ صورة بروفايلها. كانت صورة مقرّبة جداً لوجهها وهي تبتسم حدّ إغماض عينيها، بينما تدلّت خصلات من شعرها الأحمر المجعد على جبهتها. سجّلتُ الصورة على هاتفي، وبعثتها لها على مسنجر، ثمّ كتبتُ لها:

- ألم يقلّ لك أحدٌ من قبل إن ابتسامتك رائعة؟

قالت:

- هكذا أنا ... أبتسمُ على الدوام، حتّى في أقصى لحظات الألم.

- أنتِ بالذات يجب أن لا تتألّمي، أبداً.

- لماذا؟

- لأنك تستحقّين أن تكوني سعيدة. عليك أن تجدي مَنْ يُسعدُك.

- ينبغي أن أجدَ مَنْ يفهمُني أولاً 😊.

- أنا أفهمُك. يمكنك اعتباري، منذ الآن، شخصاً مقرباً لك، وإن

استطعتُ أن أساعدك في أيّ شيء، فإنني لن أتردد.

- شكراً يا غوستافو. ☺

- سأسألك سؤالاً تافهاً وكلاسيكياً، ماذا تحبّين أن تفعلي، إلى جانبِ

عملك؟ أقصد ما هي هواياتك؟

- أحبّ السفر والتسوّق.

- أفهمُ الآن لماذا أنتِ أنيقةٌ هكذا! قلّ لي، يا نجوى، هل لديكِ

أصدقاء؟

- آه، الأصدقاء؟ إنهم يُعدّون على رؤوس الأصابع! كم خذلوني وتركوني

وحيدةً في أكثر لحظات حياتي ألماً وقسوة.

- هؤلاء ليس أصدقاء. هؤلاء أصحابُ مصلحتهم فقط! هل سبق

وأحببتِ بعنف؟

- لماذا تسأل؟

- اعذريني إن كنتُ متطفلاً، أو جارحاً، لكنني أريد أن أتعرفَ إليكِ

أكثر.. أن أعرفَ لماذا عيناك حزيتان رغم تلك الابتسامة الرائعة على

شفَتَيْك ...

- نعم، أحببتُ. أحببتُ بقوةٍ وجنون، لكننا افترقنا للأسف.

- أنا آسف جداً 😊. هل لي أن أسألكِ عن السبب؟

- لم يكن قادراً على الزواج وبناء عائلة، ولم يفعل أي شيءٍ من أجل ذلك. ظلّ يتبع أحلامه الفارغة التي لا طائل من ورائها، واضطرتُّ لتركه حتى أبدأ حياتي من جديد قبل أن يفوت الأوان.

- أيّ أحلام فارغة؟

- قال إنه يريد أن يصبح كاتباً 😊.

- 😊

- لكنّ الكتابة لا تُؤكل خبزاً ولا تفتحُ بيتاً!

كنتُ في الباص متّجهةً إلى البيت حين قرأتُ هذه الرسالة. قلتُ لها إن عليّ أن أذهب، لأن لديّ عملاً كثيراً، ووعدتها أننا سنُكمل حديثنا في الليل. عندما نام سَعد، فتحتُ ذلك الحساب من جديد، ووجدتُ رسالتها تسألني إن كنتُ قد انتهيتُ من عملي لتحدّث. تلك الليلة، روت لي أشياء عن نفسها لم تكن في الحُسبان. حدّثني عن والدها السكّير والعنيف، وعن أمّها الخنوعة والمستسلمة. قالت لي إنّ أمّها ذليلة، لأنها قبلت أشياء لا يُمكن لإنسان لديه كرامة أن يقبلها، وأخبرتني أنها لم تعد تريد أن يربطها أي شيءٍ بتلك العائلة، وأنها ستنسى المغرب عند أوّل فرصةٍ تتسنى لها للعيش في الخارج. كان واضحاً أنها غاضبة، ومتحمّسة أكثر من اللازم، ومع ذلك، لم ترو لي شيئاً عن الاغتصاب الذي تعرّضت له في طفولتها، ولا عن زواجها ولا عن ابنها. هل كانت تلك مجرد كذباتٍ من سَعد، ليُضفي طابعاً درامياً على قصّة نجوى، ويثبت لي أنّه انتشلها من مستنقعٍ غائر، أم أنّ نجوى لم تطمئنّ لغوستافو، للدرجة التي ستجعلها تحكي له أشياء كهذه عن نفسها؟

ظللنا نتحدّث طول الليل. وعندما بزغ الفجر، قالت إنّ عليها أن تنام قليلاً لتذهبَ إلى العمل في الصباح الباكر. كنتُ أشعر بفرح غامر، لأنّ هذه المرأة التي يرتجفُ قلبي حين أراها أو أسمعُ اسمها، أصبحت الآن بين يديّ، مستسلمةٌ وخاضعةٌ، وتحكي لي بكلّ أريحيةٍ عن حياتها وأسرارها وأحلامها.

أدمنتُ الحديثَ إلى نجوى عبر مسنجر. وصرتُ أكتبُ لها كلّ يوم لتبادل أطراف الحديث. اكتسبتُ خمسَ كيلوغراماتٍ زائدة خلال مدّة قصيرة بسبب القصص التافهة التي كانت ترويها لي عن مراهقتها وحياتها في أكادير، ونظرتها المتشائمة إلى الحياة، وشكواها المستمرة من كلّ شيءٍ وأيّ شيء، ومع ذلك، استمرّيتُ في الحديث إليها، وتغلّبتُ على المرارة التي كانت تخلفها رسائلها بالحلويات والشوكولاتة. نبّهتني ندى إلى أنني أكل كثيراً، وحذّرتني من الوقوع في فخّ الإدمان ومن اكتساب وزنٍ أكثر، لكنني لم أعبأ بكلامها، لأنها لم تكن تعرف أنني، على أيّ حال، مدمنةٌ على أشياء أسوأ من الطعام، الإطلال على عالم نجوى صابر. كنتُ مثل تيمة التي طالما ضحكْتُ منها، في حالةٍ إصرارٍ مُرهقة على معرفة أشياء لا تخصّني. إلّا أنّ تيمة كانت تشاهد عالماً حقيقياً من سطح بيتهم، وكنتُ أرى عالماً وهمياً وكاذباً من هاتفي.

لم تُعد تمرّ دقيقةٌ دون أن أفكّر في نجوى. أستعيد محادثاتنا بلذّة مُرعبة. أحلّل عباراتها وأبحثُ عن مكامن التناقض في كلامها. أقارن بين قصّتها كما ترويها هي، وقصّتها كما يحكيها سعد، ما تقوله عن نفسها، وما تحاول أن تبينه على صفحاتها على مواقع التواصل. أحلّل وأناقش نفسي في نفسي كأنني أحاول حلّ معضلاتٍ فلسفية مهمة.

كنتُ أفكّر باستمرار في طُرُق لمعرفة المزيد عن حياتها وماضيها، وكانت أجمل الأيام عندي هي تلك التي أعر فيها على فكرة تُعينني على ذلك، فتراودني مشاعر رائعة من السعادة والفخر والاعتداد بالنفس، كأنني اكتشفتُ حدود الكون أو علاج مرض السرطان أو حبوب منع الحمل للرجال. كنتُ أشعر أنني أتمتع بذكاءٍ خارق حين تطفو فكرةٌ جديدةٌ في دماغي، أو أتوصّل إلى استنتاج جديد بخصوص أيّ تفصيل تافه من تفاصيل حياة نجوى التي لا ينبغي أن تهمني في شيء.

في أحد تلك الأيام التي شعرتُ فيها أنني أتمتع بذكاءٍ خارق، كنتُ عائدةً من السوبرماركت أحمل أكياساً ثقيلة، بالإضافة إلى جسدي الذي زاد عشرة كيلوغرامات. كنتُ أمشي بثقلٍ وأنا أفكّر في ما قالته نجوى لغوستافو سانشيز عن علاقتها بسعد، وسبب انفصالها عنه. كنتُ أفكّر في ذلك الموضوع كلّ يوم، وأتوق لمعرفة حقيقته. وحين انعطفتُ على الزقاق الذي أسكن فيه، وضعتُ أكياس المقتنيات على الأرض، ووقفتُ أسترد أنفاسي المقطوعة. فتحتُ هاتفي ودخلتُ إلى حساب غوستافو سانشيز، ثم إلى

محدثتي مع نجوى. عُدْتُ، للمرّة المليون، إلى الجزء الذي كانت تتحدّث فيه عن علاقتها السابقة التي لم تُكَلِّلَ بالزواج كما كانت تتمنّى، وُرُحْتُ أقرأ المحادثة من جديد. كنتُ أريد التأكّد، مرّةً أخرى، من تذكّري للتفاصيل كلّها التي روتها لي، حتّى يتسنّى لي التوصل لاستنتاج يُرضيني. ومثل كلّ مرّة، لم أتوصّل لأيّ شيء. ومثل كلّ مرّة، شعرتُ بخيبة أملٍ كبيرة. ومثل كلّ مرّة، واصلتُ طريقي وقد عزمْتُ على ألاّ أُنْبَشُ في حياة نجوى من جديد. وفي اللحظة التي وصلتُ فيها إلى المبنى الذي أسكنه، ورأيتُ شاباً رثّ الهيئة يتبول فوق عبارة «ممنوع البول، ومَنْ بَوَّلَ هنا فهو حمار وأمه عاهرة»، لمعتُ في ذهني فكرةٌ جديدة، وألحْتُ عليّ بقوة: الولوجُ إلى حساباتِ سَعْد، والاطلاع على رسائله ومحادثاته مع نجوى. تبوّلتُ على القرار الذي اتّخذته قبل لحظات.

كانت لديّ خطةٌ مُتَقَنّة، نفّذتها بحرفيّة عالية وبصبرٍ كبيرٍ أيضاً. راقبتهُ مرّاتٍ كثيرة وهو يُدْخِلُ كلمة السرّ الخاصّة بهاتفه حتّى حفظتها عن ظهر قلب. وحين دخل ليتحمّم ذات مساء، التقطتُ هاتفه من على الأريكة، أطفأته، وخبّأته داخل قِدرٍ كبير في خزانة المطبخ التحتانية، إلى جانب الآلات الكهربائية وقناني الزيت وموادّ التنظيف، ثمّ عُدْتُ للجلوس في مكاني متظاهراً بالانشغال في الكتابة.

حين خرج من الحمام، وقبل أن يرتدي ملابسه، راح يبحثُ عن هاتفه. رأيتهُ بجانب عيني وهو يبحث فوق الأريكة وعلى الطاولة. سألتُهُ عمّاذا يبحث، وقال إنه متأكّد أنه ترك هاتفه على الأريكة قبل أن يدخل إلى الحمام. سألتُهُ:

- أَلَمْ تأخذه معك إلى هناك؟

كرّر:

- أنا متأكّد أنني تركتهُ فوق الأريكة.

رحتُ أظاهر بمساعدته في البحث. أدخلتُ يدي بين مجلس الأريكة
ومسندتها، وسقط هو على ركبتيه باحثاً عن الهاتف تحت الطاولة.
- هذا مستحيل! أنا متأكدٌ أنني تركته فوق الأريكة قبل أن أدخل إلى
الحمام.

- كيف يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك؟
- أذكر ذلك جيداً! بعثتُ رسالةً في مجموعة العائلة على وتساب قبل
أن أدخل إلى الحمام!
- أرجوك أن تهدأ، يا سعد، لن تجده ما دمتَ تتصرف بهذه العصبية.
- أنا متأكد مثلما أنا متأكد من وجودي، أنني تركته فوق هذه الأريكة،
يا شهرزاد!

- ربّما وضعته في مكانٍ آخر دون أن تشعر. ابحث في غرفة النوم.
طلب منّي أن أتصل برقمه، لعلّ رنين الهاتف يساعدنا على إيجاداه.
اتصلتُ ووضعتُ مكبر الصوت. جمّد سعد في مكانه وفتح عينيه على
آخرهما وراح ينتظر سماع رنين الهاتف في مكانٍ ما في البيت. سمعنا بدل
ذلك رسالة اللعبة الصوتية تخبرنا أن الهاتف مغلق.

- هاتفي لم يكن مغلقاً، يا شهرزاد!

- ربّما انتهت بطاريته!

- شحنته قبل قليل، لا يمكن أن تنفذ بهذه السرعة!

بحثنا عن الهاتف معاً في غرفة النوم، على المنضدات وفي أدراج
الخرانات. بحثنا في البهو، فوق جهاز التسجيل القديم، ووراءه، وعلى منضدة
التلفاز، وفي أدراج المكتبة. بحثنا في المطبخ، فوق الكراسي وعلى الطاولات،
لكننا لم نجد له أثراً. لم تخطر الخزانة التحتانية للمطبخ على باله.

- كنتُ في البهو طيلة اليوم، يا شهرزاد، ولم أذهب لأيِّ مكانٍ آخر!

قُلْتُ بعصبية:

- لا يُمكن لهذا الهاتف أن يتحرَّك وحده ويختبئ عن الأنظار! من الواضح أن شمشون ليس هو مَنْ أخذه!

قال بانفعال:

- هل تسخرين منِّي الآن؟

قُلْتُ بتوتُّر:

- لا أسخرُ منك. أنا فقط أطلبُ منك أن تحاول التذكُّر. يحدث أحياناً أننا نفعل أشياء أو نترك أشياء في أماكن ما، لكننا لا نحتفظُ بأيِّ ذكرياتٍ عن ذلك.

كنتُ نادمةً جدّاً، لكنني عزَّيتُ نفسي بأنني سأعيد له الهاتف بمجرد الانتهاء من قراءة الرسائل.

سألتهُ:

- ذهبتَ إلى البقَّال اليوم. ربَّما نسيتهُ هناك!

قال:

- ماذا تقولين؟ لقد تحدَّثْتُ مع أمِّي قبل أن أدخل إلى الحمام بقليل فقط، ثم تركتُ الهاتف فوق الأريكة. أنا لستُ مجنوناً، يا شهرزاد، وأعرفُ ما أقوله جيِّداً. هذا حصل بالفعل، ولم يكن مجرد تخيُّلات.

قُلْتُ في إحباط:

- صحيح! لقد سمعتُكَ تتحدَّثُ معها.

راح يبحث عن الهاتف من جديد. تبعتهُ وأنا أقول:

- هذا يعني أن الهاتف موجودٌ في البيت. أرجوك أن تستحضر عقلك، وتبحث عنه بهدوء لتجده. يحدث كثيراً أن تضيعَ منّا الأشياء، لأننا لا نكون منتبهين تماماً حين نضعها في مكانٍ ما، وقد تمرَّ أيّامٌ قبل أن نجدَها بالمصادفة وفي أماكن مكشوفة، واضحة مثل عين الشمس. عندما كنتُ أدرس في الثانوية، ضاع منّي دفتر دروس اللغة الفرنسية، بحثتُ عنه في كلّ مكان في البيت. كدتُ أجنُّ وأنا أبحث عنه، لكنني لم أستطع إيجاده. وكنتُ أيضاً متأكّدة أنني وضعته في الخزانة مع كُتبي وكُراساتي! مع ذلك لم نجده. بعد مرور أيّام، وجدته في مكانه إلى جانب دفاتري الأخرى، ظاهراً للعيان. ولم تفهم أيّ واحدةٍ منّا لحدّ الآن كيف لم نتمكن من رؤيته حين كنّا نبحثُ عنه. أمي وصفتني وقتها بالعمياء والخرقاء، وقالت لي إنني لن أنجح في حياتي أبداً، ولن أحقق أيّ شيء ما دُمتُ غير قادرةٍ على العثور حتّى على دفتر ... على كلّ حال، يقولون إنّ الشيطان أحياناً يطمس الأشياء، ويجعلنا نعجزُ عن رؤيتها. الشيطانُ هو الغضبُ، يا سَعد.

التفت إليّ وقال:

- ماذا سأفعل الآن؟

لففتُ وسطه بذراعيّ، ودفنتُ رأسي في صدره، ثمّ قلتُ:

- ستجده. أنا متأكّدة من ذلك.

في المساء، اتّصلنا بوالدته من هاتفي، وأخبرناها أنه أضاع هاتفه في مكانٍ ما. قالت بصوتٍ مفجوع إنّ قلبها انقبض فجأةً هذا اليوم حين كانت تؤدّي صلاة الظهر، وإنها فقدت تركيزها، ولم تستطع إتمام الصلاة. بعد أن تناولنا العشاء، ارتميتُ على الأريكة وقد شعرتُ بالانتصار. أغمضتُ عينيّ ورُحتُ أتخيّل حجم اللذة التي سأشعر بها حين أقرأ الرسائل، بينما تتناهى إليّ أصواتُ فيلمٍ أمريكيٍّ على التلفاز. وفي لحظةٍ ما، أتاني صوتُ سَعد وهو يقول:

- شهرزاد، هل تؤمنين بالجنّ؟

فتحتُ عينيّ، وتطلّعتُ إليه، ثمّ إلى شمشون النائم في حضنه.

- أقصد، هل تعتقدين أنّ هناك كائناتٍ أخرى لا نستطيع رؤيتها؟

قلْتُ في دعاية:

- حسناً، شمشون هو الذي أخذ هاتفك وخبّاه في مكانٍ مجهول. أصلاً،

سبق وأخبرتُك عندما زُرْتُك هنا أوّل مرّة أنه جنّي مختبئ في صفةٍ قطّ.

أطفأ التلفاز، وراح يطرق الطاولةَ بعلبة سجائره. نهضتُ والتقطتُ علبة السجائر من يده، وألقيتها على الطاولة، ثمّ أمسكتُ يده ورحتُ أداعبها بحنان. تطلّع إليّ بنظراتٍ فارغة. كان واضحاً أن عقله ما زال منشغلاً بهاتفه المفقود. داعبتُ وجهه وخُصلاتِ شَعْره المجعّد وقد تملّكني الإحساس بالذنب واستولى على كلّ جزءٍ من جسدي، لدرجةٍ أحسستُ بوخزٍ حقيقيٍّ في قلبي. تكوّنت غُصّةٌ في حلقي واستقرّت هناك مثل صخرةٍ ضخمةٍ وثقيلةٍ حين نظرتُ إلى عينيّه المملوءتين باليأس. لم أستطع النطق بكلمة، وشعرتُ أن دموعي ستنهمرُ إذا تكلمتُ. حملتُ شمشون من حضنه بهدوءٍ كأنه رضيع أخاف إيقاظه، لكنّه استيقظ في نهاية المطاف، وانسحب مختفياً في ظلام المطبخ.

كنتُ واقفةً أمام زوجي مباشرةً. رحّتُ أخلع بيجامتي ببطءٍ لأغريه، لكنّ عقلي لم يكن هناك. كنتُ أفكر كيف يمكنني أن أكفر عن الذنب الكبير الذي اقترفتهُ، والذنوب التي سأقترفها في حقّه بسبب هَوَسي بحبيبتِهِ السابقة. جلستُ في حضنه ولففتُ عنقه بذراعيّ، ثمّ أخذتُ أقبل شفتيّه بنهم. غمرني إحساسٌ عميقٌ بالخوف من فقدانه. دفنتُ رأسي في عنقه وغرقتُ وجهه في شَعْرِي. عرفتُ أنني لم أكن أمارس الحبّ وإنما أهربُ من نفسي. استلقينا على الأريكة ونحن نتصبّبُ عرقاً، ثم غططنا في النوم دون أن يقول كلانا للآخر أيّ شيء.

في صباح الغد، توجه سَعد للقاء بالكاتب نجيب الحفيظي. كان يأملُ في أن يُساعده على إيجاد ناشرٍ لروايته، بعدما فَقَدَ الأملَ في دور النشر التي تواصل معها منذ أشهر، وتركت رسائله معلقةً بدون جواب. كنتُ أمقت نجيباً، وأعرف أنه لن يساعد زوجي بهذه السهولة، لأنه من ذلك النوع من المغرورين الذين يتلذذون بإشعار الآخرين بسلطتهم ونفوذهم قبل أن يقدموا لهم أيّ مساعدة.

حين أغلِقَ بابُ البيت وصِرْتُ وحدي، ركضتُ نحو المطبخ، وسحبتُ ذلك الهاتف من الخزانة التحتية. كنتُ أشعر بسعادةٍ قصوى وأنا أفتحُ ذلك الجهاز الصغير المملوء بالأسرار والأشياء التي لا ينبغي أن أعرفها. حبستُ شمشون في غرفة النوم درءاً لأيّ شبهةٍ في كونه جنياً يختبئ في جسدِ قِطٍّ، ثم استلقيتُ على الأريكة، ومددتُ رجليَّ أمامي على الطاولة. كنتُ حائرةً أيّ تطبيقٍ سأفتح أولاً، لكنني اخترتُ الجيميل. كتبتُ اسم نجوى في شريط البحث، وواجهتني عشرُ الرسائل.

وقبل أن أبدأ القراءة، سجّلتُ بريدها الإلكتروني. Nona1986.saber@gmail.com في مفكرة هاتفي، لأنني ربّما أحتاج إلى الاستعانة به لاحقاً. كنتُ قد فقدتُ عقلي تماماً.

في الحادي عشر من نونبر من العام 2017، كتبَ سَعد إلى نجوى:

عزيزتي نجوى،

وجدتُ نفسي مضطراً لكتابة هذه الرسالة هنا، بعدما حظرتِ رَقْم هاتفي، وأوقفتِ تنشيط حسابك على فيسبوك. أعرف أنك لا تستعملين الجيميل كثيراً، لكنني أملُ أن تردّي عليّ. إنني أفكر فعلاً في وضع حدٍّ لحياتي بعدما تركتني وذهبت، لأنّ حياتي من دونك ليس لها أيّ معنى، ولأنك لا تفارقين تفكيري أبداً. ما

زلتُ أراكِ في كلِّ مكانٍ من هذا البيت، في المطبخِ تُعدِّين طاجين السمك بالخضار مع بهاراتٍ زائدة كما يحبُّه كلانا، في الحَمَّام وأنتِ تضعين أحمر شفاهكِ الوردِيَّ (الذي تركته هنا بالمناسبة) أمام المرأة، قبل أن نخرج في سهرةٍ مع أصدقائنا. أراكِ ترقصين في البهو على أنغام Beautiful Tango، وتتمايلين بِقَدِّكِ الرشيق، بينما تتحرَّكُ خُصَلاتُ شَعْرِكِ المجعَّدة التي لم أرَ مثيلاً لجمالِها في حياتي أبداً. أفتقد رِقَّتِكَ ولمستكِ العذبة التي كانت تُدخِلُ البهجةَ إلى حياتي. أفتقد حنانَكَ وصوتَكَ وضحكاتِكَ. أفتقد حتَّى صراخَكَ وتقلُّباتِ مزاجِكَ وَغَيْرَتِكَ الزائدة. أفتقد رائحتَكَ الجميلة، وتلك الشاماتِ الساحرة في عُنُقِكَ. أفتقد حتَّى صفعاتِكَ التي كنتِ توجَّهينها إلى خَدَّي في لحظاتِ الغضب والغيرة، وأشعرُ بِذِكْرِها على وجنتَيَّ الآن لذيذةً ودافئةً.

إنني نادماً أشدَّ الندم على ما فعلتُهُ، وأتمنَّى أن تجدي من الرحمة في قلبِكَ ما يجعلكِ تغفرين لي غلطتي الكبيرة. أعلم جيداً أنها غلطة، وأنَّه لا مبررَ لمثلِ هذه الأخطاء، لكنني أتمنَّى أن تسامحيني، وأن تعودِي إليَّ، وأعدكِ أنني سأعطيكَ حياتي كُلَّها، ولن أُحزِنَكَ أبداً.

حبيبكِ سَعد،

رسالةً من سَعد إلى نجوى في الخامس عشر من أكتوبر 2017:

عودي، يا نجوى. عودي إلى حبيبكِ الذي سيمنحُكِ حياته كُلَّها.

ردَّ نجوى على الرسالة في اليوم نفسه:

لن أعودَ، يا سَعد. أرجو ألا تبعثَ لي أيَّ رسالة هنا أو على أيِّ

تطبيق آخر، لأنّ هذا الأمر أصبح يُزعجني. أنا لم أَعُد قادرةً على النظرِ في وجهكِ بعد الذي فعلتهُ كلّه.

رسالة من سَعَد إلى نجوى في التاسع من سبتمبر 2017:

لن أعتذر عن أيّ شيء. لا يمكنك أن تسمحِي لنفسكِ بفعل أشياء، وتعتبريني مذنباً لأنني فعلتُ الأشياء نفسّها!

رسالة من نجوى إلى سَعَد في الثاني من يوليو 2016:

حاولتُ الاتصال بكِ على الهاتف، لكنك لا تردّ. هل وقّعتَ العقد؟

رسالة من سَعَد إلى نجوى في الخامس عشر من يونيو 2016:

لماذا لا تردّين؟ لقد وعدتُك أنني سأحدّثُ مع والدتي في موضوع الزواج. ألا يكفيك هذا؟

رسالة من نجوى إلى سَعَد في الخامس عشر من يونيو 2016:

مرحباً سَعَد،

إنني فعلاً لا أصدّق أنك تتحدّث بهذا البرود بعد الذي فعلته بي كلّه! إنك فعلاً شخص لا يُصدّق! وأنا فعلاً أشعر بالقرَف منك ومن أفعالك! المشكلة أنك وعدتني من قبل أنك لن تعيد الكرّة أبداً، وقلت إنك تشعر بالذنب، لكنك فعلتها مرّة أخرى، وتركتني وحيدةً أبكي في الغرفة، ثمّ ذهبت لرؤية أصدقائك، ولم تفكر حتى في الاعتذار!

أنا لن أعود، يا سَعد، حتّى تعتذر، وحتّى آخذ منك وعداً صادقاً
أنك لن تلمسني بدون إرادتي، وحتّى تُخبرَ عائلتك عني ونحدّد
موعداً للزواج. وكما أخبرتك خلال محادثاتنا يوم الاثنين، أنا لم
أعد فتاة صغيرة في العشرينيات، ولا يمكنني أن أضيّع وقتاً أكثر
مما ضيّعته. هل تذكر الشهور الأولى من علاقتنا؟ كنت تحبني
كثيراً، وكنت تريد أن تتزوّجني لولا أن ظروفنا لم تُكن تسمح
وقتها، أمّا الآن، وقد مرّت تسع سنواتٍ عن ذلك، صرتُ تُرجى
الموضوع وتهذّئي بالوعدِ الكاذبة!

أنا لم أطلب منك أيّ شيء، يا سَعد، غير أن نذهب إلى العدول
ونوقع عقد الزواج! لم أطلب عرساً ولا خاتماً ولا هدايا! لماذا تُصرّ
على الهرب من هذا الموضوع؟ لماذا تُشعِرني طول الوقت أنك لم
تُعد راغباً في أن تُكملَ حياتك معي كما كنت في البداية؟

كانت هناك عشرات الرسائل الأخرى من هذا القبيل، وعشرت الرسائل
التي ظلّت بدون جواب. كان عليّ أن أدخل إلى المسنجر لأقرأ محادثتهما
من البداية إلى النهاية حتّى أحصلَ على ما يكفي من المعطيات لفهم ما
حدّث. كنتُ مصدومةً ممّا قرأتُ، لكنني واصلتُ مع ذلك.

في السنوات التي سبقت هذه الأحداث، كان سَعد ونجوى سعيدين
معاً، لدرجة أنهما كانا يتحدّثان طول الوقت على تطبيق مسنجر. كانا
يتشاركان كلّ شيء، وتُضحكهما الأشياء نفسُها، ويستخدمان الكلمات
والعبارات نفسها في السياقات نفسها، ويكتبان بالطريقة نفسها
مستعملين لغةً، هي مزيجٌ بين الفرنسية والعربية. كنتُ أقرأ وأنا أشعُرُ
بالحسد والغيرة من علاقتهما، وبالقرَفِ منهما في الوقتِ نفسه، كأنّ قراءتي
لتلك المحادثات أعادت إحياء علاقتهما من جديد. ومع ذلك، واصلتُ
القراءة. المشاعر المؤلمة كلّها تهون في سبيل مُتعة التلصّص والاكتشاف.

كنتُ أقفُزُ في كلِّ مرَّةٍ أسمعُ فيها شمشون يحكُّ بابَ الغرفةِ بمخالبه، فأوجِّهُ ناظري إلى بابِ الشُّقَّةِ المغلِقِ قفلُهُ، مرعوبةٌ من أن يضبطني سَعَدُ وأنا أُنبِشُ في خصوصيَّاته وأسراره.

علِمْتُ من خلالِ محادثَاتِهِما الكثيرة، أنَّ نجوى تعاني من حساسيةٍ موسميةٍ في العينين، وأنها تحبُّ الألوانَ الفاتحة، وخاصَّةً اللونينِ الأصفرَ والوردي، وأنها سبقَ وأُصيبَت بمرضٍ منقولٍ جنسياً، لم أسمع به من قبل يُدعى الورم الحُلَيْمي البشري، وأنها أجرتَ عمليةَ تبييضِ الأسنانِ مرَّتينِ في حياتِها. علِمْتُ أيضاً أنها حملت من سَعَد، وأجرتَ عمليةَ إجهاضٍ سرِّية، تسبَّبتَ لها في اكتئابٍ حادٍّ، وأنَّ دورَّتَها الشهرية غير منتظمة، وأنها تستعمل السدَّاداتِ القطنية في أثناء فترةِ الحيض بدلَ الفُوطِ الصحيَّة، وأنها تشربُ الحليبَ بدونِ لاکتوز، وأنها تحلُمُ أن تصير يوماً ما امرأةً غنية، وأنها تحبُّ موسيقى الجاز، وأنها كانت تُعدُّ عشاءاتٍ رومانسية لسَعَد تحت ضوء الشموع، وأنَّ نهديَّها، بدونِ حمالة، طويلان ومتدليَّان مثل حبَّتَيِ باذنجان، وأنَّ لديها شامَّةٌ كبيرةٌ في مؤخرَتها، تفكَّرُ في التخلُّص منها بعملية تجميلية، وأنها بدأتَ تقلِّقُ من مسألةِ الإنجاب عندما بلغت سنَّ الثلاثين، ولهذا السبب، أصرتَ على سَعَد أن يتزوَّجها.

علِمْتُ أنَّ اهتمامَ سَعَد بالكتابة والإبداع كان يُزعجُها، وأنَّها كانت تسخرُ من كونه يحلُمُ أن يُصبحَ كاتباً، وأنها كانت تحاولُ إقناعه بالعمل في أيِّ مجالٍ آخر غير الترجمة الأدبية، لأنها لم تكن ترغب في تخيلِ نفسها مع رجلٍ يبدو مثل نيتشه في آخر أيَّامه، وأنَّ قصائد الشُّعر التي كان يكتبُها عنها لم تكن تحركُ فيها أيَّ شيء، إذ كانت تقول له في كلِّ مرَّةٍ يكتب لها شِعراً إنها ليست في حاجةٍ إلى الكلام، بل إلى الأفعال.

علِمْتُ، أيضاً، أنَّ والدَةَ سَعَد كانت تعرف بعلاقتَهما من خلال الصور التي ينشرانها على فيسبوك، وأنها كانت تطلب من ابنها أن يتوب إلى ربِّه ويترك نجوى الفاسقة التي رضيت بالعيش في الحرام، ويتزوَّج بسرعة من

ابنة خالته سلوى، البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، المحجّبة، ذات البشرة البيضاء والشَّعرِ الحريريّ الأشقر والجسم الممتلئ، والتي لم تبقَ في المدرسة طويلاً، للدرجة التي تجعلها تفسد أخلاقها.

علمتُ من محادثاتٍ قديمة أيضاً أنّ نجوى هي التي وجدت القطّ شمشون قبل سنوات، وانتشلتُهُ من تحت أقدام مجموعة من الأطفال الذين كانوا يرفسونه بعدما فقؤوا عينه وخاطوا فمه. أنقذته وعالجته ورعته حتّى تحسّنت صحّته. كانت تنوي التخلّي عنه بعد ذلك، لأنها لا تحبّ القطط، لكنّ سعداً سمّاه شمشون وتبنّاه وصار قطّه الحبيب.

كان جسدي مخدّراً ومتكلّساً من طول الجلوس والنظر إلى الهاتف. عندما انتهيتُ، أغلقتُ الهاتف مرّةً أخرى، ووضعتُه وراء جهاز التسجيل القديم على المنضدة، بحيث لا يبدو ظاهراً للعيان، حتّى يصدّق سعد أنه لم ينتبه إليه بسبب انفعاله. وأخيراً، أزحتُ قفلَ باب البيت.

كنتُ مرتاحةً في جنوني. فتحتُ باب غرفة النوم، ونظرتُ بحيادٍ إلى شمشون الذي ركضَ بخفّة خارجاً منها. أغلقتُ الستائر، وارتيمتُ على سريري، وفتحتُ حساب غوستافو سانشير. كانت نجوى قد بعثت لي كثيراً من الرسائل، تخبرني أنها قلقّة عليّ، لأنني لا أجيبها منذ البارحة. لم أردّ عليها. كنتُ قد حصلتُ على الجرعة الكافية من المعلومات والأسرار لذلك اليوم، ولم يعد لديّ مكانٌ لتخزين المزيد منها. كنتُ مصابةً بالتُّخمة من التلصّص، وغرقتُ في نوم عميق.

لا أستطيع وصف حجم الندم الذي اجتاحني حين فتحتُ عينيّ. كانت الغرفة نصف مظلمة، وفي حلقي استقرّ شعورٌ شنيعٌ بالمرارة، كأني رأيتُ كابوساً، لكنني لا أذكر مضمونه. تقلّبتُ في الفراش وأنا أشعر بالألم ثقیلٍ في صدري، وبرغبةٍ عارمة في البكاء. نظرتُ إلى هاتفي، وأدركتُ أنني لم أنم إلا عشر دقائق. بعد قليل، سمعتُ صريرَ المفتاح في الباب، وقرّرتُ أنني لم أقرأ شيئاً ولم أر شيئاً ولم أكتشف أيّ شيءٍ عن زوجي. وبدل أن أشعر بالعزاء، انتابني الغثيان.

بهدهوء، دخل سعد إلى الغرفة وتمدّد إلى جانبي. تحسّس جبهتي، وسألني بصوتٍ دافئٍ إن كنتُ مريضةً. عانقته وأنا أخبره أنني بخير، لكنني لم أفتح عينيّ. كانت أول مرةٍ أشعرُ فيها أنني لا أريد أن أرى وجهه. طبع قبلةً باردةً على خدي، ثم راح يحكي لي، في الظلمة الخفيفة عن لقائه مع نجيب الحفيظي. كان متحمّساً مثل طفلٍ وهو يخبرني أنه أخذ وعداً صادقاً منه أنه سيساعده على نشر روايته في دار نشرٍ معروفة، وكنتُ أفكرُ إن كان فعلاً قد اغتصبَ حبيبته السابقة أم لا.

من شدّة فرحه وحماسه، دعاني لتناول العشاء في مطعمٍ قريب. فكّرتُ مرةً أخرى ونحن نسير بصمتٍ نحو المطعم، في نجوى، وفي ما قرأته، وتساءلتُ لو أنني لم أقرأ تلك المحادثات لَمَا عرفتُ أن زوجي سبق وقام بإجبار امرأةٍ على ممارسة الجنس معه، ولكنّ الآن ما أزال سعيدةً معه،

لأنه لم يفعل الشيء نفسه معي. قرّرتُ، في تلك اللحظة، أن الغلطة غلطتي، لأنني أنبُش في أشياء لا تخصّني.

حين جلسنا إلى الطاولة، وسط زحام العائلات السعيدة التي خرجت مع أطفالها لتناول الشاورما، قرّرتُ أن أنظرَ إلى عينيّ سعد، وأن أعتبره رجلاً رائعاً وزوجاً متفهماً وطيباً وحنوناً، وأن أبتسمَ له. ينبغي أحياناً أن نكذب على أنفسنا، كي نستمرّ في الحياة. بادلني الابتسامة، فانكسرَ حاجرُ الصمتِ بيننا، ورحنا نأكلُ ونحنُ نتحدّث في مواضيع مختلفة، ونتضاحكُ مستذكّرين النكت الفاحشة التي كنّا نقولها خلال طفولتنا. بعد أن تجشّأ سعد سندويتش الشاورما الذي تناوله بسرعة، قال:

- أظنّ أننا وصلنا إلى مرحلةٍ متطوّرة من علاقتنا، بحيث يمكن لكلّ واحدٍ منّا أن يحملَ عن الآخر همومه، أو على الأقلّ أن يخفّف منها.

توقّفت اللقمة في حلقي. تنحنتُ وأنا أحدّق فيه بدهشة. أضاف:

- لماذا لا تشاركونني همومك؟ لماذا لا تعتبرنا فريقاً واحداً؟

قلْتُ:

- ما الذي تقصده؟

قال:

- أعرفُ أن هناك أشياء تدور برأسك وتُعذّبك .. أقصد، انشغالكِ المريب بالهاتفِ طول الوقت، ذهنكِ المشتّت، عدمُ قدرتكِ على التركيزِ في الكتابة، الوزن الذي اكتسبته مؤخراً ... ألا يحقّ لي أن أعرف ما الذي يحدث مع زوجتي العزيزة؟

توقّفتُ عن الأكل.

- ألم أعد أعجبك لأنني اكتسبتُ وزناً؟

قال باسمًا:

- بالعكس. أنا أحبُّكِ هكذا أكثر! لديكِ كلُّ ما يرغبُ فيه رجل.

- إنني جادّة، يا سَعد!

- تعرفين أن هذا ليس قصدي. هيّا، قولي لي، هل لديكِ مشكلةٌ
أستطيع أن أساعدكِ على حلّها؟ هل تخبئين عني شيئاً؟

ساورتني رغبةٌ قويّةٌ في إخباره عن هَوَسي بنجوى، لكنّ، عندما صارت
الكلماتُ على طرفِ لساني، تراجعَتُ.

- لا، ليست هناك أيّ مشكلة. كلُّ ما في الأمر أنني أشعرُ بالتعبِ
قليلاً هذه الأيام.

- التعبُ من ماذا؟

- لا أدري، ربّما هو حالة اكتئاب عابرة فقط. لا تقلق.

- هل تريدان أن نتحدّث في الأمر؟

قضمتُ سندويتش الشاورما، ثمّ قلتُ دون أن أنظر إليه:

- ليس الآن. ربّما في وقتٍ لاحق.

لم أكن أريد النظرَ إليه أبداً. كنتُ أشعرُ بالخجلِ من نفسي ومن
وجودي معه. شعرتُ أنه لم يصدّقني، ونخر الألمُ معدّتي، لكنني لم
أتوقّف عن الأكل.

حين انتهينا، مشينا نحو البيت يداً في يد. خشيتُ أن أبعد يدي عن
يده فيغضب. كنتُ أشعرُ بالقرَف منه، لكنني لم أكن أريد الانفصال عنه.

ضغطتُ على يده بقوة مثل طفلةٍ تخافُ أن تفقد أباهَا وسط الزحام. فكَرْتُ في نجوى وأنا أنظرُ إلى أضواء الشارع الموحِشة، وشعرتُ أنني أريد سَعداً أكثر، وأنني أودُّ أن أظلَّ لصيقةً به إلى الأبد. لم أعرفِ إن كان ذلك بسبب أنني أريده هو أم لأنني أريدُ أن ألمَس بشرةً نجوى في بشرته. من فرطِ هَوَسي بها، لم أعرفِ إن كان التفكير فيها يقربني منه، أم يُبعدني عنه. أحياناً كنتُ أندسُّ في حضنه حين أفكرُ فيها، وأرغبُ في البقاء هناك إلى الأبد، كأنني أخافُ أن أفقده بسبب جنوني بها. أحياناً، كنتُ أرى صورتها في عينيَّه، فأستمرُّ في النظر إليهما، وأنا أتذكّر بمتعة كلَّ ما دار بينهما من أحاديث وما تبادلاه من رسائل. أحياناً، كنتُ أضع أحمرَ شفاهها وأقبله به حتّى الطّخّ شفتيَّه، ليس لأنني أريد أن أذكّره بها، بل لأنني كنتُ في لحظاتٍ ما، أرغب أن أكون هي. أحياناً، كنتُ أطبخ له وأهتَمُّ به بفرح كبير وحماسٍ، لأنني تلقّيتُ رسالةً منها. لم أكن أشغل نفسي أبداً في التفكير في أنّ الرسائل موجهةٌ إلى شخص غير موجود، وليس لي. أحياناً، كانت عيناَي تقعان على أحذيةٍ بكعوبٍ عالية، فأشتريها بدون تفكير، ولا أرديها أبداً. أحياناً، كنتُ أشتري السدّادات القطنية لاستعمالها في أثناء الحيض، لكنني لا أجروُ على ذلك، فأهرع إلى البقال وأشتري فوطاً صحيّة. أحياناً، أقرّر أنني سأصبغ شَعري باللون الأحمر، فأتوجّه إلى صالون الحلاقة، وأتفاوض مع الكوافورات حول إن كان بإمكانني صبغه بذلك اللون دون أن أضطرّ إلى سحب لون شَعري الطبيعي، ثمّ ينتهي بي الأمر مغادرة المكان بمرارة وقد اكتفيتُ بتسريح شَعري. أحياناً، أدخل إلى أيِّ محلٍّ من محالِّ بيع موادِّ التجميل التي أصادفها في طريقي، وأشتري تلك الصبغة الحمراء، لأجربها على شَعري بنفسي، لكنني، في النهاية، لا أجروُ على ذلك.

لا، ليست هناك أيُّ مشكلة. كلُّ ما في الأمر أنني أشعر بالتعب قليلاً

هذه الأيام، لأنني اشتريتُ الأشياءَ نفسَها التي تستعملها حبيبة زوجي السابقة، ولم أستعملها أبداً، مثل أقراط كبيرة مدوّرة بلون ذهبيّ. قلادة فضيّة مزينة بأحجار بلون أزرق سماوي، سوتيانات وردية اللون مثل التي تظهر في إحدى صورها، تيشيرت رجالي عليه صورة نيتشه وهو يرتدي لباس السوبرمان، فنجان قهوة كبير عليه صورة لوحة القُبلة لغوستاف كليمت ... ليست هناك أيّ مشكلة ما دامت هذه الأشياء تُباع للجميع، وفي وسع الجميع أن يشتريها: صبغات الشَّعر من مختلفِ درجات الأحمر، أحذية بكعوبٍ عالية، سدّادات قطنية، أنايب أحمر شفاه ورديّ اللون، كريمات لتجعيد الشَّعر، حقائب غوتشي مقلّدة، ومعاطف سُود طويلة. لا مشكلة أبداً ما دمتُ خبأتُ هذه الأشياء جيّداً، ولم أستعملها أبداً، لأنني أخاف أن يعرف الناس بجنوني.

لكن، ماذا لو عرف سَعد أنني أشتري وأخرن كلّ شيءٍ له علاقةٌ بحبيبتة السابقة؟ هل كان سيُطلّقني؟ أو يعرضني على طبيبٍ نفسي؟ أو يُدخلني مستشفى الأمراض العقلية مباشرة؟

حين أشعر بغرابتي وجنوني، أذهب إلى بيت أمي، وأندس هناك مثل حشرة خائفة. كنتُ من فرط الهوس قد تعبتُ من سعد ومن البيت الذي تشاركه مع نجوى في يومٍ من الأيام، ومن ذكرياتهما كلَّها معاً. أجلسُ إلى جانب أمي بصمت، وأنظرُ إليها وهي تقرأ القرآن بهمسٍ وبخشوع، بينما ترفع حاجبيها الأشعثين بين الفينة والأخرى، كأنها في كلِّ مرّةٍ تكتشف شيئاً جديداً، لم يخطر على بالها من قبل.

تغيّرت أمي كثيراً في الأشهر الأخيرة، ولم تعد تتعامل معي بعدائيتها المعهودة، بل شعرتُ أنها تحاول التقرب مني. أصبحت ترسل لي كلَّ يومٍ أدعيةً وأحاديث نبوية عبر الوتساب، وتكلّمني بهدوءٍ وحنان، وتناديني، على غير العادة، «يا ابنتي». حين تنتهي من قراءة القرآن، كانت تمسح وجهها بكفيها وتتمتم بكلماتٍ غير واضحة، ثم ترفعُ نظرها نحوي، وتبتسم. من الممتع رؤيةُ ابتسامة أشخاص لا يتسمون عادةً، أمّا رؤية ابتسامة أمي التي أعرضت عني طيلة سنوات عمري، فكانت لحظة فرح خالصة، ولم أكن أهتم أبداً بمعرفة أسباب تحوّلها المفاجئ.

لم نكن نتحدّث كثيراً، لكنّ الحديث معها أصبح مريحاً إلى حدٍّ ما، أي أنها لم تعد تدسّ السمّ في كلامها كما كانت تفعل من قبل، وصارت حين أسألها عن أحدٍ من العائلة أو الجيران، تجيب بجمالٍ مقتضبة، متفادية الخوض في أيّ موضوع يخصهم. أمي التي كانت إمبراطورة النميمة أصبحت الآن تحترم خصوصيات الآخرين، وترفض الخوض في أعراضهم!

لم أكن أفهم تماماً ما الذي يحدث لأمي، لكن زيارتها صارت تخفّف عني إحساسي الثقيل بالغرابة، كأني حين أجلس في بهو بيتنا وأشم رائحته الأليفة، أستعيد ذلك الإحساس القديم بنفسي، وأعود شهرزاد الصغيرة الحالمة، شهرزاد التي لا أكون قادرةً حتّى على تذكّرها حين أكون بجانب سعد، وفي ذلك البيت الذي يذكّرني بوجود نجوى في هذا العالم.

تحوّل بيتنا والجلوس لساعاتٍ طويلةٍ مع أمي تحت سقفٍ واحد والاستماع إلى كلامها، إلى مهدّي لأعراض مرضي بنجوى. كنت أستريح هناك من هوس التلصص، ومن إدمان الحديث مع حبيبة زوجي السابقة عبر المسنجر. أصبحت أستمتع بالاستلقاء على الكنبات القديمة في بيتنا، وبالتفرّج على الستائر البيضاء الشفّافة وهي تتحرّك ببطء بفعل نسائم آخر الربيع، بينما تبلّغني من المطبخ رائحة اللحم بالبطاطا والبهارات، وصوت أمي وهي تحدّثني عن تكريم الإسلام للمرأة، وعدل عمر بن الخطّاب، وحكمة عليّ بن أبي طالب، وغربة المسلمين في عالمنا. لم أفهم من أين جاءت ببعض المصطلحات والعبارات مثل «طوبى» و«بدعة» و«اللباس الشرعي» و«العلمانية» و«الربا» و«الكلمة الطيبة»، ولم أسألها عن ذلك. كنت أتمدّد هناك كالمخدّرة، وأنصت إليها بتركيز لإسكات الأصوات المزعجة التي تطنطن في رأسي.

أحياناً، كانت تأتي وتجلس إلى جانبي. تسألني بشكلٍ ميكانيكيّ عن أحوالي وعن علاقتي مع سعد، وإن كان يعاملني بشكلٍ جيّدٍ أو لا، ثمّ تسألني متى أنوي أن أنجب طفلاً. ودون أن تنتظر جوابي، تضع يدها السمراء المنمّشة على يدي، وتقول لي بحنان ينطوي على تلاعب:

- عليك أن تنجبي أطفالك ما دمت شابة حتّى يكبروا أمام عينيك.

كنت أقاوم حنائها غير المعهود، وأجيبها أنني لا أفكر في هذا الموضوع

في الوقت الحالي. تقولُ دون أن تُبعدَ يدها عن يدي، ودون أن تُغيّر نبرة صوتها:

- ومتى تنوين أن تنجبي أطفالاً؟ عندما تبلُغين الأربعين؟ لنفترض أنّك أنجبتِ طفلاً في الأربعين، ستكونين في الخمسين حين يبلغ هو العاشرة. سيكون طفلاً صغيراً ما يزال في حاجةٍ إلى أمّه، بينما ستكونين أنتِ عجوزاً وغير قادرةٍ على الاهتمام به. عندما يبلغ سنّ المراهقة، ستكونين أنتِ مُرهقةً من الحياة، ولن تستطيعي تربيته جيّداً. عندما يُصبح شاباً، لن تكوني أنتِ موجودة أصلاً، ولن تستطيعي رؤيته يتخرّج ويتزوّج، ولن تري أحفادك الصغار. هل يُرضيك، يا ابنتي، أن يعيش ابنك لحظاتٍ تخرّجه ونجاحه وزواجه وإنجابه دون أن تكون أمّه موجودة؟

كانت تضحّ الخوفَ في عروقي، فأشعرُ به يجري داخلها ساخناً ومؤلماً. وفي كلّ مرّةٍ أسمع فيها هذا الكلام، كنتُ أبعدُ يدي عن يدها بلُطف وأقول لها إنني أبعدُ عن الأربعين بتسع سنوات. تسعُ سنواتٍ كاملة تكفي كي أنجب دُزينة أطفال. ترفعُ حاجبيها كأنها تُنذر بخطرٍ مشؤوم، فيزداد عددُ التجاعيد في جبهتها. تقتربُ منّي أكثر، وتقول لي، بينما أشعر بأنفاسها الدافئة في وجهي، إنّ تسعَ سنواتٍ رمشةُ عين.

- أرجوك، يا أمّي، هذا يكفي!

- تسعُ سنواتٍ هي نفسها التي تفصلُك عن الثانية والعشرين. ماذا فعلتِ فيها؟ لا شيء. إننا، يا ابنتي، نطلّ نركُض وراء الحياة ومغرياتها، فننسى أنفسنا ونبتعد عن طبيعتنا. ثمّ ماذا بعد؟ لا شيء أبداً... الشيخوخة والعجز والوحدة. هل هذا ما تريدينه، أن تموتي وحيدة وبأسة؟ وفي كلّ مرّة، تصقّر طنجرة الضغط في المطبخ، وأُصرّف خوفي وقلقي في بثرةٍ جافةٍ في ذقني. أتحسّسها بهدوء. مَلَمَسُها الخشن يُريحني بشكلٍ عجيب. أستمِر في تحسّسها باحثةً عن مكانٍ ناتئٍ أبداً منه التقشير.

- اتركي تلك البثرةَ وشأنها. ستتحول إلى بقعة سوداء قبيحة إذا استمررت في لمسها.

أفكر أحياناً أن الانشغال بتقشير البثور، أو قضم الأظافر، أو تنظيف الأنف بالأصابع، أو نتف الشعر، أو تقشير الشفاه، ليست فقط عادات تمنح الشعور بالارتياح في مواجهة القلق والتوتر، لكنها مرتبطة، أيضاً، بنزوع الإنسان إلى الكمال. كأننا نشعر أن هناك شيئاً غير مرتّب فينا، شيئاً يحتاج إلى إصلاح، ظفراً مكسوراً، أو قطعة جلد ميتة ناتئة، أو بثرة يختلف ملمسها عن باقي الوجه، فنشعر برغبة لا واعية في إزالته، لرتقه، ليصبح مثالياً، وكاملاً، ولا تشوبه شائبة.

لكل إنسان طريقته في التوق المستمر إلى الكمال. أمي أيضاً لها طريقته، لكنها ليست طريقة خاصة بها، لأن كثيرين في هذا العالم يشبهونها. إذا كنت امرأة عازبة، يقولون لك إن الزواج وحده هو ما يفصلك عن بلوغ الكمال. وعندما تتزوجين، يقولون لك إن عليك أن تنجبي طفلاً يُثبت خصوبتك (وكمالك)، ويؤنسك في وحدتك. عندما تُنجبين هذا الطفل، يطلبون منك أن تُنجبي له أخاه، ليؤنسه هو هذه المرة في وحدته. عندما تنجبين طفلك الثاني، يقولون لك: ما دمت أنجبت الثاني، لماذا لا تُنجبين الثالث أيضاً؟ هكذا سيمتلئ بيتك بالأطفال والسعادة، وتكبر عائلتك. لم يتبق أمامك الكثير، أنجبي الثالث، ولتبلغ الكمال المنشود.

ومع ذلك، لم يكن أحد يصدّع رؤوس الرجال بالإنجاب، بالرغم من أن الأطفال يحملون نسب آبائهم في الأخير، بينما تظل الأمهات مخفيات، ثم يُمحى عندما يمُتن. كأن الامتداد والخلود للرجال، وللنساء تحمل النقيض والتدمر والاحتجاج والتخويف.

ولذلك كنتُ أودُّ أن أصبحِ كاتبة. كنتُ أريدُ شيئاً يحمل اسمي من بعدي.

- فكّري في الموضوع جيّداً. شبابُكِ هذا سيندثر في يومٍ من الأيام، وستجدين نفسك وحيدةً وعاجزةً ونادمة.

وفي كلّ مرّة، أبدأُ في تقشير البَثْرَة، رويداً رويداً. أقشّر البَثْرَة نفسها منذ أشهر. لا أدع لها أيّ مجالٍ لتندمل وتختفي. بهدوءٍ وتركيز، أسحبُ باستعمال ظفري تلك القشرة الجافّة التي تكوّنت فوقها.

- المرأة ليست كالرجل، يا شهرزاد. الرجلُ يستطيع الإنجاب حتّى لو بلغ الثمانين، أمّا نحن، فليس أمامنا وقتٌ كثير. عليك أن تفعلها حتّى لو لم تشعري أنكِ جاهزة. لم تكن هناك أبداً امرأةٌ جاهزةٌ للإنجاب، لكنهنّ كلهنّ أحبنّ أطفالهنّ في الأخير، ومنحنهم حياتهنّ، واكتشفنّ أنهنّ كنّ مخططات حين فكّرن أن الأطفال لن يجلبوا لهنّ السعادة.

أمسحُ الدّمَ المتدفّق من البَثْرَة، ثمّ أنظرُ إليه في أصبعي، وأفكّر أننا لم نجلب أيّ سعادةٍ لأمّي. كنّا دائماً منعّصاً في حياتها، سبباً لتعاسةٍ مرمنة. لماذا تُصرّ إذن أن أكون مثلاً؟ لماذا تحاول إقناعي بأنني سأكون سعيدة إذا أنجبتُ، هي التي لم تتوان عن إخباري أنني سببُ عذابها؟ أغضّ الطرفَ عن هذا كلّهُ حين أراها تضعُ طبقَ اللحم بالبطاطا على الطاولة وتبتسم، فتبدو لي حياتي التي أتناولُ فيها حبوب منع الحمل مزوّرةً وبائسة.

أحياناً، تأتي جميلة، محفوفةٌ كالعادةِ بأطفالها الأربعة. تجلس إلى جانب أمّي وتشرعان في الحديث عن فتاوى الشيوخ ونصائح الدعاة وفوائد الحبة السوداء. أنصتُ إليهما بصمت، بينما تشكّلان حلفاً ضديّ. تقول جميلة إن عليّ أن ارتدي لباساً مستوراً على الأقلّ إذا لم أرغب في ارتداء الحجاب. وتقول أمّي إن جميلة معها حقّ، لأنّ لباسي سيأخذني مباشرةً إلى

النار. أبتسم في وجهيهما بغباء، كأنتي مسحورة. كنتُ في الواقع، مسحورة بثقتيها بنفسيهما، بإيمانهما العميق بما تقولانه، وبلسائيهما الحادّين، وبتشابههما الكبير. لم تكن أمي بحاجة للقيام بأيّ مجهود لتصبح جميلة مثلها، ولا كانت جميلة بحاجة للتفكير قبل أن تخطو الخطوات نفسها التي تمشيها أمي في الحياة.

صارَ الجلوسُ مع أمي وجميلة طريقةً مثاليةً لألهي نفسي عن التفكير في نجوى. كنتُ أنصتُ إلى أحاديثهما والأعاب أبناء أختي، وأتحدّثُ مع ليليان التي لا تنفكُ تخبرني وبحماس كبير، أنها سترتدي الحجاب العام المقبل عندما تبلغُ الثامنة. عندما تقومَان لتُصليا جماعةً (لا أدري كيف ومتى اتخذتا هذا القرار بالصلاة جماعة)، جارتَيْن معهما ليليان، أنهضُ وأصلي معهما. وفي كلّ سجود، كنتُ أدعو الله بأمل أن يُخلّصني من نجوى وينتشلها من رأسي إلى الأبد. أحياناً، كنتُ أبكي حين أتضرّع إليه ليشفيني ويمنحني السلام، وأحياناً كنتُ أشعر بقوة وعظمته تغمرني، فيرتاح قلبي ويرتخي جسدي وأحسّ بأمان لحظي غريب وبإيمان بأنّ مكروهاً لن يلحقني أبداً. عندما تنتهي، كانت ليليان تقف أمام المرأة وهي تنظرُ إلى نفسها بطرحة الرأس بإعجاب، بينما ترمقها بافتخار أمّها التي ما تزال جالسةً على السجّادة تدعو الله. تنهضُ أمي عن السجّادة وهي تمسحُ وجهها الشاحب المتعرق، وتنظرُ بعينين تلمعان فخراً وسعادةً إلى ابنتها التي تنظرُ إلى ابنتها.

من مكاني الهامشي كامرأةٍ لم تُنجب أطفالاً بعد كنتُ أتأملهنّ باستغراب. لماذا يريدُ الآباء والأمّهاتُ أن يُنجبوا أطفالاً يشبهونهم؟ لماذا يسعون هكذا لأن يتخذَ أبناؤهم المسارَ نفسه الذي اتّخذوه، بالرغم من أنّ التجربة بيّنت أن هذا المسار لا يؤدي إلا إلى التعاسة؟ أحياناً، كنتُ أفكرُ أنّ سببَ ذلك هو توق الإنسان إلى الخلود وخوفه من فكرة الموت

والزوال. يريد الآباء والأمهات أن يخلدوا عبر نُسخ طبق الأصل منهم، حتّى لو كلّفهم ذلك أن يكون أبناؤهم تعساء مثلهم، ألا يُشبهك ابنك، أن يتخذ مساراً مختلفاً عن مساركَ، أن يعيش حياة لا تشبه حياتك في شيء، يعني أنّك ستزول بموتك. أيّ أنانية هذه التي تدفع الإنسان إلى نقل جروحِهِ وتعاسيته، مع جيناته، إلى أبنائه؟

وفي كلّ مرّة، كنتُ أنظر إلى ليليان وهي تفكّ طرحة الرأس الملوّنة، فتزلق فوق شَعْرِها الأسود الحريري الطويل، وأتمنّى ألا تصبح مثل أمّي وجميلة. لا أريدُها أن تكون حتّى مثلي. أريدُها أن تكون نفسها فقط، أن تحيا الحياة التي تختارها هي، وتعيش تجربتها الفريدة الخاصة بها، والتي لا تشبه تجربة أحدٍ في أيّ شيء.

أحياناً، كان يدخل أمين الذي بلغ الآن السادسة، من الشارع، بعدما تمرّغ جيّداً في التراب، وملأ وجهه وملابسه بالوحل. تطلب منّي أمّي بشكل أتوماتيكي أن أغسله جيّداً وأغير ثيابه. تحدّثُ عنه كما لو كان بُقْراجاً أو إبريق شاي. أحياناً، كانت تطلبُ منّي أن أمسح مؤخّرة سليم الذي سيبلغ الخامسة قريباً. أحياناً، كانت تطلبُ منّي أن أطعم بلاّلاً، الذي بلغ السنتين من عمره. أحياناً، كانت تناديني لأقطع الكزبرة، أو أناولها السمن من الثلاجة، أو أغسل لها طنجرة لتستعملها. كانت تُدرّني لأصبح أمّاً وربة بيت، وكنْتُ أفعلُ كلّ ما تريده منّي بلذّة بالغة. كلّ ما كنْتُ أصبو إليه في حياتي هو أن ترضى عنّي وتعتبرني واحدة من العائلة.

عندما تأتي نُهى من صالون التجميل متعبّة، كانت تستلقي على الكنبه، وتفتح هاتفها، ولا تتفوّه بكلمة واحدة. أصبحت أمّي تنزعج من مواعدها للرجال، وصارت تحاول إقناعها بأن نصيب المرأة سيأتينا حتّى بيتها، حتّى ولو لم يرها أيّ رجلٍ في هذا العالم من قبل. تنظرُ إليها نُهى شرّاً، ثمّ تكمل

محادثاتِها مع عشاقِها في لامبالاة. وحين تملّ من ذلك، تُلقِي هاتِفها إلى جانبِها على الكنبِ، وتقول لجميلة، وهي تمضغ علكةً، إن حاجِبَها أصبحَ أشعثين مثل حاجِبَي أُمِّي، ثم تقترح ترتيبهما لها. تتطلّع إليها جميلة شَرّاً وتقول لها إنّها لن تعودَ إلى طريق الفتنة والضلال أبداً بعد الآن.

كنتُ أتوجّه أنا نحو نُهى. أجزّ كرسيّاً وأجلسُ قُبالتها. تُمسِكُ مِلْقِطاً، وتُنظِرُ إلى حاجِبَي بتركيز كأنها تستعدُّ لإجراء عملية جراحية دقيقة. تسحبُ الشعيراتِ الزائدة، واحدةً تلو الأُخرى، بسرعة كبيرة، ضاغطةً بيدها على جبَتي، صارخةً في وجهي، في كلِّ مرّة، أن أظلّ جامدةً في مكاني حتّى لا يفسدُ شكلُ الحاجب، فتبلُغني من فَمِها رائحةُ البرتقال الحلوة.

في إحدى المَرّات التي زرتُ فيها أُمِّي، جهّزت نُهى الشمعَ بالسكّر والليمون والعسل، وأجلستُني قُبالتها، ثمّ راحت تزيلُ شَعَرَ شارِبِي. كانت تمضغُ علكةً بالنكهة نفسِها. نظرتُ إلى أُمِّي التي تَخيْطُ ثوباً ممَرّقاً، بينما تعرّضَ عليها جميلة كُتَيّباتٍ دينية للقراءة، وهمست:

- لماذا أصبحتِ تأتيين إلى هنا كثيراً؟ هل تريدان أن تصبحي إخوانجيّة أنتِ أيضاً؟ إذا كان الأمرُ كذلك، فأودّ أن أخبركِ أن النَّمصَ حرام.

قالتُها وأطلقت ضحكةً خفيفة. نظرتُ إليها بدهشة.

- لا تتحرّكي!

أضافت:

- أُمِّي تريدني أن أتركَ العمل.

سألتُها بدهشة:

- لماذا؟

- قُلْتُ لكَ لا تتحرّكي، يا شهرزاد!

سكنت قليلاً، وأضافت هامسة:

- لأنها تعتبر أنني أعملُ في أشياء محرّمة. ألا تعلمين أنها أصبحت
صاحب الإخونجيات وتذهبُ إلى دار القرآن؟

قلتُ بانفعال:

- لم أكن أعرف!

قالت:

- تكلمي بصوتٍ منخفض، يا شهرزاد! وجميلة أيضاً ترافقها.

أضافت بسرعة:

- لكنني لن أترك الصالون، مهما فعلت!

لم أستطع أن أنبس بكلمة. تخيلتُ أمي وجميلة بالنقاب، وانتابني مزيجٌ
من الخوف والخيبة. هل كانت أمي تحاول، بلطفها معي، أن تُدخلني إلى
هذا العالم الغريب والمظلم؟ اقشعرّ بدني، ولّمت نفسي لأنني لم أنتبه
لهذا من قبل. في الحقيقة، خشيتُ أكثر أن يصبح هذا المكان، الذي أصبح
ملاذاً لي من ظلمة أفكارِي، دوامةً جديدةً تزيد من ضياعي. ما الذي جعل
أمي تقرر فجأةً أن تغيّر نمط حياتها جذرياً؟ أيّ بأسٍ هذا الذي سيجعلها
تلوذ إلى عالم كهذا؟ وأيّ بأسٍ هذا الذي جعلني لم أنتبه إلى أن أمي
أصبحت متطرّفةً في تعاملها مع الحياة؟ الأغاني التي لم تُعدّ تصدح في
بيتنا، شاشة التلفاز التي لا تُفتح إلا لمشاهدة الأخبار أو البرامج الدينية،
عينها اللتان غابَ عنهما الكحل منذ زمن، الفتاوى التي تبعثُ لي منذ
مدّة على الوتساب، وتلك المصطلحات الغريبة التي أصبحت تتفوّه بها؟

كأنّ نُهي صفعْتُني. كأنّها أيقظتني من حُلُمٍ جميل لتقول لي إن الوضع
ازداد سوءاً عمّا كان عليه قبل أن أغفو. لم أدرك أنني فكّرتُ في هذا كلّهُ

في وقتٍ قصير، إلّا حين جرّت نُهى الشمع من على شاري بقطعة الورق بقوة، وقفزت شاعرة أنّ جلدي قد انتزع مع الشمع والتصق بالورق.

كانت نُهى فعلاً تشبه أمي، في كلّ شيء. في ملامحها، وسلطويتها، وشخصيتها القوية. ما لم أكن أتوقعه، هو أنّ هذا التشابه الكبير سينقلب على أمي يوماً ما، وأنّ نُهى ستحدّي إرادتها. شعرتُ بتواطؤٍ لذيذ بيني وبين أختي، وقلّتُ لها بثقة:

- إياك أن تتركي عملك، يا نُهى، كوني قوية، وقاومي ولا تستسلمي.

أطلقتُ ضحكةً عاليةً هذه المرّة، وقالت:

- ما زلتِ تحدّثين مثل الرسوم المتحركة! كنتُ أظنّ أنكِ كبرتِ وتغيّرتِ.

حين انتهت نُهى من إزالة شعري، نهضتُ وتوجّهتُ إلى خزانة الأواني، حيثُ وُضعت تلك الكُتّيبات التي جلبتها جميلة. كانت أمي ما تزال ترقّع ذلك الثوب القديم بتركيزٍ وجديّةٍ كأنها تحاول إصلاح الماضي، أمّا جميلة، فقد كانت تُحمّم ابنها سليم. قرأتُ العناوين: **ثُحفَةُ العروس والرحيق المختوم وعذاب القبر وحجاب المرأة المسلمة**. كنتُ قد رأيتُ هذه الكُتب من قبلُ في معرض الكتاب الماضي. غشّيني إحساسٌ قويٌّ بالضياع في هذا العالم، كأنّ الأرض تنشقّ تحتي باستمرار، كلّما وضعتُ قدمي الهاربة في مكان ما، وطننته أماناً، عادتِ الأرضُ وانشقتُ تحت قدمي من جديد.

حملتُ حقيبتَي السوداء الصغيرة من نوع غوتشي مزوّرة، وغادرتُ بيتَ أمي، بينما يبلغني من الحمام صراخٌ عنيف، وصفعاتٌ قوية على جسدٍ غضٍّ ومبلّل.

قَرَرْتُ أَلَا أَفَكِّرُ فِي نَجْوَى مِنْ جَدِيدٍ. مَعَ حُلُولِ صَيْفِ 2019، كَانَتْ لَدَيَّ مَخْطُوطَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَيَّ تَحْرِيرُهَا. شَغَلْتُ نَفْسِي بِالْتَرَكِيزِ فِي الْعَمَلِ، وَلَمْ أَدْخُلْ إِلَى تِلْكَ الْبُرُوفَايِلَاتِ الْمَزِيَّةِ أَبْدَأُ طِيلَةَ أُسْبُوعَيْنِ كَامِلَيْنِ.

بَعْدَ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْمَكْتَبِ، كُنْتُ أَتَمَشَّى فِي شَوَارِعِ الدَّارِ الْبَيْضَاءِ وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَى أَغَانِي بَوْبِ دِيلَانَ وَنِينَا سِيْمُونِ وَأَرِيْتَا فِرَانْكَلِينَ. أَذْهَبُ إِلَى حَيِّ الْأَحْبَاسِ، وَأَشْتَرِي رَوَايَاتٍ وَدَوَاوِينَ شِعْرٍ وَكُتُبَ فِكْرٍ وَفَلَسْفَةٍ وَتَحْلِيلِ نَفْسِي. أَرَدْتُ أَنْ أَشْحَنَ رُوحِي بِالْفَنِّ، لَعَلِّي أَعُودُ إِلَى طَبِيعَتِي الْأُولَى، طَبِيعَتِي الْعَاشِقَةَ لِلْفَنِّ وَالْإِبْدَاعِ، الْحَالِمَةَ بِتَغْيِيرِ الْعَالَمِ.

وَقَدْ ظَنَنْتُ، فِي لِحْظَاتٍ مَا، أَنَّي شَفِيتُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ الْغَرِيبِ الَّذِي فَتَكَ بَعْقَلِي. وَرُحْتُ أَجْلِسُ فِي الْمَقَاهِي وَأَنَا أَقْرَأُ وَأَكْتُبُ بَدُونِ تَوَقُّفٍ. كَأَنَّ شَلَالًا مِنَ الْأَفْكَارِ كَانَ مَحْبُوسًا فِي دَاخِلِي، ثُمَّ انْهَمَرَ فَجَاءَةً. غَمَرَنِي الْإِطْمِئْنَانُ وَأَنَا أَعُودُ إِلَى الْكِتَابَةِ، هُوِيَّتِي وَحَيَاتِي الَّتِي لَا أَسْتَطِيعُ الْعِيشَ بَدُونَهَا، حَبِّي الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، الَّذِي لَمْ أَسْتَبْدِلْهُ أَبْدَأُ، وَلَمْ يَعْوِضْ مَكَانَهُ فِي قَلْبِي أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

كُنْتُ مُتَفَانِلَةً جَدًّا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، كَأَنَّ أَضْوَاءَ بَهِيجَةً أُنِيرْتُ فِي غُرْفَةِ دِمَاغِي الَّتِي ظَلَّتْ مُظْلَمَةً لَوْقَتٍ طَوِيلٍ، فَبِتُّ قَادِرَةً عَلَى رُؤْيَةِ الصُّورِ الْجَمِيلَةِ وَالذِّكْرِيَّاتِ الرَّائِعَةِ: طِفْلَةٌ جَدَلْتُ لَهَا جَدَّتُهَا الْحَنُونَ شَعْرُهَا فِي ضَفِيرَتَيْنِ حُلُوتَيْنِ، وَأَخَذَتْ تَرْكُضُ فِي الْبَيْتِ الْفَسِيحِ بِسَعَادَةٍ وَهِيَ تُقَلِّدُ

صوت ماعزة. شاي حلو بالنعناع يرتطم بقاع الكأس في لحظة عطش. ابتسامة أمي. هدايا زهرة. انتباهي إلى الألم في حلمتي المتفتحتين في سنّ الثانية عشرة. شعّر ليليان الذي يُشبه غابة. أول حيض. قراءة شعر ولادة بنت المستكفي في الثالثة عشرة. الخُمران الفارغان في أذني أمي. الحليب في ثدي جميلة. نظرة ندى اليائسة إلى شعور النساء العارية. الكلمات التي لم أستطع وشمها على جلدي. رأس جدتي الأحمر المفعم برائحة الحنّاء والفرقة في منتصف شعرها. رباطة جأش نُهي أمام عدد الفروج التي تراها كلّ يوم في صالون التجميل. أجساد النساء العارية مضببة بالبخار في الحمام ... كانت هذه الصور تعتمل في رأسي وأنا أسير في الشوارع أو أجلس في المقاهي أو أحاول الكتابة، فأشعر أنني أعانق الحياة من جديد، حياتي وصورها وألوانها وروائحها، ويزداد شعوري بالاطمئنان.

لكنّ اطمئناني سرعان ما تلاشى حين مررتُ أمام مكتبة القلم التي احتضنت ذلك اللقاء حول رواية نساء رائعات. اهتزّ قلبي، وتذكرتُ نجوى بآلم. ولم يكن هذا الألم مجرد ألم فقدان اللذات التي كان يمنحني إيّاها التلصص على حياة هذه المرأة، بل كان أكبر وأعَمَق من ذلك. تشوّش عقلي في لحظة، واختفت تلك الصور الجميلة كلّها من رأسي، وصار دماغي مثل شاشة تلفاز في التسعينيات انقطعت صورته في يومٍ ما طر.

ضَعَطت عليّ رغبة في الإطلال على صفحتها. قاومتها كأني أدفعُ شللاً جارفاً. وعندما فقدت القدرة على المقاومة، استسلمتُ لفكرة الدخول لاكتشاف جديدها، وقلْتُ لنفسي، مثل أمّ توصي ولدها ألا يتأخّر في اللعب في الشارع، إنّ هذه ستكون آخر مرّة أدخل إلى هذا البروفایل.

بعد نصف ساعة، كنتُ في البيت، ممدّدة على سريري أقرأ منشوراتها، وأنظرُ إلى صورها الجديدة والقديمة، وأقرأ التعليقات عليها. عندما انتهيتُ

من الاستكشاف عبر حسابي الحقيقي، دخلتُ من الحساباتِ الأخرى، وكتبتُ تعليقاً مجاملاً على صورتِها الجديدة أمام مرآةٍ مصعدٍ ما. ثم دخلتُ أخيراً إلى حساب غوستافو سانشير، وكتبتُ لها رسالةً طويلة، أعتذر فيها عن غيابي. قلتُ لها إنني أضعتُ هاتفي، ولم أستعد حساباتي على مواقع التواصل إلا اليوم. أخبرتها أيضاً أنني اشتقتُ إليها كثيراً، ورحنا نتبادل أطرافَ الحديثِ من جديد كأنَّ شيئاً لم يكن.

كنتُ مستمتعةً بمعرفة أخبارها، حتّى ولو لم يكن لديّ أيّ دليلٍ على أنّ ما تقوله صحيح. أخبرتني أنّ أستاذاً جامعياً أرملاً تقدّم للزواج منها، ورفضت بسبب فارق السنّ الكبير بينهما. وقالت إنها عاشت أياماً صعبةً جداً بسبب مرضِ قلبها مايك، وإنها بدأت تفكّر جدّياً في التكلّف بأحدِ الأطفال المتخلّى عنهم. قالت إنها ذهبت في زيارةٍ لإحدى دور الأيتام في الدار البيضاء، ورأت طفلاً رضيعاً أحبّته من أوّل نظرة، وإنها تأثرت كثيراً حين علمت أنّ هذا الطفل وُجد مرمياً قرب حاوية قمامة.

تلاطمت أصوات متضاربة في رأسي. قال لي صوتٌ إنّ نجوى إنسانة طيبة، ولا تستحقّ أن يُنصب عليها بهذا الشكل القبيح. وقال لي صوتٌ آخر إنها كذّابة ومنافقة ومتملّقة، لأنها تخلّت عن ابنها الحقيقي وتريد التكلّف بأطفال آخرين، وتستحقّ الآن أن أتلاعب بها هكذا. وقال لي صوتٌ آخر إنها تتظاهرُ بالطيبة واللفظ كيّ تسلُب قلبَ الإسباني غوستافو سانشير فقط، ربّما يتزوّجها وتحصل على الإقامة في إسبانيا.

وكلّما تحدّثتُ إليها، شعرتُ أنني أريد أن أعرف أكثر، وكلّما شعرتُ أنني أريد أن أعرف أكثر، احتقرتُ نفسي وفقدتُ ثقتي فيها، وكلّما احتقرتُ نفسي، تحدّثتُ إليها باندفاع أكبر، مختبرةً مساحاتٍ جديدة لم يسبق أن فكّرتُ فيها من قبل. كنتُ أشعرُ كما لو أنّ ذبابةً تحلّق حول دماغي مصدرةً

طيناً قوياً ومزعجاً، ولم أعد قادرةً على إسكاتها. أفكّرُ طول الوقت في ما سأقوله لها، وكيف سأقوله، وماذا يمكن أن تكون ردودها، وكيف كنتُ سأجيب لو كنتُ مكانها. وفي كلّ مرّة، يصيح صوتُ العقلِ في وجه هذا الطنين ويطلب منه أن يندثر حالاً، فأشعر أنّ عقلي سيخرج من رأسي.

لكنني عثرتُ على حلٍّ لأستطيع التحمّل. صرّْتُ أقول لنفسي إنني كاتبة، وإنّ لكلّ مبدعٍ ملهمته، ومثلما كانت ليلي مُلهمة قيس، ستكون نجوى مُلهمة شهرزاد.

أحياناً، يضغطُ عليّ الخوف، فيتساءل صوتٌ في داخلي: هل دماغي متعقّن إلى هذه الدرجة؟ هل هذا ما كان يحدث في رأسِ ذلك المجنون في درب الكبير الذي كان يبحث في حاوياتِ القمامة عمّا يأكله، يحكّ رأسه، ويحدّث نفسه بلا هوادة؟ هل سينتهي بي الأمر مثله مجنونةً تمشي في الشوارع بملابس رثّة، وتكلّم نفسها بصوتٍ مرتفع؟ أعزّي نفسي بتناول الشوكولا أو رقائق الشيبس أو بممارسة الحبّ مع زوجي بشراهة. كانت هذه الأشياء توقّف لحظياً الأصوات المرعبة التي ترعق داخل رأسي، وتُوهمني أنني لستُ مريضةً أصلاً، وتمنحني جرأة التفكير بأنني سأشبع يوماً ما من مطاردة نجوى، وبأنني سأجدُ الوقتَ لكتابة روايتي، وبأن حياتي ستتغيّر يوماً ما إلى الأفضل.

عندما تمتلئ معدتي، أو أكونُ متمدّدة إلى جوار سَعد على السرير بعدما مارسنا الحبّ، أفكّرُ بتفأؤل، أن تلك الأصوات ليست إلا تعبيراً عن الخوف، خوفاً الناجم عن خوض مغامرةٍ نفسيةٍ جديدة، وأنّ الحلّ للتخلّص من هذا الخوف هو الذهابُ في هذه المغامرة إلى النهاية.

وبسبب هذه الأصوات التي لا تسكّت أبداً، ذهبتُ بمغامرتي إلى النهاية. في نهاية يوليو 2019، دعا غوستافو سانشير نجوى لزيارته في مدريد خلال شهر أغسطس. قالت له إنها تودّ الذهاب إلى إسبانيا مرةً أخرى، ولكنها ليست مجنونةً لتفعل ذلك من أجل شخصٍ لم تَرَ أبداً.

اعترفتُني الخيبة، ثقيلةٌ ومُرّة، وامتزجَ الخجل والندم والخوف بدمي حين فكّرتُ في احتمال أن تكشفني أو أن يعرفَ أيّ شخصٍ آخر ممّن أعرفهم بما أفعله.

لكنّها بعد قليلٍ فقط، قالت إنها تمزح، وأضافت:

- أرجو ألا تغضبَ منّي، يا غوستافو، فأنا دائماً ما أمزح مع الناس الذين أحبهم بهذه الطريقة ⑦.

المشكلةُ في التراسلِ على مواقع التواصل الاجتماعي هو أنّ المرء لا يستطيع أن يعرف إن كان محدّثه يضحكُ فعلاً حين يرسل هذه الوجوه الضاحكة أم لا. تخيلتُ ملامحَ الشكِّ والغضب على وجهها وهي تكتب لي، وظلّت الخيبةُ جاثمةً على صدري. قلتُ لها:

- لا تقلقي، لن أغضب منك، لكن، إذا لم ترغبي في المجيء، فأنا لن أستطيع إجبارك على ذلك، لكنني لن أخفيك أنني سأحزن كثيراً.

قالت:

- لماذا؟

- لأنني أكنُ لكِ مشاعرَ خاصّة.

- ماذا تعني بمشاعر خاصّة؟ ②③

- أقصدُ أنني مُعجَبٌ بكِ جداً.

- كيف يُمكنُ أن تُعجَبَ بشخصٍ ما دون أن تراه أو تسمع صوته؟

- ألسنِ معجبةٌ بي؟ ألا تريدان أن ترينِ وتسمعي صوتي؟

- بلى، لكنني خائفة...

- أرجوكِ، لا تخافي مِنِّي. وإذا شئتِ، يمكنني أن أغادر هذه المحادثة الآن، وأعدكِ أنني لن أزعجكِ مرّةً أخرى أبداً.

- لا تقلِ هذا الكلام، أرجوكِ، طبعاً أودّ المجيء، لكن ... ②④

كم أنتِ ثقيلةُ الدم، يا نجوى. لو كنتِ رجلاً، لَمَا تحمّلتكِ أبداً.

- سأكون سعيداً جداً إذا قبلتِ أن تزوريني، وإذا لم ترغبي في ذلك، فأنتِ حُرّة. وكما قلتُ لكِ إذا أردتِ حتّى أن تمسحيني من حياتكِ، فلكِ ذلك. أنا أريدكِ فقط أن تكوني مرتاحة.

- لا أريدُ أن أمسحك من حياتي!

- حسناً إذن، سأطلبُ منك شيئاً، إذا مرّرتِ على مدريد يوماً، فسأكون سعيداً إذا اتّصلتِ بي.

- كنتُ أفكر في الذهاب إلى البندقية في شهر أغسطس، لكنني أستطيع أن أغيّر خطّتي وأذهب إلى مدريد.

- رائعٌ إذن!

راحتِ تكتب وتمسح ما كتبته، ثمّ بدأتِ الكتابة من جديد.

- هل يُمكن أن نجري اتّصلاً سريعاً بالفيديو؟

لم أَكُنْ متأكّدةً كيفَ ستبدو وهي تتحدّثُ بِإنجليزيتها الرديئة تلك. قُلْتُ:
- أنا في المستشفى الآن، ولا أستطيعُ الحديثُ بالفيديو.

قالت:

- أرسل لي رسالةً صوتيةً إذن ☺ أريد أن أسمع صوتك.

كانت تتكلّم كما لو كانت بداخلها بذرةٌ شكٍّ صغيرة، لكنّها، في الوقتِ
نفسه، تخشى أن يكون غوستافو سانشيز حقيقياً، فتُفوّت على نفسها هذه
الفرصة.

- أعدك أنني سأبعث لك رسائل صوتية كثيرة، لكن، في المساء حين
أنتهي من عملي.
ثمّ أضفت:

- ولن أخفيك أنني ودّدت كثيراً لو أستطيع الاتصال بك، لكنني لم أجزؤ
على ذلك مخافةً أن أزعجك ☺.

قالت:

- لا بأس. أنا أصلاً أرتاحُ في الكتابة أكثر.

- أنا مضطّرّ للمغادرة الآن، فأمامي عملٌ كثير. فكّري في الموضوع جيّداً،
يا عزيزتي. البندقية مدينة رائعة، لكنني لا أرى ضرراً في تغيير خطّتك.
ستستمتعين بزيارة مدريد أيضاً.

لم تكن متعة التأثير على نجوى خالية من ألم. كنت قلقةً وأنا أحادثها
كأنني أعرف أنّ ذلك الاحتيال سيكون له ثمن. ولو أنني كنت إنسانةً طبيعية،
لاستطعتُ بسهولة حذف ذلك الحساب والتخلّص من هذا القلق كلّهُ،
لكنّ نجوى لم تكن الوحيدة التي صدّقت كذبي وتمثيلي، لأنني أيضاً أردتُ
أن أصدّق أنني غوستافو سانشيز، أنني شخصٌ آخر غير نفسي. كأنني

كنتُ جاهزةً قبلاً للتخليّ عن شهرزاد الراوي، رغبةً في التخلّص منها. كان استمتاعي، في حقيقة الأمر، نابعاً أيضاً من تحقّفي من نفسي وأنا متنگرةٌ ببروفایل شخصٍ آخر. كنتُ أتخفّف، وأنا أتحدّث إلى نجوى، من عُقدي وتاريخي وحزني، بل حتّى من هوسِي نفسه. لأنني لا أعود شهرزاد الراوي المَهووسة بنجوى صابر، وإنما غوستافو سانشيز الذي نجح في التأثير على نجوى صابر.

مع الوقت، صار الأمرُ بالنسبة إليّ، يشبه عملاً جاداً، وليس مجرد لعبة. إذ كان عليّ أن أثابر لجعل نجوى تصدّق أنّ غوستافو سانشيز شخصٌ حقيقيّ. تصديقُ نجوى لهذا الأمر يعني تصديقي له أيضاً. وكلّما صدّقت نجوى أكثر، تخفّفتُ من نفسي أكثر. كأنني عندما أجلسُ إلى هاتفي وألبس رداء غوستافو سانشيز، أرمي ورائي أثقال الحياة كلّها، وأصير شخصيةً بلا ماضٍ ولا تاريخ ولا جروح ولا ذكريات. غوستافو ليس موجوداً فقط من أجل أن تسمع نجوى ما ترغبُ في سماعه، بل من أجل أن تصبح شهرزاد نسمةً خفيفة.

في أثناء تفكيري في حلّ للرسالة الصوتية، اعتملت أفكارٌ متضاربةٌ في رأسي، كانت فكرةٌ حذف ذلك الحساب ونسيان نجوى إلى الأبد أفضلها. شعرتُ بالضيّق وتشوّش رأسي. أردتُ أن أذهب في تلك المغامرة إلى النهاية، وألا أفقد مصداقيّتي أمام نجوى. لم يكن هناك مجالٌ للتراجع. نظرتُ إلى الساعة في هاتفي بانفعال، ثمّ إلى شمشون الذي يطارد فراشةً سمراء، ثمّ إلى سعد الذي يحاول تركيب ستارةٍ جديدة لنافذة البهو. كان حين يفقد تركيزه في العمل أو الكتابة، يلجأ إلى القيام بأيّ عملٍ لا يتطلّب مجهوداً ذهنياً، كأن يغسل الأواني مثلاً، أو يُلصّح عطباً في البيت، أو يخرج للتسوّق. فكّرتُ أنّ عليّ حمل مؤخرتي عن الأريكة، وغسل كومة الأواني التي تراكمت في حوض الغسيل منذ يومين، ثمّ التفكير بعد ذلك في حلّ للرسالة الصوتية. لكنني حين بدأتُ في غسل الأواني، تذكّرتُ فكري.

كان فكري واحداً من أصدقاء طفولتي، أو بالأحرى واحداً من الأطفال

الذين عاشرتهم ولعبت معهم في طفولتي. كان ضئيل الجسم، ذا عَيْنَيْن خضراوَيْن حزينَتَيْن مثل عَيْنَي قِطٍ صغير، وشَعْرٍ بَنِيّ كثيف. لم يكن أحدٌ من الأطفال يحبُّ اللعبَ مع فِكْري، وكانوا يخبرونه بذلك مباشرةً وهم يدفعون جسده حتّى يسقط أرضاً. كانوا يتمتعون بتعذيبه. ومع ذلك، لم ينزوَ، وظلَّ يحاول التقربَ منهم ويلجّ على اللعبِ معهم حتّى آخر رَمَق. كان شروقُ شمسٍ كلَّ يومٍ جديدٍ كافياً لِنُسيهِ الألم والإساءات التي تعرّض لها في اليوم السابق. لم يكن يعرف الحقد، ولا الاستسلام، ولا الكبرياء، ولا الانتقام، ولا حتّى الكرامة. كان يُدفعُ باستمرار، ويضربُ بدون سبب، يُصَفَع، ويُقرص في مؤخرته وفخذيه، ويتحوّل إلى لعبةٍ في أيدي الأطفال الآخرين.

أذكر واحداً من أولئك الذين كانوا يتنمّرون على فِكْري. لن أنسى اسمه ولا شكله أبداً. كان نور الدين الأكبر سنّاً بيننا، سميناً وضخماً، وله عيانان يقطر منهما الشر، وكانوا ينعته في غيابهِ بـابن الساحرة، لأن أمّه تمارس أعمال السحر والسعوذة، لكنّ أحداً لم يكن يجرؤ على قول شيء كهذا أمامه، لأنهم يعرفون أن الأمر سينتهي بهم تحت رجليه، يداسون كالْحشرات.

كانت هوايةُ نور الدين المفضّلة هي تعذيبُ فِكْري. يدفعه كلّ يوم ويُسقطه أرضاً، يخزه في مؤخرته بأيّ عمودٍ أو عصيّ أو حتّى بمظلة، وحين يقفز فِكْري مرتعباً أو متألماً، ينفجر الأولاد جميعهم ضاحكين. أحياناً، كان يُسقطه أرضاً، ثم يركله كأنه يركل كرة، أو يصعد فوق بطنه ويقف هناك مختبراً درجة تحمّله. حين يعود فِكْري إلى البيت في نهاية اليوم بملابس ملطّخة بالأتربة والأوحال، تبدأ حصّة عقاب جديدة. وقبل أن يوصد بابُ بيتهم، تنعته أمّه بالحمّار والغبيّ وتهدّده بالقتل والإحراق والذبح وهي تقرصه في مؤخرته وفخذيه بقوة.

عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أستطيع أن أرى في فِكْري أشياء لم يكن الآخرون يرونها فيه. كنتُ أراه طفلاً طيباً ومتسامحاً، وكنتُ أتخيّله، كما في مسلسلات الكرتون، رمزَ الخير، مقابل الشرّ المتمثل في الأولاد الآخرين الذين يعتدون

عليه. كنتُ أَلعبُ معه، وأمدُّ له دُمائي، وأتقاسمُ معه العَابي، وأنفضُ الغبارَ عن بنطاله، وأؤمنُ إيماناً عميقاً أنَّ يوماً ما سيأتي وسينتصر على أولئك الأشرار كلَّه، لأنَّ الخيرَ ينبغي أن يفوز في النهاية.

كان فكري يكبرُ وكنتُ أكتشفُ أنه لم يكن غيباً تماماً، فبالرغم من غياب أيِّ مهاراتٍ اجتماعية عنده، وبالرغم من ضعف شخصيته، كانت لديه قدرةٌ عجيبة على تعلُّم اللغات. ومع نهاية سنته الأخيرة في الإعدادية، كان قادراً على التحدُّث باللغتين الفرنسية والإنكليزية بطلاقة. ومع أنه ترك الدراسة في السنة نفسها، إلَّا أنه لم يفقد قدراته اللغوية أبداً، وكان الجميع ينادونه عندما يحتاجون إلى ترجمةٍ ما، أو فقط لكي يطلبوا منه الحديث باللُّكِّنة الأمريكية، ثمَّ ينفجروا ضاحكين من المفارقة، سائلين إياه دائماً: كيف يمكن لفاشلٍ مثلك أن يكون قادراً على الحديث بهذه الطريقة؟ وكان فكري يضحكُ معهم على نفسه.

مرَّت السنوات، وزالت براءة فكري، فتحوَّل من طفلٍ مسكينٍ محتقرٍ طول الوقت ومثيرٍ للشفقة إلى شابٍّ ملحاحٍ أكثرَ من اللازم. لا يفهم معاني الكلمات العادية مثل «لا» و«لا أريد» و«لا أستطيع» و«لا أحبُّك» و«لا تعجبني». فَهَم فكري تعاطفي معه وتعاملني معه بلطفٍ خلال سنوات طفولتنا ومراهقتنا على أنه دليلٌ على الحبِّ، وظلَّ، لفترةٍ طويلة، يلاحقني ويبعثُ لي رسائلَ على الهاتف يقول فيها إنَّه يعشقني ويريد أن يصاحبني. أحياناً، كنتُ أجده مستنداً إلى جدار الثانوية التي أدرس فيها ينتظر خروجي، ليُخبرني أنه يريد الحديث معي في موضوعٍ مهمٍّ جداً ومستعجلٍ جداً، أو يظلُّ يراقبني من محلِّ النجارة الذي يعمل فيه غير بعيدٍ عن بيتنا. حين كنتُ أُمُرُّ من هناك، كان يقفُ في بابِ المحلِّ، ويحدِّقُ فيَّ بعينيَّ الخضراوين البراقَتَيْن، كأنَّه على وشكِ البكاء.

مع الوقت، تحوَّل تعاطفي مع فكري إلى شعورٍ بالضيق والانزعاج، وأصبحت ملاحظته لي مدعاةً للإحراج أمام زميلاتي وصديقاتي، اللواتي

كُنَّ يَطْلُبْنَ مِنِّي سَاخِرَاتٍ أَنْ أَتَزَوَّجَ مِنْهُ لِيَرْتَاحَ مِنْ عَذَابِهِ، أَوْ يَقْلَنَ لِي، مَازِحَاتٍ، إِنَّ بَعْضَنَا يَنَاسِبُ بَعْضًا كَثِيرًا. لَمْ أَكُنْ أَرُدُّ عَلَى أَيِّ مِنْ رِسَائِلِهِ، وَحِينَ كَانَ يَحَاوِلُ الْاقْتِرَابَ مِنِّي فِي الشَّارِعِ أَوْ قَرَبِ الثَّانَوِيَّةِ، كُنْتُ أَقُولُ لَهُ إِنِّي مُشْغُولَةٌ، فَيَذْهَبُ فِي حَالِ سَبِيلِهِ.

بَعْدَ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، اخْتَفَى فِكْرِي فَجَاءَتْهُ مِنَ الْحَيِّ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ هَاجَرَ إِلَى إِسْبَانِيَا بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ قَانُونِيَّةٍ. حِينَ اسْتَقَرَّ هُنَاكَ، أَرْسَلَ لِي دَعْوَةَ صَدَاقَةٍ عَلَى فَيْسِبُوكَ، وَظَلَّ يَحَاوِلُ التَّوَاصُلَ مَعِي طِيلَةً أَشْهَرَ عِبْرَ مَسْنَجَرٍ مَكْتَفِيًّا بِقَوْلِ «مَرْحَبًا، كَيْفَ حَالُكَ؟» بِالْدَارِجَةِ أَوْ بِالْفَرَنْسِيَّةِ أَوْ بِالْإِنْكَلِيزِيَّةِ، ثُمَّ صَارَ يَكْتُبُهَا بِالْإِسْبَانِيَّةِ، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ وَجُودَهُ فِي أَوْرُوبَا سَيُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ مَشَاعِرِي تَجَاهَهُ وَيَجْعَلُنِي أَنْبَهَرُ وَأَرْتَمِي فِي أَحْضَانِهِ، لَكِنِّي لَمْ أَقْبَلْ صَدَاقَتَهُ وَلَمْ أَرُدُّ عَلَى أَيِّ مِنْ رِسَائِلِهِ. كَانَتْ تَغْشَى صَدْرِي غَمَامَةٌ ضَيِّقٍ رَهِيْبَةٍ حِينَ يَتَقَرَّبُ مِنِّي مُعْجَبٌ لَا أَبَادِلُهُ الشُّعُورَ نَفْسَهُ، لَكِنْ الْإِحَاحُ فِكْرِي كَانَ لَا يُثِيرُ فِيَّ إِلَّا الضَّحْكَ.

آخِرُ رِسَالَةٍ بَعَثَهَا لِي كَانَتْ قَبْلَ سَنَتَيْنِ أَوْ أَقَلِّ بِقَلِيلٍ، قَالَ فِيهَا إِنَّهُ يَعْتَذِرُ جَدًّا عَلَى إِزْعَاجِهِ لِي طِيلَةً هَذِهِ السَّنَوَاتِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَجْرَحَنِي بِتَعَامُلِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَرِيدُهُ أَنْ يَجْعَلَنِي سَعِيدَةً، وَأَنَّهُ حَزِينٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ فِي ذَلِكَ. لَنْ أَنْسَى كَمْ ضَحِكْتُ نَدَى حِينَ عَرَضْتُ الرِّسَالَةَ عَلَيْهَا. أَمْسَكْتُ بِطَنْهَا وَتَكَوَّرْتُ وَرَاحْتُ تَضَحُكُ بِقُوَّةٍ فِي الْمَكْتَبِ، بَيْنَمَا تَتَسَكَّبُ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ فِكْرِي يَتَحَدَّثُ كَمَا لَوْ كَانَ حَامِلًا مِنِّي.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مَنْطِقَ فِكْرِي وَفَهْمَهُ لِلْأُمُورِ كَانَ غَرِيبًا وَغَيْرَ مَفْهُومٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَكِنِّي كُنْتُ مُتَيَقِّنَةً أَنَّ الْحُبَّ الَّذِي شَعَرَ بِهِ كَانَ حَقِيقِيًّا، وَأَنِّي لَوْ أُعْطِيتُهُ الْفُرْصَةَ لَتَعَامَلْتُ مَعِي كَمَا لَوْ كُنْتُ أُمِيرَةً. تَسَاءَلْتُ، وَأَنَا أَحْكُ بِعَنْفِ طَنْجَرَةٍ ثَقِيلَةٍ، إِنْ كُنْتُ قَدْ تَرَكْتُ صَدْعًا فِي رُوحِهِ الْغَرِيرَةِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الصَّدْعُ قَدْ التَّامَّ أَمْ لَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ ثَانِيَةً، أَوْ اسْتَطَاعَ الْإِرْتِبَاطَ بِأَحَدَاهُنَّ. تَرَكْتُ الْأَوَانِي جَانِبًا، وَنَفَضْتُ يَدَيَّ الْمَبْلَلَتَيْنِ، ثُمَّ اقْتَعَدْتُ كُرْسِيًّا فِي الْمَطْبَخِ، وَأَخَذْتُ

أبحثُ عنه وسطَ عشرات الرسائل في مسنجر. وحين وجدتُ المحادثةَ أخيراً، أرسلتُ له هذه الرسالة:

«مرحباً فكري، كيف حالك؟ كيف حالُ والدتك وإخوتك وعائلتك؟ أتمنى أن يكون الجميع بألف خير. لم نتحدث منذ زمنٍ بعيد، وقُلْتُ لنفسي أن أبعث لك هذه الرسالة، لأسأل عن أحوالك، لكنني لا أخفيك أنني أيضاً بحاجة إليك في موضوعٍ مهمٍّ جداً، بما إن لغتك الإنكليزية ممتازة».

فكرتُ، خلال الساعتين اللتين مرّتا في انتظار جوابه، في مسح الرسالة، والتراجع عن هذه الخطوة. فكرتُ أيضاً في ما يمكن أن يكون البديل في حال لم أتلّق ردّاً من فكري، أو في حال أنه نسيَ اللغة الإنكليزية. فكرتُ في الاعتماد على ترجمة غوغل وتغيير صوتها عبر تطبيق خاصّ. حاولتُ تذكرَ زملائي الذكور في الثانوية الذين يُتقنون الإنكليزية، وتساءلتُ إن كنتُ قادرةً على أن أطلب من أحدهم تسجيل رسالة صوتية لاستعمالها في عملية نصب. كنتُ خجلةً من نفسي، قلقَةً ومتوتّرة. اتّكأتُ على صدرِ سعد، ورحتُ أشاهد معه فيلماً على التلفاز، لكنّ دماغي كان غائباً. بعد حوالي ساعتين، اهتزّ الهاتف تحتني منذراً بوصول رسالة.

- لماذا نهضتِ؟

- لا شيء.. فقط ندى تودّ الحديث معي في أمرٍ مهمٍّ. سأذهبُ إلى غرفة النوم لئلا أزعجك.

- ولماذا أنتِ مرتبكةٌ هكذا؟

لم أكن في الواقع مرتبكة. كنتُ فقط أتحرقُ شوقاً للحديث مع فكري الذي ردّ للتوّ على رسالتي.

- لستُ مرتبكة! إنني فقط أودّ التواصل معها عبر الرسائل الصوتية.

رمقني بنظرةٍ مليئةٍ بالشكّ والاتهام:

- هل تخونيني؟

جمدتُ في مكاني. ولم أستطع حتّى أن أبلع ريقِي. هل كَشَفَ أمري؟
هل رأى اسمَ فِكْري على شاشة الهاتف وظنّ أنني أخونه معه؟ ماذا لو رآه؟
حاولتُ أن أفكّر في ما سأقوله في هذه الحالة، لكنني لم أجِدَ تبريراً، ولم
أستطع اختلاق كِذبةٍ مقنِعة.

قُلْتُ لأرَبِحَ بعض الوقت:

- ماذا؟

وبعد فترة صمتٍ لا أعرف كم دامت، انجَلَتِ النظرةُ الاتِّهاميةُ عن عينيهِ،
وانفجرت شفتاه عن ابتسامةٍ ماكرة، ثمّ بدأ يضحكُ بقوة.

- هذا ليس مضحكاً، يا سَعْد!

قال بينما تنفّلتُ الضحكاتُ من بين كلماتِهِ:

- لقد صدّقْتَنِي!

كان قلبي يدقُّ بقوة، وكان عليّ أن أبذل مجهوداً خارقاً كي أحافظ على
ملامح الصرامة والجديّة.

- لا تتصرّف مثل طفلٍ صغير!

سَكَتَ عن الضحكِ فجأةً، واتّسعت عيناه العسليتان، ثمّ طفرت منهما
نظرةٌ جادّة.

- لماذا خِفْتَ هكذا؟ هل تخونيني فعلاً؟

وبحركةٍ أوتوماتيكية، مدّدتُ له هاتفي.

- افتحه، واكتشف بنفسِكَ، إن كنتُ أخونكَ أم لا.

لم أكن قد فكّرتُ في كذبةٍ بخصوصِ فِكْري بعد. رأيتُ سَعْداً ينهض
من على الأريكةِ ويتّجه نحوِي.

- لكن، عليك أن تعلم أنّك إذا اطلّعت على محادثاتي، فسيتغيّر كلّ شيء!

كان واقفاً أمامي مباشرةً، يحدّق في عينيّ بنظرة غريبة لم أستطع قراءتها أو فهمها. ثمّ دون سابق إنذار، التقمّ شفّتيّ وصار يُقبّلني بشبق، بينما تضغطُ يدها على مؤخّرتي وحوضي. انفلت منه في نفور:

- لا أستطيع، يا حبيبي ... عليّ أن أردّ على ندى ...

لم يُردّ أن يتركّني.

- هل تعلمين أن الوزن الزائد يناسبك جدّاً؟

أطلقت ضحكةً بلهاء.

- حقّاً؟

- حقّاً.

- اتركني الآن.

قبّلني مرّةً أخرى.

- أنتِ زوجتي.

- أريدُ أن أذهب إلى الحمام.

- انتظري قليلاً.

- لكنّها تؤلمني.

كان جسدي ينتفض. تعرّقت مؤخّرة رقبتي. أردتُ فقط أن أقرأ جوابَ فكري على رسالتي. كنتُ بائسةً إلى أبعد حدّ. فكّرتُ أنني أصبحتُ أشبه النساء اللواتي كُنْتُ أصفهنّ بالبقرات. أردتُ أن أتحدّث إلى نجوى. أحسستُ بلُعابٍ سَعد في عنقي، وشممتُ رائحةَ زيتٍ محروق، لا أعرف من أين أتت

بالضبط. أردتُ أن أعانقِ نجوى. أحسستُ بشدييَّ ثَقِيلَيْنِ جدًّا. صَدَدْتُ
سَعْدًا، لكن، بَرَقَّةً ولِباقةً. كُنْتُ خائفةً أن يَنْزَعِجَ. لم يَتَحَرَّكْ من مكانه. اعتَصَرَ
نَهْدَيَّ كأنه يعتصر الليمون، وقَبَّلَنِي بِقُوَّةٍ.

- ليس الآن، مِثْلَني تَوَلِّمني.

أردتُ أن أفتحِ هاتفي وأتحدَّثَ إلى نجوى وأنسى كلَّ شيء. قَبَّلْتُ سَعْدًا
بدون عاطفة. قَبَّلْتُهُ لِيتركَنِي، لكنَّه اعتَصَرَ مؤخَّرتي هذه المَرَّةَ.

- ليس الآن. مَعِدَتِي أَيْضًا تَوَلِّمني.

لم أَسْتَطِعْ أن أقولَ لا مباشرةً. وفي كلِّ مَرَّةٍ أقولُ فيها «ليس الآن»، كانت
مِثْلَني تَوَلِّمني أكثر. أردتُ أن أَتَبَوَّلَ على وجهه، لكنني قُلْتُ بَدَلَ ذَلِكَ:

- إنني أَيْضًا أريدُكَ، لكن، ليس الآن. أَرْجوكَ.

تَرَكَنِي أخيرًا، لكنَّه دَفَعَ جَسَدِي بِجَفَاءٍ، ورمَقَنِي بِنَظَرَةٍ طافِحَةٍ بِالْحَقْدِ، ثُمَّ
ارْتَمَى عَلَى الْأَرِيكَةِ وهو يَتَنَفَّسُ بَعْمَقٍ وسرعةً كأنه ثورٌ هائج. لم أَرِدْ أن أنظرَ
إِلَيْهِ أَكْثَرَ. كُنْتُ أَكْرَهُ نَظَرَتَهُ تِلْكَ. اندَفَعْتُ دَاخِلَ الْحَمَّامِ، وَأَقْفَلْتُ الْبَابَ
خَلْفِي، ثُمَّ جَلَسْتُ عَلَى التَّوَالِيَتِ وَأَخَذْتُ أَضْغَطُ عَلَى مِثْلَني وَأَنَا أَتَطَلَّعُ
إِلَى السَّقْفِ. كانتِ أَصْوَاتُ الْفِيلِمِ الْمُنْبَعِثَةِ مِنَ التِّلْفَازِ تَكْسُرُ تَرْكِيزِي، وَكَانَ
الْبَوْلُ دَاخِلَ مِثْلَني يَتَحَوَّلُ مَعَ الْوَقْتِ إِلَى سَمٍّ. فَتَحْتُ هَاتْفِي، وَتَطَلَّعْتُ
بِدَهْشَةٍ إِلَى رِسَالَةٍ فِكْرِي. كَانَ رَاغِبًا فِي تَبَادُلِ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ، كَانَ شَيْئًا
لَمْ يَحْدُثْ، كَأَنَّنِي صَدِيقَتُهُ الْمَقْرَبَةُ، أَوْ كَأَنَّنِي مَا تَجَاهَلْتُهُ هَذِهِ السَّنَوَاتِ
كُلَّهَا. أَخَذَ يَتَذَكَّرُ أَيَّامَ طُفُولَتِنَا الْغَابِرَةِ، وَقَالَ لِي إِنَّنِي أَعَزُّ شَخْصٍ عَلَى
قَلْبِهِ، لِأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَرْفُضُ اللَّعِبَ مَعَهُ مِثْلَ الْآخَرِينَ. سَأَلَنِي عَنْ أَحْوَالِي،
وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ فَخُورٌ بِي لِأَنَّنِي اسْتَطَعْتُ إِكْمَالَ دِرَاسَتِي، وَأَصْبَحْتُ شَيْئًا ذَا
قِيَمَةٍ، وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّنِي لَمْ أَتَحَوَّلْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنَ رِبَّاتِ الْبُيُوتِ اللَّوَاتِي
يَعْرِفُهُنَّ، بَلْ أَصْبَحْتُ امْرَأَةً مُسْتَقَلَّةً، أَعْمَلُ وَأَحْصِلُ عَلَى رَاتِبٍ فِي آخِرِ
الشَّهْرِ. لَقَّنِي حَزَنٌ عَمِيقٌ وَضَغْطٌ عَلَى أَضْلَاعِي وَأَشْعَرَنِي بِأَلَمٍ رَهِيْبٍ.

ضغطتُ على مئاتي مرّةً أخرى على أملٍ أن أتَول هذه المرّة، لكنني لم أستطع. سألتُ فكري بأدبٍ إن كان قادراً على أن يبعث لي رسالةً صوتيةً باللغة الإنكليزية، لأنني في حاجةٍ إليها في موضوعٍ مهمٍّ ومستعجل. كنتُ متيقّنةً أنّ شخصاً مثله سيفعلُ ما طلبتهُ منه دون نقاشٍ ولا أسئلة. ردٌّ في الحال إنّهُ مستعدٌّ لفعل أيّ شيءٍ في سبيل أن أكون سعيدة.

أرسلتُ له الجُمْل التي أريد أن يُسجّلها بصوته، وطلبتُ منه أن يكون طبعياً كأنه يبعثُ الرسالةَ لصديقٍ أو قريب، ويقول بعض الكلمات بالإسبانية. «مرحباً، أيتها الجميلة، لقد انتهيتُ للتوّ من عملي. كان يوماً متعباً وشاقاً، لكنني سعيدٌ أنني أستطيع أخيراً أن أبعث لك هذه الرسالة. إنجليزيتي كما تَرين ليست ممتازة، لكنّها جيّدة ونستطيع أن نتواصل بها. متشوّقٌ جدّاً لرؤيتك، وأتمنّى أن تقبلي دعوتي، وأنا متأكّدُ كلّ التأكيد أنك ستُعجبين بهذه المدينة الساحرة...».

كنتُ قد وصلتُ فعلاً إلى مستوى رهيبٍ من الحقارة والتفاهة. جاهدتُ نفسي لأستمرّ في لعبتي المقرّزة بدون شعورٍ بالذنب. فتحتُ الصُّنْبور وأنا أستمع إلى الرسالة الصوتية التي بعثها فكري، مقرّبة الهاتف إلى أذني. وبعد قليل، سمعتُ طرْقاً في باب الحمام، ثمّ أتاني صوتُ سَعد وهو يقول إنني تأخّرتُ كثيراً وإنّ مئاته ستنفجر إذا تأخّرتُ أكثر من هذا. أوقفتُ الرسالة وقد اعتراني الخوف، وقُلْتُ له أن ينتظر قليلاً لأنني لم أنتهِ بعد. لا أستطيع وصفَ الرعب الذي غشيّني حين فكّرتُ أنّ سَعداً، إذا ضبطني متلبّساً بما أفعله، سيظنّ أنني أخونه فعلاً. لكن، ما الأسوأ بين الخيارين؟ أن يظنّ أنني أخونه، أم يكتشف لعبتي القذرة؟ كان الخيار الثاني أسوأ بكثير.

حوّلتُ رسالةَ فكري الصوتية إلى علبة رسائل غوستافو سانشير. خرجتُ من حسابي، وفتحتُ حساب غوستافو سانشير بسرعة، ثمّ دخلتُ إلى علبة الرسائل، وحوّلتُ الرسالة مرّةً أخرى لنجوى. اندفعتُ خارج الحمام

وأنا ما أزال أشعر بألم في مثناتي، واندفع سعد، دون أن ينظر إليّ، داخل الحمام. فكّرتُ، وأنا أستمع إلى صوت جريان بوله، أنني لو أخذتُ حياتي بهذه الجدّة التي أتعامل بها مع موضوع نجوى، لو تعاملتُ معها بهذه الدقّة، وهذا الحرص، وأوليّتها مثل هذه العناية، لكنتُ أصدرتُ الآن روايتي الثالثة أو الرابعة.

في اليوم التالي، وبينما كنتُ في مكتبي، تبادلنا، نجوى وأنا، أطراف الحديث طويلاً. قالت لي:

- صوتك دافئ وباعثٌ على الاطمئنان، وإنجليزيتُك فعلاً ممتازة.

استمعتُ إلى رسالةٍ فكري مرّةً أخرى، وانتبهتُ للمرّة الأولى إلى أنّ صوته فعلاً دافئ وباعثٌ على الاطمئنان. فكّرتُ أن كلّ شخصٍ هو حُرمةٍ قصصٍ وميزاتٍ ونقائص، إذا عرفتَ نقائصه كلّها أو جزءاً كبيراً منها، يستحيلُ أن تنتبه لميزاتهِ الصغيرة. بالنسبة إلى نجوى، كان ذلك الصوتُ منبعثاً من رجلٍ آخر، إسباني يُدعى غوستافو سانشير، يعيش في مدريد ويعمل ممرّضاً، وله عقليةٌ منفتحة، ويقول لها أشياء جميلة، ولذلك كان الصوتُ مجردٌ مكملٌ من مكملاتِ هذا الرجلِ الكامل أصلاً. أمّا أنا، فأعرفُ أن الصوتَ قادمٌ من ذلك الرجلِ المغربيّ الذي قضى حياته في درب الكبير، بدون شخصية ولا قيمة ولا أحلام ولا مستقبل، ثمّ هاجر إلى أوروبا بطريقةٍ غير شرعية، ولذلك لم يكن صوته يعني لي أيّ شيء.

ومع ذلك، لم توافق نجوى على زيارة مدريد بتلك السهولة. قالت إن إنجليزيتها سيئة جداً، لكنّها ترغبُ في إجراء اتّصالٍ بالفيديو مع غوستافو قبل أن تُقدّم على شراء التذاكر. التجأتُ إلى فكري مرّةً أخرى، لكنني هذه المرّة اتّصلتُ به. لم يرنّ المسنجر طويلاً حتّى ردّ عليّ بصوتٍ مليء بالبهجة والحماس:

- شهرزاد! ما هذا الغياب كله؟ اشتقنا لك كثيراً!

- أنا أيضاً اشتقتُ لك يا فكري. كيف حالك؟ ما أخبارك؟

- ماذا سأقول لك، يا شهرزاد؟ الحياة في الغربة صعبة جداً، وأشتاق كثيراً إلى المغرب ودرب الكبير وأصدقائي هناك.

- درب الكبير أيضاً اشتاق إليك كثيراً، يا فكري.

ازداد حماسه.

- ربّما أزوركم الشهر القادم. إنني فعلاً اشتقتُ إليكم.

- ماذا تفعل الآن، يا فكري؟ هل تعمل؟

قال بفخر:

- نعم، أعمل في شركة للبناء، وهي شركة كبيرة جداً، وأجني من هذا العمل، ولله الحمد، ما يكفيني لأؤسس بيتاً وأعيش حياة سعيدة مع زوجتي وأبنائي ... حتّى إنني جمعتُ قدرًا من المال، وأفكر في شراء بيت في المغرب ... تعلّمين، الحياة غداً، وعلى الإنسان أن يضمن مستقبله ...

- رائع! إنك تفكر بعقل سليم! لكنني قصدتُ ماذا تفعل الآن؟ هل أنت مشغول؟

- لا، لست مشغولاً، أبدأ، يمكننا الحديث حتّى صباح الغد ... وحتّى لو كنت مشغولاً، أترك كل شيء وأتحدّث معك. شهرزاد الغالية تتصل بي وأكون مشغولاً؟! هذا مستحيل ...

- أريد أن أطلب منك طلباً، يا فكري.

- اطلبي أي شيء تريدينه؟ هل تحتاجين شيئاً من إسبانيا؟ إنني أبعثُ أحياناً أغراضاً من هنا لأقربائي وأصدقائي في المغرب .. هناك شركة

مشهورة للنقل تنقل أي نوع من الأغراض ... ملابس، مواد غذائية، آلات إلكترونية ... وتوصل الأمانات لأصحابها كاملة دون نقصان .. كما إنها رخيصة جداً بالمقارنة مع الخدمات التي تقدمها .. وحتى لو كانت غالية، لا شيء يغلى على غالتنا شهرزاد ...

- ما أريده مختلف تماماً. هل يمكن أن تسمعني؟

- أسمعك. هل تحتاجين إلى المال؟ أستطيع أن أقرضك، ويمكنك أن تعيدها متى استطعت، وإذا لم تستطعي، فلا بأس أبداً، اعتبرها هدية مني.

كنت مندهشة. كيف يمكن لإنسان مثل فكري أن يظل على قيد الحياة في عالم كهذا؟

- الأمر لا علاقة له بالمال. اسمعني الآن. هناك فتاة أعرفها ... أذنتي كثيراً في الماضي، وتصرفت معي بقلّة أدب ... وجعلتني أضحوكة أمام الناس ... حسابات قديمة ... لا أريد أن أدخل في التفاصيل، لكنني أريد أن أنتقم منها الآن ... لا أريد أن أؤذيها جسدياً .. أنت تعرف أنني إنسانة جيدة، ولا أستطيع أن أنزل إلى مستواها .. آه .. كانت أيضاً قد أرسلت لي أخاها ليعتدي عليّ وأنا عائدة من عملي في المساء يناير الماضي ... أخافني كثيراً ... حتى أنني ظننت أنه لصّ، وكنت على وشك أن أعطيه حقيقتي ... هددني، يا فكري، بالسلاح الأبيض! وأنت تعلم أنني مجرد فتاة لا حول لي ولا قوة، وليس لديّ أخّ ذكر يحميني، ولم أعرف ماذا أفعل لأردّ عليها، ففتحت صفحة على فيسبوك باسم رجل إسباني، وصرت أتحدث معها على أساس أنني رجل إسباني ... أقسم لك أنني لم أعرف ماذا أفعل، يا فكري! ليس بيدي شيء أفعله. أنا لست شريرة مثلاً، ولا أستطيع أن أرسل لها أحداً يعتدي عليها، لكنني أريد أن أنتقم لكرامتي. هي

الآن تظنّ أن الرجل الإسباني حقيقي، وتفكر في زيارته في مدريد. أريدها فقط أن تذهب إلى مدريد ولا تجد شيئاً، هذا كلّ ما في الأمر. لا أريد أن أؤذيها. لكنها غير مقتنعة الآن، وتريد إجراء اتصال بالفيديو، لكي تتأكد وتقتنع. إنجليزيتها غير جيّدة على الإطلاق ... لذلك لا تقلق، لن تطيل معك الحديث كثيراً، ثمّ إنها تسافر إلى أوروبا كثيراً، لذلك لن يصعب إقناعها .. أعرف أن وجهك مغربي جدّاً ... لذلك، يمكنك أن تتصل بها صوتياً فقط، وإذا طلبت الفيديو أخبرها أن كاميرا هاتفك لا تعمل، لكنّ، عليك أن تجعلها مطمئنّة ... ثمّ، بإمكانك أن تتحدّث معها مرّتين أو ثلاثاً، لكي مطمئنّ أكثر .. لا بأس ... هل تستطيع أن تفعل هذا، يا فكري؟ إذا فعلتها، فإنني لن أنسى لك هذا المعروف ما حييت ... هل تسمّعي، يا فكري؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

- نعم، أسمعك.

- ما رأيك؟

- أفعل أيّ شيء من أجلك، يا شهرزاد ... أنا مستعدّ لإلقاء نفسي في النار من أجلك، يا شهرزاد.

لم أكن أعلم أنّ فكري موهوبٌ إلى هذه الدرجة، ولم أعرف كيف أقنعها، لكنّ نجوى اشترت تذاكر الطائرة لتسافر إلى مدريد يوم الحادي والعشرين من أغسطس. اقترحتُ استقبالها في شقّتي بدلَ النزول في فندق، لكنّها أصرت على حجز غرفة في أحد الفنادق. مع ذلك، أرسلتُ فكري إلى زقاق سان ألبرتو بمدريد، وبعثَ لها موقعه على خرائط غوغل من هناك. تابعتُ معها استعداداتها للسفر كلّها، وطلبتُ منها أن تجلب لي معها جلباباً مغربياً رجالياً كذكرى من المغرب.

في صباح الحادي والعشرين من أغسطس 2019، عند الثامنة والنصف

صباحاً، وقفتُ عندَ بائع السفنج في شارع الفداء، ورحتُ أراقبُه وهو يُلقِي بيديهِ السَمرَواوِينَ النَحيْفَتَيْنِ والمَجْعَدَتَيْنِ حَلَقَاتِ العَجبِينة الرَخوة واللَرجة في قِدرِ الزَيتِ الضَخمِ أَمامِهِ، بِسرعةٍ وكَفاءة. كان الطَقس قَائِظاً وغلِيانُ الزَيتِ في القِدرِ يَزيدُهُ سَخونَةً والتَهاباً، وما مِن شَجرةٍ في الطَريقِ تَخَفِّفُ حَرارَةَ الجَوِّ. فَقط الشارِعُ يَمرُضِي مُستَقيماً، أَجَرَدَ، رَمادِيّاً، وفوقَهُ يَمرُشِي أَشْخاصٌ مُتَعَبونَ بِوُجُوهِ لَفَحَتِها الشَمسُ وعَرَّتِها التَجاوِيدُ قَبلَ الأَوانِ. اهتَزَّ الهاتِفُ في جِيبِي، وأَنا أَتناوَلُ مِن يَدِ البائِعِ السَفنجَ المَلفوفَ في ورقٍ أبيض. حينَ فَتَحَتُهُ، رَأيتُ صَورةَ نَجوی، مُبتَسِمةً بِسَعادةٍ بِشَفتَيْنِ مُصبوغَتَيْنِ بِوردِيٍّ فَاقِعٍ، مُرتَدِيَةً تَيشيرُ أَبيضَ بَدونِ كُمَينٍ، بَينما تَطايرَت قَليلاً خُصَلاتُ شَعْرِها المَجْعَدُ بِفَعلِ النَسيمِ. في الخَلفِية، طائِرةٌ كَبيِرة مُخَصَّصةٌ لِلرَحلَاتِ الدَولِية. قَضَمْتُ قِطعةَ السَفنجِ بِتَوَتَّرٍ بِالِغِ، ودَخلْتُ إلى حِسابِ خوليو سيرانو على إنستغرام، وسَرَقْتُ صَورةً قَديمَةً لَه وَهُوَ مُتَمَدِّدٌ على سَريِرِ ذِي شَراشِفِ بَيضاء عاريِ الصَدرِ، ثُمَّ أَرسلْتُها لَها. قُلْتُ لَها إِنني اسَتيقَظْتُ لِتَوَيِّ مِنَ النَومِ، وإِنني أَخذْتُ إِجازَةً هَذا اليَومَ لِاسَتِقبالِها في مَطارِ باراخاسِ الدَولِية، وَتَمَنَّيْتُ لَها سَفرًا سَعيداً.

افتقدتُ نجوى كثيراً، وافتقدتُ أحاديثي معها. اضطررتُ لحذف بروفایل غوستافو سانشيز من الوجود إلى الأبد بمجرد ما ركبَت نجوى طائرَها المتوجّهة إلى مدريد. في الأيام الأولى التي تَلَتْ حذف ذلك الحساب، كنتُ أشعر بالإحراج والذنب والندم، وصرتُ أخرج كثيراً مع سَعد ومع ندى إلى المقاهي والمطاعم والحدائق، وأمرُّ أحياناً عند أمي، وأحياناً أخرى إلى صالون التجميل الذي تعمل فيه نهى، أُثررتُ كثيراً، وأُعلّق على كلّ شيء أراه أمامي، وأروي قصصاً قديمةً من طفولتي، وأردّ على الرسائل التي تصلني على مسنجر، حتّى من الأشخاص المزعجين وغير اللبقين. كلّ ما كنتُ أريده هو نسيانُ ما اقترفتهُ في حقّ نجوى. كان صوتُ خطيئتي مزعجاً ومؤلماً، ولم أَكن أريد أن أسمعَه.

لكنّ الفضيحة مثل جُثّة لم تُدفن، لا بدّ وأن تتعفن وتَفوَح رائحتها النتنة في كلّ مكان. وكانت بداخلي فضيحة. إنَّم أخذَ يتعقّن رويداً رويداً، وصارت رائحته الكريهة تُعَبِّق في أعماقي، ثمّ تتقلّب إلى رأسي، فأختنق. كان لا بُدّ أن أفتح فمي وأخبر أحداً بما فعلته حتّى تخرج تلك الرائحة الخانقة من جسدي. لكنني لم أجرو حتّى على زيارة معالج نفسيّ. لم أرغب في الاعتراف بخطئي. ورُحت أصبّ اللومَ على نجوى، وأحملُها مسؤولية ما حدَث. لماذا أنتِ غيبةٌ هكذا، يا نجوى؟ كيف تصدّقين شخصاً لم تَرِيه من قبل أبداً؟ لماذا تحمّستِ أكثر من اللازم؟ أمّا كان عليك أن تترتّبي قليلاً حتّى تتأكّدي إن

كان هذا الشخصُ حقيقياً أم لا؟ ألم يسبقَ لكِ أن سمعتِ بالبروفائياتِ المزيّفة، وحوادثِ النصبِ التي تقع عبر فيسبوك؟ ألم تسمعي عن الرجال الذين يتنكّرون في بروفائياتِ نساءٍ جميلات، ليخدعوا رجالاً آخرين؟ ألم تسمعي أبداً بالنساء اللواتي يختبرنَ قدرة أزواجهنَّ على خيانتهمَّ عبر بروفائياتِ زائفة لنساء أخريات؟ لا بدَّ أن تكوني قد نمتِ في كهفٍ لمائة سنة حتّى لا تعرفي هذه الأشياء ...

أنا لستُ آسفةً، يا نجوى، لأنّكِ الوحيدةُ المخطئة. لا أحدَ في هذا الكونِ بإمكانه أن يجعلكِ ضحيةً إذا لم تكوني أنتِ مستعدةً لأن تكوني كذلك. نحن لسنا ضحايا أحدٍ، يا نجوى، نحن ضحايا أنفسنا فقط.

أنا ضعيفةٌ جداً، يا نجوى. مدمرةٌ حتّى، ولا أملكُ أيّ قوّة حتّى أمام حشرةٍ صغيرة، ومنكِ كنتُ أستمّدُ قوّتي للاستمرار في ما فعلته، من غبائكِ، من تسرّعكِ وحماسكِ الزائد عن اللزوم. لو كنتِ إنسانةً ذكيةً كفاية، ما كنتِ لتقبلي غوستافو سانشيز في لائحة أصدقائكِ من الأساس. لو كنتِ فطنةً، لأدركتِ أن غوستافو جيّدٌ أكثر من اللازم ليكون شخصاً حقيقياً. لو كنتِ فقط تتمتّعين بقليلٍ من الإحساس، لكنتِ، على الأقلّ، شككتِ في الوضع، وتراجعتِ.

لكنّكِ، يا نجوى صابر، لم تليقي بصفتكِ كأستاذة جامعية، ولا حتّى بشكلكِ الجميل وجاذبيّتكِ. اذهبي الآن إلى مدريد، واستمتعي بغبائكِ وفشلكِ.

لم يُفَضِّ لومُ نجوى، ولا الثرثرة، ولا ملء الوقت، ولا السيرُ في شوارع وأزقة الدار البيضاء، إلى أيّ نتيجة. في أيّامٍ أخرى، خطَرَ ببالي أن أرسل دعوة صداقة إلى نجوى من خلال حسابي الشخصي الحقيقي، وأعترفَ لها بذنبي الكبير، وأطلبُ منها الغفران، لكنني لم أكن أملكُ الشجاعة

لذلك. كنتُ أعيشُ أيَّامي بصعوبة، كأنني أمشي حاملةً صخرةً ثقيلةً على ظهري. أُطلُّ على بروفايل نجوى على إنستغرام، وعلى فيسبوك من خلال حسابي جورج صاند ونورا المبروك، وأنظرُ إلى صورها مرتديةً ملابس أنيقة ومبتسمةً بفمٍ مصبوغ بالأحمر، وأتخيَّلُها تسيرُ وحيدةً في شوارع مدريد، غاضبةً وحزينةً ونادمة. وأشعر بالذنب عالقاً بحلقي على شكلِ غُصّة.

أخذتُ إجازةً من العمل، وانزويْتُ في البيتُ أصغي إلى دُنبِي وهو يدوي في أعماقي. أمضي أيَّامي مستلقيةً على السرير أقرأ كوليت وسوزان سونتاغ وجوليا كريستيفا، ثمَّ أعود في الأخير، مثل يائسةٍ تلذِّذ بياسِها، إلى شِعْرِ سيلفيا بلاث. من شِدَّةِ الألمِ النفسيِّ كنتُ أفكِّر في موضوع الانتحار يومياً، لكنني كنتُ أعرفُ أنني لن أقدم عليه. لم أكن أعرف كيف انتحرت سيلفيا بلاث بإدخال رأسها في الفرن، ولم يَكُن في مطبخي سكاكين حادة بما يكفي لقطع عِرْق يدي، وكنتُ أخاف من الأماكن المرتفعة.

حين كان سَعْد يراني في حالاتٍ مشابهة، كان يقول لي إنني امرأةٌ جميلةٌ جداً، وإنَّ السُّمْنَةَ ناسبتني بشكلٍ رائع، وإنَّه يحبُّني جداً بالرغم من الشحم ومن الحزن ومن الاكتئاب ومن كلِّ شيء، وإنَّه لن يفقد اهتمامه بي حتَّى لو أصبحتُ أزن مائة كيلوغرام، لأنني لا أعرف كم أصبحتُ مؤخِّرتي عظيمةٌ ومثيرة. لكنني حين كنتُ أنظر في المرأة إلى جسدي البدين ووجهي الذي أصبح ممتلئاً ومدوراً، لم أكن أتعرَّف إلى نفسي، وكنتُ أضيع أكثر.

حين يخرجُ سَعْد من البيت، كنتُ ألجأ إلى تلك الأشياء كُلِّها التي اشتريتها بسبب نجوى، وأتفرَّجُ عليها كما يتفرَّج شخصٌ في شريط دماغه على حياته التي فشل في أن يعيشها. أتلَمَّس السوتيانات والسدَّادات القطنية والأحذية عالية الكعب وأنايب أحمر الشفاه بدون أيِّ سببٍ مثل مجنونة، أنصِتُ إلى أغاني بوب ديLAN وأفكِّر في حياتي التي فقدت معناها.

في يوم السبت الثاني في شهر سبتمبر، خرجنا، سعد وندى وأنا، لتناول الغداء في السوق المركزي. كانت حرارة الجو قد خفت، وخرج الناس مع أطفالهم لتناول السمك الطريّ مستمتعين بالجو المعتدل، والنسائم العليلة التي تهبّ مُنعشة أجسادهم المتعبة من قيظ الصيف. عبرنا محالّ بائعي السمك، وعربات بائعات المحار. ذكّرتني رائحة البحر المنبعثة من السمك الطازج بجولاتنا في البحر مع أبي وأمّي خلال طفولتي، وبأبي وهو يسبح على ظهره. كنت أراقبه وهو يضرب بذراعيه في الماء لفترة طويلة دون تعب، ثمّ أعود لالتقاط أغذية قناني المشروبات الغازية، والأصداف الفارغة، والطشوت البلاستيكية المنكسرة أو التي أضاعها أصحابها، وعُلب الطعام التي نظّفها البحر، وأعقاب السجائر. كنتُ أسيرُ في الشاطئ دون أن أبتعد كثيراً عن أمّي التي تجلس تحت مظلة كبيرة، ودون أن أضيّع أبي الذي يسبح، أجلس وأحفر في الرمال، وألتقط هذه الأشياء، وأضعها في مكان قريب من مظلتنا، مرتبة إياها جنباً إلى جنب وأنا أشعر بسعادة غامرة. وعندما أُنهي، أرفع رأسي وأنظر إلى أبي الذي ما يزال يضرب بذراعيه القويّتين، ألوح له بيدي باستمرار، بالرغم من أنه لا يراني أبداً.

سرتُ إلى جانب سعد وندى وأنا أحمل حزن هذه الذكرى في بشرتي. حتّى الذكريات لم تكن تخفّف من ألمي. كأن تذكر ما كنته في زمن ما،

واسترجاع نقاء طفولتي يضعني في مقارنة عميقة مع ما صِرْتُ إليه، فأشعرُ
بسفالة الكبر أكثر، وأحمل تقدّمي في العمر الذي لا يُمكن إيقافه، كأني
أحمل خطيئة أبدية.

في أثناء انتظارنا للأكل، التقت عيناَي بعيني ندى في نظراتٍ خاوية،
كأنّ المرأة التي تجلسُ أمامي ليست نفسها التي عرفتُها منذ سنوات.
كانت ترتدي سروال جينز واسعاً، وتيشيرت بكُمَيْن قصيرَيْن، وقد لَفَّتْ
شَعْرَهَا في طرحة خفيفة في شكلٍ يشبه العِمَامَة، بينما تظهرُ أَدْنَاهَا اللتان
يتدلّى منهما قرطان فضيان جميلان، وعُنُقُهَا الأبيض الذي أصبح يبدو
أطول بعد فقدانها الوزن. كانت كثيرٌ من النساء في المغرب اللواتي
يرغبنَ في خلع الحجاب، ولا يجرؤنَ على ذلك بسبب الخوف أو العادة،
يلجأنَ إلى هذه اللقّة التي تُسمّى التُورْبَان، والتي تخبئُ شعورهنّ فقط،
بينما تبقى آذانهنّ وأعناقهنّ بارزة. طريقة ذكية لخلع الحجاب دون خلعهِ
فعلاً، فلا أحد يستطيع أن يقول إنهنّ غير محجّبات، ما دامت شعورهنّ
متوارية خلف أثوابٍ طرحنّ الجميلة والملوّنة. عند البعضٍ منهنّ، كان
التُورْبَان مجردَ مرحلةٍ يمررنَ منها قبل التخلّص نهائياً من الطرحة، أمّا
البعض الآخر، فيفضّلنَ الاستمرار في ارتدائه، لأنّه يخبئُ شعورهنّ الخشنة
التي لا يُحبِبُنَهَا، وَيَتَفَنَّنُ في ذلك، عبر اللقّات المتنوّعة، والألوان الفاقعة
والبهيجة التي يخترنها، والتي تثير الانتباه أكثر من الشّعْرِ نفسه، وهو ما
يتعارضُ مع مبدأ الحجاب أصلاً.

في تلك اللحظة التي كنّا جالسين فيها، كانت أمامي امرأتان أخريان
لقّتا طرحتيهما على شكل تُورْبَان بدل لقّة الحجاب المعروفة، واضعتين
كميّة كبيرة من الماكياج وأحمر شفاه فاقع، وتتناولان السمك المقلّي بنهم.
فكرتُ أنني لم أنتبه بالضبط متى استبدلت ندى بالحجاب التُورْبَان. لم

أَسأَلُهَا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ تَقُلْ لِي هِيَ أَيُّ شَيْءٍ. حَتَّى إِذَا لَمْ تَشَارِكْنِي رَغْبَتَهَا فِي خَلْعِهِ قَبْلَ أَنْ تَفْعَلَ. كَانَتْ تَحْدُثُ أَشْيَاءَ فِي حَيَاتِهَا الدَّخَلِيَّةِ. أَشْيَاءٌ مَهْمَّةٌ، وَتَغْيِيرَاتٌ جَذَرِيَّةٌ، لَكِنَّهَا فَضَّلَتْ أَنْ تَحْتَفِظَ بِهَا لِنَفْسِهَا، مِثْلِي تَمَاماً.

رَاقِبْتُهَا وَهِيَ تَتَجَادَلُ مَعَ سَعْدٍ حَوْلَ الْفُرُوقِ الطَّبَقِيَّةِ الشَّاسِعَةِ بِالْدارِ الْبَيْضَاءِ، مُحَرِّكَةً رَأْسَهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَعْبُرُ فِيهَا عَنِ الرِّفْضِ أَوْ الْمَوَافَقَةِ أَوْ الْإِعْتِرَاضِ، بَيْنَمَا يَهْتَزُّ قَرطَاهَا الْمَتَدَلِّيَانِ مَعَ كُلِّ حَرَكَةٍ. صَارَتْ تَقُومُ بِهَذِهِ الْحَرَكَةِ كَثِيراً مُؤَخَّراً، كَأَنَّهَا تَوَدُّ لَفْتَ الْإِتْبَاهِ إِلَى أُذُنَيْهَا وَعَنْقِهَا الْعَارِيِّ. قَالَتْ:

- أَمَقْتُ أَبْنَاءَ الثَّانَوِيَّاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ أَفْضَلَ مِنَ الْبَشَرِ الْآخَرِينَ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ يَتَبَرَّزُونَ مِثْلَنَا حِينَ تَمْتَلِئُ أَمْعَاؤُهُمْ.

قُلْتُ:

- هَذَا حَقْدٌ طَبَقِيٌّ!

نَظَرْتُ إِلَى الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَرْتَدِيَانِ التُّورْبَانَ بِدَهْشَةٍ تَنَمُّ عَنْ عَدَمِ اسْتِيعَابِ. كَانَتَا قَدْ ابْتَلَعَتَا أَحْمَرَ شِفَاهَهُمَا كُلَّهُ مَعَ السَّمَكِ الْمَقْلِيِّ، وَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُ إِلَّا خُطُوطٌ حُمْرَاءٌ مُحِيطَةٌ بِشِفَاهَهُنَّ، وَكَانَتَا تَجْلِسَانِ صَامَتَتَيْنِ مُصْغِيَتَيْنِ إِلَى نِقَاشِنَا.

كَانَ سَعْدٌ يُقَشِّرُ الْقِمْرُونَ بِدَقَّةٍ وَتَرَكِيزٍ، وَابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ مَرْتَسِمَةٌ عَلَى شَفَتَيْهِ. قَالَتْ نَدَى بِفَمٍ مَمْتَلئٍ:

- وَلِمَاذَا سَاحَقِدَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُمْ أَصْلاً؟

أَكْمَلْتُ مَضْغَ مَا فِي فَمِهَا، ثُمَّ أَضَافَتْ بِسُرْعَةٍ:

- لَمْ تَعُدِ اللُّغَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ بِالْأَهْمِيَّةِ نَفْسِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ. فِي هَذَا الزَّمَنِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ تُتْقِنُ الْإِنْكَلِيزِيَّةَ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ.

تذكّرتُ فكري الذي لم ينفعه إتقانه لِلُّغَاتِ في أيّ شيء. كانت ندى تنتمي إلى تلك الشريحة من الشباب الذين واجهوا عدم تمكّنه من اللغة الفرنسية بإتقان اللغة الإنكليزية بمجهودهم الشخصي. إذ أخذت تشاهد الأفلام الأمريكية بدون ترجمة، وتُنصِتُ للأغاني باللغة الإنكليزية وهي ما تزال مراهقة. أمّا الآن، فقد أصبحت تتحدّث اللغة الإنكليزية بطلاقة، وبدون لُكْنَة. تعلّم الإنكليزية واستعمالها كان وسيلةً لمقاومة الفروق الطبقية الشاسعة بين الناطقين بالفرنسية وأبناء المدارس العمومية.

قال سَعد وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرة:

- لن تنفعك اللغة الفرنسية إلّا في فرنسا، بينما تستطيع الإنكليزية أن تُوصِلَك إلى العالم كلّه.

قالت ندى بحماس:

- صحيح! حتّى الإسبانية أصبحت أهمّ من الفرنسية!

لم أضف كلمةً واحدة حول هذا الموضوع. حين أكون مشغولةً بالمضغ، كنتُ أحياناً أدخل في حالة غريبة تشبه الأحلام، أيّ أنني أشرد في الأشياء من حولي وأفقد تركيزي تماماً. كانت ندى ما تزال تتكلّم، لكنني لم أكن أعرف عماداً بالضبط. كنتُ شاردةً في امرأةٍ تُطعم طفلها بينما لا يملأ أذنيّ إلّا صياحُ النُدُل وجرّ الطاولات وقرقعة الكؤوس وزقزقات الأطفال. بعد قليل، سمعتها تقول شيئاً عن الشراهة والبوليميا، وعن انتقالها من الحجم XXL إلى ال-M في غضون أشهر قليلة. لم أعلّق لأنني لم أعرف ما هو السياق بالتحديد. شردتُ مرّةً أخرى، لكنّ، هذه المرّة في قطعة الليمون في يد سَعد وهي تُعصر فوق سمكة الميرنا أمامه. لم أرغب في التوقّف عن الأكل، لأنّ عملية المضغ تساعدني على عدم التفكير في أيّ شيءٍ جدّيٍّ، وتشغّل دماغي عن الحمق كلّ الذي اقترفتهُ، عن القلق وعن

النَّدَم وعن الألم. أمضُ عُنَا أتابع المَرَاتِين اللَّتَيْنِ تَرْتَدِيَانِ التُّورْبَانِ وهما تنهضان. جَرَّتْ إحداهما طَرَفَ كُنْهَتِهَا من الخلف. حَرَكَةٌ لَا إِرَادِيَّةَ تَقُومُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ فِي الْمَغْرِبِ حِينَ يَنْهَضْنَ. يَحَاوِلْنَ إِخْفَاءَ مَوْخَرَاتِهِنَّ بِاسْتِمْرَارٍ حَتَّى لَوْ كَانَ طَرَفُ الثَّوْبِ قَصِيرًا. تَفَرَّجَتْ عَلَيْهِمَا وهما تَمْشِيَانِ مَتَبَخَّرَتَيْنِ، مَتَسَلِّلَتَيْنِ بِجَسَدَيْهِمَا بَيْنَ الطَّائِلَاتِ، بَيْنَمَا يَتَابِعُهُمَا بَعِينُهُ رَبٌّ عَائِلَةٌ فِي نَحْوِ الْأَرْبَعِينَيَاتِ، زَوْجَتُهُ كَانَتْ مَنشُغَلَةً بِإِطْعَامِ طِفْلَيْهِمَا، يَعَصِرُ اللَّيْمُونُ فَوْقَ السَّمَكِ، وَيَحْدَقُ فِيهِمَا كَأَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَعَصِرَ بَدَلَ اللَّيْمُونِ مَوْخَرَتَيْهِمَا. اسْتَمَرَّ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِمَا حَتَّى ابْتَعَدَتَا وَتَوَارَيْتَا فِي زَحَامِ السُّوقِ.

اسْتَيْقَظْتُ مِنْ سُرُودِي. قَالَ سَعْدُ كَأَنَّهُ يُلْقِي مُحَاضَرَةً:

- أَظُنُّ أَنَّ مَعْدَلَاتِ الْجَرِيْمَةِ ارْتَفَعَتْ فِي الدَّارِ الْبَيْضَاءِ بِسَبَبِ التَّمَدُّنِ الَّذِي طَالَ الْمَنَاطِقَ الْقَرْوِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَهِيَ مَنَاطِقٌ فَقِيرَةٌ وَمَعْدَمَةٌ وَقَاطِنُوهَا يَسْكُنُونَ فِي أَكْوَاحٍ بَائِسَةٍ مُحَاطِينَ بِالْجُرْذَانِ وَالْأَفَاعِي، لَكِنَّهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، يَتَنَقَّلُونَ إِلَى وَسْطِ الْمَدِينَةِ، وَيَرَوْنَ مَسْتَوَى الْعِيْشِ فِي الْأَحْيَاءِ الرَّاقِيَةِ، مِمَّا يُؤَلِّدُ لَدَيْهِمْ حَقْدًا طَبَقِيًّا. هَذَا الْحَقْدُ يَتِمُّ إِفْرَاقُهُ عَنْ طَرِيقِ اسْتِهْلَاكِ الْمَخْدَرَاتِ وَمُمَارَسَةِ السَّرْقَةِ وَالْإِعْتِدَاءَاتِ.

كَانَ سَعْدُ يَحِبُّ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْآخَرِينَ أَنَّهُ مُثَقَّفٌ وَلَدَيْهِ آرَاءٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَكَنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَكْرَهُ ذَلِكَ. تَفَادَيْتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، لَكِنْ، لَيْسَ بِسَبَبِ أَنَّهُ يَتَظَاهَرُ بِالثَّقَافَةِ، بَلْ لِأَنَّهُ يَذْكُرُنِي دَائِمًا بِنَجْوَى. لَا أَسْتَطِيعُ تَحْدِيدَ وَجْهِ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا، لَكِنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ السَّنَوَاتِ الَّتِي قَضَيْتُهَا مَعًا جَعَلَتْهُمَا يَتَحَدَّثَانِ بِالْأَسْلُوبِ نَفْسِهِ، وَيَسْتَعْمَلَانِ الْكَلِمَاتِ نَفْسَهَا لِلتَّبْعِيرِ عَنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ. كُلُّ شَخْصٍ يَحْمِلُ حَبِيبَهُ السَّابِقَ فِي دَاخِلِهِ، كَأَنَّ حَيَاتِنَا الْقَدِيمَةَ مَعَ شُرَكَائِنَا السَّابِقِينَ لَا تَتَحَوَّلُ فَقَطْ إِلَى ذِكْرِيَّاتٍ، بَلْ إِلَى دُمَاءٍ تَمْتَزِجُ بِدُمَانِنَا وَتَجْرِي فِي عُرُوقِنَا. نَحْنُ صَنِيعَةُ مَاضِينَا وَذِكْرِيَّاتِنَا وَالْأَحْلَامِ الَّتِي

حَلَمْنَاهَا وَلَمْ تَتَحَقَّقْ وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي عَشْنَاهَا وَلَمْ تَكْتَمَلْ. سَعِدَ صَنِيعُهُ مَاضِيهِ مَعَ نَجْوَى، صَنِيعُهُ أَحْلَامِهِمَا مَعًا، وَالْأَلَمُ الَّذِي عَاشَهُ مَعَهَا، وَشَوْقُهُ إِلَيْهَا. فَكَّرْتُ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنْ نَجْوَى يَسْتَدْعِي الْخَلَاصَ مِنْ سَعْدِ نَفْسِهِ. نَظَرْتُ إِلَيْهِ بِحَيَادٍ. كَانَ سَعِيدًا. كَانَ مَبْتَهَجًا دَائِمًا. لَا يَشْكُ وَلَا يَفْلِقُ وَلَا تَسْكُنُهُ الْهَوَاجِسُ. هَاجَسُهُ الْوَحِيدُ هُوَ أَنْ يَصْبَحَ كَاتِبًا. وَالْآنَ، حَتَّى ذَلِكَ الْهَاجِسُ اخْتَفَى بَعْدَمَا رَدَّتْ دَارُ نَشْرِ صَغِيرَةٍ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَقَالَتْ مِمَثَّلْتُهَا إِنَّهَا قَرَأَتْ رِوَايَتَهُ وَأَعْجَبَتْ بِهَا، وَتَمَّتْ بِرِمَجَتِهَا لِلنَّشْرِ فِي مَنَتَصَفِ أَكْتُوبَرِ الْقَادِمِ. كَانَ يَحْمِلُ هَذَا النِّجَاحَ الصَّغِيرَ فِي جِلْدِهِ، أَرَاهُ فِي عُمُقِ ابْتِسَامَتِهِ، وَأَشْعُرُ بِهِ يَلْفَ نَبْرَتِهِ وَكَلِمَاتِهِ. كَانَتْ نَدَى سَعِيدَةً أَيْضًا، لِأَنَّهَا تَمْشِي بِثَبَاتٍ نَحْوَ الصُّورَةِ الَّتِي رَغِبَتْ دَائِمًا فِي أَنْ تَكُونَهَا. كَانَا مِثْلَ طِفْلَيْنِ تَعَلَّمَا الْمَشْيَ، وَكُنْتُ مَا أَزَالَ أَحِبُّوهُ وَأَتَدَحَّرُجُ. هَرَبْتُ بِنَظَرِي وَشَرَدْتُ مَرَّةً أُخْرَى فِي النَّاسِ مِنْ حَوْلِنَا. كَانَ أَفْرَادُ الْعَائِلَةِ الْجَالِسَةِ فِي الطَّائِلَةِ إِلَى جَانِبِنَا يَنْهَضُونَ. رَاحَ الرَّجُلُ يَقْرَأُ شَيْئًا عَلَى شَاشَةِ هَاتِفِهِ وَيَبْتَسِمُ، بَيْنَمَا انْحَنَتْ زَوْجَتُهُ تُحْكِمُ رِبْطَ حِذَاءِ طِفْلِهَا. بَدَأَ أَثَرُ كِيلَوْتِهَا وَاضِحًا مِنْ جَلْبَابِهَا الْبَيْجِ الضَّيِّقِ الَّذِي يُبْرِزُ مَنَحْنِيَّاتِ جَسَدِهَا الْمَمْتَلَى. وَدُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ الزَّوْجُ، صَوَّبَ فَتًى أَسْمَرُ ضَيْلِ الْجَسَدِ بِشَعْرٍ كَعُزْفِ الدِّيكِ نَظَرَهُ إِلَى مُؤَخَّرَتِهَا الضَّخْمَةِ، وَثَبَّتَهُ هُنَاكَ. عَدَّلْتُ طَرَحَةَ رَأْسِهَا الْوَرْدِيَّةَ، وَنَفَضْتُ جَلْبَابَهَا، وَحَمَلْتُ حَقِيبَتَهَا. اسْتَدْتُ الْفَتَى إِلَى سَوْرِ مَطْعَمٍ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ التَّحْدِيقِ إِلَّا حِينَ اخْتَفَتْ فِي الْأَفْقِ.

كنتُ أعملُ على تحرير ترجمةِ روايةٍ تجاريةٍ تافهةٍ حينَ تذكّرتُ أحلامَ آيتِ الحاجِّ. أحلامُ التي قالتَ عنها ندى إنها صديقةُ نجوى المقربّة. فتحتُ حسابي على فيسبوك، ورحتُ أبحثُ عنها. لمَ تُكنُ هناكُ أيّ خطّةٍ في بالي، لكنني كنتُ أريدُ البحثَ عن أيّ شيءٍ له علاقةٌ بنجوى وفي وسعه أن يقرّني منها دون أن أضطرّ إلى التقربِ منها شخصياً. لمَ أكنُ أعرفُ لماذا أودّ التقربَ منها ولا لماذا أوليها هذا الاهتمامَ كلّهُ، لكنني كنتُ متأكّدةً أنّ ثقتي المهترّةَ بنفسِي لها علاقةٌ بذلك. كنتُ ضعيفةٌ وهشّةٌ ومهَيّضَةُ الجناح، وكرهتُ نفسي.

بعدَ بحثٍ قصير، وجدتُ أحلامَ آيتِ الحاجِّ. عرفتُ أنها هيَ من بين العشراتِ من البروفائلاتِ التي تحملُ الاسمَ نفسَه، لأنّ بشرتها سمراءُ غامقة، ولأنّ لدينا صديقتينِ مشتركتينِ: هما نجوى وندى. تطلّعتُ إلى صورةِ بروفايلها التي كانتَ بدونَ فلتر ولا تحسينات. كانتَ عيناها سوداوينِ كبيرتينِ مثلَ عيني غزالة، وأنفُها مدبّياً، وشفّتها سميكَتينِ، وشعرُها أسودَ خشناً جدّاً، كأنه سلكُ غسيل الأواني. ترتدي كنزةً واسعةً من الصوف، وتجلسُ في مكتب، يبدو أنه مكانُ عملها، لأنّ جزءاً من يد شخصٍ وحاسوبٍ إلى جانبها ظهراً في الصورة. تنظرُ إلى الكاميرا دون أن تبسم، كأنّها لم تنتبه في البداية إلى أن أحداً يصوّرُها، فالتقطت الصورة في اللحظة التي رفعت فيها رأسها وانتبهت.

مررتُ على صورها كلّها. كانت لها صور سيلفي كثيرة التقطتها لنفسها في المكتب، وصور في دورة تدريبية للصحافة في بيروت، وصورة في شارع الاستقلال بإسطنبول، وصورة قديمة لها وهي طفلة، وصورة كُتِبَ عليها «حَلَبٌ تحترق»، وصورة مع والدها الذي يعانقها بحُبٍّ، وصورة في مكتبة، حيثُ رُصَّت في خزانة وراءها كُتِبَ كثيرة، وصورة تجلس فيها في درج بناية ما، وصورة قديمة مع نجوى بالكاد استطعتُ تبيّن وجهيهما فيها بسبب رداءة جودتها. لم يكن شَعْرُها مسرّحاً في أيّ من هذه الصور، ولا كانت تضعُ نقطةً ماكياج.

بعثتُ لها دعوة صداقة، ثمّ انطلقتُ لاستكشاف عالمها. وُلِدَت أحلام آيت الحاجّ في مدينة الرّشيدية في الجنوب الشرقي للمغرب عام 1985. ثمّ انتقلتُ إلى مُراكش عام 2004 لاستكمال دراستها الجامعية هناك. وبعدها حصلت على الإجازة من كليّة الآداب، تخصّص أدب عربي، انتقلت إلى الرّباط عام 2007 لتكمّل دراستها في سلك الماستر، تخصّص الأدب العربي والمثاقفة. ثمّ انتقلت إلى الدار البيضاء عام 2011 للدراسة في معهد متخصّص للصحافة، وتخرّجت فيه صحافيةً عام 2013، لتبدأ مسيرتها مع عددٍ من الصحف المغربية والمواقع الإلكترونية الدولية.

كان يبدو أن أحلام تمارس مهنة الصحافة بشغف، فهي لا تنشرُ على صفحتها سوى روابط المقالات التي كتبت، وروابط الأخبار المرتبطة بالسياسة، وروابط مقالات كتبتها زملاؤها، وصوراً لعمودها الأسبوعي في جريدة الخبر المعروفة، وأشياء لها علاقةً بوضع الصحافة في العالم وأخلاقيات المهنة، وبوستات تندّد فيها باعتقال صحافيين، وأخرى تدعو فيها إلى حرّية التعبير، وأخرى تحتجّ فيها على تكميم الأفواه التي تقول الحقيقة. كانت متحمّسة جداً في نضالها على فيسبوك.

لكن، كيف تكون نجوى، السطحية والمتصّعة والمُحبّة للمظاهر، صديقةً لأحلام، التي تبدو أكثر أصالة وعمقاً وصدقاً؟ هل يُمكن أن تُبنى صداقةٌ حقيقية بين شخصين مختلفين تماماً؟

عُدت إلى العمل في انتظار أن تقبل أحلام طلب صداقتي، لكنني لم أستطع التركيز. كنتُ أقرأ جملةً، ثم أبعد ناظري عن شاشة الحاسوب، وأتطلّع إلى أيّ شيء آخر حولي، إلى الأقلام على مكّتي، إلى الأوراق الكثيرة المتراكمة التي كُتبت عليها ملاحظات تخصّ كُتباً وروايات، إلى صورتي الوحيدة مع أمي وأبي ونهى وجميلة، إلى كريم اليدين الذي لا أستطيع الاستغناء عنه بسبب بشرتي الجافة جداً، إلى خاتم زواجي الذي تعودتُ على خلعه كلّما شرعتُ في العمل، إلى النافذة المفتوحة على عالم رماديّ مفعم بالضجيج. أنظرُ إلى أيّ شيء آخر غير اللابتوب، ثم أسافرُ بعيداً في أفكارٍ، أسهو، ولا أعرف طريق الرجوع إلى اليقظة. أعودُ وأقرأ جملةً أخرى، وأصحّ خطأ سقط سهواً من المترجم، ثم أعودُ إلى داخل رأسي، وأنزوي هناك متفرّجةً على حياتي الغريبة.

أفكر أحياناً أنّ دماغ الإنسان هو بيت. بيته الذي يخصّه وحده. ينيه ويقسمه ويرتبه ويزيّنه كما شاء، وينفث فيه الروح التي شاء. بيتٌ ممتلئ بالصور، بعضها معلق على الجدران، والبعض الآخر موضوع على المنضدات، وصورٌ أخرى كثيرة مخبأة في أدراج الخزانات، وأخرى مخفية في أمكنة سرّية في البيت حتّى لا يستطيع أحد الاطلاع عليها، وأخرى طُمست أو أُحرقت أجزاء منها في لحظات غضب أو ألم. ثمّ هناك صورٌ أخرى خُبئت ثم نُسيّت تماماً.

إذا شرّحنا دماغِي، سنجدّه بيتاً يشبه بيتنا في درب الكبير. بيتٌ دافئ، ينضح برائحة أعواد النّدّ ممتزجةً مع رائحة الطبخ وروائح أنفاسٍ

وعطور أمي وأبي وأختي. بيت واسع يحوي خمسَ عُرف. الغرفة الأولى لي، لشهرزاد الراوي الحقيقية التي تحلم أن تصبح كاتبة، إضاءتها خافتة، وبها خزانة ضخمة تحوي كتباً كثيرة من كل نوع، ومكتب عليه آلة كاتبة قديمة، وعلى جدرانها علقت صور أدبيات وأدباء قدامى وجدد ممن أثروا في شخصيتي وكتابتي.

الغرفة الثانية للطفلة التي بداخلي. تعيش فيها شهرزاد الصغيرة البريئة التي لم تفهم قبح العالم بعد. غرفة وردية، تنفذ إليها الشمس من كل جانب، مضيئة كل زاوية فيها، باعثة فيها البهجة. غرفة تجلس فيها شهرزاد الصغيرة منشغلة بألعابها ودماها، غير عابئة بالصور القبيحة التي علقت على جدرانها: صورة جميلة البالغة من العمر سنتين مربوطة إلى رجل السرير بحبل، صورة نهى، البالغة من العمر تسع سنوات وهي تغسل الملابس في طشت أحمر كبير بيدين مسلوختين. صورة الأم منزوية في غرفتها ليلاً، دافئة وجهها في كفيها وتبكي بدون صوت. هناك سرير صغير في هذه الغرفة، تستلقي عليه الطفلة كل ليلة لتحلم. وإلى جانب السرير منضدة وضعت فوقها صورتان: صورة الأب وهو يسبح على ظهره، وصورة زهرة مغمضة عينيها، مبتسمة، تحيط خصرها بشال مزركش، وتستعد للرقص.

الغرفة الثالثة واسعة، تسكن فيها امرأة مجبولة على المعاناة. امرأة وفقط، ليست بكاتبة ولا شاعرة ولا محررة أدبية ولا أي شيء على الإطلاق. امرأة بلغت الآن الحادية والثلاثين، لكنها متعبة، كأنها ركضت هاربة من شيء ما طيلة واحدٍ وثلاثين عاماً بلا توقف. وها هي الآن تتخلص من حمالة صدرها، وتستلقي على السرير، مغمضة عينيها، آخذة نفساً عميقاً. في الغرفة دولاب كبير مملوء بحمالات صدور مختلفة الألوان والموديلات، فوط صحية وسدادات قطنية تكفي ألفين ومائتين وخمسين يوماً من الحيض،

أي ما يُعادل ستّ سنوات، وهو متوسط المدة التي تكون فيها المرأة حائضاً خلال حياتها. حبوبٌ مسكّنة لآلام العادة الشهرية. حبوبٌ منع الحمل تكفي أعواماً من الخصوبة. في زاوية من الغرفة، خزانة بها موادّ تنظيف، مماسح، أواني، بهارات، وكُتب طبخ. على الجدار أمام السرير، علّقت شاشة كبيرة ومتطورة، تعرض باستمرار إشهاراتٍ قديمة وأخرى جديدة. إشهارُ ماركةٍ عصير برتقال من فترة الثمانينيات، تفرغُ فيه امرأةٍ العصير في كووس، وتقدّمه لأطفالها في المطبخ. إشهار طماطم مركّزة من فترة الثمانينيات أيضاً، تقوم فيه امرأةٌ بتقديم الحرية لأسرتها، يتذوّق زوجها ملعقةً منها، ويومئ لها متلذّذاً، مصادقاً على ما صنعتُهُ يداها. إشهار ماركة صابون من فترة التسعينيات، تُطلّ فيه امرأةٌ شابةً من بين شراشِف منشورة في السطح، وتبدو مغتبطةً جداً وهي تنشر الغسيل وتنظف الأواني بهذا الصابون، وفي نهاية الإعلان، تُطلّ علينا ثلاثُ نساءٍ شابّات، بابتساماتٍ عريضة، يكرّرُن شعار ماركة الصابون تلك بنبرة غنائية. إشهارٌ من بداية الألفية الثالثة للتوعية ضدّ تضييع الماء الصالح للشرب، وهو كرتون تقوم فيه امرأةٌ بغسل الأواني وتحريك قِدر يغلي فوق النار ومراقبة طفلينها اللذين يشاهدان التلفاز في الصالون في الوقت نفسه، بكلّ أريحية، بينما تُدندن بأغنيةٍ مرحة. إشهارُ ماركةٍ فوطٍ صحيّة، تظهرُ فيه فوطَةٌ تسبّح في الهواء، ويُسكّب عليها سائلٌ أزرق. إشهار من عام 2016 لمنظف ثياب تقوم فيه امرأةٌ بلباسٍ عصريٍّ بوضع الثياب في ماكينة الغسيل، بينما يجلس زوجها في الصالون واضعاً رِجلاً على رِجل، سعيداً بقميصه الأبيض النظيف. تُعرض هذه الإشهارات على تلك الشاشة منذ واحدٍ وثلاثين عاماً، بلا توقّف، وتُنصِتُ لها المرأة وهي في حالةٍ خدر تامّة. الغرفة الرابعة صغيرةٌ جداً وفارغةٌ من الأثاث والأشياء، يقبّع فيها سعد وحيداً، بالضبط كما كان أوّل مرّةٍ رأيته، بعينين ناعستين، وشعاعُ الشمسِ

يُلقي نوره على وجهه. هكذا أردتُ أن أحتفظ بصورة الحبّ في رأسي، مشعّةً وجميلةً وخاليةً من الشوائب.

أمّا الغرفةُ الخامسة، فكانت أكبر العُرف وأكثرها شساعةً. كانت في البدء فارغةً تماماً وموحّشة بشكلٍ مرعب، لأنني لم أعرف ماذا أفعل بها. ثمّ انتقلت إليها نجوى قبل سنةٍ ونصف، وراحت تملؤها تدريجياً بالأشياء. عُرفةٌ شبيهةٌ بصالون حلاقة للنساء. بها مرايا في كلّ مكان. خزاناتٌ تحتوي موادّ تجميل، وأصباغاً، وأطليّة أظافر، ووصلاتٍ شَعْرٍ مستعار معلّقة مثل أذيال أحصنة، عطوراً من الأنواع والنكهات كلّها، كريماتٍ وماسكاتٍ للشّعْر والوجه، أحذيةٌ عالية الكعب، ثياباً نسائيةً مثيرة، حقائب يدوية، أنايب أحمر شفاه، أقراطاً وقلادات وخواتم وبيرسينغات، صورَ وشومٍ مختلفة الأشكال، الوشوم التي تحملها نجوى، والوشوم التي رغبتُ دائماً في حملها على جلدي.

في هذه الغرفة، ترقص نجوى باستمرار، على أنغام موسيقى جاز بهيجة، مرتديةً حذاءها العالي الكعب، مثيرةً فيّ مشاعر الإعجاب والغيرة والحسد والرفض، مخرجةً الشرّ كلّ الذي كان رابضاً في أعماقي.

لاحقاً ذلك اليوم، قبلتُ أحلام دعوة صداقتي. أرسلتُ لها رسالة شكر وتشجيع، وأخبرتها أنني أتابع عمودها الأسبوعيّ «للنساء فقط» على جريدة الخبر منذ مدّةٍ طويلة، وأنني معجبةٌ بقلمها ونضالها المستميت من أجل حرّية التعبير والصحافة، ثمّ اقترحتُ عليها فكرة نشر مقالاتها بين دفتيّ كتاب. ردّت على رسالتي في الحال بكلماتٍ شكر وامتنان وتحمّست لفكرة الكتاب كثيراً. لم أنتظر كثيراً، في الليل وقبل أن أوي إلى النوم، كتبتُ لها رسالةً أخرى، أخبرها فيها أن علينا أن نلتقي قريباً، وقبلت بلطفٍ كبير.

ذات صباح، اتّصلت بي نُهى وهي تبكي بحرقة. لم تستطع أن تتفوّه بجملَةٍ واضحةٍ واحدةٍ من شدّة ما كانت تبكي. كان صوّثها يائساً وجزعاً في الوقتِ نفسه، ولم يسبق لها أن كلّمتني أو لجأت إليّ وهي في حالةٍ كهذه، بل لم يسبق لها أن كانت في حالةٍ كهذه أصلاً.

كنتُ داخل سيّارةٍ أجرةٍ عالقةٍ في زحامٍ رهيب. وكان سائق التاكسي يصرخ في وجه سائق سيّارةٍ من نوع أودي حمراء كانت واقفةً إلى جانبنا. كان سائق الأودي شابّاً في مقتبل العمر، يرتدي قميصاً ملوّناً تاركاً أزراره العلوية مفتوحة، بينما يلمع شَعْرهُ الأسود الممشوطُ بعناية بالجل. أخرج رأسه من نافذة سيّارته وهو يمزعُ علكة، واتّهم سائق التاكسي بكونه لا يعرف كيف يقود سيّارة. لم يتمالك سائق التاكسي أعصابه، فأخرج رأسه الأصلع البدين من النافذة أيضاً، ونعتَ الرجلَ بالشاذّ جنسياً.

كنتُ أشعر بالغثيان من حركة السيّارة، وكانت نُهى ما تزال تبكي في الجانب الآخر، منهارةً تماماً. قُلْتُ لها أن تنتظر قليلاً. رأيتُ الشابَّ ينزل من سيّارته الأودي ويتوجّه ناحيتنا. أغلّق سائق التاكسي زجاج النافذة الأمامية بسرعة، وراح يضغطُ على بوق السيّارة بدون توقّف. قفرَ حين طرّق سائق الأودي زجاج النافذة بهدوء. أراد أن يحرك السيّارة ليهرب، لكنّ حركة المرور كانت ما تزال متوقّفة.

كانت رائحةُ العرقِ التي تنزّ من إبطي السائق البدين تملأ المكان، وحين فُتِحَت النافذة، تناهت إليّ رائحةُ عطرٍ رجاليّ قويّة.

قال سائق الأودي بهدوء:

- ماذا تريد، يا ابن القحبة؟

وأُتِنِي كَلِمَاتُ نُهَى مِنَ الْهَاتِفِ مُتَقَطَّعةً:

- ماذا تفعلين؟

- أَسْمَعُكَ الْآنَ.

- أُمِّي، يا شهرزاد!

تدحرج قلبي في داخلي مثل كُرة:

- ما بها أُمِّي؟

دَوَّتْ أَبْوَاقُ السَّيَّارَاتِ الْعَالِقَةِ كُلِّهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، وبَكَتْ نُهَى مَرَّةً أُخْرَى،
وَصَرَخَ سَائِقُ التَّاكْسِيِّ:

- اذْهَبْ لِتُضَاجَعَ أَمْلَكَ، أَيُّهَا الْحَمَارُ!

ضَحِكَ سَائِقُ الْأُودِي ضَحْكَةً مُجَلْجَلَةً وَهُوَ يَتَرَجَّعُ بِجَسَدِهِ النَحِيلَ قَلِيلًا
إِلَى الْوَرَاءِ. قَالَتْ نُهَى أَخِيرًا:

- لَمْ أَعُدْ أَتَحْمَلُهَا. إِنِّي أَكْرَهُهَا! أَكْرَهُهَا، يَا شَهْرزَادَ، وَأُرِيدُهَا أَنْ تَمُوتَ!

كُنْتُ أَتَابِعُ بَانْدَهَا شَ جَسَدَ السَّائِقِ وَهُوَ يَمِيلُ وَيَسْقُطُ عَلَى الْكُرْسِيِّ
الْمُجَاوِرِ، بَعْدَمَا تَلَقَّى لَكَمَةً قَوِيَّةً عَلَى وَجْهِهِ مِنْ سَائِقِ الْأُودِي. زَعَقَتْ أَبْوَاقُ
السَّيَّارَاتِ مَرَّةً وَاحِدَةً، زَعِيقًا طَوِيلًا، وَلَا حِظُّ أَنْ السَّيَّارَاتِ الَّتِي كَانَتْ
أَمَامَنَا قَدْ تَحَرَّكَتْ وَابْتَعَدَتْ. وَبِدُونِ تَفْكِيرٍ، فَتَحْتُ بَابَ السَّيَّارَةِ، وَقَفَزْتُ
إِلَى الْخَارِجِ بِخَفَّةٍ، ثُمَّ رَكُضْتُ بِاتِّجَاهِ الرِّصِيفِ.

- شَهْرزَادَ، هَلْ تَسْمَعِينِنِي؟

قُلْتُ بِسُرْعَةٍ وَأَنَا أَلْتَفْتُ خَلْفِي إِلَى السَّائِقِينَ الَّذِينَ نَزَلُوا مِنْ سَيَّارَاتِهِمْ،
وَتَجَمَّهَرُوا حَوْلَ سَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا:

- ما الذي حصل؟

كفّت نُهي أخيراً عن البكاء. قالت:

- شُعيب سيخطبني، ونريد أن نقيمَ حفلَ خطوبةٍ في بيتنا، لكنّ أمّي رفضت!

كنتُ أسير بسرعة. قُلْتُ وأنا ألُهِثُ:

- أنتِ لمِ تخبريني أنكِ ستتزوجين!

لم تردّ. وبعد لحظةٍ صمت، قالت بانفعال:

- إنني أقول لكِ إنّ أمّي رفضت أن نقيمَ حفلَ الخطوبةِ في بيتنا! عن أيّ زواجٍ تتحدّثين؟

قُلْتُ:

- هل كنتِ تنوين إخباري عند دعوتي إلى الحفل؟

صاحت:

- شهرزاد، هذا ليسَ وقتَ حساسيتكِ الزائدة الآن! أمّي هدّدتني مباشرةً أنها ستطرّدي من البيت، إذا فكّرتُ في إقامة حفلٍ فيه!
كنتُ أتصبّبُ عرقاً.

- لكنّ أمّي كانت تتمنّى أن تتزوّجي منذ وقتٍ طويل ... لماذا سترفض زواجك الآن؟!

قالت نُهي بعصبية:

- لماذا أنتِ غبيةٌ هكذا؟ أمّي لم ترفض زواجي، لكنّها تريد حفلَ خطوبةٍ على الطريقة الإسلامية!

- كيف؟

صاحت نهى:

- يعني بدون موسيقى ولا اختلاط. ولا تريد أن أدعو صديقاتي من الكوافورات، لأنهنّ متبرّجات، ولا تريد أن ندعو حتّى نساء العائلة اللواتي لا يرتدين الحجاب! ساعديني، يا شهرزاد!

ثمّ غرقت في نوبة بكاءٍ من جديد.

- ما الذي تقولينه، يا نهى؟

توقّفت عن البكاء مرّةً واحدة، وقالت برباطة جأش:

- أريد أن أقيم حفل خطوبتي في بيتك! ألا تفهمين؟

كنتُ قد ابتعدتُ عن الزحام والضجيج، حتّى أصبحتُ أسمع صوت خطواتي على الرصيف، وصدى غضبٍ نهى يتردّد في أعماقي بوضوح. مرّ شريطُ حياتي المهمّشة في رأسي في ثانيةٍ واحدة، وشعرتُ، لأوّل مرّةٍ في حياتي، بأنني أقوى من أختي.

- لكنّ أمي ستنزِعُ منّا كثيراً.

خرجت كلماتها من حَنَجَرَةٍ مبحوحة وأنفٍ مخنوق كأنها مصابةٌ بالزكام:

- فلتنزِعِ حتّى تشبع! لن أفسد على نفسي الفرحة التي انتظرْتُها طيلة حياتي، لأنّ أمي أصبحت إخوانجية! أريد أن أرقص وأستمتع وأغيظ صديقاتي.

- ماذا تقولين، يا نهى؟ أمي أصبحت إخوانجية؟

صاحت:

- وماذا تظنّين؟ لقد قدّمت لها تلك العاهرةُ خمّاراً أسودَ كهديّة الخميس الماضي! ليتك رأيتِ السعادة على وجه أمي! لم أرها سعيدةً كذلك حتّى عندما أنجبت جميلة طفلها الرابع ... ارتدت تلك الخيمة، ووقفت أمام المرأة وهي تنظر إلى نفسها بفخر كأنها ذاهبةٌ إلى الجنّة!

- ما الذي أصابك، يا شهرزاد؟! مَنْ ستكون العاهرة غير حنان الأشهب؟! زعيمتهنّ الكبيرة التي جعلت أمّي تفقد صوابها! جميلة أيضاً تمشي في الطريق نفسه، وقالت إنها تفكر في ارتداء النقاب!

اعتراني الرعب حين سمعتُ هذا الاسم. لم يسبق لأمّي أن تحدّثت أمامي عن هذه المرأة أبداً، ولم أكن أتخيّل أنها قد تصبح واحدة من جواربها يوماً ما، إذ كانت تكرهها كرهاً شديداً، وتنعّتها بأبشع الأوصاف حين تسمعُ اسمها أو تراها في الدرب تمشي بخيلاء بخمارها الأسود الطويل.

عرفتُ حنان الأشهب أوّل مرّة عندما كنتُ في الخامسة عشرة. كان ذلك في شتاء عام 2001 الطويل والحزين الذي فقدنا فيه جدّتي لأمّي. لم تستطع أمّي تجاوزَ فقدانها لوالدتها بسهولة. أذكرُ أنها كانت تقضي أيّامها في غرفتها ممسكةً طرحة جدّتي البيضاء المطرّزة بخطوط خُضر على الأطراف، تدفن فيها وجهها وتغرقُ في بكاءٍ حارٍّ ومؤلم. كانت حزينّة طول الوقت، وتتكلمُ عن سبب وفاة جدّتي كلّ يوم، وتُخبرُ الجميع أنّ أمّها ما كانت لتموت لو أنهم ما نقلوها إلى المستشفى، مقتنعةً أنّ الأطباء قتلوها بجرعة زائدة من أدوية القلب. في ذلك العام، كانت أمّي تقضي معظم وقتها مع جارة لنا اسمها صباح، تزور بعضهما بعضاً في البيت، وتظللان سهراتين حتّى منتصف الليل، تأكلان البذر وتُثرثران. وفي ليالي الصيف اللذيذة، كانتا تخرجان وتجلسان في عتبة البيت حتّى الرابعة صباحاً، مُستمتعَتين بنسمات الصيف المنعشة، وبغياب زوجيهما عن البيت. أبي كان في القبر طبعاً، أمّا زوجُ صباح، فقد كان بحاراً يقضي ليااليه بين الأمواج. كانت صباح أصغرَ من أمّي بعشر سنوات، جميلة جداً وطيّبة القلب ومسالمة وخفيفة الظلّ، عكسَ أمّي تماماً. كانت تحبّ الحياة والثروة والضحك والنكت البذيئة وتناول البذر ومشاهدة المسلسلات المكسيكية، لكنها كانت تؤدّي الصلوات في أوقاتها، وتقرأ القرآن، لأنّه يريح صدرها ويمنحها السّكينة والاطمئنان. عندما رأت صباح

أَنَّ أُمِّي غير قادرةٍ على تجاوزِ فاجعةِ وفاةِ أمِّها، نصحتها بالذهابِ إلى دار القرآن للترييل والسماع، لأنَّ ذلك سيريح قلبها من الهموم. يائسةً، توجهت أُمِّي إلى الدار وجرّنتي معها إلى هناك. في الباب، استقبلتنا سيّدةٌ ترتدي خماراً بَنِيّاً طويلاً وقفّازين أسودين، بابتسامةٍ عريضة، ورافقتنا للجلوسِ بين النساء الأخريات اللواتي كان أغلبهنّ يرتدين عباءات سود واسعات وخُمُراً تنزلُ من رؤوسهنّ وتغطي أكتافهنّ واصلهً حتى رُكَبهنّ. بعضهنّ كنّ مرافقاتِ بطفلاتٍ صغيرات لم يتجاوزن السادسة من العمر يرتدين حجابات وعباءاتٍ طويلات. كانت كلّ واحدةٍ من النساء تمسكُ مصحفاً بين يديها وتقرأ بصوتٍ خفيض. وحين رأيننا، توقّفن عن القراءة، ورفعن رؤوسهنّ في اللحظة نفسها، وتأمّلننا باشمئزاز. ضغطت أُمِّي على كفّي مصدومةً ممّا رأيته، ثمّ التفتت ونظرت إلى رأسي العاري بفرع.

ذهبت المرأة التي استقبلتنا (عرفتُ لاحقاً أن اسمها ثريا)، ثمّ عادت بعد قليل حاملةً مصحفين جديدين وأنيقين، وقبل أن تقدّمهما لنا، سألتنا بصوتٍ مهموس إن كنّا متوضّئتين أو لا. كذبنا عليها وأمسكنا المصحفين، ورحنا نبحث عن سورةٍ لنقرأها وسط نظراتِ النسوة المستهجنة.

مالّت نحوي امرأةٌ نحيفةٌ جدّاً ترتدي خماراً أسود مهترئاً وهمست في أذني:

- هذا كتاب الله، ولا ينبغي التعامل معه بهذه الطريقة!

حدّقتُ في وجهها الذي كان هيكلاً عظيماً، تغطّيه طبقةٌ شاحبةٌ من الجلد المجعّد، وعينيها الغائرتين، وشفّتيها البيضاوين. كانت جثةٌ تنفّس.

- أيّ طريقة؟

لم تردّ عليّ، ولم تنظر إليّ حتّى، ولم تعدّ إلى دار القرآن مرّةً أخرى. إذ ماتت بعد ذلك بفترةٍ قصيرة بسبب سكتةٍ قلبية. عرفتُ في ما بعد أن الجثة التي رأيتهَا اسمُها مريم، وكانت تبلغ من العمر ستّة وثلاثين عاماً، وأنّها

تحوّلت إلى هيكلٍ عظمي بعدما تزوّج عليها زوجها وتوقّف عن الإنفاق عليها وعلى أطفالها الثلاثة الذين تبلّغ كبراهم ستّ سنوات.

كان الخوف واضحاً على وجه أمّي، وراحت تضغطُ على يدي كلّما سمعت كلمات مثل «أخوات» و«التجويد» و«أصول الفقه». كانت آخرُ مرّةٍ رأيتُ فيها أمّي المتجبرّة شاحبةً من الخوف حين كان أبي على قيد الحياة، لكنّها لم تكن خائفةً من أبي، بل من زهرة. النساء يخفّن من النساء الأخريات أكثر ممّا يخفّن من الرجال، لأنهنّ وحدهنّ يعرفنّ حجمَ القوّة التي يخبئنها في دواخلهنّ، وتظاهرنّ بالعكس. كانت أمّي تريدُ أن تهربَ من أولئك النسوة الغربيات اللواتي يخاطبُ بعضهنّ بعضاً بالأخوات، لكنّها لم تستطع أن تتحرّك من مكانها. كأنّ قوّة خفيةً كانت تسحبها إلى الكرسيّ، ربّما كانت ابتسامة المرأة التي استقبلتنا، والتي كانت تتجوّل في المكان مثل معلّمةٍ تراقبُ تلاميذها في الصفّ.

لم يمرّ وقتٌ طويل حتّى دخلَ كائنٌ طويل القامة، مغطّى بالأسود من الرأس حتّى أخمصِ القدمين. أغلقت النسوة الحاضرات كلّهنّ مصاحفهنّ في الوقت نفسه، ووجّهنّ أنظارهنّ إلى ذلك الشيء الأسود بإعجابٍ مشوب بالحماس والانفعال. أغلق الباب، فرفعَ ذلك الشيء الأسود الذي يشبه خيمة نقابه، كاشفاً عن وجهٍ أبيض ممتلئ، وعينين مكحلتين، ووجنتين حمراوين. تقدّمت المرأة نحونا وهي تخلعُ قفّازيها الأسودين، ونهضت النسوة مندفعاتٍ في اتّجاهها، يسلمنّ عليها، ويسألن عن أحوالها، ويسألنها عمّا يجوز وما لا يجوز في الدين، ويخبرنها بالسور الجديدة الطويلة التي استطعن حفظها عن ظهر قلب. لكرّتي أمّي بمرفقها، وهمست: «منافقات»، ثمّ أضافت وهي ما تزال جالسة ترمق المرأة بعينين مسحورتين: «علينا أن نذهب». لم ألقِ بالألامّي. كنتُ أنظرُ إلى تلك المرأة بذهول، غير قادرةٍ على فهم سبب تملّق أولئك النساء كلّهنّ لها، بينما كانت هي غير عابئةً بهنّ. من أين استمدّت هذه السلطة؟ وفي لحظةٍ ما،

التقت عيناى بعينَيها. نظرت بسرعة إلى شَعْرِي، ثم إلى سروالى الجينز،
وابتسمت، كاشفةً عن فِلجَةٍ بين أسنانها.

لم تكن حنان الأشهب جميلة الوجه، لكنها كانت قوية الشخصية، واثقةً
من نفسها، ولها كاريزما لم أر مثلها قط. كانت سُلطويّةً مثل أمي، لكنها كانت
تمارس سُلطتها على الآخرين بذكاء. هناك نوعان من المتسلّطين: متسلّطين
يجعلون الناس يكرهون السُلطة والتسلّط ويتوقون إلى التحرّر والانعقاد،
ومتسلّطين يجعلون الناس يستمتعون بالركوع عند أرجلهم، ويطمحون إلى
كسب مزيدٍ من الودّ والرضى والتقدير. أمي كانت من النوع الأوّل، وحنان
الأشهب كانت تنتمي إلى النوع الثانى.

بيديّن بيضاويّين منقوشتيّن بالحِنا، مملوءيّن بالأساور الذهبية، أمسكت
حنان الأشهب ميكروفوناً، وراحت تجوّد آياتٍ من القرآن بصوتٍ رديءٍ، قبل
أن تبدأ في إلقاء درسٍ عن أخلاقِ البناتِ في زمنِ الفِتَنِ. كانت لها نظراتُ
مخيفة وساخرةٌ في الوقت نفسه، وكانت تنضحُ بطاقةً تجعلُ الواحدة تشعرُ
بالذنبِ لمجرد أنها موجودةٌ في هذا العالم. تحدّثت عن البناتِ المتبرّجاتِ
في الثانويات، وتفكّكِ الأسر، وزنا العينين، ونتائج المصافحة بين النساء
والرجال. كانت بين الحين والآخر ترفعُ صوتها الحادّ الذي يشبه صياح ديكٍ
لتهدّد وتتوعّد. أحياناً، كانت تُثبّت نظرها في عينيّ مطوّلاً وهي تقول إنّ
البناتِ اللواتي يخرجنَ بناطيل الجينز سيُحرّقنَ في جهنّم، وحين ستأكلُ
النيران لحومهنّ وشحومهنّ وتذوّبها، سيكسو الله عظامهنّ بلحوم أخرى،
لتحترق من جديد، وهكذا يتجدّد اللحم ويحترق إلى أن يذوب، ثمّ يتجدّد
ويحترق ويذوب، إلى أبد الأبدىين.

كانت النساءُ يُصغينَ إليها باهتمامٍ مبالغ فيه وبدون خوف، وكنتُ أستمعُ
إليها باستخفاف، غير مصدّقة أن الله يمكن أن يفعلَ هذا بالناس، لكنّ صوتاً
بداخلي كان يسألني: ماذا لو كان ذلك صحيحاً؟ وكنتُ أشعرُ بالهلع.

- يجب أن تعرفي، يا شهرزاد، أن هؤلاء النساء اللواتي يخبئن أجسادهن وراء الخمر هن أكبر العاهرات في العالم.

لم أعرف إن كنت سأصدق أمي، أو حنان الأشهب، أو صوتي الداخلي. كنت أود أن أتبع صوت قلبي، إلا أنه كان ضجيجاً غير واضح.

ذهبنا بعد ذلك إلى دار القرآن بضع مرّاتٍ أخرى. كانت حنان تأتي في سيارة كبيرة من نوع كات كات، وبمجرد أن تنزل من السيارة، يُفتح الباب الكبير للدار، وتهرع النساء لاستقبالها بحماس وفرح. تدخل مثل ملكة لا ينقصها إلا التاج، ولو أنّها، في حقيقة الأمر، كانت تلبس تاجاً لا مرئياً، تاجاً لا تراه إلا تابعاتها المفتونات بقوّتها، تاج العقّة والشرف الذي تطلّ هي نفسها تتحدّث عنه لساعات، وتقول إنه يجعل المرأة المسلمة غنيّة وراقية مهما بلغت درجة فقرها وبؤسها.

كانت تمشي بخيلاء متوجّهة إلى مكتبها الذي لا يمكن أن يدخله أحد إلا بموعد، ولسبب واضح يتمثل في استشارة دينية تتعلق بمسائل الحياة الحميمة التي لا يمكن طرحها أمام الأخريات. تُلقِي دروساً عن كلّ شيء وأي شيء، وتذكّر تابعاتها في كلّ درس مهما كان موضوعه، بمنافع تعدّد الزوجات، باعتباره الحلّ لمجتمعات بدون خيانة زوجية، وتوصيهن بالصبر والقوّة حتّى لا يكون مصيرهنّ مثل مصير مريم التي ماتت قبل أن تموت فعلاً، ثمّ تدعوهم لتكريس حياتهنّ لخدمة أزواجهنّ، لأنّهنّ خلّقن على هذه الأرض من أجل جعلهم سعداء ومرتاحين، ليكونوا قادرين على خدمة دين الله. النساء هنّ جنديات الخفاء في معركة الإسلام ضدّ الكفر. مريّات الأجيال التي ستحارب الفتن وتنشر الإسلام في بقاع الأرض كلّها. تنظر إلى النساء اليائسات الملفوفات في الأسود، وتقول لهنّ إن حياتهنّ التي تبدو لهنّ باهتة ومُملّة لها، في الحقيقة، معنى، وأن النساء المتبرّجات اللواتي غرّتهنّ الدنيا بشهواتها وبريقها فارغات من الداخل، وبائسات. تصيح بأعلى صوتها وهي تقول لهنّ إنهنّ يملكن أسلحة لمحاربة العدو الكافر، لكنهنّ

لا يعرفن ذلك. أجسادهنّ، وبويضاتهنّ، وأرحامهنّ، وأيديهنّ التي تغسلُ الأواني والثياب، وظهورهنّ المنحنية على الدوام لإعداد الأجواء المثالية لأزواجهنّ لخدموا الإسلام، وفروجهنّ التي يمنحها لهنّ بلا أيّ تردد حتّى لو كنّ مريضاتٍ أو مُنْهَكَات. تلك هي أسلحتهنّ، وهذا هو النضال الحقيقي الذي خُلِقن من أجله كنساء. ترفع صوّتها أكثر وسطاً انبهار الحاضرات، وتضيفُ أنّ النساء مجبولاتٌ على النقص، ضعيفاتٌ وهشّاتٌ بالفطرة، ولا ينبغي أن يسمحنّ لهشاشتهنّ وضعفهنّ وعيْرتهنّ بالتحكّم فيهنّ. العيّرة ضعف، وعلى النساء المسلمات أن يَكُنَّ صلباتٍ قويات، ويمنحن أزواجهن الموافقة القانونية، ليستطيعوا الزواج من نساءٍ أخريات، لأنهنّ إذا لم يفعلنّ، فإنّ أزواجهنّ سيقعون في الحرام بسببهنّ، ولأنّه، في الأحوال جميعها، أن ينام أزواجهنّ مع نساء أخريات في الحلال بعلمهنّ، أفضل من أن يناموا معهنّ في الحرام بغير علمهنّ.

في نهاية كلّ أسبوع، كنّ يجتمعنّ في الدار للاحتفال. تجلب كلّ واحدةٍ منهنّ ما تيسّر من الكعك والحلويات والمملّحات، يعدّدن الشاي بالنعناع، ويلتهمنّ الطعام وهنّ يتحدّثن عن تأثير الأفلام والمسلسلات والأغاني على أخلاق البنات، متبجّحاتٍ ببُعد بناتهنّ عن المعاصي والفحشاء، متباهياتٍ بطول وعرض عباآتهنّ. عندما ينتهينّ من الحديث عن الحشمة والوقار، ينتقلنّ مباشرةً إلى النميمة. بتلذّذٍ فاضح، يغتبنّ كلّ منّ يعرفنّ ومنّ لا يعرفنّ. فلان ليس مسلماً حقيقياً. فلانة تختبئ وراء نقابها لتستطيع ممارسة الرذيلة بسلام. فلان لا يُعفي لحيته كما يجب. فلانة ترتدي خماراً قصيراً وتُظهر يديها. فلان يلبس فوقية طويلةً حتّى الكعب ولا يلتزم بالتقصير. فلانة ترتدي ألواناً فاتحة، وتخرجُ بالكحل في عينيها. يسكبنّ كؤوساً أخرى من الشاي، ويعدّدن للحديث عن قوّة النساء المنقّبات وقدرة أجسادهنّ على مقاومة الحرّ. قالت إحداهنّ ذات مرّة، وكانت في الثلاثينيات، لكنّها لم تدخل المدرسة يوماً، ولا تستطيع حتّى قراءة القرآن بشكلٍ صحيح، قالت إنّ داخل كلّ امرأةٍ

منقبة جهاز تبريد داخلي يعمل على تكيف جسدها لئلا تشعر بالحرارة حين ترتدي النقاب في فصل الصيف. وحين رمتها النسوة الأخريات باستنكار ممزوج بالدهشة، صاحت إن ذلك مُثَبَّت علمياً.

لم تكن حنان التي علمتهنّ هذا كله تجلسُ في بيتها أبداً، ولم تمنح حياتها لزوجها وأطفالها، بل لم تكن تطبخ أو تكتس أو تغسل الثياب. كانت لديها خادمة في البيت، ولم يكن زوجها مُعَدِّداً، لأنها لن تقبل بذلك أبداً. كانت تقضي وقتها في دور القرآن، والجمعيات الخيرية الإسلامية، تُلقي الدروس، وتجوّد القرآن، وتُفتي في مسائل الحياة، وتقود لفيفاً من النساء، وتكتب مقالات عن الدين، تنشرها باسمها في صحفٍ دينية.

كانت النساء كلهنّ يتطلعن إليها بإعجاب، ويتمنّين الدخول إلى مكتبها للجلوس معها وجهاً لوجه وتبادل أطراف الحديث معها. كانت سُلطانة، وكانت الأخريات جواربها المخلصات. في إحدى المرّات، جاءني ثرياً وقالت لي إن حنان تريدُ مقابلي في مكتبها. كانت أمي في الحمام حين نهضتُ وتبعْتُ ثرياً إلى مكتب زعيمته. صعدتُ الدرج المظلم في دهشة، ودخلتُ إلى تلك الغرفة، حيث تجلس حنان محاطةً بكتب الأئمة والمحدثين والمفسرين. رمتني بابتسامة يشوبها الترفع والسخرية، وأشارت لي بيدها البيضاء المملوءة بالأساور الذهبية أن أجلس. أغلقتُ مُجلداً أمامها، وخلعت نظارتها، ثم رفعت وجهها نحوي من جديد، وقالت بنبرة باردة:

- ما اسمك؟

كنتُ مذهولةً ومتلهفةً لمعرفة ما تريده هذه المرأة مني:

- شهرزاد الراوي.

قالت وهي تُقلب أوراقاً أمامها: مكتبة سر من قرأ

- سألتك عن اسمك فقط. ماذا تفعلين في الحياة، يا شهرزاد؟ تدرسين؟

- نعم، في السنة الأولى ثانوي.

سألت دون أن تنظر إليّ:

- أدبية أم علمية؟

قُلْتُ بسرور مثل تلميذةٍ نجبية:

- شعبة الآداب والعلوم الإنسانية.

- وتلك المرأة التي تأتين معها؟ مَنْ تكون؟ أمك؟

- نعم.

ظَلَّت صامتةً وهي ما تزال تُقَلِّب تلك الأوراق كأنها تبحث عن شيءٍ ما لتعرضه عليّ، لكنّها لم تعرض عليّ أيّ شيء. وضعت الأوراق جانباً، وتنفّست عميقاً، ثمّ مالت نحوي، واطعنةً مرفقيها على المكتب، وقالت:

- هل تعرفين قوانين المرور، يا شهرزاد؟

هزرتُ رأسي قائلة:

- نعم.

لكنّها لم تُلَقِ بالآ لجوابي، وأكملت:

- عندما تمشين في طريقٍ مستويةٍ أو حتّى ملتوية، تجدين قوانين المرور. ما هي رسالة القوانين؟

حدّقتُ فيها بدهشة، وقُلْتُ:

- تنظيم حركة المرور!

أكملت دون أن تهتمّ لجوابي:

رسالة القوانين هي الحماية، أليس كذلك؟

قُلْتُ:

- صحيح.

قالت:

- تصوّرِي امرأةَ حمقاء تمشي في الطريق، وترفضُ الوقوف أمام علامة «قِف»، وتأبى الانتباه إلى علاماتِ الخطر. ماذا سيكون مصيرُ هذه السائرة؟
كنتُ أفكرُ في الهدف من سؤالها حين صاحت:

- الهلاك!

وأضافت بسرعة:

- الشيء نفسه بالنسبة إلى القوانين التي وضعها الله على هذه الأرض.
هي حماية من الطيش، وحماية من الهلاك.

نبّض قلبي، وخشيتُ أن تكون مقارنتُها صحيحة. أضافت بصوت هادئ
هذه المرّة:

- أنت فتاة جميلة، وصغيرة، وغريّة، وترتدين ملابس فاتنة، وتذهبين إلى
الثانوية كلّ يوم، وتتفاعلين مع الذكور بحكم الدراسة. ما الذي سيحدث؟
- ما الذي سيحدث؟

- سيميلُ إليك الشباب، وسيرغبون في مصاحبتكِ. أنت أيضاً ستميلين
إليهم، وستشعرين بعاطفة تجاههم، وهذا طبيعيٌّ جداً. مَنْ يأتي ليحمي هذا
التفاعل بينك وبينهم؟ يأتي الدين بقوانينه. لماذا؟ حتّى لا تصير هذه العاطفة
مُعريدة وضاعطة فتفسد أكثر ممّا تصلح. لأنّ العاطفة أصلاً جُعِلت لتكون
بين الزوجين. ولماذا؟ من أجل الصلاح! لأنّها ستؤدّي إلى إنجاب الأطفال
وإلى الشعور بالأمان والاطمئنان.

لم أقل شيئاً. أمسكت قلماً في يديها وأكملت:

- طيّب. سأقولُ لكِ الآنِ ما هي علامةُ المرور التي ستضمنُ مروركِ إلى مستقبلٍ آمنٍ كفتاةٍ. لكن، عليكِ أن تُصغي إليّ وتفهميها وتستوعبيها وتذكّريها دائماً، يا ابنتي.

صعدت الحرارةُ إلى وجنتيّ، ثمّ إلى أُذنيّ. كانت نبرتها قاسية، وجاءت كلمة «ابنتي» وسط كلامها نشاراً.

- لأنّ البنتَ عندما تنزلق، فهي لا تُفسدُ نفسَها فقط، بل تؤثرُ في فتياتٍ أخريات وتجعلنّ ينزلنّ.

سكّنت قليلاً تتأمّل وجهي لتقرأ تأثير كلامها عليّ، ثمّ أضافت:

- من أخطرِ علاماتِ المرور في حياة كلّ فتاة علامة «لا تقتربي».

قالتها، ثمّ كتبتها على ورقةٍ أمامها بسرعة، وعادت للنظرِ إليّ بنظراتٍ حادة، ثمّ واصلت:

- قال الله تعالى: (لا تَقْرُبُوا الرِّثَا، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا). هل تعرفين ما هو الرثا؟

قُلْتُ في استحياء وأنا أمسحُ يديّ اللتين تعرّقتا في سروالي الجينز:

- نعم.

قالت بجِدّة:

- أخبريني أنتِ ما هو تعريفكِ للرثا.

نزلت قطراتُ العرقِ باردةً على ظهري، وقُلْتُ في توتّر:

- يعني الرجلُ مع المرأة ...

مالت على المكتبِ أكثر مُقرّبةً وجهها مني:

- نعم، أكملِي.

أطرقتُ في خجل.

- لا حياء في الدين، يا شهرزاد.

كان قلبي ينبض بسرعة، وسرى ألم رهيب في أمعائي، ثم أخرجتُ العبارة أخيراً:

- عندما ينامان مع بعضهما، ويمارسان الفاشحة.

صاحت:

- الفاحشة وليس الفاشحة! أهذا هو العلم الذي تُحصّلونه في المدرسة؟

- نعم الفا ح - شة.

عقدت ما بين حاجبيها وقالت:

- الزنا لا يعني ممارسة الجنس فقط. الزنا يمكنه أن يكون أيضاً لمسة أو مصافحة للأجنبي أو حتّى نظرة. العينان تزيان أيضاً، يا شهرزاد. الزنا هو كلّ شيء يؤدّي إلى الفتنة، مثل ارتداء بناطيل جينز مثلاً والخروج بشعرٍ عارٍ.

كانت تلعبُ بذلك القلم في يدها، وهي تتحدّث. تتحدّث بلا انقطاع. تطرحُ أسئلة، ثمّ تجيب عنها بنفسها. لأنّ الأجوبة جاهزةٌ عندها. تتحدّث كأنها تُلقِي درساً، كأنها تريد أن تجرّني من يدي قسراً إلى مكانٍ ما. في لحظةٍ ما، لم أعد أسمعها. اختلطت الأصواتُ والمواضيع في رأسي، وصرتُ عاجزةً عن التركيز.

- ما هي نتائج الزنا، يا شهرزاد؟ الأمراض كلّها التي تصيب الجهاز التناسلي وأمراض الاكتئاب وأمراض انفصام الشخصية، وأخطر النتائج، يا شهرزاد، مرضُ السيدا. هذه الأمراض كلّها عقابٌ في الدنيا قبل الآخرة.

كنتُ أريد الخروجَ من ذلك المكان، لكنني كنتُ مكبّلة، مُصقّدةً بسلاسل

لا مرئية. كنت ملتصقةً إلى الكرسيّ، غير قادرةٍ على النهوض. صعدت الحرارةُ إلى أذنيّ، ثم إلى رأسي.

- الواقعُ الذي نعيش فيه برّر الرتا تبريراً خطيراً، فسَمّي الغواية تحرّراً، وأطلق على السُّعار الجنسيّ حاجةً إنسانية. وبدل أن يتوقّف الناس عن ممارسة الرتا، لأنه يسبّب مرض السيدا، بدؤوا يزنون بوقاية. لا بدّ أنك سمعتِ بالعازل الطّبي. ما هو العازل الطّبي؟ ما هي فلسفة العازل الطّبي؟ مَنْ يستعمله؟ الرتا الذين يريدون الهروبَ من آثار الرتا.

كانّ جهنّم بدأت تحرقني في الدنيا. كنتُ أتصبّب عرقاً، وأشعرُ أن سروالي الجينز يخنقني. أمّا النظر إلى حنان بلباسها الأسود الذي يغطّي جسدها كلّهُ، فقد كان يكبح أنفاسي. تمنّيتُ أن تأتي أمّي في تلك اللحظة، وتجرتني من يدي وتأخذني معها، لا يهمّ إذا عاقبتني بعدها، المهمّ أن تُعيدني إلى البيت، وتُبعدني عن هذه المرأة المخيفة. لكنّها لم تأتِ.

لبست حنان نظارتها من جديد، وفتحت درج مكتبها مخرجةً أسطوانة دي في دي. قلبتها جيّداً بين يديها، ونفخت عليها، فتطاير الغبار في الهواء. وبعد برهة، مدّتها لي وهي تقول:

- استمعي إلى هذه الأسطوانة، وستفهمين ما الذي أقوله.

أمسكتُ الأسطوانة بارتباك، وشكرتها. وحين نهضتُ من الكرسيّ، رمقتُ مرّةً أخرى بنطالي الجينز باشمئزاز، ثمّ أشاحت بوجهها عني. خرجتُ من هناك بدمٍ يغلي من الخوف. نزلتُ الدرج ركضاً. كانت أمّي جالسةً في مكانها ترمقني بنظراتٍ تشتعل غضباً. جلستُ إلى جانبها وسطَ نظراتِ النسوة المتوجّهة إلى الأسطوانة في يدي مفعمةً بالحسد.

- أين كنتِ؟ لماذا تأخّرتِ هكذا؟

همستُ بخوف:

- ثريًا قالت لي إنَّ حنانَ تريدني ... لم تتركني أذهبُ بسرعة ... قُلْتُ لها
إنَّ عليَّ الذهاب، لكنَّها ظَلَّتْ تتحدَّثْ ولم تدعني أذهب.
خَرَجَ صَوْتُ أُمِّي من بين أنياب مكشَّرة، بينما كانت تقرصُ فخذي بقوة:
- قُلْتُ لكَ أَلَّا تتأخَّري في أيِّ مكانٍ بدون إذنٍ مِنِّي. حسابُك معي في
البيت.

كانت تلكَ آخر مرَّةٍ نذهبُ فيها إلى دار القرآن.

لم تشعُر أُمِّي بالراحة بين أولئك النسوة، ولم تستطع حتَّى التركيز في قراءة
القرآن، والوصول إلى الخشوع المطلوب لنسيان ألمها. لكنَّ أسباب انقطاعنا
عن ارتياد دار القرآن لم تَكُنْ مقتصرةً على ذلك. فهِمْتُ في ما بعد أن أُمِّي
لم تتحمَّل رؤية امرأةٍ أخرى أقوى منها وأكثر سلطةً ونفوذًا، فكرِهَتْ حنان من
قلبها كلَّه، وسبَّتها أمامنا بأقذع الأوصاف. كانت تنظرُ إليها بحسدٍ مشوب
بالإعجاب وهي تُلقِي دروسها في الدار أمام النسوة المتأثرات المذهولات.
كأنَّها كانت تتمنَّى أن تكون مكانها أو مثلها. لم تتحمَّل أُمِّي، العاشقةُ للسطوة
والظهور، أن تصبحَ مجردَّ واحدةٍ من أولئك النساء المفتونات، ولا أن تكون
مَمَحِيَّةً أمام امرأةٍ أخرى، وما أَرعَبَها أكثر هو أن تنجح هذه المرأة في سلب
عقول بناتها وقلوبهنَّ، فتأخذهنَّ منها. من أين ستستمدُّ معنىً لوجودها دون
التحكُّم فينا؟ أين ستُفرِّغ الخوف كلَّه الذي يصرخ بداخلها فلا يدعُها تنام؟

رأيتُ الخوفَ في عينيَّ أُمِّي تلكَ الليلة. خوفٌ عظيمٌ تحوَّل إلى حقدٍ
قبيح. اتَّسعت عيناها واحمرَّتَا وهي تُسَقِطُني أرضاً وتضعُ قدَمَها في بطني
لتشُلَّ حركتي. لم تَكُنْ قدَمُها في الحقيقة التي شَلَّتْ حركتي، بل كونُها
أُمِّي. لا ينبغي مقاومةُ الأمَّهاتِ حتَّى حينَ يضرِبْنَ. أمسكتُ أنبوباً بلاستيكيًّا
وهوَّت به على جسدي النحيل، تضربُ بالأنبوب بيد، وتقرصُ باليدِ الأخرى
لحمي. كانت جميلة جالسةً على الأرضية غير بعيدٍ عني، تلهو بدمية ذات
شَعْرٍ أحمر منفوش، وتذرفُ الدموعَ بصمت. أمَّا نُهي، فقد كانت جالسةً

على الكنبه، واضعةً رِجلاً على رِجل، وتتفرَّجُ بعَيْنَيْنِ لا ترمِشان على الضرباتِ
التي تنهال على جسدي بلا رحمة.

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقة، ولم أذهب
إلى المكتب بعد. بعدما أنهتْ نُهي مكالمتها معي، مشيتُ تحت السماء
الغائمة التي توشك أن تمطر، بينما أصغي إلى الألمِ ينبض في مثانتني مثل
عقاربِ ساعةٍ تدقّ. في الوقتِ نفسه، كانت تبلغني رائحةُ الماضي قويةً
ونتنه، تماماً مثل رائحة البول التي أيقظتني من النوم في تلك الليلة البعيدة
التي ضربتني فيها أُمِّي حتّى أُغمي عليها. تماماً مثل العار الذي عذّبني
بعدما تبوّلتُ في الفراش في عمر الخامسة عشرة. كيف تسمح أُمِّي لنفسها،
بعد هذه السنوات كلّها وبعد هذا العذابِ كلّهِ الذي سبّبته لي، أن تتحوّل
إلى جاريةٍ من جواري حنان الأشهب؟ كيف تجرّأت على ذلك؟

في اليوم التالي، بعد انتهائنا من ممارسة الحب، استلقينا سعد وأنا جنباً إلى جنب، وراح يُمسّد شُعري كالعادة، ونحنُ نستمع إلى صوتِ بائع الموز المتجوّل الذي يمرّ بعربته دائماً ويوقِفها أمام باب المبنى. لم نعدُ نمارس الحبّ برغبتني إلاّ مرّتين في الأسبوع كحدّ أقصى، وما تبقى هو سعد يمارس الجنس على جُثتي، أي أنني أستلقي على ظهري وأفتح رِجليّ وأدعّه يقضي وطَرَهُ حتّى لا يُصدّع لي رأسي في ما بعد. هو يعرف أنّ الأمر كذلك فقط لا أكثر. شممنا رائحة الباذنجان المقلي، تنبعثُ من إحدى الشقق القريبة، وتنهدنا بعمق، ثمّ ضحكنا معاً. وحين قلْتُ له إنّ هذه الرائحة بالذات تُشعِرني بالحنين إلى طفولتي، تنهد مرّةً أخرى، ثمّ نظرَ إلى وجهي، وقرصَ أنفي قرصةً خفيفة، وقال:

- والآن، أخبريني يا قِطّي، متى تنوين أن تكتُبي روايتك؟

تقلّبتُ في حضنه في انزعاج، وطلبتُ منه أن يُغيّر الموضوع. صمتَ لوهلة. كسرتُ هذا الصمتَ بمرح:

- ستصدُر روايتك بعد أيّام، وهذا يكفيني. أنا سعيدةٌ من أجلك مثلما أنت سعيدٌ لنفسك.

قال بنبرةٍ جادة:

- لا أحدَ يسعدُ للآخرين مثلما يسعدُ لنفسه.

عمّ الصمتُ مرّةً أخرى. شعرتُ أنه يفكّر في شيءٍ ما. وكنتُ أفكّرُ أيضاً. انفلتُ من حضنه، وجلستُ قبالةً، ثمّ سألتُهُ:

- حدّثني مرّةً في بدايةِ علاقتنا عن صديقةٍ لك اسمُها أحلام، لكنّك لم تتحدّث عنها في ما بعد أبداً. لماذا انقطعت علاقتكما؟

رمّقي بنظرةٍ حادّة، وقال:

- لا أريدُ الحديثَ عن أيّ شيءٍ له علاقةٌ بذلك الماضي.

- لماذا؟

- لأنني لا أحبّ الماضي.

قُلْتُ بِالْحاح:

- لكنها كانت صديقةً مقربةً! ما المُشكلةُ في ذلك؟

مدّ يده نحو المنضدةِ إلى جانبِ السرير وهو ما يزال ينظرُ إليّ بحدّة، وأمسك علبةَ السجائر المغلقة، ثمّ راحَ يطرقُ بها راحةَ يده لبرهة. ازدادَ فضولي.

- هيّا، أخبرني!

لم أكن أفهم لماذا يشتعل الحقد في عينيه بمجرد أن يتذكّر نجوى، وكان ذلك يُلهب فضولي أكثر. بعد صمتٍ طويل، قال أخيراً:

- الأصدقاء الذين يتركونك في أوقاتِ الشدّة ليسوا أصدقاء.

قُلْتُ بمرح لتلطيف الأجواء:

- دعك من هذه العبارات النمطية، وأخبرني ما الذي حدث!

طرقَ راحةَ يده بالعلبةِ مرّةً أخرى، ثمّ قال محاولاً جعلَ الأمور عادية:

- عندما تكون صديقاً لحبيبتين، لا بدّ أن تختار أحدهما فقط بعد انفصالهما.

- هل تخلّت عنك من أجل نجوى؟

ردّ بابتسامة مُرّة:

- نعم. مع أنها كانت صديقتي أنا، وأنا من عرّفتها بنجوى!

عدلتُ جلستي لأسمع قصّة أحلام. كنتُ أريد معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها، لأستطيع تصوّر شخصيّتها، وأعرف كيف أتعامل معها. روى لي سعد أنه رآها أوّل مرّة في ندوة صحافية، لا يذكر موضوعها عام 2010. كانت جالسةً هناك، منتبهةً ومركّزةً بجوارحها كلّها في مداخلات المشاركين، وتدوّن بين الفينة والأخرى رؤوس أقلام في مفكرة صغيرة. بعد انتهاء الندوة، عرّفه بها صديق قديم اسمه مراد، وكان زميلاً لها في الكلية، ثمّ بدأت صداقتهما منذ ذلك الوقت.

لكن، بمجرد ما عرّف سعد نجوى على أحلام، حدث تقارب رهيب بينهما، يقول سعد، ربّما لأنّ كليهما امرأتان، وتشتركان في أشياء لا يستطيع الرجال فهمها. ومع ذلك، ظلّ الثلاثة يلتقون كثيراً، ويخرجون معاً إلى المقاهي والبارات، ويقضون أوقاتاً طويلة معاً. كانت أحلام طيّبة القلب، يقول، صادقة، وفية، كريمة وتقف مع أصدقائها في أوقات الشدّة. كانت أيضاً متفانية في عملها، مجتهدة، وتفر من الغشّاشين والمخادعين، وترفض الفساد والرشوة والانبطاح للوصول إلى أهدافها. رفضت عروضاً مغرية للصعود المهني، لأنّ مقابلها كان أن تصبح متملّقة ومداهنة. وتركت العمل في إحدى الصحف المعروفة وهي في بداية مشوارها المهني، لأنّ مديرها لمّح لها بأنه يريد أن يقيم معها علاقة جنسية مقابل رفع راتبها. كانت منسجمة مع أخلاقها ومبادئها، حتّى حين كلّفها ذلك الاستقالة

والبقاء بدون عمل. باختصار، كانت أحلام نموذجاً للإنسان الذي يكافح ليظل شريفاً في عالمٍ فاسدٍ وملوثٍ.

عيبها الوحيد، يقول سعد وقد تحول غضبه إلى ابتسامةٍ عريضةٍ وعينين مشرقتين بالحنين، أنها كانت ثرثارة، ولا تستطيع الحفاظ على سرٍّ. ومهما حاولت، ومهما بذلت من مجهودٍ للتحكم في نفسها، ينتهي السر بالخروج من فمها، ثم ينتهي بها الأمر نادمةً وشاعرةً بالذنب.

واصل سعد سرد قصته مع أحلام، وقد غرق في تفاصيلها، مُستمِعاً بعملية التذكّر إلى أبعد حدٍّ، كأنه لا يعيد مشاهدة مقاطع ماضية من حياته فقط، وإنما يفهم، عبر الاسترجاع، أشياء حدثت ولم يستطع فهمها في أوانها. تكمن لذة التذكّر في إدراك الأشياء واستيعابها. بعدما سرد نصف القصة، أصبح متحمساً أكثر. قال:

- أودُّ أن أُخبركِ بسرٍّ آخر أيضاً.

- ما هو؟

- أحلام كانت معجبةً بي في بداية صداقتنا، لكنها كبحت مشاعرها، لأنني كنتُ مرتبطاً بنجوى.

- وكيف عرفت أنها كانت معجبةً بك، ما دامت قد كبحت مشاعرها؟

ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ على وجهه. تخيلتُ أنه أحسّ بنفسه دونجواناً في تلك اللحظة. قال:

- هي أخبرتني بذلك مرةً. قالت لي «أنت رجلٌ حنونٌ ورائع، ولا يمكن إلا أن تحبّك النساء، ولو لم تكن مرتبطاً بنجوى، لحاولتُ جهدي كلّهُ لأجعلك تقع في حبي».

لم أقل شيئاً.

عندما انفصل سعد عن نجوى، أخذت أحلام بالابتعاد شيئاً فشيئاً. لم تعد تردّ على الاتّصالات، وصارت الرسائل تبقى معلقةً لأيام تحت مبرّرات العمل الكثير المتراكم أو التعب أو النوم أو أيّ شيء آخر. لكنّها، في الوقت نفسه، استمرّت في مقابلة نجوى، والخروج معها، ونشرِ صورٍ لهما معاً على مواقع التواصل.

- كانتا تفعّلان ذلك نكايّةً بي، أعرف ذلك، خاصّةً نجوى التي كانت تستمتع بفكرة أن صديقتي المقرّبة فضّلتها عليّ.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء. لم أعرف أيّ شيءٍ عن أحلام منذ فترة، لأنها حظرتني من مواقع التواصل.

- لماذا حظرتك؟

- لأنها في صفّ حبيبتي السابقة، بكلّ بساطة.

قفّر من السرير، وارتدى بنطاله الجينز بسرعة.

- ما أريد فهمه هو لماذا فضّلتها عليك؟

- ولماذا تسألين هذه الأسئلة كلّها؟ هل أنتِ مجنونة؟

ثمّ خرجَ من الغرفة دون أن ينظر إليّ.

التقيتُ أحلامَ للمرة الأولى في محطة القطار. كانت ذاهبةً إلى الرِّباط، ولم يكن لديها وقتٌ كثير، لكنّها وافقت على مقابلتي هناك قبل السفر. رأيْتُها من الواجهة الزجاجية لستارباكس جالسةً إلى البار، تتناولُ قطعةً كرواسون كبيرة بنهم، تشرب القهوة، وتنقر على هاتفها في الوقتِ نفسه. لوَحْتُ لها من الخارج قبل أن أدخل، فتوقَّفت عن الأكل، وراحت تنفضُ ملابسها من فتات الكرواسون.

قفزتُ من الكرسيِّ العالي بخفةٍ وصافحتني بحرارة. أخبرْتُها أنني أنتظر القطار المتَّجه إلى مُراكش لأزور ابنة عمّة والدتي. تفوّهتُ بكثيرٍ من الحماقاتِ والأكاذيب التي لا معنى ولا داعي لها. لم أكن قادرةً على التحكّم في نفسي. كنتُ قد تعودتُ على الكذب كثيراً، وأصبحتُ أكذبُ حتّى بدون أيِّ سببٍ واضح.

كانت أحلام من ذلك النوع من الناس اللطفاء الذين يثّون في القلبِ السكينة والاطمئنان منذ المحادثة الأولى. شعرتُ منذ اللقاء الأول أننا سنصبح صديقتين، وأنَّ علاقتنا ستستمرّ طويلاً بالرغم من وجودِ سعد. التزمّت كلانا الصمت حوله ذلك اليوم، واتَّفقنا على اللقاء مرّةً أخرى في مقهى بعد يومين، للتعرفِ أكثر وتبادل أطراف الحديث بأريحية حول مشروع الكتاب الذي اقترحتُه عليها. وبالفعل، بمجرد عودتها من الرِّباط، تواصلت معي، والتقينا في مقهى فرنسا. جاءت مرتديةً سروال جينز واسعاً، وحذاء رياضياً، وكان شَعْرُها ممشوطاً بعنايةٍ هذه المرّة، مدهوناً بالجل، ومرتبّاً في

كعكة. وبمجرد ما جلست، رَمَت حقيبتَها السوداء المهترئة والمتقشّرة من الجوانبِ على كرسيّ، وسَحَبَت سيجارةً من جيبِ سروالها، وراحت تدخّن باستمتاع في انتظار القهوة.

وبعدما سَحَبَت خمسةَ أنفاس بالضبط من سيجارتها، مالت نحوي مُسِنِدَةً مَرْفِقَيْهَا إِلَى الطاولة، وقالت:

- أَنْتِ متزوّجةٌ من سَعْد جبران، أليس كذلك؟
قُلْتُ بتوتّر:

- صحيح ... هل تعرفينه؟

أُسَدت ظهرها إلى الكرسيّ، وسَحَبَت نَفْساً آخَرَ من سيجارتها، ثمّ نفثتهُ بتلذّذ واضح، قبل أن تقول:

- جداً.

قُلْتُ متظاهرةً بالدهشة:

- مِنْ أَيْنَ؟ منذ متى؟

- كان واحداً من أعرّأ أصدقائي. لكنّ، كما تعلمين، الحياةُ تكشفُ الأَفْئعة وتفرّق السُّبُل.

- كيف؟

نظرتُ إليّ مليّاً لبرهة كأنها تقرأ ملامحي، ثمّ قالت:

- أقصد أنه من الغريب جداً كيف يتحوّل بعضُ الأصدقاء الذين تشاركوا كلّ شيء حتّى أعمق الأسرار إلى أشخاصٍ لا يعني بعضهم لبعضٍ شيئاً.

حافظتُ على ابتسامتي حتّى أخفي توتّري. قُلْتُ:

- صحيح. لكنّ، ما هذه المصادفة الغريبة التي ستجعلُ كاتبةَ عمودي المفضّل صديقةً قديمةً لزوجي؟

سكتُ قليلاً أتأملُ تقاسيمها المملوءة بالارتباب، ثم أضفتُ بسرعة:

- فقط لعلمكِ، أنا وسعد منفصلان منذ فترة.

قالت بفتور وهي تتأملني بريبة:

- بهذه السرعة؟

- لكننا لم نبدأ إجراءات الطلاق القانونية بعد. أعني أننا اتَّفَقنا على أن نفعل ذلك في أقرب وقتٍ، إن شاء الله.

قالت بمرح:

- ذلك أفضل.

- لماذا؟

نظرتُ إليّ باستغراب:

- أنتِ ينبغي أن تعرفي لماذا!

ظلمتُ مندهشةً لوهلة، ثم ضغطتُ عليّ الشعور بالذنب، لكنني واصلتُ:

- ما زلنا نعيش معاً حالياً ... تعرفين، من الصعب جداً إيجاد إيجارٍ مناسب في الدار البيضاء هذه الأيام.

عندما قلتُ هذه الجملة، جاءني خيالٌ قويٌّ ومُغرٍ، رأيتُ فيه نفسي أعيشُ وحدي في بيتٍ آخر.

بعدَ برهةٍ صمتٍ قصيرة، قالت:

- هل يمكنني أن أسألكِ سؤالاً شخصياً؟

- نعم، بالطبع!

- ما السببُ الذي جعلكِ تتخذين قرار الانفصال؟

- أسباب كثيرة ... كيف عرفتِ أنني أنا من اتخذتُ القرار؟

- واضح.

- لماذا؟

لم تردّ على سُؤالي. طرحَت سُؤالها مرّةً أخرى:

- ما الذي جعلكِ تنفصلين عنه؟ أقصد السببَ الرئيس ...

- لم تتفاهم بخصوصِ أمور الحياةِ المشتركة. هذا كلّ ما في الأمر.

ابتسمتُ، وشعرتُ أنها أرادت أن تضحك، لكنّها تحكّمت في شفَتَيْها.

دعست عَقِبَ سيجارَتِها في المنفضة، وقالت:

- عندما لا يتطوّر الشريكان في الاتجاه نفسه، أو تكون وتيرةُ تطوّرهما

متفاوتةً السرعة، يصبح الانفصال ضرورة. أعرف عدداً هائلاً من النساء اللواتي

اتّخذنَ قرار الانفصال عن أزواجهنّ أو شركائهنّ لهذا السبب، فالنساء أصبحنَ

يتفوّقنَ على الرجال في طموههنّ إلى الأفضل، وصارت وتيرةُ تطوّرهنّ أسرع

من وتيرة تطوّر الرجال، لذلك يحدث الانفصالُ من طرفهنّ أولاً.

أومأت.

- حتّى النساء البسيطات والأمميّات والجاهلات أصبح لديهنّ طموح أكبر

من طموح أزواجهنّ وشركائهنّ. لا بدّ أنّك تتّبعين التطوّرات التي تحصل على

السوشال ميديا وسمعت بما يُسمّى «روتيني اليومي»؟ لا أظنّ أن النساء

يتعرّينَ على اليوتيوب فقط بسبب الفقر والحاجة، بل بسبب الطموح والرغبة

في تحسين ظروفهنّ المعيشية والحصول على حياةٍ أفضل! ولقد رأينا كثيراً

من الحالات التي تُثبت هذا الكلام.

جاءت القهوة. كنتُ متشوّقةً لبدء الحديث عن نجوى. بدأ الملل يتسرّب

إلى داخلي شيئاً فشيئاً. هزرتُ رأسي موافقةً على كلامها، لأشعرها بالارتياح،

حَتَّى تَسْتَمِرَّ فِي الْكَلَامِ وَتَصِلَ فِي الْآخِرِ إِلَى الْمَوْضُوعِ الْمَنْشُودِ: نَجْوَى.
سَحَبَتْ بِخَفَّةٍ سِجَارَةً أُخْرَى مِنْ جِيبِ بَنْطَالِهَا الْجِينِزِ وَوَاصَلَتْ:

- هَلْ سَمِعْتَ بِنَادِيَةَ الَّتِي طَعَنَهَا زَوْجُهَا فِي مُؤَخَّرَتِهَا بِسَبَبِ فِيدِيُوهِاتِهَا
عَلَى الْيُوتِيُوبِ؟ إِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا عَلَى أَنْ طَمُوحُ الْمَرْأَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ أَصْبَحَ يَتَفَوَّقُ
عَلَى طَمُوحِ الرَّجُلِ! فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ زَوْجُ نَادِيَةَ فِي تَصْرِيحَاتِهِ
لِلْمَوَاقِعِ الصَّحَافِيَّةِ الصَّفْرَاءِ إِنَّ حَيَاتِهِمَا لَا يَنْقُصُهَا خَيْرٌ، تَصِفُ نَادِيَةَ تِلْكَ
الْحَيَاةَ نَفْسَهَا بِحَيَاةِ الْقَهْرِ، وَتَحْلُمُ فِي أَنْ يَعِيشَ أَوْلَادُهَا فِي ظُرُوفٍ أَفْضَلَ،
وَلِذَلِكَ قَرَّرَتْ إِظْهَارَ مِفَاتِنِهَا عَلَى الْيُوتِيُوبِ ...

أُمَامْتُ.

- نَعَمْ ... الطَّمُوحُ مَهْمٌ جَدًّا ...

وَاصَلَتْ:

- الرِّجَالُ يَرِيدُونَ الْحِفَاظَ عَلَى عِلَاقَاتِهِمُ الزَّوْجِيَّةَ بِدُونِ بَذْلِ أَيِّ مَجْهُودٍ
لِمَسَايِرَةِ طَمُوحِ شَرِيكَاتِهِمْ. أَلَمْ تَلَاظِنِي أَنْ نَسَبَ الطَّلَاقِ قَدْ أَزْدَادَتْ، وَأَنَّ
النِّسَاءَ هُنَّ، فِي الْغَالِبِ، مَنْ يَطْلُبْنَهُ؟ أَظُنُّ أَنَّ الْأَوَانَ قَدْ آتَى لِيُرَاجِعَ الرِّجَالُ
أَنْفُسَهُمْ. لَمْ يُعَدِّ يَكْفِي فِي زَمَنِنَا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ رَجُلًا لَتَبْقَى زَوْجَتُهُ مَعَهُ.

- صَحِيحٌ!

سَكَتَتْ قَلِيلًا وَهِيَ تُطْفِئُ سِجَارَتَهَا وَتَضَعُ رِجْلًا عَلَى رِجْلِ، ثُمَّ قَالَتْ:

- هَلْ تَقْبَلُ سَعْدَ مَسْأَلَةِ انْفِصَالِكُمَا بِسَهُولَةٍ؟

قُلْتُ بِفَتْورٍ:

- نَعَمْ.

رُحْتُ أَفَكِّرُ إِنْ كَانَ فَعْلًا سَيَتَقَبَّلُ الْانْفِصَالَ لَوْ أَنَّي طَلَبْتُ ذَلِكَ، وَتَسَاءَلْتُ
إِنْ كُنْتُ أَحْبَبُّهُ بِحَقٍّ، لِأَنَّ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي يُحِبِّبْنَ أَزْوَاجَهُنَّ يَسْعَيْنَ إِلَى الْحَدِيثِ

عنهم وعن صفاتهم الجيدة أمام الناس طول الوقت، أمّا أنا، فلم أعد أحمّل الحديث عنه أبداً.

قالت بهمس كأنها تحدّث نفسها:

- أحمق ...

- من الأحمق؟

نظرت إليّ مبتسمة.

- سعد. أقصد أنه واحدٌ من أولئك الرجال الحمقى. أذكرُ عندما انفصلت عنه حبيبته السابقة، لم يتركها وشأنها لوقتٍ طويل، وراح يلاحقها في كلّ مكان. لو رأيته راکعاً عند قدميّها طالباً فرصةً أخرى، لن تصدّقي أنه هو نفسه من حوّل حياتها إلى جحيم.

قالت ذلك بتلذّذ، وعرفتُ أنها لا تحبّ سعداً ولا تطيقه. ظللتُ أحدّق فيها ببلاهة لبرهةٍ من الزمن غير قادرةٍ على استيعابٍ مشاعري المتناقضة. لم أعرف إن كنتُ سأشعر بالغيرة أو بالذنب أو بالخوف أو بالنفور أو بالنشوة، ولم أعرف ماذا أقول.

رمقتني بتعاطف هذه المرّة، ثمّ أضافت:

- أتمنّى ألا يكون الانفصالُ صعباً. أستطيع أن أتخيّل شعوركِ وأنتِ تعيشين تحتَ سقفٍ واحدٍ مع شخصٍ لا تطيقينه.

- ليس إلى تلك الدرجة.

ابتسمت، لكنّها أخفقت في إخفاء استغرابها. ظلّت صامتةً لوهلة وهي تحاول إشعال سيجارةٍ أخرى، لكنّ ولاعتها لم تكن تعمل، فراحت تبحثُ عن ولاعةٍ أخرى في جيب بنطالها الجينز. لم أجرؤ على سؤالها عن نجوى، بالرغم من أنني تحييتُ فرصةً صمتها طويلاً. وبعد قليل، سحبت ولاعةً أخرى من

حقيبتها المهترئة، أشعلت سيجارة وبدأت تتحدّث مباشرة عن موضوع آخر. كنتُ حينها قد استسلمتُ لجُبنِي. شربتُ من قهوتي الباردة، ورحتُ أستمع إليها وأنا أراقبُ قسماتِ وجهها الأسمر البديع، وحركاتِ يديها، والدخان يخرجُ من بين شفّتيها السميكتين. كنتُ يائسةً وأنا أتأمّلها محاولةً العثور على نجوى فيها. كنتُ أؤمن أن الأصدقاء أيضاً يتشابهون، مثل العائلة، وإن لم يكونوا يتشابهون في الشكل والملامح، فإنّ بعضهم يستعير من بعض أسلوبه في الحديث وإيماءاته ونظراته إلى الحياة، بل إنّ المرء يصبح عاجزاً أحياناً عن تحديد الأشياء التي تنتمي في الأصل إلى كلّ واحدٍ منهم.

- أنتِ فتاةٌ بريئةٌ وطيّبةٌ جدّاً، يا شهرزاد.

- لماذا تظنّين هذا؟

- العالمُ الذي نعيشُ فيه متوحّش، يا شهرزاد، والبشر يأكلُ بعضهم بعضاً. قليلون فقط من يحافظون على أصالتهم وبراءتهم وسط هذه الفوضى كلّها. وأنا أحببتُ قلبك الطيّب.

استقرّت بيني وبين أحلام ألفة غريبة ودفاء وودّ قويّ، حتّى تخيلتُ أنّنا كنّا صديقتين في حياةٍ أخرى نسيناها. أخفيتُ عن زوجي لقاءاتي معها، وصرتُ أخلقُ الأعذار والأكاذيب لأذهبَ لرؤيتها. أحياناً كنتُ أتدّرعُ بزيارة أمّي، وأحياناً بالذهابِ لرؤية أختي نهى في صالون التجميل. أحياناً، كنتُ أدّعي أنني أريد الخروج للمشي وحدي أو الجلوس في مقهى للكتابة. وفي اللقاءات كلّها التي جمعتني بأحلام، كنتُ أفكّر في نجوى. كنتُ أنظرُ إلى صديقتي الجديدة وأنا أحاول أن أجد ملامح حبيبة زوجي السابقة فيها. كنتُ أفكّر في ذلك باستمرار، ونحن جالستان في المقاهي، أو ونحنُ نمشي على الكورنيش، أو أنا أتناول العشاء عندها في البيت، أو نحنُ نمشي في شوارع الدار البيضاء تحتَ المطر مثل صديقتين قديمتين، لكنني لم أجروُ حتّى على ذِكر اسم نجوى على لساني.

كانت أحلام تتصرف كما لو كنت صديقتها منذ زمن بعيد. في أثناء لقاءاتنا، حكّت لي أشياء كثيرة عن نفسها. كانت ثرثرة فعلاً. حين تروي أي قصة تتعلق بشخص من عائلتها أو أصدقائها أو معارفها، كان سرُّ من الأسرار ينفلت منها دون أن تشعر. من الأشياء التي باحت لي بها أن خالها يخون زوجته مع بائعات الهوى، وأن أمها سحرت لأبيها حتى يصبح عاجزاً عن انتقادها أو الاعتراض على قراراتها. شعرت أنها ندمت فوراً أن أخبرني بذلك. كانت تندم، لكنها تعود وتفشي أسراراً أخرى كأنها تنسى في كل مرة الحسرة التي تعقب ذلك. أخبرني أيضاً أن إحدى صديقاتها سرقت فستاناً وقميصاً من محلّ لبيع الملابس، بالرغم من أنها لم تكن في حاجة إلى ذلك. في البداية، لم تقل اسم صديقتها، وبدا أنها تحكمت في نفسها كثيراً لئلا تفعل. كانت تسرد الأحداث بدهشة وتلذذ مثل طفل منبهراً أمام فيلم عجائبي، وفي الأخير، فتحت عينيها على آخرهما، كأنها تسمع عن الحادثة أول مرة، وقالت:

- لن تخيلي من تكون هذه الفتاة، لكنني لن أقول اسمها.

كانت تذكر نفسها بالحفاظ على السر وتودع توقعها لإفشائه.

- لا بأس. ليس مهماً.

تنفست عميقاً ورفعت حاجبها وقالت بصوت شبه مهموس كأنها تخاف أن تسمعها كائنات خفية:

- سأقول لك، لكن، لا تخبري أحداً.

- قولي.

مالّت على الطاولة أمامها حتى كادت تقلب فنجان قهوتها.

- إنها نجوى صابر، حبيبة زوجك السابقة.

أسندت ظهرها إلى الكرسي، ورحت أظهار التفكير.

- نجوى صابر ...

- نعم، أظن أنك تعرفينها، فقد رأيتها في قائمة أصدقائنا المشتركين على فيسبوك.

- أشعر كأنني رأيت هذا الاسم في مكان ما ...

كنتُ أحاول دائماً عدم إبداء أيّ اهتمام بأيّ موضوع يرتبط بنجوى. وحين تسنح الفرصة ويذكر اسمها على لسان أحلام، كنتُ أطرح الأسئلة بشكل غير مباشر، لأحافظ عليها كموضوع للنقاش. وهكذا عرفتُ أنها تسكن في شارع أنفأ، وأنها تحبّ قضاء وقتها في السفر والرياضة والسباحة، وأنها تسعى دائماً لتناول طعامها في المطاعم الراقية. عرفتُ أيضاً أنّ حلمها في الحياة هو أن تتزوَّج من رجلٍ أوروبي يُخرجها من المغرب أو من رجلٍ غنيٍّ يجعلها في غنى عن العمل، ويشتري لها الهدايا الثمينة، ويأخذها في رحلة طويلة حول العالم.

أصبحت أحلام أقرب صديقة لي في تلك الفترة، أهرعُ للقائها كلّ مرّة، وأترك كلّ شيءٍ لأراها، وأقفز فرحاً حين تطلب منّي أن أمرّ لرؤيتها في البيت. تصعدُ فوق الأريكة وتمدّد ساقيها أمامها على الطاولة، ثم تُشعل سيجارةً، وتشرعُ في الحكى والثرثرة. كنتُ أشعر ونحن نتحدّث وتناقش أنّ العالم كلّهُ حولي يختفي ويستحيل سراباً. كأننا جالستان داخل فقاعة خفيفة تفصلنا عن العالم الذي نعيش فيه، لكنها شفافة بما يكفي لتدعنا نراه بوضوح. لطالما آمنتُ أن ثرثرة النساء ونميمتهنّ وسيلةٌ رائعةٌ للمقاومة. إنهنّ يبحنّ بما يختلجُ في دواخلهنّ، ويعبرنّ عما يجولُ في خواطرهنّ بصدقٍ وحريةٍ حين يكنّ بعيداتٍ عن أنظار الرجال وأحكامهم. حتّى إنّ أحاديثهنّ في غيابهم مختلفةٌ تماماً عما يُظهرنه في حضورهم. يختفي فجأة الضعف والخنوع والتحايل، ويحلّ محلّهم الانتقاد والشكوى وعدم الرضى، وتصبح المرأة التي لا تعرف كيف ترفع قنينة ماءٍ عن الطاولة قادرةً على حملِ ثلاجةٍ والصعود بها في

الدرج، ويصْبُحُ الرجال جميعهم ناقصين وأنانيين وعوائق في وجه رغباتِ النساء وطموحاتهنّ. قالت لي أحلام ذات مرّة إنّ طموحَ نجوى اللامحدود ورغبتّها في التقدّم إلى الأمام في حياتها من الأسباب التي جعلتها تترك سَعداً، سَعداً الذي لم يستطع أن يمنحها أيّ شيء، لتُحقّق هذا الطموح، بل إنه تحوّل، في وقتٍ من الأوقات، إلى عائقٍ في وجه هذا الطموح، بغيّره اللاعقلانية، وشكواه المستمرّة من غيابها عن البيت وصداقاتها الكثيرة ولقاءاتها مع معارفها وسفرها وحبّها الكبير للحياة. تساءلتُ في أيّ لحظة بالضبط يبدأ ما نُسَمِّيه حبّاً وغيّرة في التحوّل إلى عنف؟ وكَم من الخوف والحقْد ينبغي أن يكون داخل قلب المرء، كي يحاول كسرَ حبيبته؟ لكنّ قلبي سُرعان ما أسكتَ عقلي عن الكلام، وصرتُ أفكرُ إن كان سَعْد يحبّني فعلاً ويهتمّ لأمرَي مثلما أحبّ نجوى وأهتمّ لأمرها. فأنا لم أرَ الغيرةَ الشديدة التي تتحدّثُ عنها أحلام في عينيه حين أخرج من البيت، ولم أشعرُ أنه يريد أن يصفعني ويكسر كلّ ما في البيت لأنه يريدني أن أكون ملكه وحده. باختصار، كان صوتان يتصارعان في داخلي: صوتُ عقلي الناضج والعقلاني والمنطقي، وصوتُ عاطفتي المريضة والناقصة والسامة. لكنّ عاطفتي المريضة كانت تغلب دائماً وتسمّم تفكيري.

أذكرُ أنني في مساءٍ أحد الأيام، افتعلتُ شجاراً كبيراً مع سَعْد. كان مستغرقاً في الكتابة حين اقتربتُ منه وشرعتُ في تقيله. بادّلتني القُبْل ببرود، بينما كنتُ ألتقم شفتيه بقوة وعمق كأنني أخافُ أن يهرب مِنِّي. كنتُ يائسة، وكان اليأسُ يشعلُ رغبتِي أكثر. انفلتت شفتاه من شفتيّ بلطف، وهمّس في أذني أنه في حالةِ إلهام نادرة، وعليه أن يستغلّها قبل أن تهربَ منه الأفكار. وفي لحظةٍ واحدة، تحوّلت تلك الرغبة كلّها في داخلي نحوه إلى نفورٍ من العالم كلّهِ. ابتعدتُ في إحباط، بينما عادَ هو إلى الكتابة كأنّ شيئاً لم يحدث.

كان نقره السريع على لوحة المفاتيح يتحوّل إلى صوتٍ مزعج في رأسي،

ويزيد من غضبي، ويجعلني أفكر أنه يحبّ نجوى ويعشقها حدّ الجنون
وحدّ عدم رغبته في الاقتراب من أيّ امرأةٍ أخرى. هل كان سيرفض تقبيلها
لو أنها هي من طلبت ذلك؟ شعرتُ بطعم لُعبه في فمي مرّاً، وتمنيتُ لو
أستطيع أن أبصق عليه.

- ترفض زوجتك من أجل بضع فقراتٍ إضافية في روايةٍ أقصى ما يمكن
أن تصل إليه هو الحصول على جائزةٍ مغربية سخيفة!

رفع وجهه نحوي وتأملني بعينين حمراوين مُشتعلتين غضباً. تمنيتُ لو
أستطيع ضربه في تلك اللحظة.

- يجبُ أن تعلّمي أن الأمور لن تسير دائماً كما تريدن، يا شهرزاد، ويجبُ
أن تشعري بما أشعرُ به عندما ترفضيني!

- أنا لا أرفضك. إنني أكون إمّا مُتعبّة أو مريضةً أو مشغولة ...

- أرجوك، أغلّقي فمك!

- لن أغلقه. هل تعلم لماذا؟ لأنك لن تُنتج لنا تحفةً فنيّةً إذا رفضت أن
تمارس الحبّ مع زوجتك، فأنت لستَ مارسيل بروسست على أيّ حال.

لم يردّ. أغلّق حاسوبه وتوجّه إلى غرفة النوم، ثمّ أوصد الباب خلفه بهدوء.
تبعته إلى الغرفة، ووجدته متّكئاً على السرير، واضعاً حاسوبه على فخذه،
مركّزاً نظره في الشاشة، لكنّه لا يكتب أيّ شيء.

- لماذا لا تردّ عليّ؟

- علامَ أردّ؟ عليك أن تعلّمي، يا شهرزاد، أنّك لو لم تكوني امرأةً لحطّمتُ
رأسك الذي يشبه الطنجرة ذاك.

- يا لك من حقيرٍ وقليلٍ أدب! إنّك تصدمني كلّ يومٍ أكثر!

- هل ندمتِ لأنك تزوّجتِ بي؟

- لا أُصَدِّق! أقسم أنني لا أستطيع أن أُصَدِّق!

- إذا ندمتِ أخبريني لنهي هذه العلاقة.

- ماذا تقول؟ لماذا تقول هذا؟

- لأنّ هذه العلاقة لم يُعد لها أيّ معنى على الإطلاق، وأنا لم أعد أستطيع التحمّل.

- لماذا؟ ألم تُعد تحبّني؟ أنتَ لم تُعد تحبّني، أليس كذلك؟

- أغلق حاسوبه بعنفٍ ونهَض.

- الحبّ لا علاقةً له بهذا كلّهُ.

خرج من الغرفة وتبعتهُ.

- كيف؟

- لا شيء.

كنّا قد وصلنا إلى باب البيت. فتح الباب وهمّ بالخروج. أمسكتهُ من يده بقوة حتّى أمنعه. كنتُ فرّعة، وحين نظرتُ إلى عينيه، شعرتُ بالألم نفسه الذي اعتراني حين ماتَ أبي.

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى بيتِ أُمِّي. كنتُ ما أزال غاضبةً، وقررتُ أنني لن أنام مع سَعد تحت سقفٍ واحد من الآن فصاعداً، خاصّةً وأنه عادَ متأخراً الليلة الماضية، ونامَ في البهو. مرّرت أُمِّي يدها على بطني المنتفخة، وسألتنني إن كانت تحمِلُ طفلاً أو ليسَ بعد، وقالت إنَّ عدم الإنجاب لن يجعلني حرّةً وسعيدةً كما أعتقد، ثمَّ سألتني عن رأي سَعد في الموضوع. كنتُ أشرح لها أنني وزوجي متفقان على عدم الإنجاب في الوقت الحالي، حين خرجت نهى من الغرفة بوجه مصبوغٍ بطبقات الماكياج، وحين مرّت، انتشرت رائحة عطرها في المكان. مسحت أُمِّي فمها بطرف طرحة رأسها وهي ترمقها شرّاً، ثمَّ قالت:

- كم من امرأةٍ زنت فقط بسبب رائحة عطرها!

وحين أنهت جملتها، التفتت إليّ وهمست:

- إيّاكِ أن تصبّحي مثلها، حتّى إذا لم تلبسي الحجاب، حاولي، على الأقلّ، أن يكون لباسُكِ مستوراً ومحتشماً.

تمتت نهى بكلماتٍ غير واضحة وهي تخطو إلى الخارج، ثمَّ أغلقت الباب خلفها بعنف. مسحت أُمِّي فمها بطرحة رأسها مرّةً أخرى، وراحت تستغفر الله بصوتٍ شبه مهموس. لم أقلّ لها أيّ شيءٍ بخصوص رأيي في الحجاب، ولا كانت لديّ الشجاعةُ لأسألها لماذا ارتدت هي وأختي جميلة النقاب، ولا حتّى أخبرتها أن نهى تنوي أن تقيم حفلَ خطوبتها في

بيتي. كنتُ فقط أبتسم، لأنني كنتُ أريد أن أحافظَ على المثالية التي تبدو عليها الأشياءُ من الخارج: أم تمرر يدها على بطن ابنتها وهي تبتسم، والبنْتُ تشرح لأمها بكل هدوءٍ ولطفٍ أسبابَ قرارها عَدَم الإنجاب في الوقت الحالي. لكنَّ القصةَ التي كانت تقدّمها الصورةُ الخارجية كانت بعيدةً تماماً عن الحقيقة، تماماً مثل تلك الصور التي التقطناها في طفولتنا في زمن الثمانينيات والتسعينيات، والتي تبدو فيها كما لو كنّا في حدائق ساحرة، لكنّها التُقِطت في واقع الأمر، داخل استوديوهات تصوير باردة ومظلمة.

بعد الغداء، ذهبتُ إلى شارع أنفّا، حيث تقطن نجوى، وجبتُ المكان زقاقاً زقاقاً، وتطلّعتُ إلى داخل المقاهي كلّها، لعلّها تكون جالسةً هناك، فأراها في صورةٍ حقيقيةٍ وكاملة. وفي كلّ مرّةٍ كنتُ أرى فيها امرأةً تشبهها قليلاً، كان قلبي ينبضُ بقوة، وركبتي تفقدان قدرتهما على حملِ جسدي، فأشعر أنني سأترنّج. لم ألقِ بالآلات اتّصالات سَعد ورسائله الكثيرة، ليس لأنني كنتُ غاضبةً منه، بل لأنني لم أكن أشعر بأيّ شيء تجاهه. عندما تعبتُ، جلستُ في مقهى شعبي، وبعثتُ رسالةً لأحلام أسألها إن كانت تعرف بوجود شقّةٍ للإيجار، وحددتُ في الرسالة أنني أريد شقّةً في أنفّا أو النواحي. ردّت بصوتٍ لاهثٍ في رسالةٍ صوتية أنها ستسأل صديقتها نجوى التي تقطن هناك، وقالت إنّ الإيجار في هذه المناطق مكلفٌ جداً. كنتُ أعرف أنني لن أجرو يوماً على استئجار بيتٍ هنا، لأنه سيكون عليّ دفع راتبي كلّهُ من أجل ذلك. كلّ ما كنتُ أرمي إليه هو أن أعرف الزقاق الذي تسكنه نجوى بأيّ ثمن.

وبعدما أرسلتُ لي أرقام سماسرة وروابط إعلاناتٍ إيجار في نواحي أنفّا، سألتها أخيراً، بنبرة جعلتها تصدّق أنّ الأمورَ طبيعيةٌ جداً، عن الزقاق الذي تسكن فيه صديقتها نجوى. وعندما قالت إنّ استئجار شقّةٍ في حيّ

غوتيه سيكلفني كثيراً، أحببْتُ أنني مستعدةٌ لدفع ثروةٍ من أجل ألا أسكن في المكان نفسه مع أناس متخلفين.

توجَّهْتُ إلى زقاق جان جوريه كالمجنونة، ورحتُ أجوبُهُ ذهاباً وإياباً رافعةً بصري نحوَ المباني، لَعَلَّ نجوى تطلُّ من شرفةٍ من الشرفات أو نافذةٍ من النوافذ، لكنني لم أرها إلا في خيالي، بهيئةٍ ورائعة، مثلما تخيلْتُها أوَّلَ مرَّةٍ عندما أحببتُ سَعْدًا. حينَ تعبتُ، جلستُ في مقهى قريبٍ أتأملُ العابرين والعابرات وأفكّر في حياتي التي بلا معنى. عند السادسة مساءً، حين اختفت الشمس وبردَ الجوُّ، عُدْتُ إلى الزقاق، وتجوَّلتُ فيه للمرَّةِ الأخيرة، مثل كلبةٍ متشرِّدةٍ في الظلام. كان البرد، والضوء المنبعث من مصابيح الشارع، والمطر الخفيف الذي بدأ يسقط، والحواء الداخلي، يزرعون في داخلي إحساساً عميقاً ومؤلماً بالوحدة. هل أعود إلى المكان الذي جئتُ منه، بيتُ أمِّي المظلم والكئيب، أم إلى المكان الذي اخترتُه لنفسِي، بيتُ سَعْدِ الموحش والمُلاَن بذكرياتِ نجوى؟ انكملتُ داخلَ معطفي ومشيتُ دون هدفٍ مبتعدةً عن الزقاق. ليست الوحدةُ ألا يكون المرءُ محاطاً بالناس، لكنَّ الوحدةُ ألا يكون للإنسانِ مكانٌ يعود إليه. هربتُ من المطر الذي راح يهطل بسرعة، واختبأتُ في عتبةِ باب أحد المباني. نظرتُ إلى الشارع الفارغ، وسحبتُ هاتفي، ثم دخلتُ إلى بروفايل نجوى على إنستغرام. كانت قد نشرت قبل خمس دقائق ستوري من محطة القطار، حيث ترتدي معطفها الأسود نفسه، وتعتمر قبعة حمراء من الصوف، بينما بدا وجهها مبللاً وأنفها أحمر. فوق الصورة، كُتِبَت هذه العبارة بأحرف كبيرة: مرحباً نونبر الموحش! شعرتُ برغبةٍ جارفةٍ في العودة إلى الزقاق وانتظارها هناك حتَّى تصل، لكنني تراجعْتُ، وخطرَت ببالي فكرةٌ أخرى أكثر جنوناً من سابقتها. أدركتُ في ما يُشبه الإلهام الشَّعْريَّ، أنني، إذا كنتُ أريد أن أكون قريبةً من نجوى وأراها في صورةٍ كاملة، فعليَّ أن أعيشَ

حياةً تشبه حياتها، أن أسكن في الزقاق الذي تسكنه، وأرتاد المقاهي التي ترتادها، وأذهب إلى المحال التي تذهب إليها، وأتسوق من البقال الذي تتسوق من عنده، وأرى كل يوم الأشياء التي تراها. ركضت تحت المطر قليلاً قبل أن أستقل سيارة أجرة إلى البيت. كنت متحمسة لدرجة لم أفكر في غضب سعد أو حقه. وقبل أن أفتح الباب، التقطت صورة سيلفي بوجه مبتل، ونشرتها كستوري على إنستغرام. لم أكن قد شاركت على حسابي أي شيء منذ سنتين كاملتين. كتبت فوق الصورة بأحرف كبيرة: مرحباً نونبر الموحش!

لم تُقِمْ نهى حفلَ خطوبتها في بيتي كما كان مُقرَّراً، إذ استسلمت
لسلطة أمي واقتنعت أن عليها الاحتفال في بيت والدتها. لم تكن أمي
في حاجة لفعل أي شيء لإخافتنا. كان الخوفُ المزروع في داخلنا كافياً
لنتراجع ولتحقق أمي هدفها في الاحتفال بخطوبة ابنتها بالطريقة التي تريد.

توجَّهْتُ إلى بيتنا يوم الخطوبة وأنا أشعر بألم عميق، وراقبتُ الطريقَ
وأنا أفكر كيف زرعت أمي الخوفَ داخلنا، كي تمارس سلطتها علينا بكلِّ
سهولة. الخوفُ هو وقود السلطة ومحركها الأساس. أنا وأختاي نخاف
من أمي، والشعبُ يخاف من الملك، والمؤمنون يخافون من الآلهة. إنه
ليس خوفاً لحظياً، بل ممتداً عبر الزمن من الأزل إلى الأبد. وليس خوفاً
واعياً، لأننا لا نرتجف حين نفكر في مَنْ نخاف منهم، ولا نهرب حين نراهم،
ولا تنبض قلوبنا بسرعة حين نكون معهم، بل نؤمن بضرورة وجودهم في
حياتنا، وقد نطمئن إليهم أحياناً، ونسكن إليهم، ونحبهم، ونجد صعوبة في
العيش من دونهم. خوفٌ يُزرع داخل الإنسان شيئاً فشيئاً منذ اليوم الذي
يفتح فيه عينه على الدنيا، ثم ينمو معه ويصير جزءاً منه، مثل يده ورجله
 وأنفه، غير أنه لا يُرى. يقبع في أعَمَقِ نقطة في الدماغ، يختبئ هناك مثل
أفعى تختبئ بصمتٍ وراء صخرة، لا يعرف المرء بوجودها إلا حين تلدغه.

كان حفلُ الخطوبة أشبه بحربٍ باردة. نساءٌ مرتدياتُ عبااتٍ وخُمراً سود
طوالاً، وأخرياتُ يرتدين قفاطين وطرحاتٍ رأسٍ ملوَّنة، يجلسن على الكنباتِ

مقابلات، وينظر بعضهنّ إلى بعضٍ شَرَّراً، بينهنّ تجلسُ نهي مرتديّة قُفْطَاناً أبيض مطرّزاً بخيوطٍ مذهّبة، مركّزة نظرها على يديها المنقوشتين بالحِجَاء، وفي مقابلتها تجلس أمّي، مرتديّة قُفْطَاناً أخضر، وقد تدلّى ثدياها الكبيران المرتحيان فوق حزامها الذهبيّ.

كان الصمتُ يعمّ المكانَ وأصوات النساء منخفضةً، لدرجةٍ استطعتُ أن أسمع تنفّس أمّي العميق. كانت تنظرُ إلى ابنتها بفخرٍ من انتهت أخيراً من واجبٍ مهمّ، وتستطيع الآن أن تموتَ بسلام. كانت أمّي تنظرُ إلى نهي كما لو كانت قطعة لحمٍ تفسد كلّ يومٍ أمام عينيها. وها هي الآن تتخلّص منها ومن رائحتها المريّة.

جاءت جميلة متأخّرةً كالعادة، ولم تُنزل نقابها إلا حين صارت في الداخل واقفةً أمام النساء الأخريات. أنزلتهُ بفخرٍ أمامهنّ وهي تلهث، ثمّ أمرت بنبرةٍ عصبية ابنتها ليليان، التي ترتدي عباءة سوداء وحجاباً أبيض، بالجلوس إلى جانب جدّتها. رمقَها زوجةُ خالي مصطفى بنظرةٍ استخفاف، ثمّ سألتها عن أطفالها الآخرين.

قالت جميلة:

- تركّتهم مع جدّتهم لأبيهم، لأنهم أصبحوا رجالاً الآن، ولا يجوز أن يجلسوا وسط النساء.

ثمّ راحت تضحكُ بقوةٍ مستمتعةً بما قالت.

نظرت خالتي إلى بنتٍ أختها بعينٍ واحدة، بينما ظلّت العينُ الثانية مغلقةً. هكذا كانت تعبر عن عدم تصديقها لشيءٍ سمعتهُ، ينحني رأسها إلى الأمام قليلاً، تنغلق عينها اليمنى أو توماتيكياً، وتبقى اليسرى مفتوحةً ولا ترمش أبداً.

- ماذا تقولين، يا جميلة؟ هل جُننتِ؟ الأطفال ما زالوا صغاراً.

قالت جميلة بنبرة دفاعية:

- ما بك، يا خالتي؟ ألم تعودى تفهمين مُزاحي؟

عمّ الصمتُ المكان. صمتٌ بارد، لكنّه يَعِجّ بالمشاعر، مثل بركانٍ قابِع تحت طبقةٍ ثلجٍ متشققةٍ ينتظر انكسارها ليفور. كنتُ أنظرُ إلى نُهى التي ما تزال شاردةً في يديها المنقوشَتَيْن بالحِنَّاء، ثمّ إلى أُمِّي التي ما تزال تنظر إلى ابنتها بفخر. لا أعرف لماذا كان النظرُ إليهما وإلى النساء الأخرياتِ كلَّهنّ يُزعِجُنِي ويُغضِبُنِي. كنتُ أهربُ منهنّ باستمرار، وألجأُ إلى هاتفي. أضغطُ على زرِّ الفتح والإغلاق باستمرار، محاولةً شغلَ يَدَيَّ بأيّ شيء. يداي لا تستطيعان الاسترخاء والبقاء بدون حَرَاك. ترغبان دائماً في فعلِ شيءٍ ما، في تفسيرِ بَثْرَةٍ مثلاً أو الدخول إلى إنستغرام للإطلال على صفحةِ نجوى. أدخل بالفعل إلى إنستغرام، ثمّ إلى صفحةِ نجوى. أرفعُ رأسي بين الفينة والأخرى، وأورِّعُ ابتساماتٍ مصطنعةٍ هنا وهناك، كَمَنْ تحاول أن تُبعد عنها شبهةٍ ما. لكنني أنسى في كلّ مرّة أن لا أحدَ هنا يعرف نجوى. أعود للتحديق في شاشة الهاتف. نجوى مُتعبَةٌ تماماً. وجهها شاحب، وثمة هالاتٌ سود حولَ عينيها في صورتِها الأخيرة، كأنها لم تَمَ أبدأً، أو كأنها بكت طوال الليل بسبب الحبِّ، أو بسبب الفراغ بعدما استمّنت وهي تفكّر في شخصٍ يُعجبها في لحظةٍ يأسٍ عميقة، ثمّ نامت في الثالثة أو الرابعة صباحاً. لا بدّ أن نجوى عشِقت رجالاً آخرين كثيرين بعدَ سعد. لا بدّ أنها استمعت إلى أغاني الحبِّ كثيراً، حفِظت كثيراً منها عن ظهر قلب، ونسيّت البعض الآخر، لكنّها لم تنسَ أبدأً أوّل الأغاني التي حفظتها. لا بدّ أنها تخيلت نفسها عروساً ترقُص في ليلة زفافها. لا بدّ أنها فكّرت بعُمقٍ وألم في بويضاتها التي تنقضي مع مرور الوقت، مثل سنواتِ عمرها. لا

بدَّ أنها قَلِقَتْ وفكَّرت في الزواج وفي تأسيس أسرة وفي الأمومة وفي ابنها الذي لم تره منذ سنوات، لكنَّها اطمأنت بمجرد ما دَفَنَ كلبُها مايك رأسه في حضنها. جميلة تقررص ابنتها في فخذها، لأنها، على ما يبدو، دخلت في محادثة مع إحدى الحاضرات من عائلة الخاطب وتكلَّمت كثيراً. لا بدَّ أن نجوى حلَّمت كثيراً، مثلي، بسماءٍ زرقاء وسنابل ذهبية وبالدفء، لكنَّها لم تعرف كيف تقول ذلك في نصِّ أدبي، بل لم تشعُر أبداً بالرغبة في قول ذلك في نصِّ أدبي. إنَّها تحلُّم، طبعاً، مثل الجميع، وتشعُر بالأشياء التي يُكْتَب عنها في الشُّعْر والروايات. تشعُر بالحُزن الذي ينبجسُ من القمر، والغضب الذي يتلاطم في البحر، والأمل الذي يتدقَّق من النور، والأنوثة في الشُّعْر المتبقي في رِبطة شَعْر، واليأس الذي يسيِّل من فرجها لزجاً ودافئاً وتوافقاً إلى الاستمرار والخلود. تُحسُّ هي أيضاً بخجلٍ شقائق النعمان، وبخوفِ الشمس من الخمود، وبالوحشة حين ترى شمعةً تذوي ببطء في سهرة غرامية رائعة. لكنَّها لا تكتُب عن ذلك، وتكتفي بالتقاط صور سيلفي بوجه مُجهَد وعَيْنَيْن خاوِيَتَيْن، بينما تُرسل قُبلة وهمية لمتابعيها بشفتَيْن مصبوغَتَيْن بأحمر شفاهٍ لَمَّاع، متظاهرةً باللامبالاة إزاء الحياة. نُهى ما تزال شاردة، وأمِّي تنصَّت باهتمام إلى حديث ثريَّا، جارية حنان الأشهب. حنان الأشهب لم تأتِ بالطبع، لأنها لن ترغب في النزول إلى مستوى جواربها والجلوسِ معهنَّ على الكنباتِ نفسِها. زهرة أيضاً لم تأتِ، ولا يمكنني أن أسأل أمِّي عن السبب حتَّى لا أجرح مشاعرَها. ما زلتُ أخاف أن أجرح مشاعرَ أمِّي، لأنَّ ما فعلتهُ بي لم يجعلني أتوقَّف عن حبِّها، بل عن حبِّ نفسي. عينا نجوى غائرتان مثل بئرٍ عميقة بلا قرار. شفتاها المضمومتان في قُبلة جامدة تخبَّان كثيراً من الأشياء غير المستقرَّة التي لا أعرف إلا قليلاً منها. نظرة نُهى مترعةً بالانهزام، ونظرةُ أمِّي مثل نظرة جنديٍّ انتصر في حربٍ ضروسٍ، يؤمن بأهمِّيَّتها إيماناً عميقاً. أريدُ أن أعرف أكثر عن

نجوى، لكن، ليس عن طريق بروفایل وهمي كما فعلتُ من قبل، لأنني لا أريد أن أُؤذيها مرةً أخرى. أعودُ لتقشير تلك البثرة القديمة نفسها على ذقني وأفكر في سَعد وفي علاقتنا التي تدهورت لدرجةٍ ذهبَ ليَقْضي شهراً كاملاً في بيت والدَيه في الحُسيمَة. رأيتُ في عينيهِ ونبرته أنه ينتظر مِنِّي اعتذاراً، لكنني لم أعتذر، ولن أعتذر. لم أَسْتَقْ له أبداً، ولا أريده أن يعود ليُزعجني بالإطلال على شاشة هاتفي كُلّما رأني منشغلة به. لم أَعُد مضطرةً للاختباء كي أتلصص على نجوى، بل صِرْتُ أتمدّد في الصالون بكلّ أريحية وأفعلُ ما شئتُ. لا شيءَ في العالم يوازي سعادةً أن تتمدّد المرأة في بيتٍ توجَد فيه وحدها بعدما تخلّصت من رَجُل، فعلى عكسِ المتوارد، أثبتت التجربةُ أنَّ النساء يملُئْنَ مِنَ الرجال ومن الجنس في العلاقات قبل الرجال بكثير. نجوى ما تزال مُتعبَة، لكنّها جميلة. أغلقتُ شاشةَ هاتفي، ووزعتُ ابتساماتٍ زائفة على الحاضراتِ مرةً أخرى، ثمّ شعرتُ بالهلع حين فكّرتُ في الدرجة التي أريد بها عيشَ الحياةِ نفسها التي عاشتها نجوى. كنتُ أريد فعلاً أن أكونها، لدرجةٍ توقّفتُ عن حبِّ سَعد، مثلما فعلت هي تماماً قبل سنوات.

مكتبة

t.me/soramnqraa

هل نجوى مجرّد خيالٍ صنعتهُ لنفسي للمرأة التي أريد أن أكونها؟ وماذا لو لم تكن موجودةً فعلاً؟

يشعرُ الشخصُ المصاب باضطراب تبدّد الشخصية بالاغتراب عن الواقع، وبالانفصال عن الذات، وبعدم القدرة على السيطرة على نفسه وعلى أفعاله، بل إنه يشعر أحياناً أنه مراقبٌ خارجيٌّ لحياته، وأن الأشياء حوله حُلُم. ماذا لو كنتُ مصابةً باضطرابٍ من الاضطرابات؟

شعرتُ بهلعٍ شديد، وأمضيتُ شهرَ نونبر أجوب أزقةً أنفًا، لَعَلِّي ألتقي نجوى مصادفةً في مكانٍ ما هناك، لكن، بدون جدوى. كنتُ أذهب إلى زقاق جان جوريه الهادئ كلّ يومٍ بعد العمل، وأمشي فيه ذهاباً وإياباً، محدّقةً في أبواب العمارات ونوافذها وشرفاتها، لكنني لم أر نجوى تخرج من أيّ من هذه الأبواب، أو تُطلّ من أيّ من هذه النوافذ أو الشرفات. لم أكن أستطيع التحكّم في نفسي من الخوف، وأردتُ أن أراها كي أتأكد أنها موجودةٌ فعلاً.

كنتُ أمشي حتّى تتعبَ رجلاي ويتعرق جسمي. أنظرُ إلى المارة باحثةً عن وجهها بينهم، وإلى واجهات المقاهي والمطاعم، لَعَلِّي أراها جالسةً في مكانٍ ما هناك بمعطفها الأسود الطويل، تتناول عشاءها أو تشربُ قهوةً على مهل وهي تقرأ كتاباً أو صحيفة. كنتُ أنظر إلى واجهات المحالّ وصالونات الحلاقة والصالات الرياضية القريبة من الزقاق، وأتوقّف عند كلّ بابٍ مفتوح، متطلّعةً إلى الداخل بفضول، ربّما أراها جالسةً تعتني

بأظافرها في صالون حلاقة، أو تتبادل أطراف الحديث مع موظف استقبال في صالة رياضية ترتادها، أو تتفاوض مع بائع في محل لبيع مواد التجميل. أحياناً، أرى ملابس منشورة على الشرفات، فأفتح إنستغرام وأعود إلى صور نجوى واحدة واحدة، لأرى إن كانت الفساتين والقمصان وسراويل الجينز التي رأيته تعود لها. أحياناً، أشرد في قط يلعب نفسه وأتذكر قصة إنقاذها لشمشون، فأشعر بالقشعريرة من التأثير، وأسأل إن كنت سأفعل الشيء نفسه لو كنت مكانها في تلك اللحظة أم كنت سأصرف بلامبالاة؟ أحياناً، أرى إعلان إيجار في زقاق جان جوريه أو في الأزقة المجاورة، فأصل برقم الهاتف المكتوب، ثم أنهي الاتصال بمرارة بعد أن أعرف أن الإيجار يعادل راتبي. أحياناً، أرى أطفالاً أيقين ينزلون من سيارات آبائهم الفارهة عائدين من مدارس خصوصية، فأتذكر طفولتي التعيسة وطفولة نجوى كما حكاها لي سعد، ثم ينتابني حقدٌ طبقي، وأتمنى لو يعيش أطفال العالم كلهم طفولة سعيدة. أحياناً، حين أنتهي من التجول، كنت أتلصق بأحلام أو ألتقيها في مقهى لتبادل أطراف الحديث، لعلها تخوض في موضوع يتعلق بنجوى، لكنها لا تفعل، وتكتفي في كل مرة بسؤالي إن كنت قد وجدت شقة للإيجار، أم أنني سأضطر لتحمل ذلك الخزير سعد أكثر من ذلك.

وعند نهاية كل يوم، كان أمني في رؤية نجوى يخيّب، لكنه يعود ويولد في داخلي من جديد، كبيراً ومتوهجاً ومبهجاً. وكل صباح بعد ليلة يأس متعبة، كنت أشعر بالامتنان والنشوة، وأفكر أن الأمل باهر، لأنه يتولد من عدمه، ويأتيني مجّاناً وبلا أيّ مقابل.

حفظت زقاق جان جوريه والأزقة المجاورة عن ظهر قلب. صرت أعرف الطرق كلها التي تؤدي إلى هناك، أسماء الإقامات والعمارات وصالونات الحلاقة والدكاكين والحمامات والمقاهي والمطاعم والفنادق والحانات، إعلانات الإيجار المعروضة هناك، وإعلانات البيع. حتى الوجوه صارت مألوفة لدي. وفي جان جوريه، صرت أعرف الساكنة وأطفال كل واحد منهم

وماركات سيّاراتهم وخادما تهم اللواتي ينفضن الزرابي الثقيلة من الشرفات، ويمسحن زجاج النوافذ، لكنهنّ يُعدّن في نهاية اليوم إلى منازلهنّ المهترئة في أحياء فقيرة. زيارتي المتكرّرة لتلك المنطقة جعلت إحساساً غريباً بالألفة يستقرّ في أعماقي، وقرّرت أنّ عليّ أن أسكن فيه مهما كان الثمن.

بقي يومان على عودة سعد من الحُسيمَة. اتّصل بي من هناك، وقال لي بنبذة مفعمة بالأمل: «تعالى نفتح صفحة جديدة». لم يتحرّك بداخلي شيء جميل عند سماعي هذه الجملة. أحسست فقط أنّ هناك حبلاً يلفّ رقبتى، ويستعدّ ليخنقني. قلّت له: «لنرَ ماذا سيحدث»، وأغلقت الهاتف في وجهه، ثمّ حرّمت حقائبي في الثاني من ديسمبر، وغادرت البيت.

لم أكن أعرف أين أريد أن أذهب حين صرّ في الشارع. كنت متأكّدة من شيء واحد فقط: أنني أريد الهرب. ممّاذّا؟ وإلى أين؟ لم أكن أعرف بالضبط. مشيتُ لنصف ساعة جارةً حقيبتين كبيرتين، ثمّ نزلتُ في فندقٍ صغير في شارعٍ رَحال المسكيني. دخلتُ إلى غرفتي في الساعة السابعة مساءً، ووضعتُ هاتفِي في الشاحن. وحين استلقيتُ على السرير ذي الأغطية الحمراء التي تشبه أغطية سرير جدّتي، بدأ المطرُ يهطلُ بغزارة.

لم أكن سعيدةً ولا حزينة. كنتُ خاويةً من الداخل مثل غابةٍ احترقت منذ زمنٍ بعيد وانطفأ حريقُها، لكنها صارت ياباً. أغمضتُ عينيّ، وأصغيتُ إلى المطرِ الغزير في الخارج، وإلى رائحة الرطوبة التي تنبعثُ من السقف. ثمّة شيئان متناقضان يتصارعان في داخلي، رغبَتان. إحداهما فطرية والأخرى مكتسبة. الأولى هي الرغبة الدائمة في الهرب، والثانية هي الرغبة في البقاء والثبات في مكانٍ واحد، لكنّ الرغبة الإنسانية الفطرية كانت تغلب دائماً. اندفعتُ إلى الحمام الصغير للغرفة، رميتُ ملابسِي على الأرضية الباردة، ودخلتُ بجسدي تحت الدش الساخن. الإنسان مجبُول على اشتِواء الفرار، على الرغبة في التغيير والتقدّم إلى الأمام وعدم الثبات في مكانٍ واحد. الثبات في مكانٍ واحد يعني الموت، وقدرة المرء على

ترك كل شيء وراءه يعني الحياة. خرجت من الحمام وأنا أرتجف، وفتحت إحدى الحقيبتين عشوائياً باحثاً عما ألبسه. عندما ارتديت ملابسِي، ودون أن أُجفّف شعري، استلقيت على السرير من جديد، وسحبت الغطاء الثقيل فوق جسدي، ثم فتحت هاتفي، ودخلت إلى إنستغرام، لتفريح على صورِ نجوى مرةً أخرى. وبعدَ مرور ساعةٍ ونصف، دخلتُ إلى صفحتها على فيسبوك. كانت قد نشرت مقطع فيديو لفتاة أمريكية تضرب بقوة وعنف دميةً على شكل رجل. تبصق عليها. تدخل يدها في سروالها وتمسح مؤخرتها بأصابعها، ثم تمسحُ أصابعها في وجه الدمية، تبصق عليها من جديد، ثم تضربها بقوة حتى تسقط أرضاً. تدوسها بقدميها. تصعد برجليها فوق وجهها. تركلها. تخنقها. تسبها بجنون، ثم تضربها من جديد بطريقة هستيرية. علقت نجوى على الفيديو: هذا ما تريدُ كل واحدٍ منا أن تفعله بحبيها السابق. ضغطتُ على الفيديو، وعرفتُ أن أكثر من ألفين وخمسمائة شخص شاركوه على صفحاتهم، أو في مجموعاتٍ خاصّة. نحو تسعة آلاف وضعوا علامة لايك، وما يقارب خمسة آلاف علّقوا على الفيديو بكلامٍ يشبه ما قالته نجوى. أطفأتُ الأضواء، واعتدلتُ في الفراش لأنام، لكنني لم أستطع. كان رأسي يطنّ، كما لو أنّ به حفلة ذبابٍ صاخبة. وبدل أن أُغمض عينيّ لأحاول النوم، وبدل أن أفكر في سعد الذي سيعود غداً ولن يجدني في البيت، وبدل أن أفكر في حياتي، رحتُ أتخيّلني أسكن في زقاق جان جوريه، وأرى نجوى كل يوم، وأصادفها، لكنّ، ليس بمبادرةٍ مني، بل بمبادرةٍ منها هي. تخيلتها تُعجب بي بعد أن تقرأ روايتي الأولى التي لم توجد بعد، وتحاول التقرب مني بشتّى الطرق، ثم تطلب مني أن نلتقي، ثم نشربُ قهوةً معاً، ثم يزدادُ إعجابها بي، ثم تدعوني إلى بيتها، ونقضي وقتاً ممتعاً معاً، نشاهدُ فيلماً ونشرب كأس نبيذ أبيض، ثم تسألني كيف كتبتُ روايةً رائعةً كهذه؟ تخيلتُني أراها في حالاتها جميعها، ومن الزوايا الممكنة كلّها. لم أفكر وأنا أتخيّل هذا كلّهُ محدّقةً في الظلام، في الـ «ماذا بعد؟»،

ماذا بعد هذا كله؟ ماذا سأستفيد؟ ما هو الهدف؟ كنتُ أتلذذُ فقط وأنا أتخيل أن لذتي ستكون أكبر وأعظم عندما أحقق هذه الأشياء في الواقع.

نمتُ حوالي الرابعة صباحاً، وفي الصباح الباكر جداً، توجهتُ إلى العمل بمعدة فارغة. كنتُ متعبة جداً، لدرجة أن روائح السفنج التي كانت منتشرة في الأرزقة التي مررتُ منها سببت لي الغثيان. كأنّ الحفلة التي كانت في رأسي قد انتهت، والآن لم يعد هناك سوى فوضى ما بعد الحفلة التي لا يرغب أحدٌ في ترتيبها. مشيتُ برجلين ثقيلتين، كأنهما مصنوعتان من حديد. وحين وصلتُ إلى الدار، أغلقتُ عليّ بابَ المكتب، ورحتُ أتفرّج على البيوت المعروضة للإيجار في منطقة أنفا على الأترنت، ثمّ جهّزتُ لائحة بأرقام هواتف السماسرة ووكالات الإيجار. لم أفكر أبداً في أن سعداً الذي سيصل اليوم إلى الدار البيضاء سينتظر عودتي إلى البيت عند السادسة مساءً بدون جدوى، وأنّه سيحاول الاتصال بي، وسيذهب إلى بيت أمي ليبحث عني. لم أهتمّ حتّى بقلقه عليّ، ولم أفكر في أن أطمئنه عني. كلّ ما كان يملأ ذهني وقلبي وأعماقي هو أن أستأجر بيتاً جديداً، وأبدأ حياة جديدة، وأن أكون قريبة من نجوى.

في حوالي الساعة العاشرة، جاءت ندى. دخلت مكتبي كالعادة دون استئذان. كانت أول مرة أشعر فيها أن هذا الأمر يُزعجني. ابتسمتُ كالعادة كاشفة عن أسنانها، وحيثني بصوتها المرتفع المتحمّس، لكنني شعرتُ أنني لا أعرفها. كانت مختلفة تماماً. حجمها الأصغر الآن وأسلوبها الجديد في اللباس أشعراني بالغربة، وبأنني فقدتُ صديقتي التي عرفتها. كأنّ ندى الحقيقية ذوّت واختفت مع تلك الشحوم التي ذهبت. مشيت نحوي مقلّدة مشية عارضات الأزياء، وطقطق كعبها العالي على الأرضية مذكراً إيّاي بنجوى. تساءلتُ بحزن كيف يمكن للشكل أن يغيّر الإنسان إلى هذه الدرجة؟! وبادلتها ابتسامة ميّنة.

جلستُ على مكتبي كالعادة، ومالت نحوي، ثمّ قالت بحماس:

- شهرزاد، سأجري عملية تجميلية!

- عملية تجميلية؟

- أريد أن أتخلص من الجلود الزائدة التي تبقّت في جسدي بعد فقدان الوزن.

قُلْتُ في لا مبالاة واضحة:

- جيّد.

كنتُ أريدها فقط أن تذهب لأستمرّ في بحثي، لكنّها لم تفعل. حرّكت رجلَيْها في الهواء قليلاً، ثمّ نظرتُ إلى السقف وقالت:

- أنتظرُ بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي سيصبح فيه جسدي خالياً من الترهّلات.

تأمّلتُ قسماتِ وجهها الحالمة، وشفّتها المبتسمتين. وجّهتُ نظرها إليّ مرّةً أخرى، وقالت بحماس أكبر:

- سأبلغ الثالثة والثلاثين بعد شهرين، يا شهرزاد. هل تصدّقين؟ لكنني سأكون امرأةً، امرأةً جديدة وقوية، امرأةً مختلفةً عن تلك التي عرفتها. أعدكِ.
- حسناً.

- ما بكِ خاملةً هكذا؟

- لا شيء. رأسي منشغل بالعمل الكثير الذي ينتظرني.

اختفت ابتسامتها. قفرتُ من المكتب، وتفقدت التوازن على رأسها، ثمّ خرجت.

عندما ذهبَت ندى، عملتُ على تصحيح صفحتين من رواية بلال المنصوري الثانية. كان عنوانها تراويل الحبّ، وكانت أكثر رداءةً من سابقتها حكايات قلبي المحطّم. لا أعرف لماذا يُصرُّ هذا النوع من الكتاب على

الحديث عن الحبّ. في حوالي الساعة الحادية عشرة، بدأتُ في إجراء الاتصالات، وتحديد مواعيد مع السماسرة والوكلاء من أجل زيارة الشقق المقترحة. لم أكن أدرك جيداً ما أفعله بحياتي، ولم أكن أرى أنني صرتُ أشبه بعبدّة لنجوى، هذه المرأة التي لا يجمعني بها أيّ شيء ولا أريدها حتى أن تكون صديقتي!

لم أكن أريد أن أضيّع الكثير من الوقت. استأذنتُ نجيماً للخروج من العمل باكراً حتى أستطيع زيارة شقّة في أنفاً. كان عليّ أن أقول له إنني أمرّ بظروفٍ خاصّة، وإنني بدأتُ إجراءات الطلاق، لكي يسمح لي بالذهاب. وبدل أن ينظر إليّ بتعاطف، حرّك كرسيه ذي العجلات يمنةً ويسرةً، وراح يفكر في صمت، ثم رفع رأسه نحوي ورمقني بنظرة فارغة، وقال:

- يُمكنك أن تذهبي في أيّ وقتٍ تريدين، يا شهرزاد، لست في حاجة إلى أخذ أيّ إذن من الآن فصاعداً، وأرجوك أن تُخبريني بمستجدّات طلاقك إذا أمكن، وإذا احتجت أيّ مساعدة من أيّ نوع، فسأكون رهن الإشارة.

شعرتُ بامتنانٍ عميق، يشوبه بعض الندم. ندمتُ لأنني لم أخترع كذبةً أخرى غير الطلاق، وخشيتُ أن يرغب في مضاجعتي. المطلّقات في المغرب فرائس مثالية، لأنهن لا ينتمين إلى أيّ رجل، ولم يعدن يخضعن لسلطة أيّ رجل، كما إنهنّ بلا غشاء بكارّة يمنعهنّ من ممارسة الجنس خارج الزواج. وحين تذكّرتُ أنني لستُ مطلّقة، ولا حتّى منفصلةً عن زوجي، شعرتُ بالغثيان.

- تستحقّين الأفضل دائماً، يا شهرزاد.

جاهدتُ نفسي لأشكره واندفعتُ خارج المكتب بمعدّة ملائنة بالندم. زممتُ فمي وأغلقتُ عينيّ طول الطريق إلى شارع أنفاً، حتّى لا أتقيأ معدتي. وحين نزلتُ من التاكسي، شعرتُ بقليل من التحسّن.

كان السمسار في انتظاري في التقاطع بين شارعِي الرُّقْطُونِي وَأُنْفَا. تطلَّعَ إِلَيَّ بعَيْنَيْهِ الحمرَاوَيْنِ الجاحِظَتَيْنِ من الرأسِ حتَّى أحمَصِ القَدَمَيْنِ، ثمَّ مشى دون أن يُلقي التحيّة أو يقول أيّ شيء. تَبِعْتُهُ وَأَنَا أَتأملُ سترته المخطّطة وسرواله الواسع وقبّعة البيريّة الرثّة التي يضعها فوقَ رأسه. كان يَحْمِلُ هاتفًا ذكيًا في يد، وفي اليَدِ الأخرى هاتفًا قديمًا من نوع نوكيا ظلًّا يرَنّان طول الطريق بلا توقّف. أحيانًا، كان يضع كلا الهاتفَيْنِ في أُذُنَيْهِ ويتحدّثُ مع شخصَيْنِ دفعةً واحدة. وكنتُ أفكّر في سَعْدِ الذي سيصل إلى الدار البيضاء بعد ساعتَيْنِ.

حين وصلنا إلى العمارة، اكتشفتُ أنني في زقاق من أزقة حيّ بُورْعُون، وأنني بعيدة عن نجوى بمسافة كبيرة. التفتُ السمسار إِلَيَّ، ورمقَ بنطالي الجينز بنظرة فيها ريبة، ثمَّ قال:

- هذه عمارةٌ محترمة، وتسكن فيها عائلات.

حدّقتُ فيه بطريقة «وماذا بعد؟». كنتُ قد فقدتُ اهتمامي بالشقّة مُسَبِّقًا بسبب بُعْدِهَا عن زقاق جان جوريه. صَعِدْنَا الدرج. كانت الشقّة جميلةً وواسعة، ولها شرفتان. تجولتُ في عُرفها بقنوط. لم أستطع أن أقول إنني لا أريدها، فرُحْتُ أَتظاهر باستكشافها. فتحتُ نوافذها وأبوابها، ولمستُ أسوارها، وتفقدتُ صنابيرها، وجربتُ مفاتيح الضوء. أشعل السمسارُ سيجارةً، وأخذَ منها نَفْسًا عميقًا وهو ينظرُ إِلَيَّ، ثمَّ قال:

- أهمّ شيءٍ في هذه العمارة هو الاحترام. لا يهمّ مَنْ تكونين وماذا درستِ وكم تقبضين في آخر الشهر.

حدّقتُ فيه ببلاهة.

- في هذه العمارة تسكن بناتٌ محترمات، لا يتأخّرَن في الخارج بعد الثامنة، ولا يُسمَعُ لهنّ صوتٌ من وراء هذه الأسوار.

تأمل بنطالي الجينز مرّة أخرى، لكن، مطوّلاً هذه المرّة، ثمّ أضاف:

- وحبّذا لو ترتدين ملابس محترمة أكثر، لأنّ هذا السروال ضيقٌ جداً.
وهنا في هذه العمارة، تسكن نساءً محترمات ورجالٌ متزوّجون.

- لكنّ الشُّقّة لم تُعجبني.

نَفَثَ دخان سيجارته بسرعة.

- اتبعيني إذن.

عَرَضَ عليّ شُقَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ في بورغون، تجوّلتُ فيهما سريعاً، وشُقّة راقية في راسين، يجب أن أبيع نفسي كي أستطيع استئجارها. وحين كنتُ أوصيه بأن يبحث لي عن شُقّة صغيرة في غوتيه في حدود الخمسة آلاف درهم، رنّ هاتفي. كان سعد هو المتّصل، وعرفتُ أنه وصلَ إلى الدار البيضاء. كِدْتُ أتبول على نفسي من الخوف وأنا أبحث عن تاكسي يأخذني إلى الفندق. بعثتُ رسالةً مقتضبةً لنجيم على الوتساب أخبره أنني لن أعود إلى المكتب، لأنّني سأزور مزيداً من الشقق اليوم، ثمّ ركبْتُ سيّارةً أجرةً مهترئة، يبدو كأنّها ستتحطّم وحدها في أيّ لحظة. رمقني السائقُ عبر المرآة الأمامية للسيّارة بنظرةٍ متوتّرةٍ قصيرة، عاقداً ما بين حاجبيّه، ثمّ سَحَبَ نَفْساً من سيجارته، وانطلق. كان يبدو بشاربه الأسود الكثيف الذي يغطّي شفتَه العليا كأنه هاربٌ من زمن التسعينيات، نَفَثَ الدخان بنشوة وقال:

- هل رأيتِ ما الذي حصل؟

قُلْتُ بدهشة:

- ما الذي حصل؟

سكتَ برهةً من الزمن وهو ينظرُ إلى الطريق أمامه ساحباً الدخان باستمرار من سيجارته التي لا يزيلها من فمه أبداً. كانت رائحةُ الدخان

خانقة، وكانت مَعِدَتِي تَغْرِغِرُ مِنَ الْجُوعِ. فَتَحْتُ النَافِذَةَ، وَرَمَيْتُ بَصْرِي إِلَى الشَّارِعِ الْبَارِدِ وَالْمَغْبَرِّ.

- إِنْهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَغَيِّرُوا الْقَانُونَ.

رَنِّ هَاتِفِي مَرَّةً أُخْرَى، وَدَقِّ قَلْبِي مِثْلَ طَبْلِ حَرْبٍ.

- أَيِّ قَانُونَ؟

نَظَرَ إِلَيَّ عَبْرَ الْمِرَاةِ بِفُضُولٍ.

- هَلْ أَنْتِ جَادَّةٌ أَمْ أَنْتِ تَمَرِّحِينَ؟ إِنْهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا الْمَغَارِبَةَ مَجَانِينَ!

- مَنْ هَؤُلَاءِ؟

نَفَثَ آخِرَ نَفْسٍ مِنْ سِيَجَارَتِهِ، ثُمَّ رَمَى الْعَقِبَ مِنَ النَافِذَةِ بِعُصْبِيَّةٍ.

- يَبْدُو أَنَّكَ خَارِجُ التَّغْطِيَةِ. انْسِي الْمَوْضُوعَ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا هَاتِفِي يَرِنُّ بِلَا تَوَقُّفٍ، أَصْبَحْتُ مُتَأَكِّدَةً بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَنَّي لَا أُرِيدُ سَعْدًا فِي حَيَاتِي. بَلْ إِنِّي لَمْ أُعِدْ أُطِيفُهُ وَلَا أُرِيدُ رُؤْيَاهُ أَبَدًا فِي حَيَاتِي. أَطْفَأْتُ هَاتِفِي فِي تَوَتَّرٍ، لِيَتَوَقَّفَ نَهَائِيًا عَنِ الرِّينِ، وَرَمَيْتُهُ دَاخِلَ الْحَقِيقَةِ. حِينَ وَصَلْتُ إِلَى الْفَنْدُقِ، صَعِدْتُ مُبَاشَرَةً إِلَى غُرْفَتِي. كَانَتْ مَعِدَتِي مَا تَزَالُ تُصْدِرُ صَوْتًا مِثْلَ نَفِيقِ الضَّفَادِعِ، لَكِنِّي لَمْ أَكُلْ أَيَّ شَيْءٍ. كُنْتُ مُتَعَبَةً لِدَرَجَةِ اسْتَلْقِيَّتِي عَلَى سُرِيرِي دُونَ أَنْ أَخْلَعَ حِذَائِي. تَأَمَّلْتُ السَّقْفَ لِبَرْهَةٍ، ثُمَّ أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ، وَلَمْ أَعْرِفْ مَتَى وَكَيْفَ أَخَذَنِي النَّوْمَ. كَانَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى مِنْذُ سِنَوَاتٍ الَّتِي أَنَامُ فِيهَا بِسَهُولَةٍ دُونَ أَنْ أَفَكِّرَ فِي أَيِّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فِي الْيَّامِ التَّالِيَةِ أَيْضًا نِمْتُ فِي اللَّيْلِ دُونَ أَرْقٍ. أَحْيَانًا، كُنْتُ أَحْلُمُ بِسَعْدٍ أَوْ بِأَمِّي أَوْ بِأَشْيَاءَ مِنْ طِفُولَتِي الْبَعِيدَةِ، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْتِيقِظُ مُتَعَبَةً أَوْ حَزِينَةً، بَلْ مُمْتَنَّةٌ أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ كَانَ مَجْرَدَ أَحْلَامٍ، وَأَنْتِي بَعِيدَةٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ فِي حَيَاتِي الْحَالِيَةِ. بَعْدَ أَنْ أَعْمَلْتُ قَلِيلًا فِي الْمَكْتَبِ، كُنْتُ أَذْهَبُ لِرُؤْيَا الشَّقِيقِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَى أَنْتَرْنَتٍ أَوْ اقْتَرَحَهَا

السماصرة. أحياناً، كانت أحلام ترافقني، أو تبعث لي روابط عروض إيجارات في منطقة أنفا، وأحياناً، كنّا نلتقي لنشرب القهوة ونحدّث عن أمور الحياة المختلفة. كانت تقول إنَّ أفضل شيءٍ فعلته هو أنني تركتُ سعداً، وأنني أستطيع أن أنطلق في الحياة بدون قيد أو خوف، بل إنني سأعيش الحياة التي ابتغيها لنفسي فعلاً، وليس الحياة البائسة التي أرادتها لي أُمي. لكنّها لم تكن تعلم كم كان الوضع معقّداً وكم كنتُ مجنونة.

قرّرتُ فجأةً أن أذهب إلى البيت وأخذ أغراضي المتبقّية هناك. فتحتُ الباب بسرعة ودخلتُ مغلقةً إيّاه بعنف. كان سعد في الصالون، وعرفتُ أنه قام حين رأيته، لكنني لم أنظر إليه. رحّتُ أتجوّل في البيت، وأجمعتُ ملابس المتبقّية وكُتبي وقطع الديكور التي اشتريتها. كنتُ مسرعةً ومركّزةً لدرجة لم تكن لديّ الفرصة لأفكر أو أشعر بأيّ شيءٍ محدّد. لم يقلّ سعد أيّ شيء، ولم يُعلّق. كنتُ أعرف أن كبرياءه منعه من ذلك، لكنّه لم يستطع منع رائحة الحقد الخانقة من الانتشار في المكان. فتحتُ الدولاب، وسحبتُ الصندوق الكبير الذي يحتوي الأحذية عالية الكعب التي لم أرتديها أبداً، وأنايب أحمر الشفاه الذي لم أضعه أبداً، والسدّادات القطنية التي لم أستعملها أبداً. كنتُ أسحب الأغراض بفرح طفلٍ عثر أخيراً على ألعابٍ أضاعها منذ زمن، وأرتبها في الحقيبة ببطء وحذر، غير عابئة بسعد الذي قد يراها في أيّ لحظة. دخلتُ أخيراً إلى الحمام، وبدأتُ أجمع أغراضي في كيس بلاستيكي، وحين فتحتُ الخزانة، انتبهتُ إلى أن أحمر الشفاه الوردي وكريم التجعيد الخاصّين بنجوى غير موجودين. تحرّك قلبي من مكانه. فهمتُ أنّ سعداً تخلّص منهما، لكنني لم أستطع تخمين السبب ولم أجرو على سؤاله عن ذلك. مرّرتُ أمامه جازةً حقيبتني، وبذلتُ جهداً عظيماً لأبقي نظرتي مركّزة في الفراغ، ولا ألتفتَ إليه. أسوأ مرحلةٍ في الزواج هي مرحلة عدم القدرة على النظر إلى وجه الشريك. يشبه ذلك النظر إلى أخطائنا البليدة القديمة وارتكابها من جديد. سمعتُ صوتاً ضعيفاً ومكسوراً يسألني:

- لماذا؟

«لماذا» فقط، ولا شيء آخر. لكن هذه الكلمة لم تأتني على شكل موجات صوتية سمعتها بأذني، بل جاءت على شكل لفحة مؤلمة مرّت فوق بشرتي. مثل قطعة ثلج حادة خبطت مؤخرة عنقي بقوة، لماذا؟

لماذا تذهبين، يا شهرزاد؟ لماذا تهربين على الدوام؟ لماذا تزوجت؟ لماذا هربت من نفسك؟ لماذا تبحثين عن أي شيء آخر غير الأشياء التي لديك؟ لماذا لا تحبين الأشياء التي لديك؟ لماذا تنسلين هكذا من نفسك، ثم تبحثين عن جسد آخر يحتضنك؟ لماذا تبنين بيتك في الآخرين؟ لماذا قلبك بيت مهجور وموحش هكذا، يا شهرزاد؟ لماذا تهربين إلى الحب، ثم تهربين منه؟

«لماذا؟» بنبرة مفعمة بالعتاب والاستسلام وفقدان الأمل. «لماذا» التي لا يريد بها الإنسان جواباً، بل إخراج غصة الخسارة من القلب.

التفت إليه. حدقت فيه بالأم. تألمت لأنه خسر. سقطت نظرتُه المنكسرة على الطاولة. أمسك علبة سجائره وراح يطرق الطاولة ببطء. صعد شمشون فوق ظهره المتقوس، وبدا كأنه جالس فوق تلة. أخيراً، رفع رأسه نحوي ورمقني بحقد. قفر شمشون وركض مختفياً في المطبخ. فتح سعد علبة سجائره بسرعة وببراعة، ثم قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة.

- أهكذا تردّين لي الجميل؟

- أيّ جميل؟

- عندما عرفتُكِ كنتِ مكتئبة وبائسة وضائعة، وقفتُ معكِ ومنحتكِ شرف أن تكوني زوجتي، لكنكِ خذلتي. أنتِ الخسرانُ في الأخير.

ضحكتُ بسخرية. نظر إليّ بغضب، وأشار بأصبعه نحوي مُهدداً:

- ليست لديك أي فكرة عما يمكنني فعله.

قُلْتُ فِي تَحَدٍّ:

- مَا الَّذِي يُمَكِّنكَ فَعْلَهُ؟

نَظَرَ إِلَيَّ مَلِيًّا مِثْلَمَا يَنْظُرُ إِلَيَّ حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَضَاجِعَنِي بِالْقُوَّةِ، ثُمَّ قَالَ:

- يُمَكِّنُنِي مِثْلًا أَنْ أُخْبِرَ أَمَلِكِ أَنَّكَ لَمْ تَكُونِي بِكَرًّا حِينَ تَزَوَّجْتِكِ.

خَرَجَتْ مِنِّي ضَحْكَةٌ قَصِيرَةٌ مُسْتَفِرَّةٌ، وَصَحْتُ:

- لَيْسَ لَدَيْكَ أَيُّ دَلِيلٍ عَلَى هَذَا!

نَدِمْتُ بِمَجَرَّدِ مَا خَرَجَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ فَمِي. نَدِمْتُ لِأَنِّي لَمْ أَقُلْ
بَدَلًا عَنْهَا: فَلْتَذْهَبِ لِلْجَحِيمِ أَنْتَ وَأُمِّي، يَا ابْنَ الْعَاهِرَةِ! ثُمَّ لَعَنْتُ تَفْكِيرَ
أُمِّي وَغَشَاءَ الْبَكَارَةِ. سَحَبَ سَعْدٌ سَيَّجَارَةً مِنَ الْعَلْبَةِ، وَارْتَجَفَتْ أَصَابِعُهُ
وَهُوَ يَضَعُهَا فِي فَمِهِ. مَرَّرَ يَدَهُ وَرَاءَ جِهَازِ التَّسْجِيلِ الْقَدِيمِ، وَسَحَبَ وَلَاعَةً
مِنْ هُنَاكَ، ثُمَّ أَشْعَلَ السَّيَّجَارَةَ بِدُونِ أَيِّ تَرَدُّدٍ. جَرَرْتُ الْحَقِيقَةَ الثَّقِيلَةَ وَقَدْ
صَعِدَتِ الْحَرَارَةُ إِلَى وَجْنَتَيَّ. كُنْتُ غَاضِبَةً مِنْ نَفْسِي وَمِنْ الْعَالَمِ، وَلَوْ
اسْتَطَعْتُ لِأَحْرِقْتُ الدُّنْيَا كُلَّهَا. صَفَقْتُ الْبَابَ وَرَائِي بِعَنْفٍ، وَفَكَّرْتُ لِلْمَرَّةِ
الْأُولَى فِي حَيَاتِي أَنَّ النِّسَاءَ مُحَقَّاتٌ حِينَ قُلْنَ إِنَّ الرِّجَالَ كُلَّهُمْ مُتَشَابِهُونَ.

سِرْتُ فِي الشَّارِعِ مُتَمَايِلَةً مِنَ الْعِيَاءِ. كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ تَوَازُنِي وَبُوصَلَاتِي
مِنْ الْغَضَبِ الَّذِي دَاهَمَنِي، وَكَانَ الْجَوُّ رَمَادِيًّا، وَرَائِحَةُ الْمَوْزِ الْكَرِيهَةِ مُنْتَشِرَةً
فِي الْمَكَانِ. كَرِهْتُ بَائِعَ الْمَوْزِ وَذَلِكَ الْحَيَّ وَنَفْسِي وَسَعْدًا وَالرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ
وَنَجْوَى وَالْمَغْرِبَ وَأُمِّي. أَرَدْتُ أَنْ أَبْكِي مِنَ الْخَسَارَةِ، لَكِنْ طَبَقَةُ الْغَضَبِ
مَنْعَتْ دُمُوعِي مِنَ التَّدْفُّقِ. الرِّجَالُ كُلُّهُمْ مُتَشَابِهُونَ. فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ
بِعَمْقٍ وَبِحَيَادٍ. لَا يَوْجَدُ شَيْءٌ فِي الْحَيَاةِ بِدُونِ عَيُوبٍ، لَكِنْ عَيُوبُ بَعْضِ الرِّجَالِ
مُسْمُومَةٌ. ثَمَّةُ شَيْءٍ يُشَبِّهُ السَّمَّ يَسْرِي فِي عُرُوقِهِمْ بَدَلِ الدَّمَاءِ حِينَ يَكُونُونَ
أَمَامَ نِسَاءٍ قَوِيَّاتٍ وَمَشْعَاتٍ. يَقُولُونَ فِي الْبَدَايَةِ إِنَّهُمْ وَاقِعُونَ فِي حَبْهَنْ، ثُمَّ
يَبْدَوْنَ فِي نَفْثِ سُمُومِهِنَّ رَوِيدًا رَوِيدًا حَتَّى يَدْمُرُوهُنَّ تَمَامًا. وَهَكَذَا يُثَبِّتُونَ

لأنفسهم تفوّقهم عليهنّ. عادةً ما توصف النساء بالأفاعي، لكنني لم أر في حياتي ثعابين كالرجال.

تذكّرتُ لقاءنا الأوّل وأنا أرتّب ملابسني في دولاّب غرفتي في الفندق، وأحسستُ بالاشمئزاز حين تذكّرتُ لحظة إعجابي الأولى به. كيف أُعجِب بشخصٍ يقول إنه يحبّ النساء، لكنّه يكره النسويات؟ سَحَبْتُ هاتفي من الحقيبة، وكتبتُ على فيسبوك:

قواعد التعامل مع الرجال:

القاعدة الأولى: إذا قال لك رجلٌ أنّه يكره النسويات، اهربي في الحال، وإذا قال لك إنه نسوي ويحبّ النسويات ويحترمنّ، اهربي أيضاً.

أغلقتُ الفيسبوك، واتّصلتُ بأحلام. تحدّثنا مطوّلاً عن سَعد، وللمرّة الأولى استطعتُ الحديث عن رغبتني في الانفصال عنه بدون أيّ شعور بالذنب. صرختُ وشتمتُهُ بألفاظٍ قبيحة، ثمّ بكيتُ بحرقة. أخبرتني أحلام أنّ الرجال السيّئين كلّهم يتصرّفون بطيبة ورِقّةٍ مبالغٍ فيهما حين يرغبون في إيقاع نساءٍ ذكيّاتٍ في شباكهم، وأنّ سَعداً كان سيكشف عن وجهه الحقيقي عاجلاً أو آجلاً مثل النرجسيّين وكارهي النساء الآخرين كلّهم. تحدّثنا عن الرجال كثيراً، وحين تعبنا، قلّتُ لها مازحة:

- لن تتقدّم النساء خطوةً واحدةً إلى الأمام ما دامت أحاديثهنّ مواضيع متعلّقة بالرجال.

ضحكت، ثمّ قالت:

- هذا ما يريده الرجال بالضبط، أن تتوقّف عن الحديث عنهم في مجالسنا الحميمية، لأنّ ذلك يفتح عيوننا على كثيرٍ من الأشياء.

ذهبتُ إلى جان جوريه مرّةً أخرى، ومشيتُ هناك مثل متشرّدةٍ مصابةٍ بمرضٍ عقلي، ثمّ جلستُ في مقهى قريبٍ لمدّةٍ ساعتين. كنتُ أتمنّى رؤيةً نجوى لأتحدّث إليها هذه المرّة. دخلتُ إلى إنستغرام، ودخلتُ إلى صفحتها. كانت أونلاين، لكنني لم أجروء على الحديث إليها. كنتُ أودّ أن أخبرها أنني أكره سَعداً أيضاً، مثلها تماماً، وأنّ اهتمامي به وحبّي له لم يكونا خالصين له وحده، وإنما كانا بسبب اهتمامي بها هي. لكنني لم أستطع أن أقول أيّاً من هذه الأشياء. كانت أصابعي ترتجف وأنا أتخيّل نفسي أكتب لها رسالةً طويلة، أعترف فيها بكلّ شيء. تخيلتُ مشهداً سينمائياً طويلاً، وقلّتُ كلاماً كثيراً في رأسي، وبكيتُ أيضاً. كنتُ أريد أن أتصل بأُمّي وأصرخَ في وجهها وأخبرها أنني لن أسامحها، لأنها صنعت منّي ما أنا عليه الآن، لكنني كنتُ أعرفُ أنها لن تفهمني وأنّ شيئاً لن يتغيّر، وكان هذا يزيدُ من غضبي وألمي.

نظرتُ عبر زجاج المقهى إلى المطر الغزير الذي يسقط في الخارج، وتحولَ ذلك الكلام كلّهُ الذي لم أقله إلى كُرّةٍ ثقيلةٍ وحارقةٍ من المشاعر. تدرجت الكُرّة من حلقي، عابرةً صدري ومعدتي، لتستقرّ أخيراً في قعر أعماقي. حاولتُ الوصول إليها وإخراجها من ذلك المكان الغائر، لكنّ يدَ الشجاعة كانت قصيرة.

ذهبتُ كثيراً إلى جان جوريه في الأيام التالية، وشعرتُ بحزنٍ كثيفٍ يضربُ أعماقي. وفي صباح الثالث من يناير، ارتديتُ جلباباً وطرحه رأس، ثمّ توجّهتُ إلى مقبرة الغفران، حيثُ دفنّا والدي. حين وصلتُ إلى قبره وقرأتُ اسمه

على الشاهدة، فقدت ركبتي القدره على حمل جسدي، فسقطت إلى جانبه بألم. لمست أطراف القبر بأصابعي، وانهمرت الدموع من عيني ساخنة كأنها قادمة من جهنم. أغمضت عيني وحاولت تذكر وجهه وملامحه، لكنني لم أستطع. لمست شَعْرَه البُنِّي الكثيف والناعم، وشاربه الأسود، ووجهه الذي نبت فيه شعيرات حادة وخشنة، وقميصه الأزرق المخطط بالأصفر، ويديه السمراوين المرغبتين، لكنني لم أستطع تبين ملامحه. فتحت عيني وأجلت ناظري على الموت من حولي. القبور النائمة على ظهرها، وشاهداتها المستقيمة الشامخة التي لا تسقط أبداً بثت في داخلي الرهبة. تذكر الموت والماضي يغسلان الناس من أدران الحياة. نظرت إلى التراب بعمق وشوق، وإلى الأعشاب الخضراء التي انبجست منه بشجن. من أين يأتي هذا العشب الذي ينبت فوق القبور؟ أهى الروح ترفض الرحيل فتنتقل لتحيا داخل كائنات أخرى؟ هاربة من أسئلتي، رميت بصري إلى الأفق البعيد، حيث ليس هناك إلا التراب والسماء وصومعة جامع بعيد. كنت أتخفف رويداً رويداً من الحياة والمرض الذي أصابني. ألا يقولون إن الموت يشفي الأمراض كلها، ويخلص الناس من آلامهم ومعاناتهم كلها؟

لكن القبور لم تكن تحمل الموت فقط. كانت تحمل الحياة أيضاً، العشب والزهور والرخام وزخرفات الرَّليج والكلمات والأسماء والأرقام والألوان والآيات القرآنية. كيف أستطيع أن أنسى الحياة وأنا أرى قبوراً أنيقة ومزخرفة وملانة بالزهور، وأخرى مجرد تراب بارز محاط بالأحجار؟ ومع أن عزرائيل لا يكثر لأحد ويقبض أرواح الناس، بغض النظر عن غناهم أو فقرهم، لكن الطبقة اللعينة تظل موجودة حتى في الموت. سحبت هاتفي من الحقيبة، وكتبت على فيسبوك:

- لا يوجد أضعف وأتفه من الإنسان! مجهوداتنا الدؤوبة كلها لنحافظ على الحياة في الموت تنتهي بتحولنا إلى مجرد عشب أخضر نابت فوق قبر.

كيف يمكنني أن أنسى الحياة إذن؟

أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ مِنْ جَدِيدٍ، وَسَافَرْتُ إِلَى تِلْكَ الْمُنْطَقَةِ الْخَضْرَاءِ
الشَّاسِعَةِ دَاخِلَ رَأْسِي، لَكِنِّي لَمْ أَعْثِرْ لِأَبِي عَلَى أَثَرٍ. رَأَيْتُ امْرَأَةً جَالِسَةً
قَرَبَ شَجَرَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَيْتُ نَحْوَهَا. اقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى
كَتِفِهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَلْتَفِتْ. كَانَتْ مَنشَغَلَةً بِتَطْرِيزِ ثَوْبٍ وَهِيَ تَدْنِدُنُ بِأُغْنِيَّةٍ
لَا أَعْرِفُهَا. مَشَيْتُ خَطَوَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ وَجَلَسْتُ أَمَامَهَا. لَمْ تَكُنْ أُمِّي وَلَا نُهَى
وَلَا جَمِيلَةٌ وَلَا نَدَى وَلَا حَتَّى زَهْرَةٍ. كَانَتْ نَجْوَى اللَّعِينَةِ هِيَ الْمَوْجُودَةُ فِي
رَأْسِي. صَفَعْتُهَا صَفْعَةً، فَانْتَتَيْنِ، فَثَلَاثًا، لَكِنَّهَا لَمْ تَرْفَعْ رَأْسَهَا وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَيَّ.
صَرَخْتُ فِي وَجْهِهَا أَنْ تَنْظُرْ إِلَيَّ. هَزَّتْ رَأْسَهَا دَلَالَةً عَلَى الرِّفْضِ. أَمْسَكْتُهَا
مِنْ كَتِفَيْهَا وَرَحْتُ أَهْرَ جَسَدِهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَسْتَجِيبُ. فَتَحْتُ عَيْنَيَّ
كَأَنِّي اسْتَيْقِظْتُ مِنْ كَابُوسٍ، وَرَأَيْتُ طَرَفَ جِلْبَابِ بَنِي مَخْطُطٍ وَرِجْلَيْنِ
تَرْتَدِيَانِ حِذَاءَ رِثَاءٍ وَمَغْبَرًا، وَقَبْلَ أَنْ أَرْفَعَ رَأْسِي، قَالَ:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ...

وَرَاحَ يَتْلُو آيَةَ الْكُرْسِيِّ. نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْبَائِسِ الْمَمْلُوءِ بِالتَّجَاعِيدِ وَعَيْنَيْهِ
الْغَائِرَتَيْنِ، وَقُلْتُ بِنَبْرَةٍ قَاسِيَةٍ:

- لَا، شُكْرًا، لَا أُرِيدُ.

تَوَقَّفَ عَنِ التَّلَاوَةِ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ مُسْتَفْرَّةٍ:

- لَا تَرِيدِينَ الْقُرْآنَ؟

كُنْتُ غَاضِبَةً. رَفَعْتُ صَوْتِي أَكْثَرَ:

- أَعْرِفُ كَيْفَ أَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَى رُوحِ وَالِدِي بِنَفْسِي!

قَالَ بِصَوْتٍ أَجَشٍّ كَأَنَّهُ يَتَوَسَّلُنِي:

- لَكِنَّ الْقُرْآنَ، يَا ابْنَتِي، بِلِسَانِ فُقَيْهِ لَيْسَ كَالْقُرْآنِ بِلِسَانِ امْرَأَةٍ. ثُمَّ إِنِّي لَا

أَطْلُبُ مُقَابِلَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْضَ الدَّرِيهِمَاتِ الْقَلِيلَةِ ...

وقبل أن يُكَمِّلَ كلامه، نهضتُ ومشيتُ دون أن أودَّع والدي. كنتُ ما أزال غاضبة. وخلال تلك الفترة، لم أكن أملك القدرة على تحمُّل أحد، حتَّى أحلام التي كانت تساعدني على إيجاد بيتٍ للإيجار، لم أكن أتحمَّل اتِّصالاتها المستمرَّة، وكنتُ أستيقظُ على رنين المنبِّه في الصباح مرعوبةً كأنَّ أحداً سكَبَ عليَّ ماءً مثلاًجاً. وفي الصباح، كنتُ أذهبُ إلى المكتبِ متعبَةً كأنني استيقظتُ لتوِّي من حربٍ ضارية. ظهرتْ هالاتٌ سود كـبـيـراتٍ حول عينيَّ، واكتسبتُ وزناً أكثر، ولم أتنبِّه أبدأً إلى أنني كنتُ أتحوَّل إلى كرةٍ حقيقية من الشحم، وأنني فقدتُ شكلي الطبيعي الذي كنتُ عليه قبل سنتين.

تلقيتُ اتِّصالات كثيرة من والدتي ومن أختيَّ، لكنني لم أردَّ على أيِّ منها. كنتُ أريد أن أحدثُ قطيعةً مع كلِّ مَنْ عرفتُهم في الماضي، لأستطيع المُضيَّ قدماً في حياتي. ولكن، إلى أين؟ هل بوسعي أن أعتبر سيري الحثيث نحو نجوى مضياً إلى الأمام؟

كنتُ أقرأ رسائل أُمِّي المملوءة بالترغيب ورسائل نُهي الملائنة بالتخويف بحياءٍ تامٍّ. ولم يكن يتحرَّكُ أيُّ شيءٍ في داخلي وأنا أقرأ رسائل سَعد الممتلئة بالاستعطاف أحياناً، والتهديد أحياناً أخرى، والسبِّ في بعض الأحيان. أحياناً، كنتُ أستلقي على سريرِي في الفندق، بعد أن أستحمَّ، وأشرعُ في إعادة قراءة هذه الرسائل بقرفٍ منشوب بالشفقة، ثمَّ أدخل إلى الأنترنت وأبحث باللغات التي أعرفها كلَّها عن تفسيرٍ لحالة جنوني بنجوى في التحليل النفسي، لكنني لم أكن أعثر على شيء. وفي كلِّ مرَّةٍ كنتُ أسأل نفسي عن السبب الذي دفعني إلى القيام بهذا كلِّه، لم أكن أجد جواباً غير أنني أريد أن أكون قريبةً من تلك المرأة، وأراها كلَّ يوم، وأتلصَّص عليها، وأعرف كلَّ شيءٍ عن حياتها.

في نهاية يناير، توجّهنا أحلام وأنا إلى زقاق جان جوريه لزيارة شُقّة تقع في المبنى المقابل للمبنى الذي تسكن فيه نجوى. كنتُ قد قضيتُ نحو شهر ونصف في الفندق، أنتظر بصبر أن أجد شُقّة مناسبة. مشينا في أرقة أنفاً تحت سماءٍ رمادية متجهمّة، وحين دخلنا إلى زقاق جان جوريه، نبضَ قلبي نبضاتٍ سريعة متوالية. كنتُ منفعلةً كأنني ذاهبةٌ في موعد مع رجلٍ أحبّه ولا يبادلني الشعور نفسه.

عندما وصلنا إلى باب العمارة، استقبلنا شابٌ نظيفٌ ومؤدّبٌ ذو عَيْنَيْنِ زرقاوين، وقادنا إلى الطابق الثاني، حيث توجدُ الشُقّة. وقبل أن ندخل، نبّهتني أحلام بصوتٍ خافتٍ ألا أخبر صاحبة البيت بأنني ما زلتُ متزوجة، مخافة أن ترفض إيجاري الشُقّة، بحجة أنني هاربةٌ من زوجي.

عندما دخلنا، رأيتُ امرأة ذات جسد رشيق واقفة في البهو، مرتديةً سروال جينز ومعطفاً أزرق غامقاً وحذاء رياضياً. كانت تنظر من خلال النافذة الكبيرة إلى الخارج. رميتُ بصري إلى المبنى المقابل، فرأيتُ نافذةً زجاجيةً كبيرةً مغطاةً بستارة بيضاء سميكة. تمنّيتُ من قلبي كلّهُ أن تكون تلك النافذةُ فعلاً نافذةً بيت نجوى. التفتت المرأة ذات الجسد الرشيق، وقد ارتسمت ابتسامة هادئة على شفّتيها. كانت تبدو في نحو الخمسينيات من عمرها، ذات بشرة بيضاء، وعَيْنَيْنِ زرقاوين مشعّتين. لا بدّ وأنها كانت جميلةً جداً في شبابها. تذكّرتُ عينيّ أمّي الغائرتين وجسدها المترهّل. كنتُ أكتشفُ كلّ يوم سبباً يجعلني لا أريد أن أكون مثل أمّي.

قالت المرأة بلهجة فاسية ممزوجة بكلمات فرنسية:

- مرحباً بكما. أظنّ أنكما رأيتماً صوراً للبيت على الأنترنت. يمكنكما القيام الآن بجولة، لتريا إن كانت الشُّقَّة تناسبكما. مَن منكما شهرزاد؟
قُلْتُ باقتضاب:

- أنا.

كنتُ دائخةً كالعادة حين أكون في وضع جديد. ورغم أنني في الثانية والثلاثين، إلا أنني ما أزال أشعرُ بالدهشةِ مثل طفلة حين أدخل عالماً جديداً.
أضافت المرأة وهي تنظر إليّ:

- الشُّقَّة لها واجهتان. يمكنك أن تطلّي على زقاق جان جوريه من الصالون، وعلى زقاق قاسم أمين من غرفة النوم.

كنتُ أستمع إليها وأنا أهرّ رأسي فقط دون أن أقول أيّ شيء. كان تفكيري كله، وأنا أستمع إلى صوتها الهادئ، منصباً على الفرق بين لهجة الفقراء ولهجة الأغنياء حين يتحدثون. لاحظتُ خلال حياتي أنّ الأغنياء يتحدثون بأصوات منخفضة ونبرات هادئة، أمّا الأوساط الشعبية والفقيرة، فهي ضجيج مُزعج، وكلّما ازداد الفقر، ارتفعت الحناجر وصارت نبرات الصوت أعنف. وحين قُلْتُ في نفسي إن الغضب هو السبب، قالت أحلام:

- إنها فعلاً تريد البيتَ يا لالة أسماء، لكنك تعرفين الأوضاع الاقتصادية في البلد الآن، وهي ما تزال شاذّة، وقد بدأت للتوّ حياتها...

قاطعتها صاحبة البيت بنبرة محايدة:

- فلتَر البيتَ أولاً، ثم نقرّر بعد ذلك.

في أثناء تجوّلنا في البيت، كنتُ أرمي بصري إلى الخارج من النوافذ كلّها، لأرى أيّاً منها يقابل شُقَّة نجوى. كنتُ أفكرُ طول الوقت بجملة أحلام

حين أخبرتني أنّ المبنى يقابل مباشرة المبنى الذي تسكن فيه صديقتها، لكنني لم أستطع أن أسألها عن أيّ مبنى بالتحديد تتحدث. كنتُ مؤسوسة ومرتابّة وخائفّة من أن تشعر بمرضي. كانت أحلام تمشي في البيت، وتجرب الصنابير ومفاتيح الضوء وتلمس الأسوار وتتفقد الأسقف وتساءل عن الشمس والرطوبة، بينما كنتُ أتوجّه إلى نافذة الصالون في كلّ مرّة، وأنظرُ إلى ذلك المبنى المقابل الذي لم تُفتح ستارته السميكة بعد. وحين استسلمتُ، رحتُ أتفرّج على أثاث البيت الجميل والأنيق. كانت هناك أريكة باللون البيج في الصالون، لكنّها موضوعة عكس النافذة. إلى جانبها أريكة صغيرة لشخص واحد باللون البنفسجي، وطاولتان. الأولى كبيرة موضوعة مباشرة أمام الأريكة الكبيرة، والثانية صغيرة ومدوّرة موضوعة جنب الأريكة الصغيرة. فكّرتُ أنني سأغيّر مكان هذه الأشياء واتّجاهاتها كلّها، حتّى يتسنى لي الجلوس بحيث أكون أمام النافذة مباشرة، وأتفرّج على حياة نجوى. توجّهتُ إلى النافذة من جديد، وتسمّرتُ أمام الشرفة الخاوية التي يفترض أنها لشقة نجوى.

- لا تقلقي، زجاج النوافذ عاكس، ولا يُظهر أيّ شيء للخارج.

كانت صاحبة البيت واقفة ورائي مباشرة. التفتُ إليها وقلبي ينبض بسرعة، ثمّ قلتُ بحماس مزيف:

- رائع جدّاً! هل المباني هنا كلّها هكذا؟

حدّقت في بعينيها الزرقاوين بدهشة:

- أين؟

- لا شيء، كنتُ فقط أسأل إن كانت المباني هنا لها نوعية الزجاج نفسها، لأنّه، كما تعلمين، الخصوصية مهمّة جدّاً، خاصّة بالنسبة إلى فتاة.

جاءت أحلام ووقفت أمامي مباشرة:

- ما رأيك، يا شهرزاد؟ جميلة، أليس كذلك؟

- نعم، جميلة جداً، لكن ...

تنقّست صاحبة البيت عميقاً حتّى سمعتُ صوتَ تنقّسها، ثمّ قالت بنبرة يشوبها بعض الفخر:

- يمكنك أن تسألي عن أثمان الإيجارات في هذه المنطقة، وأؤكد لك أنك لن تجدي بيتاً للإيجار بهذا السومة في حيّ كهذا في كازابلانكا كلّها. بالإضافة إلى ذلك، لديك هنا مطاعم من كلّ نوع، ومقاهٍ وحمّامات وصالون حلاقة وأسواقٌ ممتازة. إنك في قلب كازابلانكا.

ابتسمتُ في محاولةٍ لاحتواء مشاعري القوية المتناقضة. واصلتُ وهي تنظرُ من خلال النافذة إلى الخارج:

- عشتُ في هذا البيت لمدّة ثلاث سنوات، وأحبّ الدار البيضاء كثيراً. لكن، أظنُّ أنّ وقتَ الرحيل قد حان.

حدّقتُ فيها بفضول:

- سأعودُ للعيش في فرنسا.

خرجتُ من مشاعري، وقُلْتُ بمرارة:

- الحياة في فرنسا أفضلُ بكثير.

التفتتُ إليّ بفضول:

- هل عشتَ هناك من قبل؟

- لا.

- كيف يمكنك أن تحكمني إذن؟

لم أزد. قالت بنبرة يشوبها الحزن:

- قضيتُ النصف الأكبر من حياتي في باريس، ولم أحبّها أبداً. لقد شعرتُ دائماً بالغربة هناك، بالرغم من أن عملي وأولادي وأصدقائي وحياتي كلّها

كانت هناك. جئتُ مؤخراً لقضاء بعض الوقتِ مع والدي قبل أن يرحل أيضاً، والآن وقد ذهبَ إلى ربِّه، لم يعد لديّ شيءٌ أفعله في المغرب. سأغادر الأسبوع المقبل.

سكّنت قليلاً، ثم رَمَقْتُني بحزنٍ جعلَ جمالها طفولياً رائعاً.

- لكن، أتعلمين ما المحزن في هذا كله؟

- ماذا؟

- المحزنُ هو أنني أشعرُ بالغربة في المغرب أيضاً. المهاجرون لا وطن لهم أبداً.

شعرتُ أنني أريدُ أن أعانقها، لكنني تحكّمتُ في نفسي. قالت أحلام بحماس:

- صحيحٌ جداً. كنتُ قد كتبتُ مقالاً عن المهاجرين المغاربة في الخارج، وقد قالوا كلّهم إنهم عاشوا التجربة نفسها!

قالت صاحبة البيت وهي تنظر إليّ:

- على كلّ حال، أودّ أن أقولَ لك إنني لم أعرض هذه الشُّقّة للإيجار، لأنني في حاجةٍ إلى المال، بل لأنني أريدُ أنفاساً تملؤها وشخصاً يعتني بها. ليس من الجيّد أبداً أن تبقى البيوت فارغة، لأن الشيطان يستغلّ فراغها ويسكن فيها. إذا أعجبتكِ واقتنعتِ بها، سيتكلّف قريبي بباقي الإجراءات القانونية.

قالت ذلك، ثمّ التفتت إلى قريبها الذي كان واقفاً غير بعيد ينقر على هاتفه. أوماً لنا بابتسامةٍ مطمئنة. توجّهت نحو الأريكة البيج، وحملت حقيبتها من نوع غوتشي. ابتسمت لي بحنان، ثمّ غادرت. هناك أشخاصٌ كثيرون في هذا العالم تميّتُ لو أستطيع أن أرتمي عليهم وأعانقهم، بالرغم من أن علاقتنا لا تسمح بذلك. كنتُ، في الواقع، أبحثُ عن الأمومة في كلّ ابتسامةٍ تبعثُ السكينة في روحي.

جاء سَعد أخيراً إلى مقرِّ عملي. كنتُ أتوقَّع أنه سيقوم بهذه الحركة الغبية ويأتي. كان ينتظرُ وصولي غير بعيدٍ عن الدار، وحين لمَحني، ركض نحوِي وأمسكني من يدي بقوة. أردتُ الانفلاتَ منه، لكنني لم أستطع أن أتحرَّك. حاولتُ أن أصرخَ في وجهه، لكنني كنتُ عاجزةً عن ذلك. كأنَّ يداً لا مرئيةً كانت مطبقةً على فمي. يدُ الضعفِ والهوان الذي تربيْتُ عليه. كان هناك كثيرٌ من السباب والشتائم والصراخ والقوَّة بداخلي، لكنها كلّها كانت محبوسةً في قفصِ اسمه الذلِّ، قفصِ مزيفِ اسمه الأنوثة.

لم يكن عقلي يؤمن بأن الأنوثة هي رديفُ الضعف والسكوت والقصور، لكنَّ قلبي وعاطفتي ومشاعري وطاقتي كانوا معجونين بالفتور والنقصان. كنتُ عاجزة، مرفقةً بسبب عجزِي. أمسك ذراعي الأخرى، وألصقني إلى السور، وراح يتكلَّم، يتكلَّم بلا انقطاع. لم أستطع تبيّن ما كان يقوله، لأنني كنتُ أفكرُ في معنى الأنوثة. لم أنظرُ إلى وجهه، لأنني كنتُ أنظرُ إلى المارّة الذين كانوا يمشون دون أن يلتفتوا إلى هذا المشهد الذي يحدثُ أمامهم. كنتُ مذعورةً مثل طفلٍ ضاعٍ في الزحام في مكانٍ لا يعرفه. لم أستشعر الألم في ذراعيّ ولا الغضبَ في قلبي ولا حتّى استوعبتُ كمّ التهديدات التي نفّثها في وجهي. كنتُ فقط أتظر أن ينتهي ويذهب. حين تركَ ذراعيّ، وابتعد عن وجهي، تنفّستُ عميقاً، ودخلتُ إلى الدار، ثمَّ إلى مكّتي، وشرعتُ مباشرةً في العمل.

بل إنني ابتسمتُ أيضاً في ذلك اليوم، وتحدّثتُ مع ندى حين وصلت،

وضَحِكْتُ حين رَوْتُ لي نَكْتَهُ سَخِيفَةً عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْأُورُوبِيِّينَ، وَحَلَمْتُ بِنَجْوَى أَيْضاً. تَخَيَّلْتُهَا تَخْرُجُ إِلَى شَرْفِهَا الصَّغِيرَةِ وَتَنْشُرُ مَلَابِسَ عَلَى حَبْلِ الْغَسِيلِ وَهِيَ تَدْنِدُنُ بِأُغْنِيَةٍ لَا أَسْتَطِيعُ سَمَاعَهَا. بَعْدَ الْعَمَلِ، التَّقِيْتُ أَحْلَامَ فِي مَقْهَى فَرَنْسَا، تَحَدَّثْنَا عَنِ الرِّجَالِ وَعَنِ الْآبَاءِ وَعَنِ الْعَنْفِ وَعَنِ الزَّوْاجِ، لَكِنِّي لَمْ أُخْبَرْهَا بِأَيِّ شَيْءٍ مِمَّا حَدَثَ.

حِينَ عَدْتُ إِلَى الْفَنْدُقِ فِي الْمَسَاءِ، ارْتَمَيْتُ عَلَى سُرِيرِي دُونَ أَنْ أُغَيِّرَ مَلَابِسِي، وَنَظَرْتُ إِلَى الْآثَارِ الزَّرْقَاءِ عَلَى ذِرَاعَيَّ، ثُمَّ أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ. لَا أَذْكَرُ أَنَّنِي فَكَّرْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ أُنَامَ، حَتَّى إِنَّنِي لَمْ أَتَخَيَّلْ يَوْمَ انْتِقَالِي إِلَى جَانِ جُورِيهِ كَمَا أَفْعَلُ كُلَّ لَيْلَةٍ. بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِقَلِيلٍ، سَمِعْتُ طَرَقَاتٍ خَفِيفَةً فِي بَابِ غُرْفَتِي. طَرَقَاتٌ لَهَا صَدَى كَأَنَّهَا قَادِمَةٌ مِنْ حُلْمٍ. قُمْتُ وَمَشَيْتُ نَحْوَ الْبَابِ وَعَيْنَايَ مَا تَزَالَانِ نَصْفَ مَغْمُضَتَيْنِ. وَبِدُونَ خَوْفٍ، فَتَحْتُ الْبَابَ. كَانَ سَعْدٌ وَاقِفاً يَنْظُرُ إِلَيَّ وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةٌ جَانِبِيَّةٌ مُسْتَهْزِئَةٌ. لَمْ أَشْعُرْ بِالْكَرْهِ، وَلَا حَتَّى بِالْمَرَارَةِ. عَيْنَاهُ كَانَتَا ثَابِتَتَيْنِ فِي عَيْنَيَّ فِي نَظَرَةٍ مَفْعَمَةٍ بِالْمَقْتِ. وَجْهَهُ كَانَ مَسْوِوْداً. سَأَلْتُهُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ الدَّخُولَ إِلَى الْفَنْدُقِ. لَمْ يَرُدَّ. قَالَ لِي إِنَّهُ لَمْ يُحِبَّنِي أَبَداً، وَإِنَّهُ طِيلَةٌ عَلَاقَتُنَا كَانَ يَفْكَرُ فِي حَبِيبَتِهِ السَّابِقَةِ نَجْوَى الَّتِي لَمْ تَغَادِرْ عَقْلَهُ أَبَداً مُنْذُ تَخَلَّتْ عَنْهُ، حَتَّى عِنْدَمَا كَانَ يَنَامُ مَعِي، كَانَ يَفْكَرُ فِيهَا، وَعِنْدَمَا كَانَ يَقْبُلُنِي، وَعِنْدَمَا كَانَ يُدَاعِبُنِي، وَعِنْدَمَا كَانَ يَعَانِقُنِي، كَانَتْ هِيَ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَمَلَأُ تَفْكِيرَهُ. قَالَ لِي إِنَّنِي لَا أَسْتَحِقُّ الْحُبَّ، وَإِنَّنِي اخْتَرْتُ حَيَاةَ الذَّلِّ الَّتِي عَشْتُهَا مَعَهُ. لَا أَدْرِي كَيْفَ ارْتَفَعَتْ يَدِي، لَكِنِّي رَأَيْتُهَا تَتَوَجَّهُ إِلَى خَدِّهِ بِصَفْعَةٍ قَوِيَةٍ، صَفْعَةً هَرَّتْ جَسَدُهُ كُلَّهُ، حَتَّى رَاحَ يَتَأَرْجَحُ، وَكَادَ يَسْقُطُ لَوْلَا أَنَّهُ اسْتَجْمَعَ قَوَاهُ. أَرَدْتُ أَنْ أَغْلِقَ الْبَابَ بَيْنَمَا كَانَ يَتَرَنِّجُ، لَكِنَّهُ دَفَعَهُ وَدَخَلَ. لَمْ أَخَفْ وَلَمْ أَبْتَعِدْ. ظَلَلْتُ وَاقِفَةً أَمَامَهُ رَافِعَةً رَأْسِي نَحْوَهُ مَبَاشَرَةً مُحَدِّقَةً فِي عَيْنَيْهِ. وَحِينَ رَأَيْتُ قَبْضَةً يَدِهِ تَتَوَجَّهُ نَحْوِي. أَوْقَفْتُهَا بِيَدِي بِحَرَكَةٍ بَسِيطَةٍ، وَبِدُونَ أَيِّ مَجْهُودٍ. كَأَنَّ تِلْكَ الْقُوَّةَ كُلَّهَا الَّتِي كَبَتْ فِي دَاخِلِي طِيلَةَ حَيَاتِي قَدْ خَرَجَتْ الْآنَ. أَمْسَكْتُ يَدَيْهِ الْاِثْنَتَيْنِ،

وسمّرتُ نظري في عَيْنِهِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَقْطُرَانِ عَجْزاً وَذَعْرَأً. صَفَعْتُهُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً فِي الْخَدِّ الْآخَرِ، ثُمَّ رَابِعَةً، ثُمَّ خَامِسَةً. كَانَ مَلَمَسُ وَجْهِهِ فِي يَدَيَّ رَخَواً مِثْلَ وَهْمٍ. وَكَانَ جَسَدُهُ يَتَرَنِّحُ فِي الْهَوَاءِ مِثْلَ قِطْعَةٍ كَرْتُونٍ مَهْمَلَةٍ تَذْرِبُهَا الرِّيحُ. سَقَطَ آخِيراً وَقَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ، وَنَظَرَ إِلَيَّ فِي انْهَزَامٍ، ثُمَّ زَحَفَ نَحْوَ الْبَابِ الْمَفْتُوحِ، وَخَرَجَ مُخْتَفِياً فِي الظَّلَامِ مِثْلَ حِرْبَاءٍ خَائِفَةٍ.

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ قَبْلَ الْفَجْرِ بِقَلِيلٍ، وَنَظَرْتُ إِلَى بَاطِنِ كَفِّي وَأَنَا مَا أَزَالُ مُسْتَلْقِيَةً. كُنْتُ أَشْعُرُ بِوُخْزٍ خَفِيفٍ يَسْرِي فِيهَا كَأَنِّي صَفَعْتُ أَحَدًا بِالْفِعْلِ. أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ مِنْ جَدِيدٍ، لَكِنِّي لَمْ أُسْتَطِعِ النَّوْمَ. كَانَ الْأَلَمُ مَا يَزَالُ يَنْبِضُ فِي ذِرَاعَيَّ وَعَقْلِي يَدُقُّ مِثْلَ عَقَارِبِ سَاعَةٍ يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا فِي غُرْفَةٍ خَاوِيَةٍ. فَكَّرْتُ أَنِّي لَنْ أَخْسَرَ أَيَّ شَيْءٍ إِذَا ذَهَبْتُ لَزِيَارَةِ نَجْوَى فِي بَيْتِهَا عِنْدَمَا أُنْقَلُ إِلَى بَيْتِي فِي جَانِ جُورِيهِ، وَأَنَّ هَذِهِ هِيَ أَفْضَلُ طَرِيقَةٍ لِلانْتِقَامِ مِنْ سَعْدٍ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الذَّنْبِ. فِي الصَّبَاحِ، حَرَمْتُ حَقَائِبِي وَغَادَرْتُ الْفَنْدُقَ وَانْتَقَلْتُ رَسْمِيًّا إِلَى بَيْتِي الْجَدِيدِ. بَعْدَمَا أَدْخَلْتُ حَقَائِبِي إِلَى الشُّقَّةِ، تَوَجَّهْتُ إِلَى مَقْهَى قَرِيبٍ، وَاشْتَرَيْتُ كِرَواسُونٍ، وَكُوبَيْنِ مِنَ الْقَهْوَةِ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ إِلَى الْمَبْنَى الْمَقَابِلِ، وَصَعِدْتُ إِلَى الطَّابَقِ الثَّانِي، حَيْثُ تَسْكُنُ نَجْوَى صَابِرٍ. رَنَنْتُ جَرَسَ الْبَابِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَوَقَفْتُ أَسْتَمِعُ إِلَى نِبْضَاتِ قَلْبِي السَّرِيعَةِ وَالصَّاخِبَةِ. سَمِعْتُ صَوْتَهَا الْمَأْلُوفَ فِي الدَّخْلِ يَقُولُ: «أَنَا قَادِمَةٌ»، ثُمَّ حَفِيفَ خُطَوَاتٍ تَقْتَرِبُ. وَبَعْدَ أَقَلِّ مِنْ عَشْرِ ثَوَانٍ، قُتِحَ الْبَابُ. كَانَتْ تَرْتَدِي رُوبَ حَمَامٍ أَيْضَ طَوِيلًا وَسَمِيكًا، وَشَبِشْبَاءَ قَطْنِيًّا. رَمَقْتَنِي بِدَهْشَةٍ بِوَجْهِ مَائِلٍ، وَوَاصَلَتْ تَنْشِيفَ شَعْرِهَا الَّذِي يَقْطُرُ مَاءً. تَنَاهَتْ إِلَيَّ رَائِحَةُ شَامْبُوَانٍ بِنَكْهَةِ الْبَنْفَسَجِ. انْفَرَجَ وَجْهَهَا النَّظِيفُ الْخَالِي مِنْ الْمَاكِياجِ عَلَى ابْتِسَامَةٍ سَاحِرَةٍ، ثُمَّ قَالَتْ:

- أَهْلًا وَسَهْلًا.

عَرَفْتُ أَنَّهَا تَذَكَّرْتَنِي، وَخَمَنْتُ أَنَّ أَحْلَامَ أَيْضًا حَدَّثَتْهَا عَنِّي. مَدَدْتُ لَهَا كَيْسَ الْكِرَواسُونِ.

- انتقلتُ إلى الرقاق اليوم، وعندما عرفتُ أنَّكِ أيضاً تسكنين هنا، قُلْتُ
لَمْ لَا نشربُ قهوةً معاً؟ أرجو ألا أكون قد أزعجتُكِ، لأنني جئتُ هكذا بدون
أيِّ إخطار.

قالت وهي ما تزال تمسح شَعْرَها:

- شهرزاد، أليس كذلك؟ لقد تذكَّرتُكِ. تحدَّثَني أحلامُ عنكِ دائماً. لو
أنَّكِ أخبرتيني أنَّكِ قادمة، كنتُ على الأقلَّ جهَّزتُ نفسي وأعددتُ الفطور
ووفَّرتُ لكِ استقبالاً يليق بكِ في جان جوريه.

أخجلتني لطفها، ولم أستطع أن أقول أو أفعل أيَّ شيء غير الابتسام. وحين
أفسحت لي الطريق للدخول، تذكَّرتُ ما فعلتهُ بها عبر حساب غوستافو
سانشيز، وشعرتُ بندمٍ قاتل.

- تذكَّرتُكِ مرَّاتٍ كثيرة بعد حفل توقيع نساء رائعات، لكنني لم أستطع
أن أتواصل معكِ. لقد نسيْتُ اسمكِ الكامل.

- شهرزاد الراوي.

كانت تسبقُني بوضع خطوات. نظرتُ إلى شكلِ جسمِها. كان واضحاً
أن حوضها مدوَّر ومثير، بالرغم من أنَّها ملفوفةٌ في ذلك الروب السميك
والواسع. وضعت الكرواسون وكوبَي القهوة على الطاولة، ثم التفتت إليّ،
ولم أعرف إن كانت تضعُ أحمرَ خدود أم أن وجهها اكتسب حمرةً بسبب
الحمام الذي أخذته للتو.

- ماذا؟

- شهرزاد الراوي.

انحنَت، وجمعت ملابس كانت مرميةً على الأريكة، ثم قالت دون أن
تنظرَ إليّ:

- اسْمُكَ جَمِيلٌ جِدًّا. اجلسي، يا شهرزاد.

- شكراً.

اختفت في غرفةٍ ما، ثمَّ عادت وفي يديها عُلْبَةٌ سجائر. ارتمت على الأريكة، ووضعت شَعْرَهَا المَبْلَل على المَسْنَد.

- لماذا لم تجلسي، يا شهرزاد؟

جلستُ إلى جانبها. كانت الأريكةُ دافئةً، كأنَّ أحداً قد نهَض منها للتوّ. مدّت لي عُلْبَةَ السجائر.

- هل تدخنين؟

- لا، شكراً.

وضعت سيجارةً بين شفتيّها.

- أنا أيضاً. أقصد أنني أفعلُ ذلك أحياناً فقط، حين أشعرُ أنني أودُّ إحراق هذا العالم.

ابتسمتُ.

- هل تشعُرين الآن أنَّك تودِّين إحراق هذا العالم؟

حملت كوب قهوتيها، ووضعتُه في حِجرها، ثمَّ أسندت رأسها كُلَّهُ على الأريكةِ هذه المرّة، ومدّت رِجْلَهَا على الطاولة أمامها، فارتفع الرُّوب كاشفاً عن ساقَيْن بيضاوَيْن طويلَتَيْن وممتلئَتَيْن. أشعلت سيجارتها ورشفت الدخان بنشوةٍ واضحة.

- ألا تشعُرين أنتِ كذلك؟

حدّقتُ فيها بدهشة. دوّرت وجهها نحوي، ونظرت إلى عينيّ مباشرةً. ابتسمتُ، لكن، دون أن تنفرج شفتيها. خرّجت من حلقي ضحكةً قصيرة مزيفة.

- أحياناً. أعني عندما أكون غاضبة.

نظرت إلى عنقي، ثم إلى صدري، بالرغم من أن فستاني لم يكن مفتوحاً جداً. صعدت الحرارة إلى وجنتي. شربت من قهوتها دون أن تزيع نظرها عن وجهي. قالت بهدوء مطمئن:

- وما الذي يُغضبكِ؟

شعرت بالسكينة، وشربت من قهوتي أيضاً. قلتُ بدون تردد.

- البشر.

نظرت إلى صدري مرةً أخرى، وأحسستُ كأنها لمسته هذه المرة، لكنني لم أنزعج.

- البشرُ بمن فيهم أنتِ، أم الآخرون؟

لم أعرف بماذا أجيب. لم أكن قد فكرتُ في ذلك من قبل. انحنّت على الطاولة وتناولت الكرواسون في يديها اليسرى. كانت السيجارة ما تزال تحترق بين أصابع يديها اليمنى، والدخان يمنحها هالةً رهيبة وعمقاً أعرف أنه مزيف، لكنه مثير.

- لا أعرف.

عادت واستندت إلى الأريكة من جديد وهي تنظر إليّ. رأيتُ صدرها هذه المرة والشامات بلون القرفة عليه وحلمة ثديها الأيمن. قضمت من الكرواسون.

- لماذا أتيتِ، يا شهرزاد؟

لم أتوقع أن تسألني هذا السؤال. شعرتُ بالحرّ، وتلمملتُ في مكاني على الأريكة. وضعت الكرواسون على الطاولة من جديد دون أن تزيع نظرها عني، كأنها تنتظر الجواب. لا أعرف كيف، لكنّ نظرتها كانت مليئةً بالقوة

والثقة، وكنتُ مفتونةً تماماً بها. أخذتُ رشفةً أخرى من سيجارتها، ورفرفت فراشاتٌ في رحمي.

- أردتُ أن أُسلمَ عليكِ ...

ابتسمت، وقرّبت وجهها مِنِّي، فشمنت رائحةَ شَعْرِها الذي يُشبه حديقةً بنفسجٍ مبلّلةٍ بالمطر:

- هل تعلمين يا شهرزاد أن الغضبَ يُمكن أن يكون مثيراً جنسياً؟

لم أستطع أن أنطق بكلمة.

- والقلقُ أيضاً، والخوفُ، والألم.

كانت تقتربُ مِنِّي شيئاً فشيئاً. ذكّرني روائح الكرواسون والقهوة ودخان السجائر في فمها برائحة أبي. أغمضتُ عينيّ، وتركتُها تقبّلني.

لم أفتحَ عينيّ إلا في الصباح. نهضتُ وتوجّهتُ إلى الحمام بجسدٍ مُتعبٍ كَمَنْ تعرّض للضرب طيلة الليل. تبوّلتُ طويلاً بسهولة وبدون ألم. كنتُ أشعر بالنشوة كأنني أتبوّل على فكرة الزواج وعلى سَعد وعلى الأيام كلّها التي قضيتها معه. حين قُمتُ، سرى في أسفل بطني وظهري ألمٌ ساخن. وقبل أن أُفرغ الماء، نظرتُ إلى بولي، فوجدتهُ أحمر. لم أتوقّع مجيء الحيض، ولم أكن قد اشتريتُ فوطاً صحيّة. مرّقتُ قطعةً من الورق الصحيّ، ووضعتها في بُبّاني، ثمّ توجّهتُ نحو حقيبتني، لأبحث عن السدّادات القطنية التي كنتُ قد اشتريتها بسبب هَوَسي بنجوى. لم أكن قد استعملتها من قبل أبداً، ولم أعرف كيف أدخلها في مهبلي. حاولتُ جاهدةً في وضعية الوقوف، لكنّ فرجي كان مغلقاً، كأنه يرفض دخول أيّ جسمٍ غريب إلى عالمه المظلم والرطب. استلقيتُ أخيراً على السرير، وفتحتُ رِجْليّ كَمَنْ تستعدّ لممارسة الجنس. شعرتُ بالقرَف وأنا أنظرُ إلى الأنبوب القطنيّ الذي يشبه قضيباً صغيراً، وخشيتُ أن أتحوّل إلى مثليّة بسبب سَعد.

فَكَّرْتُ طويلاً في العضو التناسلي الذَّكَرِي وأنا أُرتَّبُ حقائبي استعداداً للانتقال إلى بيتي الجديد في جان جوريه. فَكَّرْتُ في تكوينه، وفي كونه نقطة ضعف الرجال. كم يصبح الرجالُ تعساء وضعفاء حين يعجزون عن الانتصاب! يلجؤون إلى استعمال المقوِّيات الجنسية من أجل أن يظلُّوا قادرين على الاستمرار في عملية جنسية واحدة. ومع ذلك، قليلٌ من التوتُّر فقط قد يجعلهم عاجزين عن متابعة ما بدؤوه. لم أرَ في حياتي امرأة تستعمل مقوِّياً جنسياً لتكون قادرةً على الممارسة. إنَّ العضو التناسلي الأنثوي قوي ومستعدٌّ دائماً، مثل عسكريٍّ شجاعٍ على جبهة حرب. كم سيفغضب الرجال إذا عرفوا ما أفكَّر فيه!

أغلقتُ حقائبي. وحين خرجتُ من الفندق، فَكَّرْتُ في ذلك الحُلْم الذي رأيتهُ. كنتُ أحبُّ قدرةَ عقلي على إيجاد حلولٍ لأيِّ شيء، وعلى الانتقام لنفسه. أغلقتُ باب الغرفة، وتوجَّهْتُ إلى زقاق جان جوريه.

كانت أحلام في انتظاري أمام باب العمارة. كانت جميلةً في سروالها الجينز ومعطفها الأسود القصير. حين رأيتني أنزل من سيارة الأجرة، رفعت حاجبتيها وابتسمت، ثم توجّهت نحوي وطبعت قبلة على خدي، قبل أن تُخرج الحقائق من السيارة بسرعة وبدون مجهودٍ كبير. كان وجودها إلى جانبي يُشعّرني بالأمان.

جررنا الحقائق معاً، وحين وصلنا إلى باب المبنى، توقّفت وقالت إنها تريد أن تدخّن سيجارةً قبل أن تصعد إلى الشُقّة. كان الرقاق نظيفاً وهادئاً، لا يكسر هدوءه إلا حديثنا وضحكاتنا. نفّثت أحلام دخان سيجارتها بنشوة، وشعرتُ أن تلك اللحظة ستكون بدايةً لحياةٍ مشعّة وبهيجة، ورحتُ أعدُ نفسي أن أفعل كلّ شيءٍ لأجعل حياتي أفضل.

قالت أحلام:

- كنتُ أودّ رؤية نجوى، وكنتُ أودّ أن أعرفكِ عليها، لكنّها في الرِّباط منذ البارحة.

نبّض قلبي بسرعة، لكنني قُلْتُ بهدوء:

- ترتّب جلسةٌ عندما تعود إذن.

ابتسمت أحلام بفرح. وراقبتُ أنفاسي الكثيفة وهي تتصاعدُ في الهواء مثل دخان سيجارة، ثم رفعتُ نظري إلى شرفةٍ نجوى الفارغة، وفكّرتُ أنّ وقوعي في حبّ سَعد، لم يكن بسبب سَعد ذاته، وإنّما بسبب المرأة التي

كان مرتبطاً بها. يعني ذلك أنني لم أصبح مهووسةً بنجوى بسبب حبِّي لسعد، بل ذهبتُ مع سعد حتى النهاية، لأن نجوى موجودة. فكثرتُ في عدد النساء اللاتي وقعنَ في حبِّ رجالٍ متزوجين أو ارتبطنَ بهم. ما الذي يجعل الرجال المتزوجين مثيرين هكذا في نظر النساء؟ وما الذي يجعل النساء يدخلنَ في علاقاتٍ طويلة الأمد مع رجالٍ متزوجين، بالرغم من الغيرة، وخطر الفضيحة؟ ولماذا تختار كثيرٌ من النساء اللواتي يكتشفنَ خيانة أزواجهنَّ البقاء معهم والمقاومة لأجلهم، بالرغم من استقلاليتهنَّ وقوتهنَّ الاقتصادية؟ لا أظنُّ أنَّ الأمر متعلِّقٌ بأولئك الرجال أنفسهم، بل بالنساء المرتبطاتِ بهم، خاصّة إذا كنَّ جميلاتٍ أو ذكيّاتٍ أو مهمّات. الأمر يتعلّق دائماً بالمرأة الأخرى. عندما تريد امرأةً رجلاً مرتبطاً، فإنها لا تريد فقط ذلك الرجل، وإنما تريد أن تُثبتَ لتلك المرأة الأخرى أنها أفضل منها. إنها لعبة منافسةٍ شرسة بين امرأتين، والرجل فيها ليس إلّا مجرد أداة، لتُثبتَ كلّ واحدةٍ منهما لنفسها وللأخرى أنها أهمُّ منها وأفضل.

قالت أحلام:

- أنا متأكّدة أنّك ستُحبّينها. إنها امرأةٌ طيّبة جداً، وجميلة أيضاً.

قالت جملتها وغمرتني، ثم نفثتُ دخان آخر رشقةٍ من سيجارتها. وحين كنتُ أفتح باب المبنى، بلغ أذنيّ صوتٌ ذكريّ خشن يقول:

- عاهرتان! اذهبا ودخنا سجائركما في أوروبا وليس هنا!

لم أنظر إليه. دفعتُ الباب. انحنّت أحلام ودعست عقب السيجارة في الأرض. جرّنا الحقائب إلى الأسانسير، وصعدنا إلى الطابق الثاني دون أن ننبس بكلمة، ودون حتّى أن ننظر إحدانا إلى الأخرى. عاهرتان. كانت الكلمة تتردّد في رأسي بلا توقّف، بصوتٍ مرتفع وخشن ومزعج. عاهرتان، ونحن ندخلُ إلى البيت. عاهرتان، ونحن نجرّ الحقائب. عاهرتان ونحن نفتح النوافذ ليدخل الهواء. عاهرتان ونحن نرتمي على الأريكة البيج المريحة.

عاهرتان ونحن صامتتان، متعبتان. عاهرتان صغيرتان تريدان حياةً مختلفة، تكافحان من أجلها كل يوم. عاهرتان لأنّ لديهما جسديّان بصدرين بارزين.

قالت أحلام:

- عاهرتان.

قُلْتُ:

- لا تهتمّي لكلامه. الحقد يجعلُ الناس يتفوّهون بأيّ شيء. مرّةً نعتُ رجلُ امرأةً محبّبةً في مثل سنّ والدته بالعاهرة، ولم تكن تدخّن سيجارة، ولا كانت ترتدي سروال جينز، ولا كانت حتّى مثيرة. سنُصاب بالجنون إذا اهتممنا لما يقوله الناس عنّا.

كنتُ، في الواقع، مهتمة. لكنني تظاهرتُ بعدم الاهتمام لأحمي نفسي من وقع تلك الكلمة عليّ. كنتُ أقول ذلك الكلام لنفسي، وليس لأحلام.

قالت أحلام بهدوء ينزّ غضباً:

- أيّ سلطةٍ هذه التي يمكن أن تمنحها للإنسان قطعةً جلدٍ رخوة ومُقرّفة؟

- أيّ قطعةٍ جلدٍ رخوة ومُقرّفة؟

لم تردّ. كانت تنظر إلى شاشة هاتفها باهتمام. تنفّستُ عميقاً. رمتُ الهاتف على الأريكة، وواصلت بصوتٍ غاضب هذه المرّة:

- لقد صرتُ أكره الرجال بسبب مثل هذه التصرّفات. اللعنة، إنني لستُ مثليّة، لكنني أكره الرجال الآن أكثر ممّا تكرههم المثليّات.

عاهرتان. فكّرتُ في هذه الكلمة بعمق، لكنني لم أتوصّل لأيّ شيء. كأنّ رأسي طاحونة هوائية تدور في الفراغ. لا شيء. فقط عاهرتان. امرأتان مُزعجتان. وجودُهُما مُزعج. لماذا يُزعج وجود النساء الرجال إلى هذه الدرجة؟ لماذا يُزعجهم تحرّرهنّ، تمرّدهنّ، استقلاليتهنّ وشجاعتهنّ؟ لماذا يشعرون

بالغضب حين يرون امرأة لا تعاني من أيّ تعقيد أو تشوّه فكريّ؟ لماذا يفعل الأفراد والجماعات كلّ شيء لتظلّ النساء مستعبدات، مقيّدات وتعيّسات؟ لماذا يكدّون لإقناع النساء بالزواج والإنجاب والسترة والانقطاع عن الدراسة وعدم التفكير في العمل والاستقلالية الماديّة؟ لماذا يقومون بهذا المجهود الجبار ليقنعوهنّ أنّ أيّ شيء مختلف عن هذا هو عُهر؟ عاهرتان. حين كان أحدهم ينعتني بذلك، لم أكن أُصدّق. لكنني أدركتُ في تلك اللحظة وأنا أجلس إلى جانب أحلام في بيتي الجديد برقاق جان جوريه أنني آمنتُ بذلك طيلة حياتي، أنّ شعوري الدائم بالنقصان ناتج عن شيء أعمق من التصديق الواعي لهذه الشتيمة، التصديق العاطفي. لقد تزوّجتُ بسعد، لأحمي نفسي من هذا الشعور المسموم والمخزي بأنني عاهرة، لأنّبتَ لنفسي أنني لستُ كذلك.

سَحَبَتُ أحلام الحاسوب من حقيبتها، وراحت تكتب مقالاً، بينما توجّهتُ إلى النافذة وتطلّعتُ إلى السماء المزحمة بالغيوم الرمادية. عرفتُ أنها ستُمطر. كانت حياة نجوى ما تزال مخفيةً بتلك الستارة البيضاء السمكية، لكنني استطعتُ على الأقلّ استكشاف شرفيّها. ثمة كرسيّ خشبيّ صغير، وحبلٌ غسيل نُشِرت عليه فوطَةٌ بيضاء صغيرة. على الفوطة آثارُ أحمر شفاه لم تزل، بالرغم من الغسل. على حافّة الشرفة منفضةُ سجائر زجاجية، فيها عقب سيجارة واحد ودفترٌ مهترئ. قالت أحلام إنّها غير قادرة على الكتابة. وقلّتُ وأنا أنظرُ إلى الحائط الأبيض المتقشّر لشرفة نجوى إنّ بيني وبين الكتابة زمناً طويلاً، طريقاً مضنية، وإنني لا أعرف إن كنتُ سأستطيع الكتابة يوماً ما. شممتُ رائحة تشبه رائحة المطر، ونظرتُ إلى هاتفِي. كانت هناك رسالة من أمّي تطلب منّي فيها أن أعود إلى رشدي. تقصد إلى سعد. رأيتُ قطاً أسودَ يسير في الشارع رافعاً ذنبه إلى أعلى بأبهة، وتذكّرتُ شمشون بألم. قالت أحلام إنّ الأمرَ صعبٌ جدّاً، وقلّتُ لها إنّ هذا صحيح، ولم أعرف عن أيّ أمرٍ تتحدّث، لأنّني شعرتُ كما لو أنني رأيتُ خيلاً يتحرّك وراء ستارة

نجوى. حبستُ أنفاسي، لكنَّ الستارةَ لم تُفتَح، ولم يتحرَّك مرَّةً أخرى أيُّ شيءٍ في الداخل، بل أمطرت.

في الواقع، كان عقلي هو الذي يتزعزعُ من مكانه. وقد حدث أن رأيتُ خيالَ نجوى وراء الستارة البيضاء مرَّاتٍ عديدةً لأيَّامٍ متتالية، واتَّصلتُ بأحلامٍ لأتأكَّد إن كانت نجوى قد عادت من الرِّباط أم ليس بعد. وعرفتُ أنها لم تعد، وأنَّ ما رأيتهُ كان مجردُ أوهام. سبَّب لي هذا الأمرُ قلقاً كبيراً بشأن صحَّتي النفسية، وفكرتُ مرَّاراً بزيارة معالج نفسي أو طبيب للأمراض العقلية، لكنني خشيتُ أن أكتشف أنني مصابةٌ بمرضٍ نفسي أو بانفصامٍ في الشخصية.

توقَّفت أُمِّي نهائياً عن الاتِّصال بي، وحظرتني نهىً جميلةً من الوتساب. كنتُ أعرفُ أنَّهن لسنَ في حاجةٍ لسماعِ كذبةٍ من أكاذيب سَعد ليفعلنَ ذلك، فهروبي من زوجي كافٍ ليجعلنَّ يُثبِتَن لأنفسهنَّ أنني مجردُ عاهرةٍ مجنونة.

وقد كنتُ مجنونةً بالفعل. في الأيام الأولى التي تَلَّت انتقالِي إلى جان جوريه، اكتسبتُ عادةً سيِّئةً أخرى تتعلَّق بنجوى، وصرتُ أتفرَّجُ على الستوريز الخاصَّة بها على إنستغرام كلَّ يوم. وطيلة أسبوع، رأيْتُها تمشي في مول الرِّباط بحذاء فضيٍّ ذي كعبٍ عالٍ. رأيْتُ مقتنياتِها من الفساتين والأحذية وأنايبِ أحمر الشفاه. رأيْتُ وجهها بدون ماكياج، لكن، بفيلتر يخفي شاماتها وبثورها والشوائب على وجهها. وفي ستوري أخرى، ظهرت ترتدي بيجامةً عليها وجه ميكى ماوس، جامعةً شَعْرَها في كعكة، مُتظاهِرةً بالبساطة، بينما تضع فيلتر، غيرَ ملامحها جذرياً وبينَّها، كما لو أنها أجرت عملية تجميل. تحدَّثت بسطحيةٍ تامَّة عن تعاسةِ الإنسان، وقالت إنَّ السعادةَ التي تُظهِرها على السوشال ميديا ليست دائماً حقيقية، وإنَّ

الحقيقة مخبأة وراء الصور والبوستات والستوريات. كانت تافهة ومُرْجعة وهي تحاول التظاهر بالحزن العميق الذي يؤدي إلى أفكار مهمة، ومع ذلك، شاهدتُ ستورياتها كلها، وأعدتُ مشاهدتها مراراً بلا ملل.

ازداد جنون نجوى بالظهور على مواقع التواصل الاجتماعي في تلك الأيام، فنشرت كل شيءٍ يتعلق برحلتها إلى الرِّبَاط، أطباق طعامها وفناجين القهوة التي تشربها والمناظر التي تراها أمامها والمباني والأشجار والحدائق وصورها مع أصدقائها وزملائها وطلبتها وحاسوبها وقنينات الماء والآيس كريم الذي تناولته والمحطات والطُّرُق والشوارع والقِطط والمحالّ والكتب وأسوار الكلية. لم تكن ترتاح أبداً، ولم تكن صفحتها تهدأ. كنتُ أتابعها وأنا أتخيّل أنها غارقة في شاشة هاتفها طول اليوم.

في آخر يومٍ لها بالرِّبَاط، رأيتُ عبر نافذة الستوريز فيديو لرجليها تمشيان بكعبٍ عالٍ جداً في محطة القطار، وصورةً لكوب قهوةٍ بلاستيكي، تمسكه يدٌ ذات أظافر طويلة مزينة مصبوغة بلونٍ أحمر لامع. كتبتُ على الصورة أنها في طريقها إلى الدار البيضاء، وأنها اشتاقت لأحبابها كلهم في هذه المدينة.

كنتُ جالسةً في انتظارها على الأريكة البنفسجية الصغيرة أقرأ، بلا تركيز ولا استمتاع، رواية جرمينال لإميل زولا، حين رأيتُ ضوءاً يشتعل وراء تلك الستارة الشفافة، وخيلاً يذهب ويأتي، لكنّه كان خيلاً حقيقياً هذه المرة، لأنّه تحرّك مرّاتٍ كثيرة. وضعتُ الكتاب على الطاولة، وتوجّهتُ إلى النافذة، لأنفّرج عليه عن كتب.

كان شبّح نجوى يتحرّك ذهاباً وإياباً، وينحني أحياناً، ثم يعود ليقف من جديد. في لحظةٍ ما، ابتعد واختفى. وبعد وقتٍ قصير يكفي لأخذ حمامٍ سريع، عادَ وظهرَ من جديد. كان عنقي متشنّجاً وأنا أحاول رؤية المزيد عبثاً.

فَكَرَّتْ فِي عُنُقِ تِيْمَةٍ بَعْدَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ كُلِّهَا مِنْ الْإِطْلَالِ عَلَى السَّائِرِينَ فِي الْأَرْقَةِ وَالْجَالِسِينَ فِي السُّطُوحِ، وَشَعَرْتُ بِتِفَاهَتِي.

لَكِنَّ السَّتَارَةَ الْبِيضَاءَ الشَّقَافَةَ فُتِحَتْ، ثُمَّ النَّافِذَةُ. وَظَهَرَتْ امْرَأَةٌ تَرْتَدِي بِيْجَامَةً صَفْرَاءَ غَيْرَ مَثِيرَةٍ. فِي الْوَاقِعِ، لَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّدَةً إِنْ كَانَتْ الْبِيْجَامَةُ صَفْرَاءَ أَمْ أَنَهَا هَكَذَا بَدَتْ تَحْتَ الضَّوْءِ الْأَصْفَرَ الْقَوِيَّ لِلْبَهْوِ. وَقَفَّتِ الْمَرْأَةُ قَلِيلاً فِي الْحَدِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْبَهْوِ وَالشَّرْفَةِ، رَافِعَةً رَأْسَهَا إِلَى أَعْلَى، مُغْمِضَةً عَيْنَيْهَا، وَشَمَّتِ الْهَوَاءَ بَعُمُقٍ. بَعْدَ ثَوَانٍ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا، وَظَلَّتْ مُرَكَّزَةً نَظَرَهَا فِي الْفِرَاقِ، وَلَمْ تَتَّبِعْهُ إِلَى أَنْ أَحَدًا كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا. بَعْدَ قَلِيلٍ، عَادَتْ إِلَى الدَّخْلِ، وَرَاحَتْ تَتَحَنَّى وَتَنْهَضُ بِاسْتِمْرَارٍ، كَأَنَّهَا تَلْتَقِطُ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِيَّةِ، لَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ مَا الَّذِي تَلْتَقِطُهُ بِالضَّبِطِ. كُنْتُ مُتَسَمِّرَةً هُنَاكَ أَنْظُرُ إِلَيْهَا دُونَ أَنْ تَرْمُسَ لِي عَيْنَ. لَا شَيْءَ فِي الْعَالَمِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَغْلِبَ قُوَّةَ الْفُضُولِ وَالرَّغْبَةِ فِي التَّلَصُّصِ، حَتَّى الْحَيَاءُ يَذُوبُ وَيَخْتْفِي أَمَامَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْخَارِقَةِ. فَهِمْتُ تِيْمَةً وَتَفَهَّمْتُهَا. اخْتَفَتْ نَجْوَى فِي قِطْعَةٍ أُخْرَى مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى الْبَهْوِ مِنْ جَدِيدٍ حَامِلَةً طَبَقًا. هَذِهِ الْمَرَّةَ تَبِعَهَا كَلْبُهَا الضَّخْمُ فَاتِحًا فَمَهُ مُخْرِجًا لِسَانَهُ. وَضَعْتَ الطَّبَقَ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ، وَوَقَفْتُ قَلِيلًا تَرَاقِبُ الْكَلْبَ يَتَنَاوَلُ طَعَامَهُ وَهِيَ تَبْتَسِمُ. كَانَتْ قَدْ نَحَفَتْ قَلِيلًا عَنْ آخِرِ مَرَّةٍ رَأَيْتُهَا فِيهَا. قَالَتْ شَيْئًا لِكَلْبِهَا، كَأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ مَعَ إِنْسَانٍ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى الْأَرِيكَةِ الْجُلْدِيَّةِ السُّودَاءِ، وَارْتَمَتْ عَلَيْهَا مُسْنَدَةً رَأْسَهَا إِلَى مَخْدَةِ كَبِيرَةٍ وَرَاءَ ظَهَرِهَا. فِي مَاذَا تَفَكَّرَ، يَا تُرَى وَهِيَ مُغْمِضَةٌ عَيْنَيْهَا؟ مَا الَّذِي يَشْغُلُ بَالَهَا؟ وَلِمَاذَا تَبْدُو كَأَنَّهَا تَشْعُرُ بِالْفِرَاقِ وَالْمَلَلِ؟ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَانْحَنَتْ عَلَى الطَّائِلَةِ مُلْتَقِطَةً هَانِفَهَا، وَرَاحَتْ تَرْقَنُ مُتَكِنَةً عَلَى مَسْنَدِ الْأَرِيكَةِ. وَحِينَ انْتَهَتْ، التَفَتْتُ نَحْوِي، وَنَظَرْتُ إِلَيَّ بِحَيَادٍ. لَمْ تَعْرِفْنِي، لِأَنَّ آخِرَ مَرَّةٍ التَّقِينَا فِيهَا كُنْتُ شَخْصًا مُخْتَلَفًا تَمَامًا، وَلَمْ أَنْشُرْ، مِنْذُ آخِرِ صُورَةٍ كُنْتُ فِيهَا نَحِيفَةً، أَيْ صُورَةٍ لَشَكْلِي الْجَدِيدِ. أَوْ رُبَّمَا لَمْ تَرْنِي، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ. حَوَّلْتُ

نظري، في حركة غبية، إلى الشارع على يميني متظاهرة أنني لا أنظر إليها. وفي أقل من ثلاثين ثانية، تذكرت الآثار الزرقاء على ذراعي ورسائل أمي، وتخيّلتُ سعداً يأتي إلى بيتي الجديد ويذبحني. نظرتُ إلى نافذة نجوى من جديد، لكن الستارة كانت قد أُغلقت. احتقرتُ نفسي لأنني أصبحتُ مثل تيمة التي سخرتُ منها طيلة حياتي، ولأنني جئتُ لأتصرّف في جان جوريه الراقي مثلما تتصرّف تيمة في درب الكبير. فكّرتُ أن الفقر أسلوب عيش أيضاً، لا يمكن التخلص منه بسهولة حتّى لو انتقل الإنسان للعيش في قصر. الفقراء ينقلون أساليب عيشهم معهم أينما ذهبوا.

حاولتُ أن أتصرّف برقيّ أيضاً. أغلقتُ ستارتي، وارتيمتُ على الأريكة البنفسجية، ثمّ أمسكتُ رواية زولا، ورحتُ أنظر إلى ذلك البهو الجميل والأنيق بشعور يشبه التيه. راودني إحساس قويّ أن حياتي فارغة، وأنّ بداخلي طاقة مُرعبة يجبُ أن تُصرّف في الوقت نفسه. كأنني كنتُ في سجنٍ انفرادي. ألهذا يتزوَّج الناس؟ ألهذا يتمسّكون بالبقاء في علاقاتٍ مسمومة؟ كان لديّ الكثير لأفعله. لم أفرغ حقائبي كلّها بعد، ولم أرتّب الأغراض كلّها، وكان بإمكانني أن أقضي وقتي في إعداد طبقٍ لذيذٍ لنفسي بما إنني أشعر بالجوع. كان يمكن أن آخذ حماماً ساخناً مثلما فعلتُ نجوى، ثمّ أفتح حاسوبِي وأشرع في كتابة الرواية التي كنتُ أريدُ أن أكتبها منذ زمن.

قلّبتُ صفحاتِ الكتاب بلا أيّ رغبة، ورحتُ أغضب نفسي على القراءة. ما الذي تفعله نجوى الآن خلف تلك الستارة؟ لماذا تستطيع هي أن تبقى وحيدة ولا أستطيع أنا؟ أدركتُ في ما يُشبه الإلهام أنني لا أشعر بالوحدة لأنني أجلسُ وحيدة بين أربعة جدران، بل لأنّ هناك طفلةً صغيرةً محبوسةً في داخلي، ولا تعرف كيف تكون سعيدة. تلك الطفلة هي أنا، وأنا التي تركتها محبوسةً هناك. السجنُ الانفرادي كان موجوداً في رأسي.

وصلتني رسالة من نجيم صباح الأحد يقول لي فيها إنه يريد أن يراني من أجل أن يتحدث معي في موضوع مهم. نهضتُ من السرير بنشاط وأمل. نجيم يعرف أنني أريد أن أصبح كاتبة، ويعرف أنني بدأت منذ فترة في كتابة روايتي الأولى. ربّما يريد أن يوقع معي عقداً بهذا الخصوص كما يفعل الناشر مع الكتاب في أوروبا. ربّما يريد أن يتبنّى حلمي. لأنّ نجيماً لم يتّصل بي من قبل أبداً ليراني خارج أوقات العمل من أجل موضوع مهم. ربّما سيسجّعني هذا كتابة الرواية التي حلّمتُ دائماً أن أكتبها. ربّما سأصبح كاتبة حقيقية قريباً.

ورحتُ أمني نفسي بأشياء كبيرة. أعددتُ لأول مرة قهوة حقيقية بدّل القهوة سريعة الذوبان التي شربتها لسنوات. فتحتُ النوافذ كلّها بالرغم من البرد، وتطلّعتُ إلى نافذة نجوى المغلقة وأنا أشمّ رائحة القهوة باستمتاع. كان هناك طائرٌ صغير في شرفتها الموحشة، وعقب سيجارة في المنفضة التي كانت فارغة قبل يوم واحد. وكمنّ فاته مشهدٌ مهمٌ من فيلم أحبّه شعرتُ بالضيق. نقلتُ الأريكة البنفسجية إلى مكانٍ آخر بقرب النافذة، وشربتُ قهوتي هناك على مهل وأنا أقلب صفحات جرمينال، في انتظار أن تظهر نجوى.

في حوالي الساعة الحادية عشرة، فُتحت ستارة النافذة المقابلة لشُقتي، ورأيتُ نجوى تحملُ قنينةً منتوج تنظيف وترش سائلها على الطاولة. كانت ترتدي سروال جينز وسترة رمادية عادية، بينما انسدل شعرها المجعد على

كتفّيها، لكنّه لم يكن مرتّباً، ولم يكن جميلاً. رشّت السائل بسرعة، ثمّ فتحت النافذة دون أن تنظر إليّ أو إلى الشارع، وذهبت مسرعةً إلى غرفةٍ أخرى، ثمّ جاءت من جديد حاملةً منديلاً وراحت تمسح الطاولة. بعد قليل، ذهبت مرّةً أخرى وعادت حاملةً مكنسةً كهربائية. كنتُ أنظر إليها وهي تنظّف بهوَ بيتها كأنني أشاهد إعلاناً للمكانس الكهربائية. وعلى عكس الإعلانات كلّها التي شاهدتها في حياتي، لم أكن أريد لهذا المشهد أن ينتهي. كنتُ مستمتعةً وأنا أشاهدها تكنّس، ثمّ تتوقّف ممسكةً هاتفها تقرأ تعليقاً أو تردّ على رسالة، ثمّ تعودُ إلى التنظيف من جديد. كانت بطيئةً جداً، تكنّس بلا أيّ رغبة. تذكّرتُ المتعة التي كانت تقوم بها أمي ونساء درب الكبير بالأعمال المنزلية. كنّ يستمتعنّ بغسل الأواني وتلميع أرضيات بيوتهنّ ومسح الغبار وتنظيف الزوايا من أشياء لا تُرى بالعين المجردة. وحين ينتهين من تنظيف أنيةٍ ما، كنّ يمسكنها ويقلّبنها بين أيديهنّ وهنّ يتأمّلنها بإعجابٍ وافتخار. كان هذا هو النجاح بالنسبة إليهنّ: أن يكون كلّ شيءٍ لامعاً. وحين يلتقين، لا بدّ من أن يخصّصن جزءاً من وقتهنّ للحديث عن التنظيف. هل رأيت مطبخَ حفيظة؟ إنّه لا يتسخ أبداً. أمّا نعيمة، فلا تترك أواني متسخةً في حوض الغسيل أبداً. كلّما اتّسخ شيءٌ غسلته على الفور. نعيمة امرأةٌ حقيقية. لقد اندهشتُ من لمعان طناجر ضغط حلّيمة. لم أر في حياتي طناجر ضغط تلمع لتلك الدرجة. لكنّ فطومة أكثر حداقةً من نعيمة، لأنّ المقالي الخاصّة بها ما تزال جديدةً بالرغم من مرور سنواتٍ من الاستعمال، من شدّة نظافتها، تبدو كأنّها لم تُستعمل أبداً. وهل رأيت حياة؟ لقد زناها ذلك اليوم في بيتها وقدّمت لنا كووس ماء عليها آثار أصابع. أمّا إبريقها، فلا أستطيع أن أصف لكنّ كم هو مُقرّف. لقد أصبحت زخرفاته سوداء من شدّة اتّساخه، وهي لا تخجل أبداً من تقديمه للناس في تلك الحالة. لكنّ المصيبة الكبرى هي نادية زوجة النجار، دَعَتنا ذلك اليوم إلى بيتها، ورأينا غباراً تحت كنباتها. إنها تنظّف الأماكن الظاهرة فقط، وتتركّ الزوايا الخبيئة بأوساخها. ولن أحكي لكم

عن سعيدة بنت محمد الذي يعمل في الميناء. لقد ذهبَ الناسَ لِخِطْبَتِها
السنة الماضية ورأوا خيوط عنكبوت في زاوية سَقَفِ بهو بيتهم. يا للفضاعة!
المسكينة لم يسأل عنها أحدٌ منذ ذلك الوقت. لكن، معهم الحقُّ كلّه.
مَنْ سيتزوَّج فتاةً لا تعرف كيف تمسح خيوط العنكبوت من السقف؟ لكنّ
الخطأ ليس خطأها. كان على أمّها أن تعلّمها منذ الطفولة كيف تكون امرأةً
نظيفةً وحاذقة. إنّ أعداد النساء المتّسَخات في العالم في ازدياد ملحوظ،
والسببُ هو هذه الهواتف الذكية التي انتشرت بين الفتيات. لقد أصبحنَ
يقضينَ اليوم بنهاره وليله مع تلك المصيبة التي تُسمّى السابساب. أمّا
الفايصوك، فقد سلّب عقولهنّ، وستاغرام صنعَ منهنّ نساءً قذرات، لا
ينظّفنَ كيلواتهنّ ولا يصلحُنَ لأيّ شيءٍ أبداً. أين ذهبت تلك الأيام التي
كانت الفتاة فيها تستيقظ فجراً لتُنظّف البيت وتُطعم الدجاج وتجلب الماء
قبل أن يُصبح الصّبح؟ لقد كنّ يستيقظنَ قبل المؤذنين، والآن أصبحنَ ينمنَ
حتّى العصر! يا له من زمنٍ فاسد! ومع أن الماء صار متوقراً في الصنابير،
ومع أنّه لم يعد هناك أيّ دجاجٍ في السطوح، إلّا أنه عليهنّ الاستيقاظ باكراً،
وعليهنّ إطاعة الأوامر!

شعلت نجوى المكنسة الكهربائية مرّةً أخرى، وواصلت التنظيف ببطء.
أمّي تسمّي هذا النوع من الفتيات اللواتي يقمنَ بالأعمال المنزلية بلا أيّ رغبة
فتياتٍ غير حاذقات، وتتساءل بسخرية واضحة إن كنّ مصاباتٍ بمرضٍ ما
يمنعهنّ من الحركة. بعدما كنّست نجوى لحوالي دقيقة أو دقيقتين، عادت
وارتمت على الأريكة وهي تمسك هاتفها. بعد قليل، نهضت وأمسكت
المكنسة من جديد، لكنّها تراجعَت عن الكنس وخرجتُ إلى الشرفة. التفتُ
إلى الوراء في حركةٍ سريعة حتّى لا ترى أنني أنظر إليها، ثمّ تظاهرتُ بالقراءة.
بعد قليل، رفعتُ رأسي ورأيْتُها تدخّن وهي تتأمّل الشارع بعينين ساهمتين،
بينما تتطايرُ خُصلات شعرها غير المرتّب بفعل الريح. كانت تضع رجلًا
على رجل. النساء اللواتي لا يملكنَ امتياز الراحة بسبب المسؤوليات الكثيرة

والأعمال الشاقة المفروضة عليهنّ يمقتنّ النساء الأخريات اللواتي يملكنّ الوقت لوضع رجلٍ على رجلٍ. كانت جارتنا الساحرة حياة تصِفُ أيّ امرأة تضع رجلاً على رجلٍ بالعاهرة، أمّا عمّتي، فكانت تنزعج من رؤية نساءٍ جالساتٍ أو مستقلقيات، وتصفهنّ بالمعاقات.

نَفَثَتْ نجوى دخان سيجارتها بنشوة. أرجعت شَعْرُها المَجْعَد إلى الوراء، ثمّ نظرتُ ملياً إلى السيجارة التي احترق نصفُها، قبل أن تدعسها بعنف على حافة الشرفة، وترميها إلى الشارع. حين دخلت مجدداً، أغلقت الستارة.

ومع ذلك، لم أنهض من الأريكة البنفسجية، وبقيتُ مسمّرةً ناظري، منتظرةً أن تُفَتَح الستارة من جديد. قرأتُ صفحتين من **جرمينال** وأنا أرمي نظري إلى الشرفة بين الفينة والأخرى. جاهدتُ نفسي لأقرأ أكثر، لأتبه، لأستفيد ممّا أقرؤه، لأستمتع على الأقلّ، لكنّ الأمر كان مستحيلاً. كان رأسي فارغاً وثقيلاً في الوقت نفسه. فتحتُ هاتفي، وذهبتُ إلى صفحة نجوى على إنستغرام. لم يكن هناك أيّ محتوى جديد. رحتُ، إذن، أتفرّجُ على صورها وفيديوهاتِها القديمة، وأتأمل جسدها وساقَيْها وملابسها وأحذيتها ومعاطفها وحقائبها بحنين. في الواقع، لم أكن أشعر بالحنين إليها هي، وإنّما إلى نفسي التي كانت تشاهد هذه الفيديوهات قبل سنتين. ذهبتُ إلى صفحتي على فيسبوك، وضغطتُ على صورة بروفايلي التي التُقِطت لي قبل خمس أو ست سنوات، ونظرتُ إلى نُسختي القديمة بحزن. نُسختي التي لم تكن قد عرّفت سَعداً بعد، ولا دنّست نفسها بحُلُم الزواج. تلك المرأة ذات البشرة العسلية والجسد النحيل التي تقتعد كرسياً في مقهى وأمامها حاسوبها. تلك المرأة التي كانت قد بدأت في كتابة روايتها، وكانت لا تستطيع إلا أن تتخيّل نفسها روائيةً معروفةً بعد ثلاث سنوات، أو هكذا كانت تحاول الهرب من واقعها، بأن تتخيّل نفسها في وضعياتٍ مُبهجة بعد سنةٍ أو سنتين. عيناها كانتا مختلفتين. كان فيهما

شعاعٌ ما. شيءٌ لا نراه، لكن، نُحسّه. أحلام أيضاً قالت لي وهي تنظر إلى صوري القديمة على فيسبوك إنني تغيّرت كثيراً. لكن أحلام تجهل الأشياء التي غيّرتنِي. تلك العينان لم تكونا قد رأتا نجوى بعد، ولا حتّى سَعداً. كانت ندى أيضاً موجودةً في تانك الصورة، مع أنها لم تُكن ظاهرة فيها. استطعتُ أن أرى انعكاسها في عينيّ. كانت موجودةً في نظرتي. نظرتي التي فقدت بريقها الآن.

سِرْتُ نحو الحمام بدون شعور، وتأمّلتُ عينيّ في المرآة. كيف تتغيّر نظرة العينين بهذا الشكل؟ كيف تمتلئ بالحزن؟ كيف تصبح فارغةً من الأمل؟ كيف تنطفئ من الأشياء التي رأت؟ نحن لا نشيبُ ممّا نراه، وإنّما تنطفئ نظراتنا. وضعتُ يديّ على وسطي الذي صار مملوءاً بالشحم، وفَقَدَ شكله الرشيق، ونظرتُ إلى حوضي الذي أصبح واسعاً مثل حوض أمي. حتّى نُهى لم تسمَح للزمن أن يجعل حوضها مثل حوض أمها. لكنّ نجيماً يريد أن يراني من أجل شيءٍ مُهمّ، وقد تتغيّر حياتي بعد هذا اللقاء. خرجتُ من الحمام بأمل. كنتُ أريدُ أن أُغيّر حياتي، لكنّ ذلك لم يمنعني من إلقاء نظرة على الشُّقّة المقابلة لشُقّتي. لم أكن أريد أن يفوتني أيّ شيء. كانت الستارة ما تزال مغلقة. وكانت هناك أشياء تحدثُ في الداخل. هناك دائماً أشياء تحدثُ في الداخل.

ارتديتُ ملابسِي، وتوجّهتُ إلى مطعم إيلي بشارع أنفّا. كان نجيم جالساً بشكلٍ مائل، مُسنداً يده المزعجة إلى ظهر الكرسيّ، تاركاً إيّاها تتدلى في الهواء. وكان يتناول حبّات فول سوداني من طبق صغير أمامه بيده الأخرى، ويرميها في فمه. اقتربتُ منه، لكنه كان ما يزال ينظرُ إلى الفراغ وهو يمضغ، ولم ينتبه ليدي الممدودة له. قُلْتُ: «أستاذ نجيم». رفع رأسه وفتح عينيه على آخرهما وقد توقّف عن المضغ، لكنّ فمه كان ما يزال ممتلئاً. ظلّ ينظرُ إليّ لوهلة كأنّه لا يعرفني. صعدت الحرارة إلى خَدّي، ولم أعرف هل أدع يدي ممتدّة نحوه أم أجمّعها. ابتسمتُ مكرّرة:

«أستاذ نجيم، كيف حالك؟». حينها فقط نهَض من الكرسيّ وأمسكَ يدي وقربَ وجهه من وجهي في حركةٍ فجائيةٍ وقبلني من وجنتيّ. لم أستطع أن أُمْنع نفسي من التفكير في أولئك الرجال الذين يتظاهرون بالتحرُّر والأُوربة فقط ليقبَلوا النساء من خدودهنّ.

- شهرزاد! كيف حالك؟

قالها بنبرة متحمّسة كأننا صديقان قديمان لم يرَ بعضنا بعضاً منذ زمن، وتطاير فتاتُ الفول السوداني من فمه. جلستُ أمامه وتفاديتُ النظرَ إليه وهو يمسح فمه حتّى لا أُحرجه.

قال:

- هل تريدان أن تأكلي شيئاً؟

قُلْتُ:

مكتبة

t.me/soramnqraa

- لا، شكرًا. لستُ جائعة.

مدّ لي قائمة الطعام، وألَحَّ:

- اطلبي شيئاً، أنا أدعوك اليوم.

لم آخذ القائمةَ من يده، كرّرتُ مبتسمة:

- لستُ جائعة. ربّما آكل شيئاً في ما بعد.

كان ما يزال مادّاً القائمةَ نحوي. قال وهو يحركها في الهواء أمامي:

- خذي، خذي. اطلبي ما تشائين، ولا تخجلي.

- لستُ خجلة. أنا فقط لستُ جائعة.

كانت القائمة ما تزال ممدودةً نحوي.

- الطعامُ هنا جيّدٌ جدّاً ولذيذٌ جدّاً. هيّا، خذي القائمة، واختاري شيئاً.

لم أكن قد رأيتُ هذا الجانب من نجيم من قبل، ولم أعرف كيف أتصرّف معه. أخذتُ القائمة من يده، كي يتوقّف عن الإلحاح، ووضعتها على الطاولة أمامي، ثمّ قلتُ:

- حسناً، سأطلب شيئاً في ما بعد.

- أنتِ عنيدهُ جداً.

قالها وهو يتسم بسعادةٍ عظيمة، كأنّه أبٌ فخورٌ بابنته رغم عيوبها، ثمّ تناول حبةً فولٍ سوداني بلّدة.

- ماذا فعلتِ بخصوص طلاقك؟

ظلمتُ صامتةً لوهلة وقد شعرتُ بوخزٍ ألمٍ خفيف في مثناتي.

- لم أفعل شيئاً بعد.

رمقني بإشفاق، وقال:

- لا تفكّري كثيراً. اتّخذي قرارك. أهمّ شيءٍ هو سعادتكِ. أنتِ امرأةٌ شابةٌ وجميلة، والحياةُ كلّها أمامك.

أردتُ أن أقول له:

- ماذا لو كنتُ في الخامسة والخمسين؟ أليس من حقّي أن أطلب الطلاق، إذا لم أكن سعيدةً في حياتي الزوجية؟

لكنني قلْتُ له:

- صحيح.

واصل بنبرةٍ واثقة:

- أوكد لك أن الرجال سيتخاطفونك، لأنك فعلاً امرأةٌ جميلة. لا تلتفتي أبداً لما يقوله الناس. فكّري بنفسك فقط.

سَكَتَ قَلِيلاً، ثُمَّ أَضَافَ وَهُوَ يَنْظُرُ مُبَاشَرَةً إِلَى عَيْنَيَّ:

- أَنْتِ فَعَلًا امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، يَا شَهْرزَادَ.

ازداد الألمُ في مِثَانَتِي. شعرتُ أَنَّ عَلَيَّ الذَّهَابَ إِلَى الْحَمَّامِ، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعَ النَّهْوُضَ، لِأَنَّهُ أَضَافَ:

- إِذَا عَرَفْتَ كَمْ أَنْتِ جَمِيلَةٌ، سَتَعْرِفِينَ كَيْفَ سَتَسْتَغْلِينَ جَمَالَكَ لِمَصْلَحَتِكَ. أَنَا لَا أَقُولُ لَكَ أَنَّ تَقْوَمِي بِأَشْيَاءَ تَرْفُضُهَا الْأَخْلَاقُ، وَلَكِنْ، عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفِي، يَا شَهْرزَادَ، أَنَّ الْجَمَالَ قُوَّةٌ خَارِقَةٌ وَمَذْهَلَةٌ، تُسْقِطُ حَتَّى أَعْتَى الرِّجَالُ. أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ:

- مَا هَذَا الْخِرَاءُ؟

لَكِنِّي قُلْتُ لَهُ:

- صَحِيحٌ. رُبَّمَا مَعَكَ حَقٌّ.

قَالَ:

- مَاذَا تَشْرَبِينَ؟

انْتَبَهْتُ إِلَى أَنَّ النَّادِلَ كَانَ وَاقِفًا بِجَانِبِنَا. قُلْتُ:

- قَهْوَةٌ سُودَاءَ مَرْكَرَةٍ مِنْ فَضْلِكَ.

قَالَ نَجِيمٌ:

- أَلَا تَرِيدِينَ أَنْ تَأْكُلِي شَيْئًا؟ هَيَّا، اطْلُبِي شَيْئًا تَأْكُلِينَهُ. الطَّعَامُ لَذِيذٌ جَدًّا هُنَا، خَاصَّةً مَعَ كَأْسِ نَبِيذٍ جَيِّدٍ.

فَهَمْتُ لِمَاذَا كَانَ يُلَحَّ عَلَيَّ لِأَتَنَاوَلَ الطَّعَامَ. لَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَمْ تَخْطُرْ عَلَيَّ بَالِي مِنْ قَبْلِ. خِلَالِ حَيَاتِي، التَّقِيْتُ رِجَالًا كَثِيرِينَ مِمَّنْ أَرَادُوا أَنْ أَتَنَاوَلَ مَعَهُمُ الْكَحُولَ، لَكِنَّ طُرُقَهُمْ لِإِقْنَاعِي بِذَلِكَ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً. عِنْدَمَا كُنْتُ

أطلب قهوة أو عصيراً، كانوا يطلبون مني أن أسترخي قليلاً، لأنّ قنينة بيرة واحدة لن تضرّني، أو يتّهموني بأنني لست متحرّرة كفاية من قيود المجتمع، لأنني لم أطلب كأس نبيذ.
قُلْتُ:

- ليس الآن. سأخذ قهوة فقط.

أخذ النادل طلبينا، وذهب. التفت نجيم إليّ وقال ببهجة:

- قل لي الآن، هل تعرفين أنّك جميلة؟

صعدت الحرارة إلى وجنتي، وصفرت أذناي.

- الجمال لا يهمّ، يا أستاذ نجيم. ما يهمّ هو الصدق والأمانة والإخلاص. القيم الإنسانية النبيلة هي التي تجعل الإنسان جميلاً في نظري.

رمقني في ضيق وإحباط. أردتُ أن أقول له إنني أريد الذهاب إلى الحمام، لكنّه قال بنبرة معاتبة وهو يقشّر حبة فول سوداني:

- تتحدّثين كما لو أنّك لا تعرفين أنّك جميلة.

قُلْتُ:

- أنا لست جميلة، يا أستاذ نجيم، أو على الأقلّ لا يهمّني الجمال الخارجي.

ضحك بسخرية، ثمّ نظر إليّ ولاحت في عينيه نظرة تجمع بين الشفقة والشهوة والانتصار. حرّك رأسه يميناً ويساراً دلالة على الرفض القاطع، وقال:

- كفيّ عن التفوّه بمثل هذه الحماقات. أنت امرأة رائعة فعلاً، لكنك فقط لا تعرفين ذلك. لو عرفت، لكنت الآن إنسانة مختلفة تماماً.

لم أعرف إن كان يجاملني أو يحاول تحطيم نفسيّتي. ظللتُ أنصتُ إليه دون أن أبدي أيّ ردّة فعل تُفسد اللقاء أو تجعل الجو غير طبيعي. تعلّمتُ

خلال حياتي كامرأة في المغرب أنه عليّ أحياناً أن أظهار بالغباء وعدم فهم مقاصد الناس حتى أتفادى التصادم معهم، لكن، دون أن أُعطيهم ما يريدون في الوقت نفسه، خاصة إذا كانت لهم سلطة عليّ. لم أستطع أن أبدي يوماً حقيقة مشاعري، وكان هذا يجعلني أكره نفسي أكثر. تميّت لو يعلم نجيم كمّ الشتائم التي أكنّها له، وآلمني مثاني أكثر.

نظرتُ إلى وجهه. كان ينتظرُ منّي أن أقول شيئاً، أن أستجيب لكلامه، أن أسأله ما الذي يقصده من قوله. قلتُ ما يريد أن يسمعه.

- ماذا تقصد؟

واصل بنبرة جدّية جدّاً:

- لقد عملت معي طيلة خمس سنوات، وكنتُ أراك كلّ يوم، أكثر حتى ممّا تراك أمك التي ولدتك، واستطعتُ أن أكون عنك فكرة. أعرفُ ماذا تحبّين وماذا تكرهين، متى تأكلين ومتى تتبرّزين، كيف ترين الحياة وكيف ترين نفسك ...

- كيف أرى نفسي؟

أغمض عينيّه في عصبية وهو يحركُ يده في الهواء أمامي، مشيراً لي بالسكوت. وعندما فتحهما، كانتا حمراوين جدّاً.

- لا تقاطعيني من فضلك، يا شهرزاد. أنتِ غير صبورة بالمرّة!

- حسناً، حسناً. أكمل.

التفت إلى شِمَاله وسمّر نظره في الطاولة الفارغة التي بجانبنا كأنه يرى أشخاصاً يعرفهم جالسين هناك، ثم أشار نحوي بأصبعه، كأنه يريد أن يقول لهؤلاء الأشخاص الخياليين: انظروا إلى هذه الفتاة المجنونة! إنها لا تدعُني أتكلّم!

وبعد برهة صمت، التفت نحوي مجدداً وواصل حديثه بهدوء وثقة:

- إني أعرفك جيداً، يا شهرزاد، وأعرف حتى لماذا أقدمت امرأة مثلك على الزواج بتلك السرعة وبتلك الطريقة.

أردت أن أسأله لماذا، لكنني ابتلعت سؤالتي، وظللت أصدق فيه بفضل ودهشة:

- أعرف حتى إنك تتسألين الآن عن فحوى ما أريد قوله. لكنني لن أقول لك الآن. ربّما أخبركِ لاحقاً، لكن، ليس الآن.

- لماذا؟

- لأنكِ لستِ مستعدة لسماع هذا الكلام بعد.

قالها بثقة كأنه رمى الحقيقة أمامي، وظلّ يتأمل وجهي لبرهة منتظراً ردّة فعلي. لكنني لم أقل شيئاً.

واصل:

- الحياة، يا شهرزاد، ليست سهلة. وإذا ظللت تتعاملين معها بهذه الطريقة، قد ينتهي بك الأمر بالانتحار. هل هذا ما تريدينه؟

جاء النادل. رفعت رأسي نحوه. لم أكن قد انتبهت من قبل إلى أنه كان وسيماً إلى تلك الدرجة. سمّرت نظري لوهلة في شعره الأسود الناعم، ولحيته الخفيفة، وعينيّه الجميلتين. كان سيصلح ليكون وجهاً إعلانياً لماركة معروفة، لكن الحياة ظالمة. سمعتُ قرقعة الفناجين على الطاولة وأنا أفكر في حياة محتملة لهذا الشاب.

قال نجيم:

- إنّ هذا الوضع الذي تتعاملين به مع الحياة ليس جيداً. أحياناً، على الإنسان أن يسلك طرقاً ملتوية، ليصل إلى ما يريد. هل تعرفين لماذا؟

كان النادل الشاب قد التفت راجعاً. وكان شكل مؤخرته جميلاً ومفعماً

بالرجولة. صَعِدَت الحرارةُ إلى أُذُنِي مَرَّةً أُخْرَى. لم أفكّر في حياتي في الارتباط بنادل، أو نجّار، أو حتّى موظّف في البنك. لقد اعتقدتُ طيلةَ حياتي أنهم لن يفهموني، وأنهم سيعتبرونني عاهرةً أو كافرةً أو مجنونة إذا عرفوا كيف أنظر إلى العالم.

- لماذا؟

- لأن الطُّرُق المباشرة والسهلة ممتلئةٌ على آخرها بالبشر. الجميع يسلكونها، ولن تجدي مكاناً تمشين فيه، لتصلي إلى وجهتك.

ابتسم النادل الوسيم لزبونين آخريْن برقّة، وظهرت تجاعيد خفيفةٌ حول عينيْهِ العسليّتين. لماذا يستطيع الرجال أن يرتبطوا بنساء يقلّلن عنهم في المستوى الاجتماعي أو الثقافي، بينما لا تميل النساء أبداً إلى الارتباط برجالٍ أقلّ منهنّ؟ لقد رأيتُ مدير شركة يتقدّم للزواج بسكرتيرته الفقيرة التي تعيشُ في درب الكبير، ورأيتُ معلّماً تزوّج بامرأة لا تعرف كيف تكتب اسمها، ورأيتُ كاتباً تزوّج بامرأة بسيطة، لم تُنه دراستها الثانوية، ورأيتُ مهندساً يرتبط بفتاة تعمل موظفةً بسيطةً في البنك. لكنني لم أر العكس أبداً. لم أتحيلني حتّى أدخل في علاقةٍ عابرة مع نجّار أو بحّار أو صباغ أو أمّي. لم أتحيلني أمشي يداً في يد مع رجلٍ لم يكمل دراسته الجامعية.

- عندما جئتِ أوّل مرّة لتعملي في الدار كنتِ فتاةً صغيرةً ونحيفةً وحالمةً وبريئة. هل تذكّرين تلك الرواية التي قدّمت لي عندما بدأتِ العمل مع الدار؟ أذكر جيّداً عندما دخلتِ إلى مكتبي حاملّةً المخطوط بين يديك كأنّك تحضنين طفلاً. كنتِ متوتّرةً وغير قادرةٍ على تكوين جملةٍ مفيدة، لكنّك كنتِ مبتسمة، وكان في عينيّك بريقٌ لا يمكن إلّا أن يكون نابعاً من شخصٍ يعشق الكتابة ولا يستطيع العيش بدونها. سألتُكِ حينها: ماذا تريدان أن تكوني في الحياة، يا شهرزاد؟ وأجبتي مباشرةً وبدون أيّ تردّد: كاتبة. أريد أن أكون كاتبة.

لم أكن أعرف هل نجيم هو الذي كان يتحدث، أم أنّ ذلك كان صوتاً يأتي

من داخلي. كنتُ قادرةً على سماع ذلك الصوت جيّداً، بالرغم من قرقرة الكؤوس والصحون والملاعق، وبالرغم من الضحكات العالية والأحاديث غير الواضحة المحيطة بي.

- انظري كيف صرتِ الآن. هل تساءلتِ يوماً ما السبب؟ الناس لا يتساءلون أبداً عن الأسباب التي جعلتهم يتغيّرون إلى الأسوأ، بل يتّجهون مباشرةً للّوم الآخرين. إنّ أسهل شيءٍ في الحياة، يا شهرزاد، هو إلقاء المسؤولية على الآخرين.

كنتُ أهرّ رأسي وأنا أستمع إليه. كان صوته غير واضح كأنه قادمٌ من حُلْم، لكنني كنتُ أفهمه. سَحَبْتُ هاتفي من حقيبتِي.

- هل تعرفين ما هي مشكلتُكِ، يا شهرزاد؟ مشكلتُكِ أنك لا تريدين الاقتناع أن الثقة في النّفس هي أهمُّ شيءٍ لكي تصبحي كاتبة.

دخلتُ إلى صفحة نجوى على إنستغرام.

- الثقة في النّفس؟

- نعم، الثقة في النّفس. الموهبة والعمل لم يكونا أبداً كافيين للنجاح. لو كنتِ تتمتعين بقدرٍ من الثقة، لكُنْتِ الآن أنهيتِ روايتكِ العاشرة.

- الرواية العاشرة؟

نشرت نجوى مقطع فيديو جديد يظهر فيه وجهها. شعرتُ أنّ عليّ الذهاب.

- اتركي ذلك الهاتف، وانظري إليّ.

نظرتُ إليه وقضمتُ ظفرَ إبهامي. قصصُهُ كاملاً بأسناني، وبقي في فمي. كانت شفتاه الرقيعتان بيضاوين، وقد استقرّتا على جانبيهما رغوّة لُعاب. لم أستطع الاستمرارَ في النظر إليه.

- أَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتَكَ إِنْ أَرَدْتَ، لَكِنْ، عَلَيْكَ أَنْ تَعِدِنِي أَوَّلًا أَنْكَ
سَتَسْتَمْعِينَ إِلَى كَلَامِي، وَأَنْكَ سَتَنْقُذِينَ بِالْحَرْفِ مَا أَقُولُهُ لَكَ.
قُلْتُ بِفُتُورٍ وَبَلَا أَيْ تَرَدَّدَ:
- أَعِدُّكَ.

اسْتَقَرَّتْ عَلَى شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ هَادئةٌ، وَبَدَأَ كَأَنَّ جَسَدَهُ الْمَتَوَتِّرَ قَدْ
اسْتَرَخَى. وَضَعَ يَدَهُ فِي جَيْبِ سُرْوَالِهِ وَهُوَ يَشِيرُ لِلنَّادِلِ بِالْقُدُومِ مِنْ أَجْلِ
الْحِسَابِ. بَصَقَتْ الظَّفَرَ الَّذِي كَانَ فِي فَمِي دُونَ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ. قَالَ نَجِيمٌ
بِهَدْوٍ هَذِهِ الْمَرَّةَ:

- مِمْتَاز. هَلْ سَتَأْتِينَ إِلَى الْمَكْتَبِ غَدًا؟
- طَبْعًا!

قَالَ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ وَهُوَ مَا يَزَالُ يَحَاوِلُ سَحَبَ شَيْءٍ مِنْ جَيْبِ بَنْطَالِهِ:
- حَسَنًا إِذْنِ، لِأَنَّ لَدَيَّ شَيْئًا مَهْمًّا أُخْبِرُكَ بِهِ، لَكِنْ، مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَتَحَدَّثَ
فِيهِ لَاحِقًا.

- شَيْئًا بِهَذَا الْخُصُوصِ؟
تَوَقَّفَ عَنِ الْبَحْثِ فِي جَيْبِ بَنْطَالِهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ نَحْوِي مُحَدِّقًا فِي وَجْهِ
بِذْهُولٍ، ثُمَّ قَالَ:

- بِخُصُوصِ مَاذَا؟
لَمْ يَنْتَظِرْ أَيْ جَوَابٍ. عَادَ إِلَى الْبَحْثِ فِي جَيْبِهِ بِالْإِصْرَارِ نَفْسَهُ. جَاءَ النَّادِلُ
بِالْحِسَابِ. سَحَبَ نَجِيمٌ أَوْرَاقًا نَقْدِيَّةً، وَدَفَعَ وَهُوَ يَقُولُ بِنَبْرَةٍ «يَا لِلْخُسَارَةِ»:
- لَمْ تَأْكُلِي أَيْ شَيْءًا!

دخلتُ إلى البيت مسرعةً، وتبولّت على نجيم وعلى دار الإبداع وعلى آمالي في أن أصبح كاتبةً يوماً ما. ارتميتُ على الأريكة البنفسجية، ثم دخلتُ إلى صفحة نجوى على إنستغرام. وبكثيرٍ من الفضول واللذّة، شاهدتُ ذلك الفيديو الذي نشرته قبل ساعاتٍ قليلة. كانت عيناها منطفئتين، وابتسامتها ذابلة. قالت بصوتٍ متعَبٍ كأنه قادم من بئرٍ عميقٍ إنّها قرّرت أن تبدأ حياةً جديدة، وأن تصبح نُسخةً أفضل من نفسها. كانَ شَعْرُها مسرّحاً في كعكة، وحول عَيْنَيْها هالاتٌ سُود. كانت حركاتُ جسديها بطيئة كأنها مدمنة حبوبٍ منومة. رميتُ بصري إلى شرفتها الخاوية بحزنٍ عميقٍ. الجميعُ يرغبون في بدء حياةٍ جديدة. لكنّ، ما معنى ذلك؟ هل نستطيع فعلاً أن نبدأ حياةً جديدةً في كلّ مرّة؟ هل نحنُ قادرون على التخلّص ممّا عشناه، على نسيان أخطائنا وجروحنا وماضيّنا وكلّ ما سعيّنا له ولم نستطع إكماله؟ ولماذا تودّ نجوى أن تبدأ حياةً جديدة؟ ما الذي تودّ نسيانه بالضبط؟

لم تُفَتِّحِ النافذة، وظلّت حياةً نجوى عَصِيَّةً على الرؤية. فكّرتُ تلك الليلة وأنا أتقلّبُ في فراشي في حبّ سَعد الذي تحوّل إلى لا شيء، وفي نجيم الذي لم يُقلْ أيّ شيء، وفي أمّي التي تبحث عن أيّ شيء لتعطي معنىَ لحياتها الفارغة من الإيمان، وفي بلال المنصوري الذي يكتب رواياتٍ بكاملها، لكي يخبرنا أنّه ليس لديه شيء ليقوله للعالم. فكّرتُ في نهى

وجمييلة ونجوى وقيمة وأحلام وندى وفي سعي الإنسان المستمر لإثبات وجوده. ثم في الأخير، فكّرتُ في نفسي التي لم تحقّق أيّ شيء في حياتها لحدّ الآن. هل من المفترض أن أفعل شيئاً ما ليكون لحياتي معنى؟ ولماذا أشعر أنه عليّ أن أفعل شيئاً ما؟

في حوالي السادسة من مساء اليوم التالي، سمعتُ طرْقاً قوياً في الباب. كنتُ قد دخلتُ لتوّي من العمل، وخمّنتُ أن أحلام جاءت لتزورني. حين فتحتُ الباب، رأيتُ امرأتين مغطّأتين بالأسود من رأسيهما حتّى أخصي قدميهما، ومعهما طفلة صغيرة ترتدي حجاباً وجلباباً أسودين، وتمضغ علكةً بتلذّذ. عرفتُ مَنْ تكون المرأتان، وشعرتُ بالخوف.

قالت أمّي وهي تلهث:

- السلام عليكم.

أمّا جميلة، فلم تقل أيّ شيء. تبعّت أمّي إلى الداخل فقط، وسارت الاثنتان إلى الصالون بجسديّن يتمايلان، كأنهما فقمتان متعبتان. قلّت:

- هل صعدتُما الدرج؟ هناك مصعدٌ في العمارة.

أنزلت أمّي نقابها، ورمقتني شرّاً، ثم قالت بسخريّة وهي تتخذ لها مكاناً على الأريكة:

- مصعد؟ وهل كان الرسول يستعمل المصعد؟

رفعت يدها التي تحمل كيساً أبيض، ثم أضافت وهي ما تزال تلهث:

- لقد جلبتُ لك بعض المسمّن. أعرفُ أنّك لا تطبخين وأنك عديمة

الفائدة.

ضحكت جميلة، وأمرت ابنتها بنبرة غاضبة أن تضع الكيس في المطبخ. لم أكن أفهم لماذا تتحدث بعض الأمهات مع أبنائهن بنبرة غاضبة دائماً. ركضت الطفلة مثل أرنب صغير حاملة الكيس، متوجهة مباشرة إلى المطبخ، كأنها دخلت هذا البيت من قبل وعاشت فيه وتعرف أرجاءه وزواياه. لم أستطع منع فمي من الابتسام. قلت:

- انظرا إليها، كم هي ذكية وحاذقة!

قالت أمي بنبرة مُفعمة بالحق:

- صحيح! ليس مثلك. إنها تفعل كل شيء مثل امرأة كبيرة، وتقوم بالأعمال المنزلية كلها وحدها، حتى إنها تريد ترك دراستها من أجل تعلم الطبخ وحفظ القرآن.

جررت الأريكة البنفسجية، وجلستُ بقربيهما وأنا أحس برعب لا يمكنني تفسيره.

- كيف عثرتما على البيت؟

ابتسمت جميلة بسخرية، ونظرت إلى أمي منتظرة منها أن تُسمعني الجواب. رمقتني أمي بجانب عينها مرة أخرى، وقالت:

- صديقتك ندى أعطتنا العنوان.

شعرتُ كأن أحداً طعنني في قلب قلبي. لم أقل شيئاً، ولم أعرف هل اختفت ابتسامتي أم ظلت موجودة. لمستُ أمي الأريكة كأنها تتفقد نوع الثوب الذي صنعت منه، ورفعت حاجبها في اندهاش وإعجاب، ثم قالت:

- تلك الفتاة جيدة جداً، ولا ينقصها شيء إلا الحجاب الشرعي.

قالت جميلة بنبرة اتهامية:

- صحيح. هي التي كانت تعطينا أخباركِ بعدما أغلقتِ هاتفكِ في وجوهنا. أعرفُ جيّداً أنكِ حظرتِني على الوتساب والفيسبوك.

- لم أحظركِ.

لم أعرف لماذا قلْتُ ذلك، مع أنّ الأمور كانت واضحةً كخوفي منهما.

- بلى فعلتِ!

لم أجب هذه المرّة. ناديتُ ليليان. ركضتُ نحوي وارتمت في حضني.

قالت أمّي:

- لماذا تكذبين؟

عانقتُ ليليان وشممتُ رائحة الخوخ في فمها.

كرّرت جميلة:

- لماذا حظرتِني من الوتساب والفيسبوك؟

نظرتُ إليها، لكنّ لساني انعقد. كنتُ أودّ أن أشرح لها وضعي وأقول لها إنني كنتُ في حاجةٍ إلى الصمت لأستطيع التفكير في حياتي، ثمّ أمسك يدها وأقول لها تعالي نفتح صفحةً جديدة، لكنني كنتُ أعي أن الأمور معقّدة، ولن تسير كما أريد. أمسكتُ يدي ليليان، ورحتُ أحركهما كما لو كنتُ ألعبها، لكنني لم أكن ألعبها، بل كنتُ متوتّرة.

قالت أمّي بنبرة غاضبة:

- هل أنتِ صمّاء؟ لقد سألتكِ لماذا حظرتِها على الوتساب والفيسبوك!

سمعتُ نفسي أقول:

- آه، هل كان ذلك سؤالاً؟

وبمجرد خروج هذه الجملة من فمي، صرّرت أذُنائي. رأيتُ جسدَ أمي المترهّل ينهض ثمّ يمشي نحوي بصعوبة، ثمّ أحسستُ بشغري يُجرُّ إلى الوراء في حركةٍ عنيفةٍ ومؤلمة. قفرتُ ليليان من حِجري وركضتُ بخفةٍ نحو أمّها مثل غزالةٍ صغيرة. صاحتُ أمي:

- من أين جاءتكِ هذه الجرأة كلّها؟ كيف سمحتِ لنفسكِ بأن تحظرينا من الوتساب؟ تطلبين من زوجكِ الطلاق، ثمّ تحظرينا، فوق ذلك، من الوتساب!

لم أبدأ أيّ مقاومة. كنتُ فقط أعيش تلك اللحظة وأنتظرها أن تنتهي. رأيتُ جميلة تنظر إليّ، تماماً مثلما كانت نُهي تفعل ونحن صغيرتان. تلك النظرة الفارغة نفسها التي تقول إنّ ما يحدث عاديّ وطبيعيّ.

- هل تريدان أن تُخرجني عقلي من رأسي؟

ما يحدث طبيعيّ جداً. فقط أمّ تجرّ ابنتها من شَعْرها. أمّ تعاقب ابنتها. وماذا فيها؟! هنا، النساء جميعهنّ يجرّ بعضهنّ بعضاً من شعورهنّ. لا أقصد في جان جوريه الذي أعيش فيه، بل في درب الكبير الذي يعيش فيّ. كي تكوني امرأةً حقيقيةً في درب الكبير، عليك أن تتعلّمي كيف تجرّين عدوّاتكِ من شعورهنّ، تُسقطينهنّ، ثمّ تمسحي بهنّ الأرض. تماماً مثلما تفعلُ أمي الآن. تمسح بي الأرض من جديد. تنظّف خطيئتي.

- كيف سمحتِ لنفسكِ بأن تسبّبي لنا الفضيحة؟ كلّ ساكنة درب الكبير يتحدثون عنا، كلّهم! إنكِ لم تفضحي نفسك فقط، بل ألصقتِ الفضيحةَ بأختيك أيضاً! ألا تخجلين من نفسك؟ لكن، ماذا سيتوقّعون منك غير جلب المصائب لأمّك، مصيبةٌ تلو الأخرى؟ لقد نبّهتني حفيظة

منذ زمن طويل، وحذّرثني من الفضائح التي يمكن أن تجلبها لنا، لكنني لم أستمع لها. حتّى عندما قالت عنكِ إنكِ قحبة، كان معها حقّ، وما كان عليّ أن أغضبَ منها ...

حفيظة ما تزال ترفض الزواج إلى الآن، لأنها فقدت بكارثتها، وتخافُ أن يعرف الناس بذلك. أمّي تعرف ذلك، وتصف حفيظة بالقحبة، لكنّها ما تزال تستشهد بما قالته عنّي. ليليان جالسةٌ على الأريكةِ بجانب أمّها، وترمقني أيضاً، بنظرةٍ جميلة الباردة نفسها.

- لا أعرف لماذا أَعاقِبُ هكذا؟ ما الذي فعلته، يا ربّي، لتعاقبني ببناتٍ كهؤلاء البنات؟ بناتي اللواتي ولدتهنّ من بطني يعاقبني، يا ربّي!

أمّي تنوح وتمسح بي الأرض في الوقتِ نفسه. ليليان تنهض وتتوجّه نحو الخزانة، ثمّ تلتقط كتاباً. أمّي تقول إنني جلبتُ لها العار. تصفّعني. ليليان تمسك الكتاب بالمقلوب، وتنظر إليه وهي ما تزال تمضغ العلكة مثل امرأةٍ ناضجة. أمّي تقلبني على الجانب الآخر، كأنّها تقلبُ سمكةً في المقللة، وتصفّعني من جديد. ترفعني عن الأرض بصعوبة وهي تلهث.

- انظري إلى أختكِ. لقد كانت مطيعةً دائماً، ولم تجلب لي الفضيحة يوماً مثلاً فعلت. لماذا لا تكونين مثلها؟ ألا تستطيعين أن تكوني مثلها ليوم واحد في حياتكِ فقط؟

جميلة تمنعُ عبثاً ابتسامتها من الارتسام على شفّتيها. فمّها ينفّث رغماً عن إرادتها ويضحك فرحاً. أحببتُ جميلة كثيراً، رغم ذلك. وهل يمكن للإنسان ألا يحبّ إخوته؟

- لماذا تصرّين على فعل ما يمليه عليكِ رأسكِ؟ هل تريدان أن تسبّبي لي سكتةً قلبية؟ ألن تترتاحي حتّى تُرسليني إلى جانب أبيكِ في القبر؟

لكنّ جميلة ماتت. وذاك الشيءُ الملفوف في الأسود الذي كان يتفرّج عليّ وهو يضحك هو جرحُ أمي البشع. كم تمنيتُ لحظتها لو تذهبان لأستطيع العودةَ لترقّبِ نجوى في شرفةٍ شقّتها! كانت تلك الرغبة الوحيدة التي تبقّت في قلبي.

لكنّ المراتين الملفوفتين في الأسود لم تكونا تفكران في المغادرة.

اتكأت جميلة على الأريكة، ورفعت رجليها السمينية بصعوبة، ثمّ خلعت فردة حذاءها الذي على شكل سفينة. كانت أمي قد تركتني في تلك اللحظة، ووقفت تستردّ أنفاسها المقطوعة، واضعةً كفّها على صدرها، مغمضةً عينيها وقد ارتسمت على وجهها علاماتُ ألم. أمسكت جميلة حذاءها الأسود الصلب والمغبرّ، ووجّهته نحو ليليان الواقفة أمام الخزانة. ترتّحت ليليان وسقط الكتاب من يدها، لكنّها تماسكت ولم تسقط. ارتمت أمي على الأريكة البنفسجية وهي تتصبّب عرقاً. انزلق خمارها الأسود كاشفاً عن شعريها الأبيض، لكنّها لثقله وتعبها لم تستطع رفعه من جديد. مسحت شفتيها بطرف عباها في حركة سريعة وهي تلهث. قالت لجميلة شيئاً لم أتبيّنه. نهضت بصعوبة مثل جريح حرب، وتوجّهت إلى الحمام. كانت ليليان ما تزال واقفةً أمام الخزانة بدون حراك. عيناها مفتوحتان على آخرهما، ووجهها اكتسب لوناً يتراوح بين البنفسجي والأحمر. أردتُ بقوة أن أتصل بسعد وأذهب إليه وأرتمي في حضنه. حياةٌ تعيشُ مع ذلك الرجل أفضل بكثير من تلك اللحظة مع أمي وجميلة وليليان. كنتُ أريد الهرب من جديد. أليست الحياةُ هرباً مستمراً من أشياء إلى أشياء أخرى؟ أغلقتُ باب الحمام بهدوء، ورحتُ أرتّبُ شعري أمام المرأة. هذه ليست أول مرةٍ أشعر فيها أنني أريد الهرب من وضع سيّئ ما إلى وضع آخر أقلّ سوءاً. أدركتُ في لحظةٍ تشبه الإلهام أنني قبلتُ الارتباط برجالٍ عديمي المسؤولية وممثلين بالمشكلات من رؤوسهم حتّى أخمص أقدامهم، لأنني

كنتُ أودُّ الهرب من وضعي، من بيتنا ومن أمي. لقد قبلتُ عدم الاحترام، والمعاملة السيئة، والأنانية، والشعور بالخوف من فقدان، والتهديد، والغش، والكذب، لأنني شعرتُ دائماً أنني لا أستحقُّ أفضل من ذلك، ولأنني كنتُ أريد الحنان والأمان بأيِّ ثمن. مسحتُ نُقط معجون أسنان عالقة بالمرآة بورق التواليت بغضب. لطالما بحثتُ عن أبي الغائب في رجالٍ آخرين. النساء كلَّهنَّ يبحثنَّ عن الآباء الذين لم يحظينَ بهم في رجالٍ آخرين، ولذلك يفشلنَّ. ولذلك فشلتُ أيضاً.

حين خرجتُ من الحمام، كانت أمي وجميلة تتحدثان كأنَّ شيئاً لم يحدث، وكانت ليليان جالسةً بينهما مثل أيِّ طفلةٍ مدلِّلةٍ وسعيدة، تمضغ تلك العلكة بلا هوادة، وتُنصِتُ إلى أحاديثهما باهتمام غير عابئةٍ بالعالم من حولها.

قالت أمي بنبرةٍ مرحة:

- لماذا تنظرين إلينا هكذا؟ ألن تعدي لنا الشاي؟

وبدون أيِّ تردّد ولا حتّى تفكير، توجّهتُ إلى المطبخ، وأخذتُ الإبريق من الخزانة، ثمّ نظرتُ إلى صورة وجهي المشوّهة فيه. بدا أنفي كبيراً جداً ومتمدّداً جداً. لم أكره نفسي هذه المرّة، ولم أشعر بغبائي ولا حتّى بالألم. كنتُ كالميّنة من الداخل.

جلست نجوى إلى مائدة الطعام في بيتها. كان ظهرها متقوساً قليلاً، وكانت تأكل بسرعة، ودون شوكة ولا سكين كما تفعل على إنستغرام. رأيته تقطع الخبز وتغمسه في المرق بسرعة، ثم تأكل بشراهة، كأنها عانت الجوع لسنوات طويلة. وحين انتهت، مسحت يديها في خرقة بالية أمامها، وحملت الطاجين الفارغ بسرعة، ثم اختفت في المطبخ.

لم تظهر نجوى إلا بعد حوالي ساعة من الزمن. لكنها كانت مختلفة تماماً. رأيته من وراء المطر الغزير ترتدي فستاناً أسود طويلاً وضيقاً، وحذاء ذا كعب عالٍ، بشعر مجعد ساحر. وضعت عطراً على رقبتها بسرعة، وركضت مجدداً إلى غرفة أخرى، حيث اختفت لدقائق، قبل أن تظهر من جديد حاملة هاتفها، غارقة في كتابة رسالة ما.

عبثت بشعرها المجعد قليلاً وهي تنظر إلى نفسها في مرآة ملتصقة إلى الحائط في الصالون. لم أر المرأة في الحقيقة، لأن ذلك الجزء لم يكن ظاهراً لي. ربما كانت تنظر إلى انعكاس جسدها في زجاج خزانة ما، أو ربما لم تكن تنظر إلى نفسها أبداً. لا يهم، لكنني قررت الاحتفاظ بالمرأة لأسباب قصصية بحتة. ركعت قليلاً فتدلى شعرها كله أمامها، ثم استقامت مجدداً مرجعة إياه إلى الوراء وهي تحدق إلى نفسها مجدداً في المرأة. وضعت أحمر شفاه، وراحت تحرك شفتيها كأنها ترسل قبلة في الهواء لانعكاسها. كانت جميلة. وكانت بشرتها تبدو من بعيد بيضاء وصافية

من الشوائب. كانت مثالية وهي بعيدة، مثل نجمة عصية على الإمساك. مَشَتْ في الصالون ذهاباً وإياباً بدون أي سبب، لكن مشيتها كانت مختلفة هذه المرة. مَشَتْ بظهر مستقيم جداً وبسرعة كأنها تتدرب على عرض للأزياء. وبعد ثوانٍ، أسرعَتْ نحو هاتفها الموصول إلى الشاحن، وانحنت قليلاً لتقرأ رسالة، فتدلى شَعرها على وجهها. ألقت الهاتف من جديد على الأريكة، رَتَبَتْ وروداً حُمراً في مزهرية على الطاولة، أغلقت الأنوار، وبقي نورٌ أصفر خافت ينبعثُ من أباجورة أو اثنتين، ثم ركضت نحو الباب. قبل أن تفتح الباب، استقامت مرةً أخرى في وقفِتها، وعبثت بشَعرها مرّتين، وحرّكت رأسها مُرجعةً الشَّعرَ إلى الوراء من جديد.

لم يهدأ المطرُ الغزير الذي كان يسقط في الخارج. فتحت نجوى الباب، فظهر شابٌ طويلٌ في المشهد. لم أستطع تبيّن وجهه تحتَ النور الخفيف الذي بقي مضاءً في الغرفة، لكنني رأيته يُعلّق مظلّته، ثم يتسّم، ثم يحاول تقبيل نجوى من فمها، لكنّها تعطيه خدّها. ربّما لأنّه لا يُعجبها، وربّما لأنّها لا تريد أن تُفسدَ أحمر شفاهها منذ بداية السهرة. ليست هناك امرأة تهتمّ لأحمر الشفاه حين تحبّ أو تُعجّبُ فعلاً برجل. القبلَةُ أهمّ من أحمر الشفاه ومن ماكياج العالم كلّهُ. نجوى إذن لا تحبّ هذا الرجل، أو بالأحرى لا يعجبها، لكنّها مع ذلك، استقبلته في بيتها. تبذل كثيرٌ من النساء مجهوداً جبّاراً في التزيّن وإعداد أجواء رومانسية وتحمل رجال غليظين فقط ليتفادين الجلوس وجهاً لوجه أمام الوحدة. نجوى إذن لم تتزيّن من أجل هذا الرجل، وإنّما من أجل نفسها، من أجل أن تشعر بجمالها، من أجل أن ترى نفسها جميلةً في عينيّه، من أجل ألا تكون وحيدة.

جلسَ الرجل أولاً، وراح ينظر إلى جسدِ نجوى الواقفة أمامه. كنتُ أراقبُ حركات يديها محاولَةً أن أفهم ما تقوله، لكنني لم أستطع. كانت

تبدو مرتبكة وهشة ومرتابة. تمنيت لو كانت أقرب لي لأستطيع رؤية ارتعاش بشرتها، لكنها كانت بعيدة مثل أحلامي ومثل أمني في أن أكون امرأة قوية. مشّت خطوتين إلى الوراء وهي ما تزال تتحدّث محرّكة يديها في الهواء كأنها تشرح شيئاً، هزّ الرجل رأسه ثلاث مرّات مبتسماً، ثمّ توجهت نجوى إلى مكان آخر في البيت، واختفت هناك.

وفي أثناء اختفاء نجوى، رأيت الرجل يحرك رأسه يمينا ويساراً مُستكشفاً أرجاء البيت، ثمّ وهو يسحب زهرة حمراء من المزهريّة ويشمّها ويُرْجِعُها إلى المزهريّة مرّة أخرى. هذه أوّل مرّة إذن يدخل فيها هذه الشقّة. بعد ثوانٍ، التفت إلى النافذة، فحدّقت في الكتاب بين يديّ، وجاهدت نفسي ليبقى رأسي متّجهاً إلى أسفل لدقيقة أو دقيقتين، قبل أن أعود للتلصّص من جديد. وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسي، رأيته يلتقط شيئاً على شكل عضو تناسليّ ذكرّي من على الطاولة، ثمّ يشعله. كان القضيب الصغير المزخرف ولّاعة، لكنني لم أر نجوى تستعملها أبداً حين تدخّن سجائرهما في الشرفة. أطلال الرجل النظر إلى تلك النار المشتعلة، وتبيّنت أنفه الكبير على ضوئها. أعاد اللّاعة إلى مكانها على الطاولة كأنه يرمي شيئاً مُقرّفاً. لا أعرف لماذا يقرف الرجال من القضيب إلى هذه الدرجة، كأنهم يخشون أن يفعل بهم ما فعلوه بالنساء عبر التاريخ. وفي اللحظة التي استند فيها الرجل إلى الأريكة كأنه في بيته، عادت نجوى إلى المشهد من جديد حاملة قنيتي بيرة من نوع هينكن، ومدّت واحدة له. لم تنظر نجوى أبداً إلى نافذتها المفتوحة، ولم تفكر في إغلاقها كما تفعل عادةً. جلّست إلى جانب الرجل، وفتحت قنيّة البيرة باستعمال اللّاعة على شكل قضيب بحرفيّة عالية. كانت تضحك كاشفة عن أسنانها وهي تفعل ذلك. شربت مباشرة من القنيّة، ثمّ عادت للضحك من جديد. أسعدني انتعاشها، وأدركت أنني ابتسمتُ بعمق وأنا أراها تضحك. حين وضعت

قِنِينَةُ البيرة على الطاولة، وضعت يَدَيْهَا على حِجْرِهَا وجلست بدون حَرَكَ
مثل دمية جميلة. لكنّها لم تكن تنظرُ إليه من ارتباكها أو هكذا شعرتُ. وضعَ
يَدَيْهِ الاثْنَتَيْنِ فوق يَدَيْهَا وهو يتطلّع إلى وجهها بإعجاب (أو ربّما بشهوة).
تحرّكت شفتاه وهو يقول لها شيئاً. ابتسمت مرّةً أخرى كاشفةً عن أسنانها،
وانحنى رأسها في خجل. تحرّكت شفتاه مرّةً أخرى، فأبعدت يَدَيْهَا عن
يَدَيْهِ، لكنّ، دون أن تتوقّف عن الابتسام. كان يبدو كأنه يريد أن يقبلها، أن
يضاجعها هنا والآن، دون حتّى أن يترك لها فرصة التّأجّج، وكان يبدو أن
ذلك أزعجها، لدرجة أنها أمسكت قِنِينَةَ البيرة في يديها ولم تضعها على
الطاولة بعد ذلك أبداً. بل إنها أشعلت سيجارة، وراحت تتحدّث، فيما
كان هو يراقبها بصمت وبعينين ذابلتين من الملل.

كنتُ مثارةً بمشاهدة هذا الفيلم الصامت بشكلٍ غير طبيعي. ولو أنّه
كان فيلماً حقيقياً على التلفاز أو على التّفليكس لما استطعتُ الاستمرار
في مشاهدته دقيقةً واحدة. كنتُ أتفرّج باهتمام، أبتسم حتّى تنكشف
أسناني حين يضحكان، وأعقد حاجبيّ حين يبلّغني ارتباكُ نجوى أو
إحساسها بعدم الارتياح من تعديلها جلستها أو من حركات يَدَيْهَا السريعة.
أحياناً، كانت تذهب إلى المطبخ وتحضر قِنِينَتَيْنِ أُخْرَيْنِ، وأحياناً، كانت
تُشعل سيجارة. أحياناً، كانت تتحدّث بحماس، وأحياناً تبقى صامتةً تُنصِتُ
إلى ذلك الرجل الغريب. أحياناً، أتفرّج عليهما بعينين لا ترمشان، وأحياناً
أظهارُ بالقراءة. أحياناً، كانت تمدّ لذلك الرجل الغريب تلك الولاعة
العجيبة، فيرفض ضاحكاً أن يُمْسِكها بين يَدَيْهِ، لكنّه حين ثمل قليلاً،
أمسكها عن طيب خاطر، وراح يُشعلُ بها سجائره بسعادة. أحياناً، كان
الرجل ينهض ويخرج إلى الشرفة، فأرى وجهه بوضوح تحت أضواء الشارع.
هناك نُدْبَةٌ كبيرة وعميقة فوق حاجبه الأيسر، وشيْبٌ في مقدّمة رأسه،
لكنّه أنيق وما يزال يملك جسداً شاباً، كأنه لم يتجاوز الثلاثينيات. حين

تُحضر نجوى البيرة، يعودُ من جديد ويتكى على الأريكة ويشرب. أحياناً، كان يداعب شَعْرَهَا، وأحياناً، كان يعانقُهَا. وحين أرى أنهما على وشك أن يقبل بعضهما بعضاً، أشيح بوجهي في إحراج، وأعودُ إلى التحديق في تلك الصفحة نفسها من الكتاب، كما لو أنني متلصّصةُ خلوقة وبنت ناس! عند منتصف الليل، انتبهت نجوى أخيراً إلى أن النافذة مفتوحة. حين توجّهت لإغلاقِهَا، نظرت ناحيتي، والتفت عيوننا لثانيةٍ أو ثانيتين، لكنّ قسماتِ وجهها ظلّت محايدة، كأنها غير مهتمةٍ لاكتشافها أنّ أحداً يتفرّج عليها. كانت تحاول أن تُسدل الستائر البيضاء لتخبّي حياتها الفارغة بالنسبة إليها، المثيرة بالنسبة إليّ، حين نهض الرجل الغريب واحتضنها من الخلف. أغمضت عينيها وبدت ملامحها تحت أضواء الشارع حزينّةً بشكلٍ مُوجع. كانت ما تزال وحيدة بالرغم من وجوده إلى جانبها وبالرغم من حضنه. بعدما أغلقت الستائر، لم يتبقّ أمام عينيّ سوى السماء المظلمة، والبريق الشجيّ لأضواء الشارع، والمطرُ الغزير. أدركتُ في تلك اللحظة أنّي الوحيدة فعلاً، وأنّ كلّ ما خمّنته حولها كان مجرد إسقاط لمشاعري على حياتها.

كنتُ في السادسة عشرة حين تطلّقتُ قريبةً بعيدةً لنا. كانت غزلان العرجاء عمّة أبناء خالتي، لكنّ، كانت تجمعنا بها علاقةٌ جيّدة، تزورنا في بيتنا ونزورها في بيتها، لدرجة أنني كنتُ أناديها «عمّتي» مثلما يفعل أبناء خالتي الذين كانوا من جيلي نفسه. اتّفق الجميع على تسميتها بغزلان العرجاء، لأنها كانت تعاني من مشكلٍ في رجلها، جعلها تعرج وهي ما تزال شابةً، وتفادياً للخلط بينها وبين غزلان أخرى في عائلتنا.

كانت ما تزال شابةً في الثالثة والثلاثين حين قرّرت فجأةً أن تُنهي زواجها، أي أنّها كانت تقريباً في عمري نفسه الآن، لكنّها كانت تبدو أكبر بكثير. كانت تبدو مثل امرأةٍ في الخمسين بجسديها السمين المخبّأ تحت جلايب وفساتين رثة، وبالشيب في مقدّمة رأسها، والذي يظهر كلّما انزلّقت طرحة رأسها بسبب شعّرها الحريريّ الطويل والكثيف. بل إنها كانت تجلسُ على الأريكة بصعوبة، وتلهثُ حين تنهض، وتُسند يدها السمينّة الممتلئة بالبُقّع إلى الطاولة حين تسكّب الشاي للضيوف، وتمشي متمائلةً بسبب ألم وانتفاخٍ في رجلها لم نعرف سببهما لحدّ الآن. باختصار، كانت غزلان امرأةً عجوزاً منذ عرفتها، ربّما لأنها لم تكن تتصرّف إلّا كأُمّ، ولم أرها إلّا وهي تغسل الصحون وتعدّ الطعام وتُغيّر الحفّافات وتشكو من الآلام في ظهرها ورجليها ويديها وتحدّث عن الهموم والمشكلات. لم أكن قد رأيتُ غزلان أبداً واقفةً تزيّن أمام مرآة، ولا رأيْتُها تهتمّ بنفسها أو تضع أحمر شفاه أو وهي مرتدية ملابس جديدة، بل لم يكن قد سبق لي أن رأيْتُ نظرة

حبّ أو دلال في عينيها. حتّى عندما كانت ترى زوجها، كانت تحدّق فيه بنظرة فارغة لا تنمّ عن أيّ شيء، لا عن حبّ ولا حتّى عن كراهية. لم تكن غزلان تكلم زوجها إلّا لتخبره أنّ قنينة الغاز قد انتهت، أو لتطلب منه أن يشتري الحليب أو الخبز أو زيت الطبخ، أو لتنبّهه ألا يخطو على أرضية البيت النظيفة بحذائه، لأنها ما زالت مبلّلة. لم تكن غزلان أمّاً لأطفالها فقط، بل لزوجها أيضاً.

ظلّت غزلان تمشي متمائلة بحذائها البلاستيكي الأسود الذي يُصدر أصواتاً أشبه بالضّراط، حتّى قالت ذات يوم إنها قرّرت أن تُنهي زواجها، وذلك لأنها لم تعد قادرة على التحمّل. جملة لم تتفوّه بها قبل تلك اللحظة أيّ امرأة أخرى في عائلتنا ومحيطنا. لم أعد قادرة على التحمّل. كانت حينها مُثقلّة بأربعة أطفالٍ صغار، بدون عمّل ولا مالٍ ولا ميراث.

بعدما سكّبت الشاي الساخن في الكؤوس، حمّلت بنتها الرضيعة في حضنها، وجلّست على الكنبّة المطرّزة بورودٍ مذهّبة، ثمّ أخرجت ثديها وقالت إنها رفعت دعوى الطلاق ضدّ زوجها. هكذا بدون مقدّمات ولا حتّى تفسيرات. بدون خوفٍ ولا قلق. وبمجرّد ما تفوّهت بها، أدخلت الحلمة في فم الرضيعة بشكلٍ ميكانيكيّ، وبدون عاطفة. كانت أمّي تحدّق فيها بطريقة «ماذا تقولين؟»، بينما أطلقت خالتي ضحكةً عاليةً قصيرة حتّى نزل رأسها إلى أسفل. أمّا عمّتي، فقد ظلّت صامتةً تدعكُ كفّيها ببعضهما كأنها تحكّ حبّات الفُلّفل الأسود قبل أن تضعها في الطعام. كانت عمّتي تتعرّض للضرب يومياً من زوجها في تلك الفترة، لكنّها كانت تعتبر ذلك شيئاً عادياً وطبيعياً.

عمّ صمتٌ طويلٌ المكان. كان رأسُ خالتي ما يزال منحنيّاً، وكانت تحدّق في غزلان بعينٍ واحدةٍ فقط، بينما العينُ الأخرى مغلّقة.

- ماذا تقولين، يا غزلان؟ هل أنتِ جادة؟

ردّت غزلان بثقة وبحماس:

- إني أتكلّم بجِدِّية، يا عتيقة. سأطلق أخيراً!

كانت أمّي ما تزال تتأمّلها بنظرة غير مصدّقة. وطال صمتُ عمّتي. وحدها خالتي كانت بداخلها فسحةُ السؤال عن السبب. قالت وهي ما تزال في تلك الوضعية:

- لماذا؟

عمّ الصمتُ مرّةً أخرى. شربتُ من كأس الشاي بلذّة، وحدّقتُ فيهنّ بفضلٍ كأنني أنتظر تتمةَ القصة. كان باب البيت مفتوحاً ومغطّى بستارةٍ بيضاء تتحرّكُ بفعل النسيم، وكانت رائحةُ النعناع والسكر الخفيفة تملأ الجو. زعق أحد الأطفال في الخارج، ودخل ابن غزلان البالغ من العمر خمس سنوات ونصف بوجه ملآن بالدموع المختلطة بالمخاط والغبار، ودقّن رأسه الحليق في عنق أمّه. كانت غزلان قد حلفت رؤوس أبنائها جميعهم، لأنهم أصيبوا بالقمل.

قالت خالتي بنبرةٍ تمزج بين اللوم والعطف:

- أيرضيك أن تتركي هؤلاء الأطفال بدون أب؟ ماذا سيفعل هؤلاء الأطفال بدون أب؟ مَنْ سيدفع ثمن أكلهم وشربهم ومدرستهم؟

قالت غزلان وهي تمسّد رأس ابنها بحنان:

- سأعمل، مثلما تفعل النساء كلّهنّ.

قالتها بإصرار، والتفتت نحو ابنها وهمست له بكلماتٍ لم أتبيّنهما، ثم تناولت فطيرة مسمّن وطوّثها كأنها تطوي ثوباً، ووضعتها في يدي ابنها المتسخّتين الممدودتين. راقبت أمّي الطفل وهو يغادر محرّكاً رأسه الحليق يميناً ويسرةً ناتفاً الفطيرة في انتشاء كأنّه عصفورٌ صغير، ثمّ قالت بنبرةٍ حادة:

- هذا مستحيل.

كانت خالتي ما تزال تنظرُ بعينٍ واحدةٍ فقط، مغلقةً العينَ الثانية. لكنّها لم تكن تنظرُ إلى شيءٍ مُحدّد. زوجُ خالتي كان صَبَاغًا، لكنّه لم يكن يعملُ أبدًا، لأنّه كان يرفض عروضِ العمل التي تأتيه كلّها، فشمرت خالتي على ساعدَيْها وراحت تُعدّ المسمّن في البيت وتبيعه لتعيش. تفردُ خالتي عجينةَ المسمّن بتركيزِ يديّن حمراوين مملوءتين بالزيت، بينما يستلقي زوجها على الأريكة على جنبه، مُسنداً مَرفَقَه إلى الأريكة، ورأسه إلى كَفّه. يشربُ الشاي بتلذّذ ويقول لها إنّ فرصةَ العمر ستأتيه يوماً ما، وسيُخرجها من هذا الفقر، ولن تضطرّ للعمل بعد ذلك أبداً.

حكّت عمّتي كفَّيها ببعضهما، وفتحت عينيها على آخرهما في دهشة، كأنّها استوعبت للتوّ ما قالته غزلان، كأنّ منطقةَ مظلمةٍ ما قد أُنيرت في دماغها فجأةً، كأنّها لم تفكّر في احتمال الطلاق من قبل، ثمّ سألت بخوف:

- وكيف ستفعلين ذلك؟

قالت غزلان بثقة:

- أَلَمْ تسمعي بالمدوّنة الجديدة؟ لقد صار بإمكانني أن أطلب الطلاق بدون أيّ سبب.

فتحت أمّي عينيها على آخرهما، وصاحت:

- بدون أيّ سبب؟

طفرت حباتُ عَرَقٍ من جبين عمّتي، ونزلت على أنفها، ثمّ تساقطت على يديها السمراوين الموضوعتين في حجرها. حرّكت أمّي رأسها أربع مرّات وهي تقول «هذا غير معقول». قالت خالتي إنّ وجودَ الرجل بجانب المرأة مهمّ جدّاً، حتّى ولو لم يكن له أيّ دور. قالت غزلان إنها قد اتّخذت قرارها وانتهى الأمر. هرّزن رؤوسهنّ وقلن كلّهنّ «لا حول ولا قوّة إلّا بالله»

وهنَّ يرمقنَ غزلانَ بنظراتٍ خائبة. سكّبت خالتي كأسَ شايٍ لها، وتناولت فطيرة مسمّن، ثمّ قسمتها إلى نصفين. لقد اتّخذت غزلان قرارها وانتهى الأمر، وليس أمام أمي وخالتي وعمّتي إلا أن يُدخلن المسمّن في أفواههنّ ويشربن الشاي وهنَّ يلمنّها على ذلك. لكنّ غزلان كانت قد وصلت إلى تلك المرحلة التي لم يعد اللوم فيها يؤثّر عليها. حتّى عندما أصبح اسمها يُذكر على السنة الجميع في درب الكبير باستغراب واستهجان، لم تُكن تتأثّر، ولم تفكّر في التراجع. بل تقدّمت إلى الأمام بخطى ثابتة، وسارت إلى المحكمةِ بجلابِها الرمادي الرثّ وحذاءها البلاستيكي الأسود، وطلبت الطلاق. الطلاق. كانت تلك أوّل مرّة أسمعُ فيها كلمة طلاق. ثمّ أصبحتُ أسمعُها على ألسنة النساء وهي تخرج وسط الجُمَل والكلمات بصعوبة، وبنبراتٍ ضعيفةٍ وغير واضحة، وبأصوات خافتة. ط - لا ق. أحياناً، تخرجُ دون أن يُسمع حرف الطاء، وأحياناً، يهربُ اللام من الكلمة، وأحياناً أخرى لا يُنطقُ القاف. تخرج من بين شفاهٍ جافّةٍ وأسنانٍ صفراء متأكلة. الطلاق. يا لها من كلمةٍ مخيفةٍ وخطيرة! مَنْ تجرؤ على ذلك؟ مَنْ تجرؤ على الانفصال عن زوجها؟ مَنْ تجرؤ على الهرب من الحياة الزوجية المقدّسة والشريفة؟ أيّ قحبةٍ هذه التي تجرؤ على ترك رجلٍ والعيش وحدها أو مع رجلٍ آخر؟ الطلاق. كنتُ أفتحُ عينيّ على آخرهما شاعرةً بالخوف وأنا أسمع هذه الكلمة، ولا أتخيّل نفسي أقدم على شيءٍ فظيع كهذا. الطلاق. كنتُ أسمع الكلمة وأحسّها شنيعةً وبغيضة، ولم أكن أعرف السبب.

لكنّ غزلان تطلّقت رغم ذلك. تطلّقت لأنّ لا أحد يستطيع إيقاف امرأة تريد الطلاق. تطلّقت وتخلّصت من ذلك الجلاباب الرمادي الرثّ والحذاء البلاستيكي الأسود، وانطلّقت إلى الحياة.

حين ذهبَت للعمل أوّل مرّة كخادمةٍ في بيتٍ إحدى العائلات الغنية في راسين، راقبناها من النافذة وهي تمشي بخيّلاء مرتديةً جلاباباً أخضرَ ضيقاً، يُبرز مفاتيها، وحذاءً جديداً. كان جسدها يتمايل بسبب عرجها

ووزنها الزائد، وكانت تحرك مؤخرتها عنوة في محاولة فاشلة لإبراز أنوثتها. لم تستطع أمي أن تخفي حسدها المشوب بالإعجاب وهي تراقبها. قالت بنبرة مملوءة بالحقد دون أن تزيح عينيها عنها «انظرن إليها كيف تتطلع إلى جلبابها وحذاءها، كأن هذه أول مرة ترى فيها حذاءً جديداً!»، وحين ردت نهى أن المرأة سعيدة بنفسها، جرتنا أمي إلى الداخل، وأغلقت النافذة وهي تقول إن غزلان قد انحرفت عن الطريق رسمياً، وأقسمت أنها ستقتلنا إذا اقتربنا من عتبة بيتها بعد الآن.

ظلت غزلان تمر من أمام بيتنا وهي ترتدي ذلك الجلباب الأخضر الضيق نفسه لشهور. كانت حينها ما تزال تعرج. ومع الوقت، أصبحت تظهر في كل مرة بجلباب جديد وحذاء آخر. أخبرتنا خالتي أن الناس الذين تعمل لديهم كرماء وطيبون ويعطونها ملابسهم القديمة، لكن أمي أقسمت أن غزلان تفعل شيئاً آخر غير العمل في البيوت، لأن النساء اللواتي يعملن خادماً في البيوت رثاء الهيئة، وعليهن أن يبقين رثاء الهيئة إلى الأبد حتى لا يثرن الشبهات، خاصة إذا كن مطلقات وأمهات لأطفال.

راقبتُ تغير غزلان من نافذة بيتنا فقط، وتطلعتُ إلى حياتها بشغف وفضول، كأنها شخصية في حكاية ممتعة. أحياناً، كانت تمر من أمام بيتنا لتذهب إلى البقال محفوفة بأطفالها، ثم يعودون جميعاً وهم يمسكون حلويات عودية، ويمصونها بسعادة غير عابئين بالعالم حولهم. لم يسبق أن رأيتُ أولئك الأطفال سعداء هكذا حين كانوا يعيشون مع أبيهم، ولم يسبق أن رأيتُ غزلان طفلة من قبل. ومع الوقت، لاحظتُ أن غزلان لم تعد تمشي وهي تعرج، وعرفنا من خالتي أن الآلام في رجلها قد خفت دون أن تزور طبيباً أو تتلقى أي علاج. كان مرض غزلان في الواقع هو الزواج.

حين رافقتُ بنت خالتي شيماء إلى بيت عمّتها بعد نحو سنة من طلاقها، رأيتُ غزلان لأول مرة. أقصد غزلان المرأة، وليس غزلان الأم. كانت واقفة وسط صالون بيتها النظيف بقدمين حافيتين، مرتدية سروالاً أسود

قصيراً وضيّقاً، وقميصاً أبيض شفافاً بدون أكمام، بينما تدلىّ شعُرها الأسود الطويل والناعم على كتفَيْها السمينَتَيْن والبيضاوَيْن. شعرتُ بشيءٍ كالرهبة يسري في عروقي، وفهمتُ لماذا قالت أمي إن غزلان تفعل شيئاً آخر غير العمل في البيوت. الانتقالُ من التصرّف كأُمّ إلى التصرّف كامرأة أمرٌ جنسيٌّ جدّاً، ومخيفٌ جدّاً، وخطيرٌ جدّاً، وعلى المجتمع إيقافه بأيّ ثمن.

كانت رائحةُ معطرٍ جوٍّ منعشة بنكهة البنفسج تملأ البيتَ بدلَ رائحة البصل والثوم والزيت المحروق. حين دخلنا، لم تزع عينيها عن المرأة الصغيرة التي تحملها في يدها، ولم تتوقّف عن تنفّ حاجبيها. كانت تنفّ الشعيرات الزائدة بدقّة وانتباه، ثم تتوقّف لترتّب حاجبها بأصبعها متأملّة بإعجاب واضح الشكل الذي صارَ عليه. ظللنا تتأمّلها بإعجاب واضح لبرهة من الزمن، نحن المراهقتان اللتان لم يُسمَح لنا بعد بنثف حواجبنا، لأننا غادرنا الطفولة، لكننا لم نصر امرأتين بعد.

قالت دون أن تنظر إلينا «ماذا تريدین؟». لم تكن قد انتبهت لوجودي بعد. تمتمت شيماء بخجل: «بعثتني أمي لكي أرى إذا كان لديك بطاطس إضافي حتّى نُعدّ به الغداء». كانت خالتي تبعث ابتها يومياً منذ سنوات لتدقّ أبواب الأقارب والجيران، لتطلب منهم أن يمدّوها ببعض البصل أو الثوم أو الكزبرة أو الخبز، بحجّة أنّها لم تجدها عند البقال. فكانت شيماء، لشعورها بالإحراج من ذلك، تضيف على جملتها كلمة «إضافي»، أي أنّها لا تطلب منهم أن يعطوها إلّا ما زاد عن اللزوم.

«ماذا تقصدين ببطاطس إضافي؟»، سألت غزلان دون أن تُبعد نظرها عن المرأة. كانت تلك أوّل مرّة يُطرح فيها على بنت خالتي سؤال كهذا. وفي اللحظة التي حكّت فيها رأسها، وقالت «أعني بطاطس لا تحتاجينه»، رفعت غزلان رأسها عن المرأة وتوقّفت عن التثف. توجهت نحوي بهدوء وهي تنظر إلى عيني مباشرة. انتبهتُ إلى أنّ هناك كحلاً رديئاً في عينيها، ولم أعرف في تلك اللحظة إن كان عليّ أن أخاف منها أو من أمي التي

لا تعرف أنني هنا. ابتسمتُ لتخفيف وطأة اللحظة، لكنَّ الخوفَ لم يزل، وغزلان لم تُردِّ الابتسامة. ودون أن تقول أيَّ شيء، أشارت نحو الباب بأصبع يدها السمين والقصير، والذي انتبهتُ إلى أنَّ ظفره كان مصبوغاً بالأحمر.

لم أذهب إلى بيتِ غزلان بعد ذلك أبداً. لكنني رأيتها مرَّاتٍ عديدة من بعيد، من نافذة بيتنا وهي ذاهبةٌ إلى العمل في الصباح الباكر متبخرةً في جلابيب ضيقة. لاحقاً، صرْتُ أراها في مطعمٍ شعبيٍّ للوجبات السريعة يوجدُ في الطريق إلى الثانوية التي أدرس فيها، بعدما صارت تعملُ هناك كمنظِّفة. وبعد فترة، ترقَّت وصارت نادلةً في المطعم نفسه. ثمَّ بعد سنوات، أصبحت تعملُ أمينة الصندوق في بيتزا هوت. كانت حينها قد تغيَّرت تماماً، وتحولت إلى امرأةٍ أخرى. امرأةٌ نحيفة وعصرية، ترتدي بناطيل جينز، وتتعلَّ أحذيةً بكعوبٍ عالية، وتعرفُ كيف ترسم الكحل في عينيها.

لا أعرف تماماً متى تحوَّل اسمُ غزلان في درب الكبير من غزلان العرجاء إلى غزلان المطلَّقة. لكنني، وأنا أخرج من المستشفى متوجَّهةً إلى المحكمة للقاء بمحاميتي، تذكَّر جسدي ذلك الإحساس نفسه الذي راودني وأنا أخرج من بيت غزلان للمرَّة الأخيرة. مزيجٌ من الإعجاب والدهشة والفضول لمعرفةٍ ما يجري في عقلِ تلك المرأة. كنتُ قد أجريتُ تحاليل على مثانتي، واكتشفتُ أنها سليمة، بالرغم من الصعوبات كلِّها التي أعاني منها في التبول. مشيتُ في شوارع الدار البيضاء وفي أُذُنِّي أغنية You Don't Own Me تصدح بالرغبة في التحرُّر وتشحن دواخلي بطاقة غريبة. تساءلتُ أين توجد غزلان الآن؟ وماذا تفعل؟ وما الذي يجري في عقلها؟ لقد غادرت درب الكبير منذ سنوات، ولم أعرف من أخبارها إلا أنَّ ابنتها الصغرى قد دخلت كليَّة الطبِّ السنة الماضية. أخبرتني بذلك خالتي التي ما تزال تعجن المسمَّن كلَّ يومٍ لتعيش، بينما يتمدَّد زوجها بقربها، يشربُ الشاي المنعَّع، ويعيدها بحياةٍ سعيدة ومستقبلٍ أفضل.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح يوم السبت 16 أبريل 2020، قرّرتُ أخيراً أن أذهبَ إلى صالون التجميل. كانت الشمسُ قد أشرقت للمرة الأولى فعلاً بعد ثلاثة أشهر من إقامتي في شُقتي في جان جوريه. حين فتحتُ عينيّ في الصباح، ووقع نظري على رجلَيّ تحت ضوء الشمس، اكتشفتُ أنني قد تحوّلتُ إلى قردةٍ حقيقية.

أسرعتُ إلى المرأة، ونظرتُ إلى وجهي. كان قد نما لي شاربٌ أيضاً. شعرتُ بالانزعاج ومشيتُ نحو أقرب صالون حلاقة بخطى متثاقلة. وفي الطريق، فكّرتُ في شوارب النساء. أمي لديها شاربٌ كثيفٌ ولم تُزلّه في حياتها أبداً، بل لها بعضُ الشعيرات السوداء على ذقنها أيضاً، والتي تكاثرت وأصبحت ستّ شعيراتٍ طويلة حين وصلت إلى سنّ اليأس.

وأنا أدخل إلى الصالون، تذكّرتُ شجاراً كبيراً حصل ذات ظهيرة حارة عام 2003 في درب الكبير. ضَرَبَ نور الدين ابنُ الساحرة حياة ابنَ البقال سعيد. أوقعه أرضاً وقفراً فوق جسده وظلّ واقفاً هناك مختبراً قدرته على التحمّل. حين عرفَ سعيد ما حصل لابنه، أغلق دكانه وخلّع حزام سرواله وتوجّه نحو نور الدين. كان سعيد معروفاً بجسده الضخم والقوي وبشاربه الكثيف الذي يشبه شوارب العثمانيين القديمة وبجاذبيته السميكة ونظريته الحادة والمخيفة. حين وصل إلى نور الدين، انهال على جسده بذلك الحزام بلا رحمة ولا هوادة. سمع الجميع صراخ نور الدين واستغاثته، فأطلّت النسوة

من النوافذ، وخرج الرجال إلى الشارع بالمرق في أصابعهم، وتجمعوا حول نور الدين محاولين إنقاذه من بين يدي سعيد وحزام سرواله المؤلم.

كنّا نتفرّج من النافذة حين رأينا الساحرة حياة تركض نحو الجمع بحذائها البلاستيكي الأسود. كانت ترتدي فستاناً أبيض من القطن، عليه آثار مرق أصفر قديم، وتغطي شعرها بطرحة عقدتها إلى الوراء. دخلت وسط الرجال المتجمهرين وهي تصيح في وجه سعيد ذي الشارب الكثيف شاتمة إياه ووالديه وزوجته وأبناءه وأهله كلهم. توقّف سعيد أخيراً عن ضرب نور الدين الذي فرّ وهو يئنّ من الألم. كانت حياة ما تزال تسبّ وتشتّم حين خرج سعيد من بين المتجمهرين وهو يمسح عرقه بينما كانت عيناه تشتعلان غضباً. شتمها بدوره واصفاً إياها بالساحرة وبالمرأة غير المحترمة التي لم تُربّ ابنها كما ينبغي. لم تتمالك حياة أعصابها، فتوجّهت نحو سعيد بدون خوف وصاحت في وجهه وسط مسامع الجميع:

- إذا كنت فخوراً لأنّ لديك شارباً كبيراً في وجهك، فأنا لديّ واحد أكبر في فرجي. فاحذر أن تقترب من ابني مرةً أخرى!

لم أعرف أن تلك الكلمات كانت معبرةً جداً إلّا حين كبُرْتُ ورأيتُ كيف يفخر الرجال بشواربهم. ارتخيتُ متكئةً على مسند كرسيّ أسود مريح في الصالون، وحدّقتُ إلى منطقة الشارب الأعرق قليلاً من باقي مناطق وجهي، ثمّ أغمضتُ عينيّ في استرخاء. لم أشعر بالصفاء هكذا منذ أشهر. كأنّ جلوسي على ذلك الكرسيّ كان كافياً لينسيّني الآلام كلّها التي عانيتُ منها خلال حياتي. وحين تذكّرتُ ذلك الإحساس الذي أشعر به حين أزيل شاربي والشعر الزائد من حاجبيّ، رأيتُ أمامي حياةً كاملة من الطراوة والجمال.

كنتُ أسمع أصوات النساء من حولي وضحكاتهنّ كأنّها قادمة من بئر عميقة أو من حُلْم. وحين فتحتُ عينيّ، كانت كوافورة نحيفة وقصيرة القامة

واقفةً أمامي تمرُّ أصابعها الرقيقة والناعمة على حاجبيّ، وتنظرُ إليهما مضيقةً عينيهما، كأنّها تحسبُ معادلةً رياضيةً في رأسها قبل الشروع في إخراجها. قالت بنبرة العارفة إنّ علينا أن نستعملَ تِقْنِيَةَ الخيط لإزالة الشَّعر الزائد، لأنَّ الشمعَ يسبِّبُ التجاعيد المبكرة. قالتها ورفعت حاجبيها المرسومين بدقّة بلونِ بَنِي حارّ وهي تسألني: «هل تعرفين؟ هل كنت تعرفين ذلك؟». أغمضتُ عينيّ مرّةً أخرى مستسلمةً لها ولتِقْنِيَّاتِها وأنا أصغي لضجيج مجفّفات الشَّعر والأحاديث المهموسة والضحكات الملائنة بالأنوثة والكعوب العالية وهي تصطدم بالأرض. وحين كانت الكوافورة تسألني إن كان لديّ حبيب، تجلّى أمامي مشهدُ لقائي بنجوى مثل تلك الأحلام الواضحة التي تذكّرها بسهولة: نشرب قهوةً معاً ونحن نضحك على سَعد وعلى نفسينا، لأننا أحببناه في الماضي. نضحك بقوة وعمق حتّى تدمع أعيننا. أزورها في بيتها وتزورني في بيتي بحكم أننا جارتان. نصبح صديقتين حقيقيتين. أريح رأسي على كتفها حين أتعبُ من الحياة، وأمسك بيدها حين تشعُر بالوحدة. لا، ليس لديّ حبيب، يا كوافورتي الصغيرة، لأنني تعبْتُ من استيقاظ جروحي هكذا باستمرار. تعبْتُ من الألم وأنهكني الخوف. ثمّ إنني لا أملك الوقتَ لذلك. هناك أشياء كثيرة أهمُّ عليّ القيام بها قبل ذلك. أن أصبح صديقةً نجوى. أريدها أن تنظرُ إليّ بالشغف نفسه الذي أطلّع به إلى حياتها كلّ يوم. أريدُ أن أعرف أكثر عن حياتها الغريبة والمثيرة.

وما الذي أودّ أن أعرفه أكثرَ عن حياتها؟ ما الذي يمكنه أن يكون غريباً ومثيراً في حياةِ إنسان؟

لديّ واحدةٌ لم أسبر أغوارها بعد.

فتحتُ عينيّ من جديد، ونظرتُ إلى شكلِ حاجبيّ في المرآة. ثمّ رأيتها. هي نفسُها نجوى. رأيتها تخرجُ من غرفةٍ أخرى، مغطّيةً رأسها بغطّة بيضاء، محتضنةً حقيبةً سوداء صغيرة إلى صدرها. رأيتها تمشي ببطء حتّى لا تقع

الفوطة التي على رأسها، ثم تتطّلع إلى انعكاسي في المرآة كأنها تعرفني. التقت عيوننا. لم أعرف إن كنت قد ابتسمتُ لها، لكنني، على أيّ حال، نويتُ أن أفعل. أبعدتُ نظرها عني غير عابئة بي، ثم همست لكوافورة أخرى ذات جسمٍ مدوّر بشيء، ثم اقتعدت كرسياً، ونظرت إلى أظافرها الطويلة غير المصبوغة. قالت الكوافورة النحيفة إنّنا انتهينا من الحاجبين، وسننتقل الآن إلى الشارب. لم أغمض عينيّ هذه المرّة، بل رُحت أتفرّج على نجوى في المرآة غير عابئة بالألم.

جرّت الكوافورة ذات الجسم المدوّر منضدةً بلاستيكية صغيرة نحو كرسيّ نجوى، وألقت على فخذيها فوطةً قديمةً امّحى لونُها، ثم أشارت لها بأصبعها أن تضع كفّيها عليها. فتحت درج المنضدة الذي يحوي زجاجات أظلية أظافر، وسألتها بطريقة سريعة وأتوماتيكية ودون حتّى أن تنظر إليها، أيّ لون تريد. أشارت نجوى بأصبعها إلى لونٍ ما في حركةٍ أنيقة، ثم وضعت رجلًا على رجل، وحطّت يدها على فخذيها، وراحت تتأمّل أظافرها وهي تُصبغ. بعد قليل، علّت وجهها الذي بدون ماكياج ابتسامه رائعة. ابتسامه حلوة، وتبعثُ على الانتعاش.

قصّت الكوافورة ذات الجسم المدوّر ظفرَ إبهام نجوى، لأنه كان أطول قليلاً من الأظفار الأخرى، ثم قالت:

- أعطيتُه ألفاً وخمسمائة درهم في المرّة الأولى، وخمسمائة في المرّة الثانية، وألفاً في المرّة الثالثة. لكنّه لم يُعِد لي أيّ شيء.

قالت نجوى دون أن تُبعدَ نظرها عن أظافرها:

- وأين كان عقلُك حين كنتِ تعطينه هذه النقود كلّها؟

قالت الكوافورة ذات الجسم المدوّر في يأس:

- أعرف أنني مخطئة، أعرف ... معكِ حقّ ...

قالت نجوى بنبرة مليئة بالإحباط:

- يا لك من حمارة! أقسم أنك حمارة. لو كنت مكانك لأعطيته ضربة إلى رأسه، وليس نقوداً...

قالت الكوافورة ذات الجسم المدور:

- الحب، يا حبيبتي، الحب يجعل عقلك ينتقل من رأسك إلى مؤخرتك دون أن تشعر.

جرت الكوافورة النحيفة الخيط ومعه شاري بقوة وسرعة. دمعت عيناها. رفعت نجوى بصرها نحو الكوافورة ذات الجسم المدور، وقالت:

- وتقولينها بكل فخر؟

قالت الكوافورة ذات الجسم المدور في استنكار:

- وماذا تريدني أن أفعل؟ لقد وعدني بالزواج بمجرد أن تتحسن أوضاعه ويجد عملاً مستقراً. الذنب ليس ذنبي لأنني صدقته، بل ذنبه لأنه كذب علي!

قالت نجوى بعصبية:

- أنا لا أعرفه ولا أتحدث معه الآن، بل معك!

وضعت الكوافورة النحيفة يدها فوق منطقة شاري، وضغطت عليها بقوة، ثم ناولتني مرآة صغيرة وهي تقول بفخر:

- انظري الآن كم هي جميلة وناعمة هذه المنطقة!

نظرت إلى منطقة شاري في المرآة بدون أي اهتمام، وقلت:

- صحيح. معك حق. الخيط أفضل من الشمع.

ثم عدت للنظر في المرآة من جديد.

قالت الكوافورة ذات الجسم المدور بحماس وقد توقفت عن الصبغ:
- نعم! نعم! هذا ما كنتُ أُخبركِ به منذ الصباح! لقد عرّض عليها
الزواج بمجرد ما رآها، في الوقت الذي كان يقول لي إنه لا يملك ما يكفي
من المال الآن ليفتح بيتاً!

قالت نجوى:

- وأنتِ لماذا تعرّفين حبيبكِ على فتيات كهؤلاء؟ هل لديك دماغ في
ذلك الرأس أم قطعة براز؟

سكتت الكوافورة ذات الجسم المدور في إحراج، وراحت تدهن يدي
نجوى بكريم، مدلّكة إياهما بسرعة.

أضافت نجوى لتلطيف الأجواء:

- هذا الكلام ليس موجّهاً لكِ أنتِ فقط. أنا أيضاً ارتكبتُ هذه الغلطة
من قبل.

توقفت الكوافورة ذات الجسم المدور عن التدليك، وقالت بأسى:

- الصديقات أفاع يرتدين أقنعة ملائكة.

قالت الكوافورة النحيلة بعدما دهنت منطقة شاربي بكريم منعش:

- انتهينا!

لكنني لم أكن أريد أن أنهض. كأنّ قوّة خارقة كانت تشدّ مؤخرتي إلى
ذلك الكرسيّ. جاذبيّة لا أستطيع مقاومتها. رحّت أظواهر بتفقد حاجبيّ
في المرأة، بينما كانت الكوافورة النحيلة تخبّي عُدّة إزالة الشّعر في درج
خزانة صغيرة.

قالت نجوى:

- لا، لم أقل لها أيّ شيء، وهي أصلاً لا تعرف أيّ شيء.

قالت الكوافورة ذاتُ الجسم المدوّر بدهشة:

- ألا تعرف أنه كان يخرج معكِ؟

قالت نجوى بمرارة واضحة:

- لا، لكنّها تتصرّف كما لو كانت أهمّ وأشرف امرأةٍ في هذا العالم،
لأنّه تزوّج بها! تنشر صورها معه كلّ دقيقة على إنستغرام، ولا تتحدّث إلّا
عنه على فيسبوك.

قالت الكوافورة ذات الجسم المدوّر:

- المسكينة لم تصدّق نفسها!

جاءت الكوافورة ذات الجسم النحيل. قُلْتُ لها دون أن أنهض إنني
أريد أن أسرّح شَعْرِي أولاً، وردّت إنّ علينا أن ننهي عملية إزالة الشَّعر من
الجسم أولاً قبل أن نسرّح شَعْرِي، ثم أشارت لي بالنهوض.

قالت الكوافورة ذات الجسم المدوّر:

- إذا وضعت هذا اللون، سيُجنّ الناس بجمالكِ. إن بشرتك بيضاء
فاتحة وشَّعر حاجبيكِ خفيف، وسيناسبكِ جداً.

قالت نجوى في ريبة وهي تتطلَّعُ إلى نفسها في مرآة قريبة:

- حقّاً؟ لا أدري.

أصررتُ على تسريح شَعْرِي أولاً. فتحت الكوافورة النحيلة عينيها في
استغراب، وقالت إنني لن أحافظ على تسريحة شَعْرِي بهذه الطريقة.

قالت الكوافورة ذات الجسم المدوّر:

- هي محجّبة، أليس كذلك؟

قالت نجوى:

- نعم.

التزمت الكوافورة ذات الجسم المدوّر الصمت. قُلْتُ للكوافورة ذات الجسم النحيل إنني لا أهتمّ، وإنّها تستطيع أن تبدأ في تسريح شَعْرِي. كنتُ أشعرُ بقلبي مضغوطاً بين أعضائي كأنه سينفجر. الشعورُ نفسه الذي عِشْتُهُ وأنا أحاول إيجاد أعذارٍ للبقاء بقرب الفتى الذي أحبّ وأنا في الثالثة عشرة.

أضافت نجوى بحقد:

- إنها ترتدي الحجاب فقط لتُخبّي شَعْرَهَا البشع، وليس حباً في الحجاب. عندما ذهبنا إلى تلك الورشة في مُراكش، توقّف الباص في إحدى محطات البنزين، فذهبنا إلى الحمام. حين أزالَت تلك الطرحة من على رأسها، أصبحت مخيفة، يا سهام! إن سلك غسيل الأواني أفضل من ذلك الشَّعر.

تذكّرت أحلام. التقت عيناى بعينيّ نجوى في المرأة، وسرت في دمي حرارة إخراج مميتة.

قالت الكوافورة ذات الجسم المدوّر:

- للأسف، كثيرٌ من النساء يرتدين الحجاب فقط ليُخبّئن شعورهنّ الخسنة، وليس لتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

شعّلت الكوافورة النحيلة مجفّف الشَّعر، وتحوّل الفيلم الذي أشاهده في المرأة إلى فيلمٍ صامت. كنتُ أراقبُ نجوى وهي تتحدّث، ثمّ وهي تنفخ على أظافرها بعدما انتهت من صباغتها، ثمّ وهي تُشعل سيجارةً وتدخلنها ببطء. راقبتها وهي ترفعُ طرفَ ثوبها لتضع رِجلها البيضاء في حوض الماء، ثمّ وهي ترفعُ رِجلها من الحوض، وتضعها على فخذ الكوافورة ذات الجسم المدوّر، ثمّ وهي تُغمض عينيها مستمتعةً بتنظيف قدميها

من البشرة الميتة، ثم وهي تتردد في اختيار اللون الذي ستصبغ به أظافر قدميها، ثم وهي تتجادل مع الكوافورة في موضوع ما، ثم وهي تتكى على مسند الكرسي الجلدي الأسود ذي العجلات، كأنها قطعة مدللة.

قبل أن تبدأ في تسريح شعري، حاولت الكوافورة النحيلة إقناعي بضرورة قص أطرافه. قالت إن قص الشعر يقضي على الاكتئاب. كانت هناك امرأتان، إحداهما شابة والثانية في نحو الخمسينيات من عمرها، واقفتين أمام المرأة، تنظران إلى قصتي شعرهما الجديدتين بسعادة وفخر. ذلك الشعاع الذي كان في عيونهما يصعب تفسيره بالكلمات. تذكرت يوم تحطم قلبي بزواج ناجي من امرأة أخرى. لم أشعر حتى وجدتني في صالون حلاقة أتخلص من نصف شعري. وحين وقفت أمام المرأة أنظر إلى تسريحتي الجديدة، شعرت أنني إنسانة أخرى، كأنني تخلصت من رأسي القديم المتزعزع بالقلق والأحزان، ووضعت رأساً جديداً مكانه، رأساً فارغاً وخفيفاً مثل رأس جنين ولد للتو. إن المتعة التي تشعر بها النساء حين يذهبن إلى صالون حلاقة تتجاوز متعة التزين والتجمل. لم أر في حياتي اطمئناناً كذاك الذي ينط من جسد امرأة خرجت للتو من مقصورة إزالة الشعر. الأمر لا يتعلق بإزالة زغب الرجلين فقط، أو بتغيير لون الشعر أو تسريحته، أو بتركيب أظافر صناعية، أو بالتخلص من البشرة الميتة، أو بتغيير شكل الحواجب، بل بالحصول على جسد ورأس جديدين، لم تمسسهما نوايب الدنيا وصروف الحياة. كأن الزمن يتوقف حين يستلقين ويفتحن أرجلهن مغمضات أعينهن مصغيات لحكايات الكوافورات المثيرة. يصبحن سواسية في تلك المقصورات المملوءة بالقصص والأسرار، وأمام المرايا. كلهن نساء. وكلهن لديهن ثقب مظلم بين أرجلهن، وكلهن لهن حكايات غريبة، وكلهن يشعرن بالألم، وكلهن يرغبن في نسيان شيء ما وقذفه بعيداً مع الزغب الذي يُزال. إن الخروج من صالون التجميل بمثابة ولادة جديدة.

بعدما انتهت من صبغ أظافرها، نهضت نجوى من ذلك الكرسي،

وجلست على الكرسي الذي بجانبى، ثم جرّت الفوطه التي على رأسها في حركة سريعة، فانفلت شَعْرُها الطويل المبلول، وسقط على ظهرها. شممت رائحتها التي هي مزيج بين عطر قديم وشعر مبلول وصباغة أظافر، وشعرتُ بقربها مني في بشرتي، حارّاً ومؤلماً. لم أكن أريد النظر إليها، لكنني التفتُ في حركة لا إرادية، وحدقتُ في نصف وجهها بإمعان. لم تكن تضع أيّ ماكياج، وكان كحل عينيها خفيفاً. تصرفها كأنها لم ترني ولا تعرفني جعلني أشعر بألم غريب لم أفهم تركيبته، لكنه يشبه ألم الفشل مخلوطاً بالألم جرح الكبرياء. ألّهذه الدرجة أنا مجهولة بالنسبة إليها؟ هل أنسى بهذه السرعة، أم أنني تغيرتُ للدرجة التي تجعل الناس لا يتعرفون إليّ؟ تحرك جسدي الثقيل في الكرسيّ كأنه لا ينتمي إليّ، وراودني شعور غريب، وأنا أحاول منع نفسي من النظر إليها، أن عقلي وجسدي منفصلان عن بعضهما تماماً.

لكنني نظرتُ إليها مرّة أخرى. كانت تسحب من حقيبتها كريم تجعيد بنكهة البنفسج. أرجعت شَعْرُها إلى الوراء، وعبّثت به مرّتين بأصابعها، وسحبت نفساً عميقاً إلى الداخل. جاءت الكوافورة ذات الجسم المدوّر، ووقفت وراءها، متطلّعة إليها في المرأة. سألتها وقد ارتسمت على شفّتيها ابتسامة إعجاب إن كانت تريد أن تسرحه هذه المرأة، لكنّ نجوى مدّت لها كريم التجعيد وهي تقول بفخر من يعرف أنه مختلف عن الآخرين: «مجعد كالعادة». تطلّعتُ إلى وجهي الممتلئ وشعري المسرح في المرأة بحزن، ثم توجّهتُ إلى مقصورة إزالة الشعر.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لم أكن أتوقع أن تجاهل نجوى لي في صالون التجميل سيغضبني إلى هذه الدرجة. كنتُ أمشي عائدةً إلى البيت حين شعرتُ بنبضاتٍ قلبي تزداد سرعةً وقوةً، وبغمامةٍ تغطي عيني وتجب عنهما الرؤية. اصطدمتُ بسيارةٍ مركونة في جانب الطريق، ثم بدراجةٍ نارية، ثم بكتف رجلٍ كان يمشي في الاتجاه المعاكس. وفي كل مرةٍ كنتُ اصطدم بأحدهم كان غضبي يتصاعد مثل بركانٍ ثائر. ذلك النوع من الغضب الذي يُعمق أحاسيس البغض. كأن الكره كله الذي عاملتُ به نفسي خلال هذه السنوات قد خرج فجأةً إلى السطح.

رأيتُه بوضوح. أحسستُ بألم الحقد يحفر عميقاً في داخلي، كأنه فأسٌ تضرب بقوةٍ وبطءٍ في أعماقي، وكان الغضبُ يخرجُ ساخناً من أنفي. لا أعرفُ ما علاقتهُ مشاعر الغضب والحمية والكبرياء والغرور بالأنف، لكنني حين اندفعتُ داخل البيت وحدقتُ إلى وجهي في المرأة، رأيتُ أنفي أحمرَ ومنتفخاً كأنه على وشك الانفجار.

إن نجوى التي حدثتني عنها أحلام، ونجوى التي رأيتها في مواقع التواصل، ونجوى التي كانت تتحدث مع غوستافو سانشير، ونجوى التي رأيتُ من النافذة، ليست نفسها نجوى التي نظرت إلي في صالون التجميل. لماذا تتعامل معي أنا بالضبط كأنني غير موجودة؟ هل لأنني مهووسةٌ بها؟ هل شعرت بذلك؟ أم أن هوسي بها هو ما جعلني أشعر بالنقص أمامها؟ لقد كنتُ واعيةً بأنني مهووسةٌ بها، لكن، لا شيء كان بإمكانه إيقاف هذا الهوس.

ومثل صخرة هَوَتْ من عل، لا شيءَ كان بإمكانه إيقافها في تلك اللحظة. ارتديتُ فستاناً أسودَ قصيراً، وانتعلتُ حذاءً أُمِّي ذي الكعب العالي، ووضعتُ أحمر شفاه فاقِعاً. لا شيءَ كان بإمكانه إيقافها، حتّى ومضاتُ العقل التي كانت تأتيني من حينٍ لآخر لتسألني «ما الذي تفعلينه؟» كنتُ أطفئها بالمبرّرات. سأذهبُ إلى بيتِ سَعد، لأنني اشتقتُ إلى شمشون. سأذهبُ لأرى إن كان قد بدأ في التعرّف إلى نساءٍ أخريات. سأذهبُ لأنني نسيْتُ هناك مشطاً بلاستيكياً قديماً عزيزاً على قلبي. سأذهبُ لأنّ عليّ أن أفسّر له أسباب اتّخاذه قرار الطلاق. سأذهبُ لأنّ الرُقّيّ يستدعي أن ينفصل الناسُ بسلام، وأنا امرأةٌ راقية.

لكنني، في الحقيقة، كنتُ أريد أن أذهب لأوقف سريان الغضب في شراييني. كنتُ أريد الذهاب، لأن جسدي كان ناعماً جداً بعد صالون التجميل، لأن شعري كان مسرّحاً، ولأنني تزيّنتُ وأريد لسَعد أن يراني هكذا. كنتُ أريد الذهاب لأنّه ليس في وسعي الاستمتاع بكوني جميلةً وناعمةً وحدي. كان لا بدّ أن يراني رجلٌ، أن أرى نفسي في عينيّ رجلٍ، كي أشعر أنني جميلةٌ فعلاً، ولم يكن ثمّة رجلٌ في حياتي غير سَعد.

تذكّرتُ وأنا أتأمّل مظهري في المرأة صديقة قديمةً لندى التقيتها مرّة في ستارباكس. كانت فتاةً نحيفةً جداً ومتحمّسةً جداً وحسّاسةً للغاية. فكّرتُ حينها أنّ طاقتها الزائدة سببٌ في نحافتها. قالت لي بعدما شرّبت قهوتها السوداء بدون سكر دفعةً واحدة، إنّها لا تذهبُ إلى الحَمّام أبداً، وتفضّل الاستحمام في البيت، لأنّ إحساسها بالنعومة بعد الحَمّام يجعلها ترغب في أن يكون لديها رجلٌ في حياتها. هل يعمّق التزيّن والنظافة والنعومة إدراك النساء لأنوثتهنّ، أم أنّهنّ لا يستطعن الإحساس بأنوثتهنّ وجمالهنّ دون المرور عبر عيون الرجال؟!

اندفعتُ خارج البيت وأنا أفكّر أنّ الرجال هم مرايانا التي لا نستطيع رؤية أنفسنا إلّا عبرها. هل نحنُ أيضاً مراياهم؟ هل يشعرون أنّ عليهم أن

يلتقوا بنساء بعدَ خروجهم من الحمام وتهذيب لحاهم وتصفيف شعورهم؟ كانت السماء غائمة كأنها امرأة غاضبة ويستحيل إرضاؤها. شعرتُ وأنا أمشي بذلك الحذاء الذي اشتريته أمِّي قبل ربع قرن، أنني لا أنتمي إلى الحاضر، وإنما إلى ذلك الماضي البعيد حين كان عمري سبع سنوات. كأنَّ جسدي استرجع تلك الخِفة التي كانت له في الطفولة، لكن، ذلك الشعور بالضياء وعدم اليقين أيضاً وهو يحاول اللحاق بأمِّي في السوق. حين وصلتُ إلى شارع أنفًا، ضاعفتُ سرعتي كما لو أنني كنتُ أهرب من الماضي. كانت هناك صورة واحدة في رأسي يستحيل اقتلاعها أو حتَّى زحزحتها. صورة أمِّي في جلبابها البنفسجي، تتصبَّب عرقاً وتندفع إلى المحالِّ، وتنبُّش في أكوام الأحذية باحثة عن حذاء ذي كعب عالٍ مناسب. لم تكن أمِّي في الواقع تبحثُ عن حذاء، بل كانت تبحثُ عن أنوثتها خارج جسدها. أما أنا فقد كنتُ أحاول الهرب من الماضي، بينما كنتُ أنتعله في قدمي وأمشي به طريقي في الحياة، ولم يكن في إمكانه إلا أن يقودني إلى الجنون.

حين وقفت سيّارة الأجرة في شارع الفداء، شعرتُ كم أن قدمي متورمتان. رمقني السائق الشاب بنظرات إعجاب في المرأة الأمامية للسيّارة، وتعمّد أن تلامس يده يدي حين مددتُ له أجرته. نزلتُ ومشيتُ خطوتين بصعوبة وأنا أشعرُ أنه لا يزال ينظرُ إليّ. كان الفضول يأكلني لأتفت، لكنني لم أفعل. وحين سمعته يشغل محرك السيّارة من جديد، التفتُ. كان جالساً بظهر مستقيم، واضعاً ذراعيه على المقود في استرخاء، ورامقاً إليّ بطريقة توحى أنه يدعوني لأركب من جديد. أسرعْتُ الخطى، ليس هرباً من عينيه الناعستين وابتسامته الكسولة، وإنما من شعوري مجدداً أنني عاهرة.

ترنّحتُ وكِدْتُ أسقط لولا أنني تمسّكتُ بسيّارة مركونة في جانب الطريق. كان الحذاء القاسي ما يزال يحفر في قدمي مثلما تحفر الذكرياتُ

في رأسي. فكّرتُ في التراجع، وأخبرتني السماء التي توشك أن تمطر، والنساء اللواتي يمشين في جلابيهنّ وينظرن إليّ شرّاً كأنهنّ يمتلكن مفاتيح الاحترام والوقار، والرجال الواقفون أمام المحالّ والمائلون على السيارات والمستندون إلى الأسوار كأنهم يملكون الشارع، والقطط المتسخة المرعوبة على الدوام، والأزبال التي تطوّق جذوع الأشجار، أخبرتني أنّ عليّ العودة إلى بيتي الآن.

لكنني لم أتوقّف عن المشي، وانعطفتُ على الزقاق الذي يوجد فيه بيتُ سعد.

وحين أصبحتُ واقفةً أمام عمارة السعادة، تملّكني الخوف. كان بابُ المبنى مفتوحاً، وفي الداخل ظلامٌ حالكٌ وذراتُ غبارٍ تسبح في الهواء. أشعلتُ مصباح هاتفي وأنا أشعر بالغرابة كأنني ما عشتُ هنا يوماً، وصعدتُ الدرج.

كلّ شيءٍ كما هو، الغبارُ في كلّ مكان، رائحةُ الرطوبة التي تنبعثُ من الأسقف ثقيلاً وخانقة، خطواتي المتردّدة مثل أوّل مرّة قدّمتُ فيها إلى هنا. حين وصلتُ إلى الطابق الثاني، ووقفتُ أمام الشقّة رقم ثلاثة، سمعتُ صوتَ رعدٍ قوياً، يزمجر في الخارج. طرقتُ الباب ثلاث طرقاتٍ متتالية، ثمّ سمعتُ حفيف خطواتٍ تقترب. نبض قلبي نبضاتٍ سريعة، ليس من الحبّ، بل من عدم معرفة ما سأقوله. فكّرتُ في الهرب، لكنّ الأوان كان قد فات، لأنّ سعداً كان قد فتح الباب.

وقفنا طويلاً ينظرُ كلانا إلى الآخر بدون أن ننبس بكلمة، ولم أُنْتبه إلى شكله أو لباسه. أطلال النظر في وجهي بعينين فارغتين، كأنّه لا يعرفني ويحاول أن يتذكّر أين رأيته من قبل، ثمّ حوّل نظره إلى قدّمي. نظرتُ إليهما أيضاً لأرى إلى ما ينظرُ بالضبط، ثمّ سمعته يقول بصوتٍ غير مألوف: «جئت؟». هل تغيّر إلى هذه الدرجة، أم أنني أنا التي نسيْتُ صوته بهذه

السرعة؟ جاهدت نفسي لأبدو طبيعية وواثقة من نفسي، وقلتُ «نعم». وإلى تلك اللحظة، لم أكن متأكدة بعدُ إن كان سيسمحُ لي بالدخول أم لا.

قالَ بنبرةٍ من استسلم لشعوره بالانزعاج «ادخلي»، ثم استدارَ عائداً إلى الداخل. تبعتهُ وأنا أنظرُ إلى مشيته اليائسة. كان يمشي وهو يجرُّ قدميه جراً، بينما يحتك نعله البلاستيكي بالأرض، ثم ارتمى على الأريكة دون أن يدعوني إلى الجلوس، وركّز نظره في شاشة التلفاز المطفأة. ظللتُ واقفةً أحدقُ في وجهه ونظريته الثابتة وقد تشتت انتباهي وفقدت القدرة حتى على التساؤل لماذا أنا هنا. وبعدَ برهةٍ من الزمن، ودون أن أبعد نظري عنه، توجّهتُ وجلسْتُ إلى جانبه.

كانت هناك رائحةٌ سجائر في البيت ممتزجة برائحة فضلاتٍ قطّ. فكرتُ وأنا جالسةٌ إلى جانبه في تلك الروايات الرومانسية السطحية كلّها التي حرّرتها ونشرتها دار الإبداع وتهافتَ عليها القراء. كم كانت الحياة الحقيقية أعقد من ذلك! لدرجة أنني لم أكن أعرف حتى ما الذي جاء بي إلى بيت الرجل الذي انفصلتُ عنه. لو كنتُ شخصيةً في إحدى تلك الروايات، كانت لتقول إنني جئتُ لأنني اشتقتُ إلى قبلاته ورائحة عطره وملمس يديه. لكنّ الأمور لا تحدث هكذا في الواقع. إننا لا نذهب إلى الآخرين بداعي الحبّ فقط، بل نذهب إليهم أيضاً لتأكيد أننا لم نعد نكنّ لهم أيّ مشاعر. لم يكن الحبّ ولا الشوق ولا حتى الحنين ما يحركني، وإنما خوفٌ عميقٌ من الندم يقبّع في أغوار لا وعيي.

بعدَ ما حكّ يديه ببعضهما في توثر، التفت إليّ، وابتسمَ عنوةً، ثم قالَ بسخرية: «أهلاً وسهلاً لالة شهرزاد». كنتُ في تلك اللحظة أُمّرُ بصري على البيت وأشياءه التي لم تتغيّر. تطلّعتُ إلى وجهه، ورأيتُ حبات عرقٍ على جبهته وانكساراً في عينيه. قلتُ بطريقةٍ رسميةٍ جداً «شكراً لأنك استقبلتني، أردتُ فقط أن تتحدّث قليلاً»، ولم أعرف من أين خرجت هذه الجملة، لأنها لا تعني أيّ شيء، ولا تعبرُ أبداً عن أيّ شيء يحدثُ في داخلي.

بعد أن قلتُ جملتي تلك، عدّلتُ جلستَه مائلاً نحو الأمام قليلاً، واضعاً مرفقيه على ساقيه، ودعكُ كفيه ببعضهما في حركةٍ سريعة، ثم تطلّع إليّ بالابتسامة نفسها كأنه ينتظرني أن أخبره سببَ مجيئي. أشعرتني طريقة جلوسه بالتوتر، وحاولتُ أن أبقى مستقيمة الظهر ورسمية. قلتُ بسرعة: «أردتُ أن نتحدّث فقط»، وانكفأتُ على نفسي غير قادرةٍ على قولِ أيِّ شيءٍ آخر.

اختفت ابتسامته فجأةً كأنها لم تكن هناك، وقال بنبرةٍ غاضبةٍ ومرتبكة: - نتحدّث؟ عمّاذا؟

أردتُ أن أقول له «عن انفصالنا»، لكنني فكّرتُ لماذا يحتاج اثنان للحديث عن انفصالهما، ما داما قد انفصلا وانتهى الأمر. واصل:

- آه، صحيح، لدينا الكثير لنتحدّث عنه، مثلاً الاستدعاء الذي وصلني قبل أيام. لماذا لم تخبريني أنك تريدان الطلاق؟ هل تظنين أنني كنتُ سأرفض وأصرّ على البقاء معك إذا كنت لا تريدني؟
تجمّع الكبرياء كلّهُ الذي بداخلي، وصعد إلى السطح مثل بركان يوشك على الانفجار، وسألتُهُ:

- ألم تكن تعرف أنني أريد الطلاق؟

قال في غضب:

- لماذا جئتِ إلى هنا؟ قولي بسرعة ما الذي تريدني!

سقطت حقيبتني على الأرض، وحين حاولتُ التقاطها، لمحتُ بالمصادفة صدري النافر الذي سيصبح مثل صدر أمي بعد زمنٍ قصير إذا بقيتُ أتصرّف على هذا النحو، ثم تذكرتُ السبب المباشر الذي قادني

إلى بيت سَعد. كَبَحْتُ غَضْبِي، ورسمْتُ ابتسامةً على وجهي أحسستها زائفةً جدًّا. نظرَ سَعد إلى صدري أيضاً، لكن، بحياد، كأنه ينظرُ إلى كرسيٍّ أو إلى طاولة وليس إلى صدر المرأة التي قال إنه أحبُّها يوماً. ومع ذلك، شعرتُ بالإحراج، ونسيْتُ كلَّ ما كنَّا نقوله. ارتسمت على شفتيَّ ابتسامةً جانبية، تنطُّ منها السخرية والشفقة، وقال بهدوءٍ هذه المرَّة وبأسف:

- ما الذي حدث لك؟ لم تكوني هكذا أبداً.

- ما الذي تقصده؟

نظرَ إلى جسدي بسخرية وقال:

أصبحتِ سمينَةً جدًّا، يا شهرزاد، ومُزعِجَةً جدًّا جدًّا، ومثيرةً للشفقة. حاولتُ أن أخفيَ غضبي وعدم ثقتي بنفسي، وأردتُ أن أظاهر باللامبالاة، لكنني قُلْتُ بِجِدَّة:

- مشكلتكم، أتمم الرجال، أنكم تحاولون أن تفصلوا النساء على مقاساتكم، ثم ينتهي بكم المطاف وحيدين وغير قادرين على إعداد حتَّى بيضة!

قال بهدوءٍ وبنفاد صبر هذه المرَّة:

- أرجوك، يا شهرزاد، لا أريدُ أن أتجادل! قلولي ماذا تريدان بسرعة!

- يجبُ أن تعلم أنني لا أهتمُّ لشكلي الخارجي ما دمتُ جميلةً من الداخل!

أطال النظرَ فيَّ بطريقةٍ أشعرتني بسخافةِ الجملة التي تفوَّهتُ بها، ثم قال وهو ينهض:

- شاي أو قهوة؟

جررتُ شريطي فستانني إلى فوق لأُخبِّي صدري البارز، وقُلْتُ:

- شاي!

قال دون أن يلتفت إليّ:

- لديّ قهوة فقط للأسف.

حين اختفى في المطبخ، تطلّعتُ أخيراً إلى البيت، زاويةً زاوية. كانت هناك ملابس مرمية في كلِّ مكان، على الأريكة وفوق المنضدة، وأخرى معلّقة على الأبواب. انتبهُتُ إلى ثُبَّانٍ رَجَالِي مَرْمِيٍّ على الأرض قُربَ منضدة جهاز التسجيل القديم، وأكوامٍ من ورقِ التواليت، ووعاء فضلاتِ شمشون الذي لم يُنظَفْ، وعُلبَة برغر ماكدونالد فارغة، وقنينة كتشاب، وكتاب فوق الطاولة، ومنفضة سجائر مملوءة بالأعقاب. حتّى طاولة الصالون كانت مغبرة، وعليها آثار كتشاب ومايونيز قديمة. لم يكن هناك أيّ شيء أندم عليه في الواقع. سحبتُ شريطي فستاني إلى أعلى مرّة أخرى، لأعطي صدري، ثم رحتُ أراقبُ المطرَ الغزير من النافذة.

بعد دقائق، سمعتُ شبشب سَعد البلاستيكي وهو يحتكّ مع الأرض، وقرقعة الفناجين على الطاولة. استدرتُ ورأيتُهُ يمسح الطاولة بمنديل مبلّل، عليه آثار كركم فاقعة. ابتسمتُ له في صفاء، وبادلني الابتسامة نفسها. كأنّ كليّنا كان مستسلماً لقدّر ليست لنا أيّ يدٍ فيه. شعرتُ بالبرد حين رأيتُ ابتسامته، وارتديتُ معطفي. جلّستُ إلى جانبي دون أن يتوقّف عن الابتسام، والتقطَ الكتاب الذي على الطاولة، وراح يقلّب صفحاته بسرعة كأنه يهرب من شيء ما، أو كأنه ينتظرني لأقول شيئاً. كان هناك جوٌّ ثقيلٌ وخانق من الانتظار جعلَ عقلي ينقسم إلى نصفين: النصف الأوّل يقول لي أن أذهب الآن، لأنّ الكلام انتهى، ولم يعد هناك شيءٌ نتحدّث فيه، والنصف الثاني يُلحّ عليّ بالبقاء، على الأقلّ لشرب القهوة التي أعدّها، لأنّه ما دام قد أعدّ القهوة، فإنّه يريد الحديث.

وبينما كنا نشرب القهوة في صمت، تذكّرتُ اليوم الذي اشتريتُ فيه هذه الفناجين، قبل زواجنا بأيّام. رأيتُ نفسي في تلك الذكرى مثل شبح،

مثل شخصٍ آخر لا أعرفه. وكنتُ قد تغيّرتُ لدرجةٍ أنني لم أستطع حتّى استحضار طعم المشاعر التي كانت تهيم في داخلي لحظة شراء الفناجين، تماماً مثلما نسيْتُ ملامح أبي التي غيّبها الموت.

كان سَعد ما يزال يقلّب صفحات ذلك الكتاب الذي لم أعد أذكر عنوانه، حينَ قرّرتُ أن أتكلّم. استجمعتُ شجاعتي، وقُلْتُ بمرح:
- أين ذلك القبيح الأعور؟ لقد اشتقتُ إليه كثيراً.

رفع رأسه نحوي وقد توقّف عن تقليب صفحات الكتاب، كأنه لم يَكن يتوقّع أن أسأله هذا السؤال، ثمّ رمقني بنظرةٍ قصيرةٍ ممتلئة بالحزن والعتاب. ظلّ جامداً في مكانه لبرهة وهو يحدّق في الفراغ، ثمّ أدخل يده في جيبه وأخرج علبة سجائر. أشعلَ سيجارةً وسَحَبَ نَفْساً عميقاً إلى الداخل كأنّما ليحرق شيئاً مؤلماً قابعاً هناك. تغلّب نصفُ عقلي الذي يريد الرحيل على النصف الثاني، لكنني لم أستطع النهوض. فكّرتُ أنه ربّما يريدني أن أقول شيئاً آخر أكثر جدّيّة. أطلقتُ ضحكةً خفيفة لتلطيف الأجواء وقُلْتُ:

- هل ضاع مرّةً أخرى؟

سَحَبَ نَفْساً آخر من السيجارة، وقال:

- شمشون مات، يا شهرزاد.

ضحكتُ.

- تمرّح؟

أطرق رأسه، وأضاف دون أن ينظر إليّ:

- قبل شهرين عاد إلى البيت مريضاً، توجّه إلى تلك المنضدة بخطواتٍ متثاقلة، واستلقى بقرنها، ثمّ راح يتقيأ أمعاءه. سألتُه ما الذي حصل؟ ومَن الذي فعّل بك هذا؟ لكنّه لم يردّ.

نظر إليّ وأضاف:

- تعذَّب كثيراً قبل أن يموت.

ضغط عليّ حزنٌ عميق، وبدأ قلبي ينبض بقوة، ولم أعرف ماذا أقول في وضع كهذا. مثَّل وجه شمشون في ذاكرتي واضحاً بشكلٍ مؤلم، ولم أستطع أن أمنع عقلي من تخيُّله وهو يتقيأ أمعاءه.

- توقَّف عن وصف ذلك!

رفع رأسه وحدِّق في عينيّ وقال:

- أعرف أنك لا تهتمِّين، وأنك لم تحبِّه يوماً.

- الأمر ليس متعلّقاً بالاهتمام! ما الذي سيتغيَّر إذا سمعتُ هذه
الفضاعة؟

لم يردِّ. صَبَّ لي مزيداً من القهوة. فهمتُ أنه لم يعد يريد الخوض في هذا الموضوع، وشعرتُ بطاقة ألم كبيرة جاثمة على المكان. أردتُ أن أعانقه لأعزِّيه، أن أضع رأسه في صدري، وأمسده، مثلما تفعل الأمهاتُ مع أطفالهنَّ الحزاني حين يشعرنَّ بالعجز عن ابتلاع حزنهنَّ. لكنني لم أفعل أيَّ شيءٍ من هذا، ووجدتُ نفسي أسأله بدَل ذلك:

- مَنْ قتله؟

قال بيقينٍ مطلق:

- سمَّه الجيران.

سَكَتُ، وفهم من نظرتي أنني أريد أن أعرف مَنْ مِنَ الجيران ارتكب هذه الجريمة الشنعاء في حقِّ قطِّ مسكين. أخبرني بكثيرٍ من الغضب والحقد أن نعيمة التي تسكنُ قبالتها هي مَنْ فعلت هذا. قال إنَّها لم تكتفِ بمراقبتها له وسبِّه واغتيابه، بل إنَّها طلبت من حارس العمارة مؤخراً أن يُبلغها إذا جاء أيُّ شخصٍ ليزوره. قال إنه متأكّد أنها هي التي قتلته. ظللتُ أردّد طيلة

الحديث أنني لا أصدّق كيف يمكن لإنسان أن يقتل حيواناً بريئاً بدون أيّ سبب. وحين انتهى سعد من سرد قصّته، صمتنا معاً.

في أثناء صمتنا، فكّرتُ في النهوض والذهاب أكثر من مرّة، لكنني لم أنهض. فكّرتُ في أن أخبره قصّتي مع نجوى منذ البداية، ما دمنا الآن قد انفصلنا، ولم يعد الكبرياء يسود علاقتنا، لكنني لم أفعل. فكّرتُ في أن أسأله عن روايته، لأنني لم أسمع بصدورها، لكنني خفتُ أن أرحم مشاعره، خاصّة في تلك اللحظة التي كان يبدو فيها هشّاً بشكلٍ لا يُصدّق. كان يدخّن سيجارة تلو أخرى، ويشرب القهوة بنهم، وكانت أعيننا تلتقي وسط ذلك الصمت الثقيل، كأننا غريبان يحاولان أن يكونا لبقين.

سألني:

- كيف حال ندى؟ هل تلتقيان؟

قلتُ باقتضاب:

- لم نلتقٍ خارج أوقاتِ العمل منذ وقتٍ طويل.

قال بدهشة:

- ألم تكونا صديقتين مقرّبتين؟

- بلى، وما زلتُ أحبّها كثيراً. أظنُّ فقط أننا تطوّرنا في طريقتين مختلفتين تماماً.

ساد الصمت مرّة أخرى، وحين قرّرتُ أن أنهض فعلاً للذهاب، قال:

- قابلتُ نجوى قبل شهرين.

هبّت فجأة ريحٌ قوية حرّكت الستارة، وارتجف قلبي. كان المطر قد توقّف عن الهطول.

تابع بحنين:

- راسلْتُها حين مات شمشون، وجاءت إلى هنا.

أصبح الجوُّ في الغرفة خائفاً، وشعرتُ كما لو أنَّ نجوى موجودةٌ بيننا.
أشارَ سَعد إلى وعاءِ فضلاتِ شمشون الفارغ، وتابع:

- توجَّهتُ إلى ذلك الوعاء، وارتمتُ قرْنَه على الأرض، وراحت تبكي.

قُلْتُ محاولةً كبح غَيْرَتِي:

- لماذا تخبرني بهذا؟

قال:

- لماذا تتحدَّثين بهذه العدائية؟

قُلْتُ:

- أيَّ عدائية؟ في ماذا يهْمَنِي أنها جاءت وارتمت قربَ ذلك الوعاء
لتبكي؟ ماذا سأستفيد من هذا الكلام؟

- يا لكِ من إنسانة حقودة!

- لماذا سأحقد عليها؟ أنا لا أعرفُها أصلاً!

أطلق ضحكةً ساخرةً قصيرة.

- واضحٌ جداً أنك لا تعرفينها، لذلك ذهبتِ وسكنتِ قبالةَ بيتها.

- هراء! أيَّ بيت؟ أنا لا أعرف بيتها!

قال بثقة:

- هي أخبرتني أنك تطلِّين عليها من نافذتِكَ يومياً. كان واضحاً أنها
منزعجةٌ من سلوككِ، لكنّها، مع ذلك، لم تقلْ أيَّ شيءٍ سيِّئٍ عنكِ. قالت
ربّما تكون تلك الفتاة المسكينة مريضة. لماذا بحقّ الجحيم تطلِّين عليها؟
هل جُننتِ؟

قُلْتُ بعصية:

- قُلْتُ لَكَ إِنِّي لَا أَعْرِفُ بَيْتَهَا، وَلَا أَعْرِفُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ مَنْ تَكُونُ.

- لَكِنَّهَا تَعْرِفُكَ.

نهضتُ، لكنْ، ليس للذهاب، وإنما للدخول إلى الحمام. إذ لم يكن عليّ الرحيل في تلك اللحظة، بل كان عليّ الدفاع عن نفسي حتّى آخر رمق، حتّى ولو كنتُ مخطئة، حتّى ولو لم يكن لديّ أيّ شيء أدافع به عن نفسي. قُلْتُ:

- سأعود لنُكَمِّلَ حديثنا، لأنني لا أستطيع أن أسمح بأن يقول عني أحدُ إنني فضولية مجنونة!

مشيتُ إلى الحمام متمائلةً بذلك الحذاء المؤلم وأنا أتخيّل أنني أهرب، ليس من هذا البيت، وإنما من نفسي، من جسدي الثقيل، ومن عقلي المريض. أردتُ أن أموت، لكنني لم أستطع بالرغم من تخيّلِي ذلك بعمق. تخيلتُ أنني أرمي نفسي من النافذة. تخيلتُ أنني لم آتِ إلى هنا، وأنني لم أسمع هذا الكلام، وأنّ هذا كلّهُ لم يحدث.

أقفلتُ باب الحمام، وأنزلتُ بُبَّاني وأنا أفكّر في ما سأقوله له. كان وجهي ساخناً، وقطرات العرق تتصبّبُ من جبهتي وتسقط على فخذي. كنتُ محمومة. سأقول له إنها كانت مصادفة، وإنّ نجوى هي المجنونة، لأنها ظنّت نفسها شيئاً يستحقّ أن يُنظر إليه بفضول، لأنها ظنّت أن حياتها مهمّةٌ إلى تلك الدرجة. ليس لديّ أيّ سببٍ يجعلني أطلّ عليها، ولديّ أشياء كثيرةٌ عليّ القيام بها، وليس لديّ الوقت للإطلال على امرأةٍ سخيّةٍ وفارغةٍ كهذه. أنا لستُ مجنونة.

قرّرتُ أيضاً وأنا أرفع بُبَّاني أنني لن أطلّ على نجوى أبداً، وأنني سأحذفها من قائمة أصدقائي على مواقع التواصل، بل سأحظرها حتّى لا أرى ولا

أسمع أيّ شيءٍ يتعلّق بها. قرّرتُ أن أغيرَ محلّ سكني، وأبتعد عن أحلام وعن كلّ شيءٍ يذكّرني بتلك المرأة، وبما فعلتهُ لأكون قريبةً منها. كان التفكير في هذه الأنبياء يجعلني أشعر بالقوّة والاطمئنان، كأنّ خيالي كان قادراً على إزالة القذارة الموجودة كلّها في حياتي الواقعية في رمشة عين، كأنه يكفي ألا أرى نجوى أمامي لتنسى هي وينسى الجميع أنني مجنونة بها. كنتُ مثل الأطفال الصغار حين يرغبون في ألا يروا، فيغلقوا أعينهم، ظانّين أنّ عدم رؤيتهم للآخرين سيجعلهم غير مرّيين أيضاً.

وفي اللحظة التي كنتُ أخطو فيها خارج الحمام، تخيلتُ نجوى تتعقّبني على مواقع التواصل الاجتماعي، وتطلّ عليّ من شرفة بيتها، وتُعجّب بي، وتشعرُ بالحسد، ثمّ تركضُ لتخبرَ سعداً عني. ماذا لو كان كلّ ما قالتهُ ناتجاً عن غيرة عميقة، لأنني تزوّجتُ الرجل الذي أرادت أن تتزوّجه، وعشتُ الحياة التي حلّمتُ أن تعيشها؟ ماذا لو كانت هي التي تتطلّع إلى حياتي بفضول وتلصّصُ عليّ وتودّ لو تلتقيني وتشاهدني من الزوايا والجهات كلّها؟

مشيتُ نحو الأريكة بإحساسٍ عميقٍ باللامبالاة. كأني انفصلتُ عن نفسي، أو كأني انتزعتُ كبريائي من داخلي، وقذفتُ به بعيداً، أو كأني صرتُ شخصاً آخر. حتّى إنني لم أتمايل في مشيتي بحذاء أمّي المؤلم، ولم أشعر بالإحراج، ولا بالحاجة إلى تفسير إلى أيّ شيء. مشيتُ بأناقة وثقة، كما تفعلُ نجوى تماماً، وجلستُ على الأريكة مستقيمة الظهر واضعةً رجلاً على رجل، ثمّ أخبرتُ سعداً أنني سبقَ وضبطتُ المرأة التي تسكن قبالي وهي تتعقّبني بنظراتها، لكنني لم أكن أعرف حينها أنها حبيبته السابقة نجوى.

أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلْتُهُ حِينَ وَصَلْتُ إِلَى الْبَيْتِ هُوَ أَنِّي مَسَحْتُ نَجْوَى مِنْ قَائِمَةِ أَصْدِقَائِي عَلَى فَيْسْبُوكَ، ثُمَّ حَظَرْتُهَا عَلَى إِنْسْتِغْرَامَ حَتَّى لَا أَجِدَ صَفْحَتَهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَرْغَبُ فِي التَّلَصُّصِ عَلَيْهَا. مَسَحْتُ رَقْمَ أَحْلَامَ أَيْضاً مِنْ هَاتِفِي، وَقَرَّرْتُ أَنِّي لَنْ أَرَاهَا أَبَداً. كُنْتُ قَدْ أَخَذْتُ قَرَارِي وَانْتَهَى الْأَمْرُ، وَلَمْ يَكُنْ أَيُّ شَيْءٍ لِيَقِفُ فِي وَجْهِهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. اسْتَلْقَيْتُ عَلَى الْأَرِيكَةِ وَأَنَا أَشْعُرُ أَنَّ ثِقَلًا قَدْ انْزَاحَ عَنْ كَاهِلِي، وَأَنَّ الْحِمَاقَاتِ كُلَّهَا الَّتِي اقْتَرَفْتُهَا بِسَبَبِ هَوَسِي بِنَجْوَى قَدْ مُحِيتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

فِي الْمَسَاءِ، سَحَبْتُ ذَلِكَ الصَّنَدُوقَ الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي جَمَعْتُهَا طِيلَةَ فَتْرَةِ هَوَسِي بِنَجْوَى. جَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ فِي غُرْفَةِ نَوْمِي، وَشَرَعْتُ فِي تَقْلِيلِهَا بَيْنَ يَدَيَّ وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا بِمَتْعَةٍ طِفْلَةٍ تَلْهُو بِالْعَابِهَا. لَا أَعْرِفُ لِمَاذَا كَانَ لِمُسْهَا يُشْعِرُنِي أَنِّي قَرِيبَةٌ مِنْ نَجْوَى، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ نَجْوَى لَمْ تَلْمَسْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ يَوْمًا. كُنْتُ أَدْخُلُ فِي حَالَةٍ لَذِيذَةٍ مِنَ الْانْفِصَالِ التَّامِّ عَنْ ذَاتِي حِينَ أَفَكِّرُ أَنِّي سَأَسْتَعْمَلُ هَذِهِ السَّدَادَاتِ الْقَطْنِيَّةَ يَوْمًا، أَوْ أَخْطُطُ لَارْتِدَاءِ هَذِهِ الْأَقْرَاطِ، أَوْ أَعِدُّ نَفْسِي بِوَضْعِ أَحْمَرِ الشَّفَاهِ وَكَرِيمَاتِ تَجْعِيدِ الشَّعْرِ، فَلَا أَعُودُ أَشْعُرُ بِلَحْمِي وَنَدُوبِهِ، وَلَا بِعَقْلِي وَآلَامِهِ. حِينَ فَكَّرْتُ أَنَّ عَلَيَّ الْإِقَاءَ كُلِّ شَيْءٍ بَعِيداً لَأَنْجُو وَأَسْفَى، شَعَرْتُ بِخَوْفٍ عَمِيقٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنِّي كُنْتُ أُخَرِّنُ أَشْيَاءَ بَلَا مَعْنَى لِأَنْسَى تَارِيخِي وَذِكْرِيَاتِي وَأَتَخَلَّصَ مِنَ الْجُرُوحِ الَّتِي خَرَّنَهَا جَسْدي طِيلَةَ سِنَوَاتِ حَيَاتِي.

كنتُ أظنُّ أن امتلاكَ هذه الأشياءِ واستعمالها سيجعلُ مِنِّي امرأةً أخرى غير المرأةِ التي أنا عليها اليوم.

كان الخوفُ ينبِضُ في داخلي ساخناً، فيُذيب أحشائي، وكانت قدماي غير قادرتين على التقدمِ إلى الأمام، لكنني جرَّرتُ الصندوق إلى المطبخ. سَحَبْتُ مقصاً وولاعةً من درج الخزانة، ورحتُ أُمِرِّق السوتياناتِ والتيشيرتات بالمقصِّ، وأشجَّها بيديَّ وأسناني، ثمَّ أرميها قربي على الأرض. جرَّشتُ أنابيب أحمر الشفاه في حوض الغسيل، وأرقتُ أطلية الأظافر وكريمات تجعيد الشعر، مُهرِّقةً عليها الماء لتختفي. أحرقتُ عُلَب السدَّاداتِ القطنية، فارتفع دخان كثيفٌ وخانق. كنتُ أفعل ذلك بهدوء في البداية، لكن، مع كلِّ عمليةِ تمزيق وجرش وسكب وتحطيم وإحراق، كنتُ أشعرُ بجسدي يخفق ويهترُّ بشكلٍ لا إرادي، وبرأسي يرتعش. وكلِّما قَفَقَفَ رأسي وجسدي، كنتُ أرغبُ في التحطيم أكثر. كنتُ أقذفُ قناني أطلية الأظافر الزجاجية على الأرض بعنف، وحين لا تنكسر، أعودُ فأقذفُها من جديد بقوة أكبر. كسرتُ ذلك الفنجان الذي يحتوي على صورة لُقُبلة كلِمت. قذفتهُ أرضاً بشدَّةٍ وبحِقدٍ وبرغبةٍ عميقةٍ في التدمير. سحبتُ سكيناً حادَّةً من الدرج بيديَّين مرتجفتين، ورحتُ أغرزه في حقائب غوتشي المقلَّدة كأنني أغرزه في بطنِ إنسانٍ أمقتهُ. وبين كلِّ غُرْزةٍ وأخرى، كنتُ أشهقُ بعمق وأنا أستجمع قوَّتي، ثمَّ أهبطُ بالسَّكين على الحقيبة من جديد. قتلتُ تلك الحقائب كلَّها. قتلتُها بغضبٍ وبدمٍ ساخن، وقتلتُ معها رغبتِي في امتلاك الأشياء التي يملكُها الآخرون. كنتُ مثل وحش، في حالةٍ بدائيةٍ من الخوف والغضب والجوع. كنتُ خائفةً ممَّا صرْتُ عليه، خائفةً من الجنون، مِن أن أصبح شخصاً آخر غير ما حلَّمتُ بأن أصيره. وكان لذلك الخوف صوتٌ مُدوّ. يعوي ويزمجر في الداخل. أبقرُ الحقائب في غضب، حقيبةً تلوَ أخرى، وأقطعُها إزباً إزباً، بالسَّكين، وأُكمِلُ التمزيق

بيدَيَّ وأسناني لأُسكِتَ ذلك العواء العميق، ثمَّ أصرخ لأُخرِجه قاذفةً بقايا
الحقائب والأحذية ذات الكعوب العالية على الأرض كالمسعورة.

في البداية، كنتُ أفعلُ ذلك بوعي، لكنَّ الصراخ والعيول والتكسير
والإحراق جعلاني أفقدُ تدريبياً إدراكي لجسدي وإحساسي بالزمن والمكان.
كنتُ مثل مسكونةٍ تحاول إخراج الجنِّ الذي بداخلها للإفلات من عذابها.
حين استعدتُ وعيي، فتحتُ النوافذ للتخلُّص من رائحة الحريق. كان
شُعري منفوشاً، ونهدي الأيمن متدلياً من السوتيان، وظفر إبهامي مكسوراً،
وكفِّي مجروحة، لكنَّ رأسي كان خفيفاً. كنتُ قد تحرَّرتُ من جنِّي الغضب
الذي كان يسكنني. تنفَّستُ بعمق، ثمَّ تفقَّدتُ هاتفي، لتأكَّد أنني لم
أكسره أيضاً. كانت هناك رسالةٌ من رَقْم أحلام على الوتساب تقترح عليَّ
أن نلتقي مع نجوى نهاية الأسبوع القادم.

مضتُ بداية الأسبوع الأول بعد حصّة الغضب دون أن أُطلّ من نافذة بيتي أبداً. كنتُ أذهبُ إلى العمل صباحاً وأعيش وأتصرّف كما لو أنني لم أعرفِ نجوى أو أسمع عنها، كما لو أنني لم أقترفِ أيّ ذنبٍ طيلة العامَيْن الأخيرَيْن من حياتي، كما لو أنني عِشتُ حياةً طبيعية.

تناولتُ الغداء مرّتين مع ندى. في المرّة الأولى تناولنا سندويتشين باردَيْن بصمتٍ في مكّتي، وفي المرّة الثانية، قرّرنا الذهاب إلى مطعمٍ قريبٍ لتناول الكسكس. بعدما تناولتُ ملعقتَيْن، مالت ندى على الطاولة وأخبرتني بصوتٍ خافت أنها وجدت رجلاً. وجدت وليس التقت. وأنه يعمل مهندساً معمارياً، وله إلامٌ واسع بالكتب والأدب. أرّنتي صورته على الهاتف ثمّ قالت:

- ليس وسيماً، لكنّه طيّبٌ جداً جداً ويحبّني. سيخطبني الشهر المقبل، وسنتروّج في أقرب وقت.

- مبروك.

أخذتُ نفساً عميقاً، ثمّ أضافت:

- سأخلع هذا التورّبان مباشرةً بعد الزواج، وسأعيش حياتي كما أشاء. تأملتُها باستغراب.

- ما بك؟ عندما سأتروّج لن يكون أبي مسؤولاً عني، بل زوجي. لا أحد سيستطيع أن يفتح فمه إذا أراد زوجي أن أخلع الحجاب!

مدّت يدها ووضعتها فوق يدي على الطاولة، وقالت كأنّها تفشي لي سرّاً خطيراً:

- أنا لا أُحبه. لا أقصد أنني لا أُحبه أبداً، بل لا أُحبه كثيراً، ليس كما يحبني هو. لكنّ ذلك كلّه لا يهمّ، ما دام هو يحبني ويريد أن يجعلني سعيدة. هل تريدان أن أخبركِ لماذا لم ينجح الأمر مع سعد؟

نبّض قلبي واهتزّت معدتي. شعرتُ أنّ ندى تعرف قصّتي مع نجوى، لكنني لم أنبس بكلمة. هزّزتُ رأسي وفتحتُ عينيّ في فضولٍ مصطنع لتقول لي السبب.

قالت بصوتٍ مرتفع هذه المرأة وبنبرةٍ واثقة كمن توصّلت إلى جوهر الحقيقة:

- لأنّكِ أحبّيته أكثر ممّا أحبّكِ. اسمعي، يا شهرزاد، يمكنكِ أن تحبّي كما تشائين، فذلك قلبٌ وليس حجراً، لكنّ، تزوّجي ممّن يحبّكِ وليس ممّن تحبّينه.

- كيف أستطيع العيش مع شخصٍ لا أُحبه؟

قالت:

- صدّقيني، يا شهرزاد، إنّ المرأة عندما تحبّ، تصبح مستعدّة للقيام بأيّ شيء من أجل الرجل والبقاء إلى جانبه. الرجال يشعرون بذلك، لذلك يتوقّفون عن بذل مجهودٍ لأجلهنّ.

- لكنّ، لا علاقة لهذا الموضوع بالحبّ!

قاطعتني:

- أرجوكِ، يا شهرزاد، لا تفهميني خطأ. ولكنّ، ماذا فعل سعد من أجلكِ؟ إنه لم يشترِ لكِ حتّى قنينة عطر!

- أهذا ما تعنيه بالحبّ؟!

- لا تغضبي، أرجوك، لم أقصد أبداً أن زوجك لم يكن يحبك. سامحيني. لكنّ الرجل نفسه قد يبذل مجهوداً كبيراً من أجل امرأة، وقد يُهمِل امرأةً أخرى بالرغم من أنه أحبّ الاثنين.

- زوجي السابق!

كنتُ أخشى أن تخوض في موضوع نجوى، فغيّرتُ الموضوع، ورحنا نتحدّث عن العمل حتّى انتهينا من تناول الغداء.

وفي أثناء شربنا القهوة في المكتب، دخلت ندى إلى الفيسبوك، وأرّنتني صورةً حديثةً لأحلام ونجوى، وقرأت عليّ تعليق أحلام على الصورة بنبرة هازئة: - «وأخيراً، التقينا أنا وصديقتي الحلوة»!

ضحكتُ.

قالت:

- لم أر في حياتي أكثر نفاقاً من هاتين المرأتين! إنهما تخبئان وجهين، وتُظهران للعالم وجهين آخرين مختلفين تماماً. هل تعلمين أنّ بعضهما يغتاب بعضاً وأنّ كلّ واحدةٍ منهما قالت عن الأخرى أشياء لا تصدّق؟

كنتُ أشعر بالفضول لأسألها ماذا قالتا، لكنني تحكّمتُ في نفسي.

- مَنْ من البشر لم يغتب أحداً؟ النفاق جزءٌ مهمٌّ من حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية.

قالت بعصبية:

- لكنّ هاتين المرأتين غير مضطربتين إلى ذلك!

شربتُ من قهوتي. راحت ندى تتفرّج على الصور من جديد.

- خاصّة هذه الخريّة نجوى، يا إلهي، كم تُزعجني حركاتها!

ضحكتُ، لكنني لم أذمّ نجوى ولم أقل أيّ شيءٍ دفاعاً عن أحلام. كنتُ أشعر بالراحة لأنني استطعتُ ردّع نفسي، وظننتُ أنني شُفيتُ. شربتُ قهوتي في هدوءٍ وعُدتُ للعمل وأنا في حالة تركيزٍ تامّة، لم أعش مثلها منذ سنتين.

أمضيتُ الأيام التالية أعمل بتركيز وإتقان عندما أكون في المكتب، وحين أعود إلى البيت، لم أكن أرفع رأسي أبداً ناحية شقّة نجوى، ولا كنتُ أطل عليها من النافذة. البقاء في البيت دون الإطلال على حياة نجوى عبر النوافذ والسوشال ميديا منحني وقتاً إضافياً، فبدأتُ في وضع مخطّطٍ لروايتي الأولى. كنتُ مستمتعةً بالعمل، لدرجة أنني صدّقتُ أنّ هوسي بنجوى قد تبدّد، وأني قد شُفيتُ من هذا المرض الذي جعل حياتي تافهةً طيلة سنتين ووضعتني في مواقف محرّجة. لكن، بمجرد أن وصل يوم الجمعة، واقترب موعد لقائي بنجوى وأحلام، حتّى بدأتُ أشعر باضطراب في معدتي. أحياناً، كان يأتيني ذلك الاضطراب على شكل نبضٍ قويٍّ، وأحياناً مثل ريحٍ عاتية تهبّ في مكانٍ خاوٍ. حتّى محاولاتي للتأمّل والتنفّس عميقاً لم تُجد. قضيتُ اليوم أمشي ذهاباً وإياباً في مكتبي، ثمّ أجلس وأسند ظهري إلى الكرسيّ وأغمضُ عينيّ وأحاول التفكير في مسار حياتي وتطوّري من بداية اشتغال ذاكرتي حتّى الآن. أراجع الأخطاء التي ارتكبتها والأزمات التي مررتُ منها والخيارات التي اتخذتها واللحظات الجميلة التي عشتها، وأفكر أنّ الألم لا يذهب هباءً، بل يتحوّل إلى طاقةٍ قويةٍ تصقلنا وتصنعُ منّا نسخاً أفضل من أنفسنا. ومع ذلك، لم يرُل ذلك الطرُق الذي في معدتي، ولم تهدأ تلك الرياح.

بعثت لي أختي نُهى رسالةً على الوتساب تطلّب منّي الذهاب لزيارتها، لأنها حضّرت الكسكس للعشاء. كانت قد انتقلت إلى بيت زوجها، لكنني لم أرّها هناك يوماً، ولم أعرف أخبارها منذ ذلك الوقت. فكّرتُ أن رؤيتها

قد تخفّف توتري واضطرابي. استقلتُ الباص للتوجّه إلى درب غُلف، لأنني أفلستُ بسبب إيجاري الباهظ بما يكفي لئلا أركبَ سيّارة أجرة أبداً. نزلتُ في المحطّة، وفتحتُ موقع بيتِ أختي على خرائط غوغل، ثمّ سرتُ بين الأبنية ذات الأسوار المتّسخة والمصفّرة. وبينما أحاول قراءة أرقام الأبواب، فكّرتُ أن أبوح لأختي بتفاصيل قصّتي مع نجوى، وأخبرها بالآلام كلّها التي عانيتُ منها، وأشرح لها حالتي بالتفصيل. قرّرتُ ذلك.

كان بيتُها يقع في مبنى ذي طراز معماري جديد، لكنّ أسواره تبدو قديمة وباهتة وهشّة. وقرب نوافذه علّقت أطباق التقاط الأقمار الاصطناعية، وأحبال غسيل نُشرت عليها ملابس مختلفة الألوان. في الطابق الأرضي، كان هناك مطعمٌ للوجبات السريعة ممتلئ على آخره بالزبائن، وتنبعثُ منه رائحةٌ شاورما قوية ومُقرّفة. دفعتُ باب العمارة الحديديّ الصديّ، وصعدتُ الدرج الرطب والمظلم.

استقبلني زوجُ نهي عند فسحة الدرج قائلاً: «أهلاً وسهلاً». كانت أوّل مرّة أراه فيها منذ يوم زواجه من أختي، ولم أكن قد انتبهتُ إلى كونه يبدو أكبر من عمره بكثير. كان وجهه ممتلئاً بالتجاعيد، لدرجة أن ملامحه امّحت وبهتت، وكان رأسه أصلع مثل رأس جدّي في السنوات الأخيرة من عمره. صافحته وتطلّعت وراءه. كانت تقفُ عند عتبة الباب امرأة ممتلئة قليلاً، على رأسها طرحة مزركشة مربوطة إلى الورا. كان وجهها شاحباً ومبتسماً، لدرجة لم أتعرف إليها منذ الوهلة الأولى. وحين نطقتُ اسمي، أدركتُ أنها أختي نهي. هذا مستحيل! لم يسبق لي أن رأيتُ وجه نهي بدون ماكياج حتّى الآن! كيف تحوّلت من امرأة تهتمّ بنفسها ومظهرها إلى امرأة ترتدي فستاناً منزلياً طويلاً وواسعاً، وتجمعُ شعْرها في طرحة؟ عانقتها. وحين فكّنا العناق، رأيتُ وجهها عن قرب. كان حاجباها باهتَيْن، وحولهما زغبٌ زائد، وكان لها شارب.

همستُ لها بمرح ونحن ندخل:

- ما هذا الشارب، يا نُهى؟

ردّت بالمرح نفسه:

- ماذا أفعل؟ سي شُعيب يحبّني هكذا!

حين اختفى بوشعيب في إحدى غُرَف البيت، سألتُها عن أحوالها، وإن كان زوجها يعاملها بشكلٍ جيّد. ضحكت، ثمّ تنفّست عميقاً وهي تقول:

- الله! أفضل شيءٍ حدّث لي هو أنني لم أعد أعيش مع أمّي في البيت نفسه، ولم أعد أرى جميلة.

لم يكن بيتُ نهى وزوجها في أحسن حالاته، ولم يكن يمتُّ بأيّ صلة للبيوت التي حلّمت نهى دائماً بالعيش فيها، لكنّه كان نظيفاً ومرتباً ولطيفاً. كنتُ سأسخرُ ممّا صارت عليه أختي بعد تلك العلاقات كلّها وذلك البحث المضني كلّهُ عن رجلٍ غنيّ، لولا أنّها تحوّلت من امرأةٍ صارمةٍ وجامدةٍ المشاعر إلى امرأةٍ مرحة. كانت تحدّثني عن حياتها وهي تمسك بيدي بين الفينة والأخرى بحنان. أخبرتني أنّها تركت صالون الحلاقة والتجميل منذ فترةٍ قصيرة، لتهتمّ ببيتها وزوجها، وأنّها تفكّر في إنجاب أطفال، وقالت إنّها فعلت ذلك بالضبط، لأنّ شعيب لم يطلب منها تركَ عملها من أجله. كانت سعيدةً بحياتها البسيطة إلى جانبه، بالرغم من أنّها لا تحبّه، وكنتُ قد فشلتُ في زواجي، بالرغم من أنه تمّ عن حبّ، لذلك لم أسمح لنفسي بالحكم عليها.

بعد تناولنا العشاء معاً، وخروج بوشعيب لتدخين سيجارته، اصطحبتني نُهى إلى المطبخ وراحت تحكي لي، وهي تغسل الأواني، عن جمال الحياة بدون حماة، وعن منافع الزواج من رجلٍ كبيرٍ في السنّ هدّته الحياة ولم تعد له قدرةٌ على إفساد حياة شريكته، ثمّ اقتررت منّي، وأمسكت بيدي وقالت إنّنا أختان ويجمعنا الدّم نفسه ولا ينبغي أن نفسد أخوتنا بسبب مشكلات أمّي النفسية. تأثّرتُ جداً حتّى شعرتُ أنني لا أقوى على الحركة. كم كانت نُهى تشبه أمّي في ردائها ذلك، بدون مساحيق تجميل ولا حاجبين مرتّبين!

في الليل، وبينما كانت تغسل الأواني، عانقتها للمرة الثانية وأنا أشعر بامتنان كبير. في الوقت نفسه، كنت خائفة أن تغير رأيها وتنعتني بالمجنونة إذا أنا حكيتُ لها قصة هوسي بنجوى، فقررتُ أن أرويها لها كما لو كانت قصة شخص آخر.

بعدما انتهيتُ من سرد قصة الفتاة المهووسة بحبيبة زوجها السابقة، وضعتُ نهي صحناً كان بيدها، وحدقتُ إليّ بعينين مندهشتين، ثم قالت: - لا بُدَّ أن هذه المسكينة فقدت عقلها! أعني، كيف يمكن أن تجعل الغيرة الواحد يرتكب هذه الحماقات كلها؟! قلتُ:

- المسألة ليست مسألة غيرة فقط، يا أختي. الموضوع أعقد من ذلك بكثير...

كانت تنظر إليّ كمن لم تفهم أي شيء.

- هذه مجنونة!

حاولتُ أن أبسط الأمور.

- لا، لا. لا يمكن أن نفسر كل شيء بالجنون، يا أختي. الفتاة لديها عقد منذ طفولتها. أقصد أن علاقتها بوالديها لم تكن جيدة، ولذلك كبرت الفتاة وهي غير واثقة من نفسها، وصارت تنظر إلى الآخرين، كما لو كانوا أفضل منها دائماً. هل فهمت؟

كان رأسها منحنياً إلى الأمام، وعينها اليمنى قد انغلقت قليلاً، بينما ظلَّت العين اليسرى مفتوحة ولا ترمش أبداً.

- لا، لم أفهم!

- حسناً، كيف يُكوّن الإنسانُ شخصيّته وثقته بنفسه وقوّته في مواجهة الحياة؟

- كيف؟

- من خلال التربية التي تلقّاها بطبيعة الحال، لكن، أيضاً من خلال علاقته بوالديه خلال طفولته. إذا لم يتلقَ الأطفالُ ما يكفي من الحبّ خلال الطفولة، وإذا عوملوا بطريقة سيئة، ينشؤون وهم غير قادرين على حبّ أنفسهم ... الثقة في النفس تنبع من حبّ النفس بشكلٍ أساس ...

كانت نُهى تنظرُ إلى حاجبيّ مضيقةً عينيّها. مسحَت يديها المبللتين في فستانها البيتي. سكتُ وقد حسبتُ أنّ بوجهي شيئاً. اقتربت منّي أكثر وهي تقول:

- حاجباك أشعثان جداً! تعالي أرّبهما لك. اتبعيني!

قالتا وخرجت من المطبخ بسرعة. تبعتهما في خيبة، لأنها لم تكن مهمّة حتّى بالقصة كقصّة. أخبرتني وهي ترتّب حاجبيّ بالمتعة القديمة نفسها أنّها اشتاقت إلى العمل وإلى صالون الحلاقة وصديقاتها من الكوافورات. قلتُ:

- لماذا لا تعودين إذن؟

قالت وهي مركّزة في تنفّ الشعيرات الرفيعة على جبهتي:

- لا تتحرّكي! هناك أشياء لا يمكن العودة إليها، لأنها انتهت.

كانت حانة مارسيل سيردان في شارع رَحَّال المِسْكِينِي ممتلئة على آخرها عندما دخلنا. لم يشأ حارس الباب أن يُدْخِلنا في بداية الأمر، بحجة أنه ليس هناك رجلٌ برافِقنا، لكنَّ أحلام وضعت في يده ورقة نقدية بخفةٍ ومهارة مَنْ تعودت على الأمر، فأفسَح لنا الطريق ببساطة.

كانت نجوى جالسةً إلى إحدى الطاولات تتناول حَبَّاتِ لوز. وحين رأتنا، شربت من قِنِينَةِ بيرة أمامها بسرعة، ثم قفزت من الكرسي لتسلَّم علينا وهي تبتسم. كان الضوء الخافتُ المائل إلى الحمرة في المكان يخفِّف قليلاً من خجلي وإحراجي ويمنحني إحساساً أشبه بالشجاعة التي تكون لدينا في الأحلام. عانقتُ أحلامَ، في البداية، عناقاً حاراً وطويلاً، ثم مدَّت لي يدها وهي تقول بحماس:

- وأخيراً! أخبرتني عنك أحلام كثيراً!

كان وجهها ساحراً تحت الضوء الخافت للحنة. قُلْتُ لها في دُعاة ويدي ما تزال في يدها:

- أتمنّى أن تكون قد قالت أشياء جيّدة ...

ضحكت حتّى ظهرت أسنانها. قالت أحلام ضاحكة:

- قُلْتُ لها إِنَّكَ فتاةٌ مجنونةٌ ومهووسة ...

شعرتُ بالحرارة في إبْطِي وخلف أُذُنِي. أكملت:

- بالكتابة.

ثم انفجرت الاثنتان ضاحكتين في زيف. ضحكتُ معهما بقوة أيضاً. وقبل أن نجلس، نظرت إليّ نجوى مضيقة عينيهما، كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما:

- كأنني رأيتك في مكانٍ ما من قبل ...

صعد صوتي من حنجرتي بصعوبة، وقلتُ لأجعل الأمور تبدو طبيعية:

- صحيح، لقد التقينا من قبل في حدثٍ أدبيٍّ ... وكنت أضفتني على فيسبوك ...

رَكَزَتِ النظرَ في وجهي بدهشة، كأنها لا تتذكر أيَّ شيءٍ على الإطلاق، وسألت:

- أنا أضفتك على فيسبوك؟

- نعم!

آه، فعلاً؟ ما اسمك الكامل؟ لا أذكر أنني رأيتك من قبل أبداً!

- لكنك قلتِ إنك تشعرين أنكِ رأيتني في مكانٍ ما ...

- نعم، لكن، ليس على فيسبوك! ما اسمك؟

تسارعت نبضات قلبي. خشيتُ أن أكون قد ارتكبتُ خطأ عندما كنتُ أتَلصَّصُ عليها. خشيتُ أن تكون فعلاً قد أخبرت سَعداً أنها رأيتني. تذكرتُ أنَّ أحلام موجودة، وأنها تعرف أننا جارتان.

- أظنُّ أننا نسكن في الرقاق نفسه ...

قالت في دُعاة مسمومة:

- تظنّين؟ إننا فعلاً نسكن في الرقاق نفسه، يا حبيبتي!

التفتت إلى أحلام وأضافت:

- ألم تخبركِ أحلام؟

جلسنا. قلتُ وأنا أتململُ في مكاني:

- أقصدُ أنني لم أركِ هناك أبداً.

أمسكتُ هاتفها ودخلتُ إلى فيسبوك.

- ما اسمكِ؟

- شهرزاد ... شهرزاد.

رفعت وجهها عن شاشة الهاتف، ونظرت إليّ في استغراب، ثم قالت

في مرج:

- آه فعلاً؟ لم أكن أعرف ذلك، ولم أتوقّع أبداً أن يكون اسمكِ شهرزاد!

انفجرت الاثنتان ضاحكتين مرّة أخرى، وضحكتُ معهما أيضاً. أضافت

بنبرة جدّية هذه المرّة:

- أقصد اسمكِ العائلي ... ما اسمكِ العائليّ؟

فكرتُ في العائلة، في الاسم العائلي، ولماذا يرغبُ الناس في أن

تكون لهم أسماء عائلية، وكيف تكون لهم أسماء عائلية، بينما لا تكون

لديهم أيّ عائلة أو تكون لديهم عائلة مجنونة مثل عائلتي. كانت نجوى

ما تزال تنظر إليّ.

قالت أحلام وهي تمضغ حبةً لوزٍ بلّدة:

- الراوي. اكتبني شهرزاد الراوي.

رَقَنْتِ نجوى الاسم في شريط البحث، ثم تطلّعت إليّ بنصف ابتسامة باهتة.

- آه، نحن صديقتان على فيسبوك، لكنني لم أقرأ لكِ أيّ شيء هنا أبداً.

- هذا لأنني لستُ نشيطةً جداً على السوشال ميديا.

نظرت إليّ باستغراب وقالت:

- آه، فعلاً؟

تذكّرتُ الساعاتِ كلّها التي قضيتها على مواقع التواصل الاجتماعي بسببها، لكنني قرّرتُ في تلك الليلة أن أنسى كلّ شيء وأن أبدأ حياةً جديدة في الغد. طلبنا - أحلام وأنا - بيرّتين أيضاً. كنتُ أريد أن أشرب الكحول لسببٍ واحد، هو أن أقتل التوتر الذي يقبّع في بطني مثل جنين غير مرغوب فيه.

- كيف حالكِ، يا شهرزاد؟

سألتني أحلام وهي تبسم بانتشاء. كنتُ أشربُ بسرعة حتّى أصل إلى تلك الحالة من الشجاعة والتصالح مع الذات والآخرين وأشعر أنني قادرة على القيام بمحادثة طبيعية. في الوقت نفسه، كنت أراقب نجوى وهي تتحدّث وتتضحك وتُرجع شَعْرَها المَجْعَد إلى الوراء كلّ دقيقة، كأنّها تريد أن ينتبه إليه الآخرون، ثمّ تشربُ من بيرتها بانتشاء ولذّة. أحياناً، كانت تلتفتُ إلى طاولةٍ قريبةٍ منّا، حيث يجلس ثلاثة شباب وسيمين - أو ربّما يبدون وسيمين بسبب الضوء الخافت وتأثير الكحول فقط - لكنني لم أستطع تميّز مَنْ تنظرُ إليه منهم بالضبط.

- هل هذه أوّل مرّة تذهبين فيها إلى بار، يا شهرزاد؟

سألتني نجوى هذه المرّة. كنّا قد وصلنا إلى حالة التناغم مع العالم

التي تسبق حالة السكر، وأجبتها بكلّ أريحية أنّ هذه المرة الثالثة أو الرابعة. قالت لي إنني حلوة جداً وبريئة جداً، وأردتُ بقوة أن أعانقها. بعد قليل، بدأنا نتحدّث عن الحبّ والرجال. كان لسانُ نجوى قد انفطرط، وغرورها قد تبدّد، فراحت تتحدّث عن علاقاتها الجنسية بطريقة جريئة وساخرة، وتسبّ الرجال والعالم، ثمّ تضحكُ بعد أن تتفوّه بكلّ لفظٍ بذِيءٍ بنشوة كبيرة. لم يكن قد سبق لي أن سمعتُ مثل تلك الكلمات تخرج من فم امرأة، لكنني شعرتُ بارتياحٍ كبير وأنا أسمعها، وردّدتُ اثنتين أو ثلاثة منها بسعادة طفلٍ مشاغب.

- كنتُ فقط أريدُ ألا أتناول عشاءي وحيدة، وكنتُ مغتمةً ومحتاجةً للحديث مع أحدهم. تزيّنتُ ولبستُ أجمل ما عندي، وعندما وصلتُ إلى المطعم، رأيتُ رجلاً لا يمتّ بأيّ صلة للصور التي شاهدتها على التطبيق. كان نحيلاً جداً، وقصير القامة جداً، ومهترئ الثياب، ورأسه جمجمة بدون لحم. أردتُ أن أهرب، ورحتُ أنظر يميناً وشمالاً متظاهراً بعدم رؤيته قبل أن أعود أدراجي، لكنّه هرع نحوي وهو يصيح باسمي بطريقةٍ محرّجة. حين مددتُ له يدي لأسلّم عليه، ارتمى عليّ وعانقني مقبلاً إيّاي من وجنتيّ، كأنه يعرفني منذ زمنٍ بعيد.

أشعلت أحلام سيجارة وهي تستمع إلى القصة بمتعة، وقالت ضاحكة:

- ابن العاهرة!

واصلت نجوى:

- لا يمكنني أن أصفَ لكما الرائحة التي انبعثت من فمه حين تكلم. إنها بالضبط مثل رائحة صندوق القمامة!

قلّتُ بدهشة:

- لا أعلم من أين يأتي بعض الرجال بهذه الثقة كُلِّها بالنَّفْس؟

قالت أحلام بلسانٍ ثَقِيل:

- إنها التَّربيةُ، يا عزيزتي. الذَّكْرُ في مجتمعنا كاملٌ لمجرّد أنه ذَكَرٌ،
والأنثى ناقصةٌ لمجرّد أنها أنثى. لذلك تبذل النساء مجهوداً مضاعفاً لتطوير
أنفسهنَّ حتّى يرضينَ المجتمع، أمّا الرجال، فيمنعهم ذلك الشعور بالكمال
من بذل أيّ مجهود.

وضعت نجوى قنينة البيرة على الطاولة بقوة، وقالت محتجة:

- لا أفهم لماذا تُدخلين الفيمينيزم في كلّ شيء وأي شيء! أرجوك،
دعينا نستمع، ولا تُفسدي علينا هذه اللحظات الجميلة!

قالت أحلام بحدة:

- ما هي مُشكِلتُك مع الفيمينيزم؟

- مُشكِلتِي أنه يحرمُني من حقوقي!

قالت أحلام بسخرية:

- الفيمينيزم يحرمُك من حقوقك؟ أيّ حقوق؟

قالت نجوى بتحدٍّ:

- عندما تطلبين منّي أن أدفع بالتساوي في مقهى أو مطعم حين أكون

في موعد مع رجل، فأنتِ تحرّمينني من حقوقي!

صاحت أحلام:

- كلامٌ فارغ!

- كلاماً! على الرجل أن يدفع، لأنني أدفع قبل ذلك عند الكوافور أضعاف

قيمة العشاء الذي سيدفعه!

- إذا كنتِ تترينين وتهتمين بنفسكِ من أجل الرجل، فهذه ليست مشكلة الفيمينيزم، يا عزيزتي، بل مشكلتك!
ردّت نجوى بسرعة:

- طبعاً أترين من أجل نفسي، لكنني حين أخرج في موعد مع رجل، فإنني أبذل مجهوداً مضاعفاً، وأدفع مبالغ مالية كبيرة في صالونات التجميل، لأكون في أحسن صورة، بينما يأتي هذا الرجل بالسروال الداخلي نفسه الذي كان يرتديه البارحة!

أشاحت أحلام بوجهها في عصبية، ثم قالت:

- إذا كنتِ تريدينه أن يتوقّف عن التعامل معكِ باعتباره صياداً، عليكِ التوقّف عن التصرف كأنكِ فريسة!

كنتُ أشعر بالتناغم والثقة بالنفس، لدرجة أنني لم أغضب بسبب كلام نجوى، ولم أشعر بالازدراء. كنتُ فقط أستمع إليهما وأنفجر ضاحكةً وأعلّق بين الحين والآخر بجملٍ قصيرة، لاتفق أو أعترض. لم أروِ لهما أيّ قصّة من قصص حياتي، ولا شعرتُ أصلاً أنّ لديّ قصّة مهمّة لأرويها. ذلك لأنّ القصّة كانت أمامي بلحمها وشحمها وشعرها المجعد. كنتُ أراقب حركات يديها، وأطيلُ النظر في وجهها وهي تتكلّم، وأحاول تميّز مَنْ تنظرُ إليه حين تلتفتُ إلى طاولة الشباب الوسيمين. كان أحدهم وهو شابٌ ذو شعرٍ كثيف وناعم، ينظرُ أيضاً بين الفينة والأخرى ناحية طاولتنا، لكنني لم أتميّز إلى مَنْ ينظرُ بيننا بالضبط.

عند الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل، كان الصخبُ قد بلغ مبلغه في الحانة، وكان الشباب في الطاولة المجاورة يردّدون مع نينا سيمون I am feeling good بنشوة وسعادة. روت لنا نجوى قصّة رجلٍ آخر التقته

في تطبيق التعارفِ نفسه. كان يعمل مهندسَ معلومات في أحد البنوك، وكان وسيماً ولطيفاً وطيب الرفقة، وأعجبها لدرجة أنها لم تكن تستطيع النوم من شدة التفكير فيه، إلى أن أخبرها بقصة الفتاة التي مسخها الله فأراً وهو يتطلع إلى عينيها بخوفٍ ورهبة. لم تُصدق في البداية أنه يؤمن بهذا النوع من الخرافات، وظنّت الأمر مجرد مزحةٍ ثقيلة، إلى أن قال لها: «ألم تري كيف سلط الله الأعاصير والفيضانات والتسوناميات على الكفار على مر التاريخ؟». في تلك اللحظة، تقول، تبخر الإعجاب كله، ورفعت اللذة، وجفّ الفرج. ثم صار الشاب الوسيم يبدو قطعة خِراء.

- لماذا يُصبح الرجال الذين أحببناهم مثل قطع خِراء مع مرور الزمن؟ توقفتُ عن النظر إلى وجه نجوى أخيراً، والتفتُ إلى أحلام ذات العينين اللتين ما تزالان تلمعان.

- سؤال وجوديٌّ عصيٌّ على فهم البشرية!

صاحت نجوى بسخرية، ثم راحت تضحك بعمق. هل تصبح النساء أيضاً مثل قطع براز في عيون الرجال بعد الانفصال؟ تساءلتُ وأنا أطلع إلى صور إديث بياف ومارسيل سيردان المعلقة على الجدران. في الواقع، كنتُ أريد أن أسأل أحلام ونجوى، لكنني سرحتُ في سعادة وجه إديث بياف التي يشوبها الحزن وهي قريبةٌ من حبيبها.

حكّت لنا نجوى قصةً ثالثة من قصصها الغريبة مع المواعدة، وتجنّشت كثيراً وهي ترويها، لكنني لم أعد أذكر مضمون القصة بسبب السكر. أذكرُ فقط أنني ذهبتُ بعدها مباشرة إلى الحمام. وحين كنتُ أمشي باتجاهه، تخيلتُ بعقلي السكران أنني أحكي لنجوى قصة هوسي بها، وأعترف لها بالحقيقة كلّها من البداية إلى النهاية، بل تخيلتها تفهمني وتعانقني وتسامحني على ما ارتكبته في حقّها وتطلبُ مني أن نفتح صفحة جديدة

نصير فيها صديقتين حميمتين. مرّت بعقلي مشاهدٌ نمشي فيها أنا وهي على الكورنيش جنباً إلى جنب، ونشربُ القهوة معاً، ويزور بعضنا الآخر في بيته. تخيلتُ أيضاً أننا نتبادل القُبْل، لكنني لم أشعر بأيّ اشتها. وفي الحمام، تبوّلتُ على هذه المشاهدِ كلّها.

حين خرجتُ من الحمام، ومشيتُ باتجاه طاولتنا، انتبهتُ إلى الشابّ ذي الشَّعرِ الكثيف والناعم الذي كان يتطلَّعُ ناحيتنا. تابَّعني بعينين ممتلئتين بالإعجاب حتّى جلستُ إلى الطاولة، ثمّ ابتسم لي وقد ظهرتْ غمّازةٌ على خدّه الأيمن. ثبَّتُ كاميرا قلبي وعقلي عليه، وتحول كلّ شيءٍ حولي إلى ضباب.

لا أذكر ممّا تبقى من السهرة سوى عيني الشابّ ولحيته الخفيفة وغمّارته وابتسامته، ثمّ غنائي مع داليدا C'était le temps des fleurs ونفاد الموسيقى إلى أعماقي، وفتاةٌ تقيّأت فوق إحدى الطاولات، وتفكيري في أنّ قصّة إديث بياف ومارسيل سيردان ما كانت لتكون جميلة لولا أنّ مارسيل ظلّ بعيداً عن إديث مثل حُلُم جميل. قلْتُ لنفسِي ربّما لو عاشا معاً وعرف بعضهما بعضاً حقّ المعرفة، لصار كلّ واحدٍ منهما يبدو للآخر مثل قطعة براز، بدون أيّ شكّ.

في الصباح، فتحتُ عينيّ في مكانٍ لا أعرفه. فكّرتُ في بداية الأمر أنني في غرفة الشابّ ذي الغمّازة الجميلة الذي لا أذكر حتّى اسمه. اهتزّ قلبي من الخوف، ونهضتُ من السرير بسرعة، ثمّ اندفعتُ خارج الغرفة. في البهو، كانت نجوى وأحلام جالستين مرتديّتين بيجامتين، تشربان القهوة وتحدّثان بصوتٍ شبه مهموس. إلى جانبيهما، يستلقي كلبٌ ضخّم غارق في نوم عميق. وحين انتبهتا لي، سكتتا وابتسمتا في اللحظة نفسها. لم

أَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أُطْرَحَ عَلَيْهِمَا أَيُّ سَوَّالٍ، فَقَدْ كَانَتْ نَظْرَاتِي تَنَمُّ عَلَى
أَنْنِي لَمْ أُعِدْ أَتَذَكَّرُ أَيُّ شَيْءٍ. قَالَتْ أَحْلَامُ:

- تَرْقِصِينَ جَيِّدًا، أَيُّهَا الْعَفْرِيتَةُ!

نَظَرْتُ إِلَى صَدِيقَتِهَا الْمُبْتَسِمَةِ وَغَمَرَتْهَا، ثُمَّ تَابَعْتُ:

- لَا تَقْلَقِي، لَمْ يَحْدِثْ أَيُّ شَيْءٍ. كُنْتُ فَقَطْ تَرِيدِينَ أَنْ تَنَامِي، فَأَخَذْنَاكِ
إِلَى الْبَيْتِ.

نَهَضَتْ نَجْوَى لِتُعِدَّ لِي الْقَهْوَةَ. ارْتَمَيْتُ قَرَبَ أَحْلَامٍ عَلَى الْأَرِيكَةِ
وَسَأَلْتُ:

- لَمْ يَحْدِثْ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ؟

ضَحَكْتَ أَحْلَامُ وَقَالَتْ بِمَكْرٍ:

- وَهَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَحْدِثَ شَيْءٌ آخَرُ؟

شَعُرْتُ بِصَدَاعٍ رَهِيْبٍ، فَانْكَفَأْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلَمْ أُسْتَطِعْ مِنَ الْإِحْرَاجِ
أَنْ أُطْرَحَ أَيُّ سَوَّالٍ آخَرَ.

قَالَتْ أَحْلَامُ:

- أَعْجَبْتِ بِشَابٍّ كَانَ يَجْلِسُ فِي الطَّائِلَةِ الْمَجَاوِرَةِ، وَذَهَبَتْ إِلَيْهِ،
وَطَلَبَتْ رَقْمَهُ، ثُمَّ عَدَتْ إِلَيْنَا مِنْ جَدِيدٍ، وَقَلْتُ بِسَعَادَةٍ إِنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى الْآنَ.
قُلْتُ:

- أَنَا فَعَلْتُ هَذَا؟ وَأَيُّ أَمْرٍ انْتَهَى؟

قَالَتْ بِمَرْحٍ:

- أَنْتِ وَحَدَكِ تَعْرِفِينَ. سَأَلْنَاكِ، لَكِنَّكِ رَفَضْتِ أَنْ تَجِيبِي وَقَلْتِ إِنَّهَا
قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ.

كانت هناك مرارة في فمي، مثل مرارة الانتهاء من قراءة قصة جميلة. صحيح أنني لم أكن أذكر ما الذي حدث بالفعل، لكن، كان لدي شعور عميق أن شيئاً جميلاً قد حدث. أسندت رأسي إلى الأريكة أمام شعاع شمس دافئة. الذاكرة انتقائية، لكن كل حدث عشناه، كل تفصيل صغير مررنا به، كل شعاع شمس سرى فوق جلدنا، كل قطرة مطر سقطت فوق بشرتنا، كل صورة شاهدناها، كل صوت تناهى إلى أسماعنا، تُغيّر شيئاً فينا، تتحدّ كلّها معاً لتصنّع منّا ما نحن عليه. ثمّة فعلاً شيء انتهى في داخلي، لكنني لا أذكر ماذا يكون بالضبط.

فتحت هاتفي لأنظر إلى الساعة، كانت هناك رسالة على الوتساب من شخص يُدعى مُراد، لكنني لم أقرأ إلا نصفها: «هل يمكن أن نرقص معاً مثلما ...»، لأنّ نجوى جاءت ومدّت لي كوبَ قهوة. تطلّعت وأنا أُمسك الكوب إلى بشرة يدها، وأدركت في ما يشبه الإلهام كم هي إنسانة عادية. - هل تريدان أن تأكّلي شيئاً؟ لديّ كرواسون ساخن ولذيذ اشتريته قبل قليل من المخبّرة.

كانت واقفة أمامي مباشرة، حاجبة عني نور الشمس القويّ، وحين تحرّكت، وقّع نظري على النافذة المغلقة للشقّة الواقعة في الطابق الثاني للبناء المقابل، فشعرتُ بشهية قوية لتناول الكرواسون. ابتسمتُ لها في صفاء، وشعرتُ بسكينة غريبة تتسلّل إلى جسدي. عرفتُ في الحال أنها سكينة العودة إلى المكان الأصلي: أنا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

طيلة الأيام التالية، لم أفكر في نجوى إلا نادراً، بل إنني لم أشعر بأيّ رغبة في الإطّلال عليها من النافذة. كنتُ مشغولةً في العمل على تنظيم لقاء أدبيّ لبلال المنصوري حول روايته الثالثة **وجع القلب**، وفي أوقات الفراغ، كنتُ أتبادل الرسائل مع مُراد على الوتساب. أعجّبتني لدرجة أنني كنتُ أضغطُ على صورة بروفايله في كلّ مرّة أتلقّى فيها رسالةً منه، وأنظرُ إليها مليّاً كأنني أنظر إلى تحفةٍ فنيّةٍ مذهِشةٍ.

تكمُنُ جاذبية الأشخاص غالباً في أشياء عصيّة على الفهم، وليس في حُسن وجوههم ولا في مدى استجابة أجسادهم لمعايير الجمال المعروفة. لم يكن مراد شاباً خارق الجمال، ولا كان ذا جسدٍ رياضيٍ مشدود، ولا كان رجلاً عبقرياً يأتي بأفكار باهرة. كان شاباً عادياً مقبول الوجه، متناسق الملامح، متوسّط الطول. لكنّ، كان هناك شيءٌ جعلني أتطلّع إليه بذهول المراهقات حين يقعنّ في الحبّ، وهو أثر جرحٍ قديمٍ أعلى عَظْمِ أنفه. تلك النَّدْبَةُ كانت علامة جماله والشيء الذي جعله مثالياً ومكتملاً في عينيّ، حتّى إنني تساءلتُ: هل كان سيكون جذّاباً هكذا لولاها؟!

فكّرتُ طيلة تلك الفترة في جمال الجروح، وفي جاذبيّتها، وفي الاكتمال الذي يكمن في النقص. الضعفُ نفسه كان يجذبني، والهشاشة، والندوب القديمة، ورؤية الحيرة على وجوه الرجال، ودموعُهم، واضطرابُهم، واللحظات التي يكونون فيها فاترين ومُتعبين. هل أنا مريضة؟ كنتُ

أتساءل وأنا أتأمل صورة مُراد، بينما أشعر كأنّ هناك انتفاخاً في قلبي يؤلمني حين أتَنفّس. كنتُ واعيةً أنّ إعجابي به ليس نابعاً من شيءٍ رائع يمتلكه هو دون الرجال الآخرين، بل لأنه كان يستجيب لجراح روحي. كان مرآةً لتلك الجراح بندبته الصغيرة على الأنف.

عَرَفْتُ ذلك في الليلة التي سبقت لقاء بلال المنصوري مع جمهوره. قبل ذلك، ظننتُ أنني شُفيتُ، لأنني تَخَلّصْتُ من سَعْد، ولم أَعُد فضوليةً تجاه حياةِ نجوى، وابتعدتُ عن أمّي. في الحُلُم كنتُ مع مُراد وأحلام وندى ونهى جالسين في صالون بيتٍ لا أعرفه، لكنّه مألوفٌ ويشبه بيتَ أمّي بكنباته القديمة وبستائر نوافذه البيضاء الشفّافة. لا أذكرُ ما الذي كنّا نفعله في الحُلُم بالتحديد، لكننا كنا سعداء. ثم دخلتُ أمّي. لم تكن ترتدي نقاباً ولا خماراً، بل جاءتني مرتديةً جلبابها البنفسجيّ القديم وطرحة رأس بيضاء. رمقتُني بحقد، كأنني عدوّتها اللدودة، ثم راحت تصرخ في وجهي بلغةٍ غير مفهومة. في تلك اللحظة، كان كلّ مَنْ معي في الحُلُم قد اختفوا، وصرتُ وحدي في مواجهةِ نظراتِ أمّي ووجودها المرعب وصراخها في وجهي بتلك اللغة الغريبة. لم أكن أفهم بالضبط عمّاذا كانت تتحدّث، لكنّ، كان هناك لومٌ سامٌّ يفوح في الجوِّ. ومثل دخان حريقٍ ضخم، أخذ اللومُ يخنقني رويداً رويداً، لكنني لم أُمِت، بل تضاءل جسدي حتّى عُدْتُ طفلةً صغيرةً من جديد، أمشي في زحام سوق درب عمر إلى جوار أمّي الباحثة عن كعْبٍ عالٍ، أنظرُ بدهشةٍ إلى فقاعاتِ الماء والصابون التي تصدر من رشّاشات البائعين، بينما يقفز الخوفُ في معدّتي مثل سمكةٍ تُحتَضَر في اليابسة.

فتحتُ عينيّ في الثانية ليلاً. كنتُ أَتصبّبُ عرقاً، وكان ثمة حرقّة في حَنجرتي وصدري كأنني تناولتُ فُلُفلاً حارّاً. فكّرتُ مباشرةً أنّ إعجابي الشديد بمراد وتفكيره المستمرّ فيه وشعوري بأنني متعلّقةٌ به دليلٌ على

أَنْتِي لَمْ أَشْفَ مِنْ أَيِّ جَرَحٍ مِنَ الْجُرُوحِ الَّتِي جَعَلْتَنِي أَتَعَلَّقُ بِسَعْدٍ، وَأَصْبَحَ مَهْوَوسَةً بِنَجْوَى فِي مَا بَعْدَ. كَأَنَّ الْوَعْيَ بِالْأَمْنِ وَعَذَابَاتِنَا وَتِجَارِينَا يَأْتِي تَدْرِيجِيًّا، لَكِنَّا لَا نَشْعُرُ بِهِ وَهُوَ يَتَكَوَّنُ رَوِيداً رَوِيداً فِي أَعْمَاقِنَا، وَلَا نَدْرِكُهُ إِلَّا حِينَ يَكْتَمِلُ، فَيَنْزِلُ عَلَيْنَا فَجْأَةً مِثْلَ وَحْيٍ.

بِئَاسٍ، غَطَطْتُ فِي النَّوْمِ مِنْ جَدِيدٍ. وَفِي الصَّبَاحِ، عِنْدَمَا أَسْنَدْتُ رَأْسِي فِي الْمَقْعَدِ الْخَلْفِيِّ لِسَيَّارَةِ الْأَجْرَةِ وَأَنَا مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الْعَمَلِ، فَكَّرْتُ بِصَمْتٍ وَاتَّبَاهُ فِي تِلْكَ النَّدْبَةِ عَلَى أَنْفٍ مُرَادٍ. كُنْتُ أَرَاقِبُ مِنَ النَّافِذَةِ الشُّوَارِعِ وَالْأَزْقَةَ الرَّمَادِيَّةِ، وَالْأَشْجَارَ الْعَارِيَّةَ الْمَصْفُوفَةَ عَلَى جَوَانِبِ الطَّرِيقِ، وَالْأَبْنِيَّةَ الْمَصْفُورَةَ، وَاللُّوْحَاتِ الْإِشْهَارِيَّةَ الَّتِي تُظْهِرُ أَشْخَاصاً سُعْدَاءَ وَنَاجِحِينَ، وَالْمَحَالََّ التِّجَارِيَّةَ الْفَارِغَةَ، وَالدَّكَائِينَ الصَّغِيرَةَ، وَالرِّجَالَ الَّذِينَ يَدْخُنُونَ وَيَقْرَءُونَ الْجَرَائِدَ فِي الْمَقَاهِي، وَالنِّسَاءَ الضَّخَمَاتِ وَهِنَّ يَتِمَايَلْنَ فِي جَلَابِيْبِهِنَّ الْفَاقِعَةِ، وَالشَّابَّاتِ وَهِنَّ يَسِرْنَ مَغْطِيَّاتٍ رُؤُوسَهُنَّ وَمِرْتَدِيَّاتٍ بِنَاطِيلٍ جِينَزِ ضَيِّقَةٍ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ تَسْتَجِيبُ نَدْبَةُ صَغِيرَةٍ لِلْجُرُوحِ وَالْعُقْدِ كُلِّهَا الَّتِي تَشَكَّلَتْ فِي دَاخِلِي عَلَى مَدَى أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً.

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الدَّارِ، كَانَتْ نَدَى تَسْحَبُ نُسْخَ رِوَايَةِ وَجَعِ الْقَلْبِ مِنْ كَرْتُونَةٍ كَبِيرَةٍ، وَتَرْتَّبُهَا عَلَى الطَّاوِلَةِ الَّتِي سَيَجْلِسُ إِلَيْهَا بِلَالُ الْمَنْصُورِيِّ لِتَقْدِيمِ كِتَابِهِ. أَخْبَرْتُهَا بِسُخْرِيَّةٍ أَنْ لَا أَحَدٌ سَيَحْضُرُ تَقْدِيمَ رِوَايَةِ صَبَاحِ يَوْمِ سَبْتٍ، لَكِنَّهَا لَمْ تَرُدَّ، وَطَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أُسْرِعَ فِي مُسَاعَدَتِهَا لِتَرْتِيبِ الْكِرَاسِيِّ فِي الْقَاعَةِ. كَانَتْ مِنْهَمَكَةً فِي الْعَمَلِ بِاسْتِسْلَامِ الْعَبِيدِ، وَكُنْتُ مَا أَزَالُ أَمْلِكُ الْجِلْدَ لِلتَّلْعِيقِ عَلَى كِتَابَاتِ الْمَنْصُورِيِّ. تَأَمَّلْتُ شَرَّراً وَرَقَةً الْأَسْئَلَةِ الَّتِي أَعْدَدْتُ لَطَرِحِهَا عَلَى بِلَالٍ، وَدَخَلْتُ إِلَى مَكْتَبِي.

عِنْدَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةٍ، كَانَتْ الْقَاعَةُ تَغْصُّ بِالْبَشَرِ. كَانَ أَغْلَبُ الْجُمْهُورِ شَبَاباً فِي الْعِشْرِينِيَّاتِ، بَيْنَهُمْ طُلَبَةُ جَامِعِيَّاتٍ. شَاهَدْتُ مَجْمُوعَةً

فتياتٍ يتدافعنَ للعثور على أمكنة يجلسنَ فيها كأنَّهنَّ سيستمعنَ إلى نجيب محفوظ أو محمد شكري. كان معجبو بلال المنصوري قد ازدادوا مقارنةً مع السنة الماضية حين أصدر روايته «تراتيل الحب»، وكانت صفحةً خاصّةً بالاقتباسات من هذه الرواية قد أنشئت على إنستغرام بمجرد صدورها.

تحكي رواية **وجع القلب** قصّة شابٍّ مصابٍّ بمرضٍ خبيثٍ، لم يكلفِ الكاتبُ نفسه عناءَ إخبارنا بأيِّ مرضٍ أُصيبَ بطله، ولم يقل لنا أيَّ شيءٍ عن ماضيه وتاريخه وخلفيته الاجتماعية، لأنَّ أهمَّ شيءٍ ركّز عليه هو النساءُ الجميلاتُ المحيطاتُ بهذا الشابِّ، واللواتي يُحِبُّنَهُ حبّاً جمّاً، ويتبارزنَ لكسب قلبه. مَنْ تكون هؤلاء النساءُ؟ ومن أين جئنَ؟ لم يقل لنا الكاتب أيَّ شيءٍ عن ذلك أيضاً. لماذا يُحِبُّنَ هذا الرجل بهذا الشكل؟ لن تتوقّعوا الجواب! لأنّه كتب روايةً حزينةً عن الحبِّ.

وكعادته في كلّ عملٍ روائي، استعمل بلال المنصوري أسلوباً شاعرياً ممتلئاً بالصور النمطية عن الحبِّ والجنس والحزن والسعادة والوجود. يتنقّل بين هذه المواضيع مُستعملاً جملاً معقّدة أحياناً، وأخرى بلا أيِّ معنى في بعض الأحيان، مثل «الزمنُ كفيل بأن يُنسينا كلّ شيءٍ، وبأن يجرف أحزاننا نحو عمقِ العدم»، «إننا نرسم خارطةَ العشق باستعمال الذاكرة»، «الحبُّ جرحٌ موسومٌ في الذاكرة»، «العشق قشّةٌ تَمسُّكُ بها لتنويم أوجاعنا»، «يولد الحبُّ العظيم باستحالاته وأوجاعه، ولا نملك إلا أن نقاد له، بالرغم من أننا نعرف مُسبقاً أنه يستدرجنا نحو الفجيعة». هذه الجُمَلُ بالضبط هي التي شكّلت محتوى صفحة الاقتباسات الخاصة بالرواية على تطبيق إنستغرام. إذا أردتَ أن تُنشئَ متحفاً للرداءة، يمكنكَ الدخول مباشرةً إلى هذه الصفحة، واستعمال عبارات بلال المنصوري.

حين قرأ بلال المنصوري مقطع «عطرُك المضمخُ برائحة العشق الحزين

يذكرني بوحل النهايات وعسل البدايات» على جمهوره بصوتٍ جهوري ونبرةٍ شِعْريّةٍ، رُفِعَتِ الهواتفُ مرّةً واحدةً للتصوير، واختلطت الأصواتُ في القاعة، ورُدَدَتِ كلماتُ «الله» و«واو»، وأصدرت فتاةٌ محجّبةٌ بدينةً أنيناً عميقاً مُغلقةً عينيّها، كأنّها وصلت إلى النشوة الجنسية، وأعلّنت فتاةٌ ذاتُ شَعْرٍ خشنٍ غير ممشوط أنها لم تَرَ في حياتها كتابةً عظيمةً ككتابة بلال المنصوري، وأنّها قرّرت أن تُعَدَّ بحثها لنيل الإجازة عن هذه الرواية الرائعة.

محاولاتي كلّها للحفاظ على ابتسامتي وأنا جالسةٌ إلى جوار بلال على المنصّة ذهبت سُدى، ففي كلّ مرّةٍ كان يتفوّه فيها بإحدى عباراته، كنتُ أشعر بعضلاتٍ وجهي تتقلّص، وبفمي يُرمّ رغماً عني، وفي كلّ مرّةٍ كان يُطرح فيها سؤالٌ من قبيل: «كيف ومتى اكتشفت هذه الموهبة العظيمة في الكتابة؟» أو «من أين تستمدّ الإلهام كي تكتُبَ لنا رواياتٍ رائعة كهذه؟»، كنتُ أشعرُ بالغثيان.

لم أتحمل هذه المرّة أن أطرح أسئلةً نمطية على بلال كما أفعلُ في كلّ مرّةٍ أقدم فيها كاتباً من كُتّاب الدار. كانت مرارةُ الحُلم الذي رأيتهُ ما تزال عالقةً في حلقي، وكنتُ مُتعبّةً وغاضبةً من العالم، لدرجةٍ لم أهتمّ لورقةِ الأسئلة التي أعددتُها. تطلّعتُ في وجه بلال طويلاً وهو يتحدثُ بجديّةٍ عن كتاباته، ويقارنُها بكتابات كارلوس زافون، ثمّ سألتُهُ:

- السيّد بلال، نودُ أن نعرفَ كقراء ما هو المرضُ الذي أُصيبَ به بطلُ روايتِكَ، لأنّني أظنّ أنّكَ نسيتَ أن تُخبرنا ما هو المرضُ الذي جَعَلَهُ مُقَعداً وأدّى به إلى كتابةِ رواياتٍ حزينة؟

تطلّع إليّ طويلاً بنظرةٍ تَنمّ عن عدم الفهم، ثمّ احمرّت أذناه، وارتسمت ابتسامةٌ بليدة على مُحيّاه. عدّل ربطةَ عُنقه، ثمّ قال بنبرةٍ جادةٍ وبلغّةٍ عربيةٍ فصيحةً موجّهاً نظره إلى الجمهور:

- رواية «وجع القلب» محاولة تجريبية للاشتغال في اللغة وإعطاء نَفْسٍ جديد للرواية العربية، عبر التأكيد على أنّ الحضور الاستطيفي في الرواية بمعناه الجمالي هو تحدٍّ آخر أمام تطوّرات الكتابة وكسب رهان بلوغ الكتابة التي تتجاوب مع مقتضيات العصر ومع تحدّياته والأزمات التي يعانيتها الإنسان العربي. لذلك، فالمرضُ هنا لا يُمْكِنُ اعتباره إلا رمزاً من رموزِ هذه الأزمات. الدليلُ على أنّ اسمَ ونوعَ المرضِ لا يهمُّ هنا هو عددُ القراء الذين تواصلوا معي، والذين وجدوا أنفسهم بين سطور هذا الكتاب، وأشكرهم بهذه المناسبة، لأنني لولاهم لما كنتُ موجوداً هنا اليوم. وقد كتبتُ هذا سابقاً على صفحتي على فيسبوك، وأُعيد القول الآن: الكاتبُ لا يساوي شيئاً بدون قرائه.

صَفَّقَ جميعَ مَنْ في القاعةِ بسعادة، حتّى ندى صَفَّقَتْ ولو بفتورٍ واضح. ابتسمتُ لإخفاء غضبي، وطرحتُ سؤالاً آخر:

- كثيراتُ هنّ النساء اللواتي وقَعْنَ في حبِّ بطلِك، والسببُ حسبَ روايتِك، هو روايةُ كتبَها. لكننا لم نَرِ بين أسطر العمل أيّ إشارة لموضوع الرواية ولا لمضمونها. ألا تظنُّ أنه من المهمّ، بل من الضروري أن تُشير إلى الأسباب التي جعلت هؤلاء النساء يقعن في حبِّ البطل بعد قراءتهن للرواية؟

كان بلال يحركُ كرسيّه ذا العجلاتِ يميناً ويساراً وهو يستمع إلى سؤالِي، رافعاً رأسه عالياً، متأملاً السقفَ بنظراتٍ عميقة مزيفة. وحين انتهيتُ من طرح السؤال، رفعَ حاجبَيْهِ بطريقةٍ توحي أنّ انشغالاته أكبر من أسئلتِي التافهة، ثمّ قال بعصبية:

- لا أعرف لماذا يركّزُ بعض الناس على تفاصيل صغيرة وتافهة، وينسون الأسئلة الكبرى التي تطرحها الرواية. قُرّائي الجادّون كما قلتُ فهموا الهدف

من الرواية، ولا أرى أنه من الضروري تبرير عمل جمالي بأي شكل من الأشكال.

سكت لبرهة وقد توقّف عن تحريك كرسيه. استقام في جلسته موجّهاً نظره من جديد إلى جمهوره، ثم تابع بابتسامة ساخرة:

- إن الفن لا يمكن تفسيره، هل يمكن أن تسألني بيكاسو لماذا اختار التكعيبية بدل الواقعية للتعبير عن أفكاره؟

وكما لو كنت في حلم أعلم أنه حلم وسينتهي، لم أهتم لنجيم الذي كان يرمقني بنظرات غاضبة. قلتُ:

- حسناً، وما هو الهدف من روايتك؟

عادَ وأسندَ ظهره من جديد إلى ظهر الكرسي، وراح يحركه يمينا ويسارا مرةً أخرى، ثم قال:

- في الحقيقة، روايتي ليست إلا تجاوباً مع الأزمات التي يعيشها عالمنا العربي، ومع المآسي التي يعيشها الإنسان العربي. إنها تطرح أسئلة فلسفية حول الإنسان والوجود بصفة عامة، وتتجاوب مع أحزانه وخساراته وانكساراته.

سألتُ:

- هل يمكن أن تستعرض علينا بعض الأمثلة من الرواية، حيث تتحدّث عن المآسي التي يعيشها الإنسان العربي؟

كانت كتلة الغضب في رأسي تذوب رويداً رويداً وتحلّل وأنا أواجه بلاً المنصوري بأسئلتي، وكانت يداي ترتجفان وأنا أتكلم، ليس خوفاً وإنما من فرط الأدرينالين في معدتي. كانت ندى تنظر إليّ فاغرة الفاه غير مصدّقة لما أفعله، أمّا نجيم الذي كان يحدّق بي مقطباً حاجبيه، فقد توجه

إلى المنصة حاملاً ميكروفوناً، وجلس إلى جانبي، وأخذ الكلمة مني، ثم راح يمدح بلالاً وروايته، ويصفها بأنها طفرة نوعية في تاريخ الرواية العربية. تململت في الكرسي وأنا أتأمل ملامح بلال وجلسته المستقيمة وهو يقرأ مقاطع أخرى من روايته. شعرت بفوران في رأسي، وتمنيت لو أن الأمر كان مجرد حلم. وقفت الفتاة المحجبة البدينة من فرط الانفعال، ووضعت يديها على صدرها، ثم أغمضت عينيها كأنها تصلي. قرأ بلال ببطء وبصوت مرتفع وبنبرة شغرية مصطنعة: «وما الحب إلا وجع، وجع عظيم يتلوّى في ثنايا كل قلب محطّم». سقطت الفتاة البدينة مغشى عليها.

بعد ثانية أو ثانيّتين من سقوط الفتاة البدينة، بدأ الحاضرون في التدافع نحوها، بينما بقيت في المنصة إلى جوار بلال المنصوري الذي ظهرت على وجهه علامات الهلع. حمل رجل رأس الفتاة عن الأرض، وأسنده إلى ساعده، ثم راح يصفع خديها محاولاً إيقاظها. نزلت من المنصة وركضت وسط الزحام نحو ندى. حين تأكدنا أن الفتاة حيّة بعدما صرخ أحدهم أنها تنفّس، أسند بلال المنصوري ظهره إلى الكرسي من جديد، ومسح العرق من جبينه. كانت ندى تتصل بسيارة إسعاف، لأن الفتاة لم تسترجع وعيها، وظلت متمددة على الأرض مثل جثة. استغللت الزحام والضجة والهلع، لأهرب من المكان. مشيت خطوتين قبل أن أشعر بيد تمسكني من يدي. أوقفني نجيم، وطلب مني بعصبية أن أعود إلى المنصة، وقال لي إن هناك موضوعاً مهماً سنتحدث فيه بعد انتهاء حفل التوقيع.

عدت إلى المنصة قرب بلال المنصوري، وجلست هناك مثل طفلة معاقبة. كان بلال يتفرّج على جمهوره بلامبالاة، وعلى مُعجبتيه وهي تخرج من القاعة محمولة، بينما تدلّت حقيبتها المفتوحة من الحمالّة، وسقطت منها رواية حكايات قلبي المحطّم.

هذه المرة، تحدّث معي نجيم فعلاً في أمر مهمّ. بعد مغادرة الجميع، أمرني أن أتبعه إلى مكتبه، وهدّدني بنبرة جادّة أنّه سيطرّدني إذا أخرجتُ كُتّاب الدار مرّةً أخرى. نبرته الأبوية وهو يوبّخني جعلتني أشعر بالاطمئنان. أطرقتُ رأسي واستسلمتُ بصمتٍ للاتّهاماتِ والتهديدات التي انهالت عليّ. وبعدما انتهى من توبيخي، فتحَ درج مكتبه، وسحبَ مخطوط روايةٍ قديمٍ اصفرتُ جنباته، ثمّ أشهره في وجهي قائلاً:

- هل تذكرين هذا المخطوط؟ قدّمته لي قبل ستّ سنوات لأنشره، لكنني رفضتُ. هل تعلّمين لماذا؟

ودون أن أرفع رأسي، سألتُ بصوتٍ خافت:

- لماذا؟

لم يُجب في الحال. نهض أولاً، ومشى حولَ مكتبه كأنه يفكّر في شيءٍ ما، ثمّ رمى المخطوط فوق كومةٍ أوراقٍ مُهمّلة، وقال:

- لأنّه يقول الحقيقة.

في تلك اللحظة، رفعتُ رأسي وحدّقتُ فيه بعينين متسائلتين. لكنّه لم يكن ينظرُ إليّ. كان يطرق مكتبه بأصبعه وهو يفكّر. رميتُ بصري على المخطوط الذي يحمل عنوان المرأة الأخرى، وتذكّرتُ أحلامي القديمة بحياد، كأنني أتذكّر أحلامَ شخصٍ آخر.

قال بعصبية:

- هذا الكتابُ لن يُقرأ، لأنَّ الناس لا يحبُّون الحقيقة. الحقيقةُ قاسيةٌ جداً، يا شهرزاد!

حدّقتُ فيه مرّةً أخرى، وسألتهُ بفضولٍ ورجاء:

- أيّ حقيقة؟

قال دون أن يفكّر:

- الأمّهات اللواتي يكرهنَ أبناءهنَّ. النساء اللواتي يكرهنَ أجسادهنَّ. الأحلامُ التي لا تتحقّق أبداً. الأملُ الذي يُعذِّبنا ويُبقينا معلّقين مثل أحبال غسيلٍ باليةٍ وهشّة. الحقد. البيوتُ التي تفوحُ منها رائحةُ الموت. العائلاتُ التعيسة. الألمُ. الألمُ، يا شهرزاد، موجودٌ في كلّ مكان، والناس تريد الكُتبَ لتحلّم، لتنسى الألم.

كأنَّ الزمنَ عاد بي ستّ سنواتٍ إلى الوراء. شممتُ رائحةَ غرفتي القديمة، وأحسستُ بالقلمِ يحفرُ في وسطاي وأنا أكتبُ على الورق مثلما كان يفعلُ الكتابُ قبل ظهور الكمبيوتر. رأيتُ تلك الوردةَ الذابلة التي كنتُ أحتفظُ بها من أيّوب بين صفحاتِ دفترٍ قديم. سمعتُ أغنيّةَ بوب ديلان Hey Mr. Tambourine Man وهي تخرجُ من هاتفٍ رماديّ تقشّرت حوافّه. تذكّرتُ أنني كتبتُ روايةً.

كان نجيم يمشي في غرفةِ المكتب ذهاباً وإياباً، شابكاً يديّه خلف ظهره، كأنّه قلقٌ بخصوص ما يقوله، لكنّه لم يستطعَ منعَ نفسه من قوله. تابع:

- طلبتُ منك وقتها أن تكتُبي شيئاً آخر، شيئاً باعثاً على الأمل، كتابةً تجعل الناس يحلمون، لأنني أعرفُ أنّ لديكِ موهبةً فذّة. وافقتِ وأعطيتيني وعداً صريحاً أنّك ستبذلين ما في وسعكِ لكتابة قصّةٍ أقلّ سوداويةً وأكثر تفاؤلاً، لكنكِ لم تفعلي.

بَرَدَتْ أَصَابِعُ قَدَمَيَّ، وَصَعِدَ الْبَرْدُ إِلَى جَسَدِي، ثُمَّ إِلَى رَأْسِي. خَرَجَ صَوْتِي خَافَتاً مِنْ حَنْجَرَتِي:

- لَكِنَّ دَوْرَ الْأَدَبِ لَيْسَ أَنْ يُعْجِبَ النَّاسَ ...

رَفَعَ يَدَهُ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ فِي انْزِعَاجٍ مُشِيراً لِي بِالتَّوَقُّفِ، ثُمَّ قَالَ:

- هَلْ تَعْلَمِينَ لِمَاذَا نَجَحَ بِلَالُ الْمَنْصُورِيِّ وَفَشِلَتْ أَنْتِ؟

- لِمَاذَا؟

- لِأَنَّهُ أَذْكَى مِنْكَ. لَقَدْ عَرَفَ كَيْفَ يَكْتُبُ مَا يَرِيدُ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ.

فَكَرَّرْتُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَمْسَكْتُ فِيهَا مَخْطُوطَ رِوَايَتِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، بَعْدَ مَا طَبَعْتُهُ فِي مَقْهَى لِلْأَنْتَرْنِتِ. ضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي وَمَشَيْتُ فِي الشَّارِعِ بِرَأْسٍ مُرْفُوعٍ. كُنْتُ فَخُورَةً وَسَعِيدَةً أَكْثَرَ مِنَ الْأُمَّهَاتِ حِينَ يُنْجِبْنَ أَطْفَالَهِنَّ.

- مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ بِلَالَ كَتَبَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَا يَرِيدُ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ؟ إِنَّهُ يَكْتُبُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنْ يَكْتُبَ بِطَرِيقَةٍ أَفْضَلَ.

انْقَبَضَتْ مَلَامُحُ وَجْهِهِ، وَأَجَابَ بِدُونِ تَفْكِيرٍ:

- حَتَّى وَلَوْ لَمْ يُكُنْ يَعْرِفُ، لَنْ يَغَيِّرَ ذَلِكَ شَيْئاً. إِنَّهُ يَبِيعُ آلَافَ النُّسَخِ وَلَدِيهِ مَقْرُوءَةً وَاسِعَةً، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْتِجَ كُلَّ سَنَةٍ عَمَلاً جَدِيداً ...

قُلْتُ فِي نَفْوَ:

- هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ أَدِيبٌ حَقِيقِيٌّ.

مَشَى نَجِيمٌ حَوْلَ مَكْتَبِهِ مِنْ جَدِيدٍ، ثُمَّ جَلَسَ. شَبِكَ يَدَيْهِ أَمَامَ وَجْهِهِ، وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ مَخْطُوطَ رِوَايَتِي. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ، حَدَّقَ فِي بَنْظُرَةٍ عَطْفٍ وَقَالَ:

- أَنَا تَاجِرٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، يَا شَهْرَزَادَ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْرِضَ بِضَاعَةً أَعْرِفُ مُسَبِّقاً أَنَّهَا لَنْ تُبَاعَ.

كلامٌ نجيم شَخَصَ أَلَمًا كبيراً كان بداخلي ولم أَسْتَطِعِ التَّقَاطُهُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، ووضوحه أَشْعَرَنِي بِالنِّقْمَةِ عَلَى الْعَالَمِ، لَكِنْ، بِالسُّلْوَانِ أَيْضاً، لِأَنَّهُ عَلَى الْأَقْلِ لم يَكْذِبْ عَلَيَّ، ولم يَقُلْ إِنَّ عَمَلِي لَا يَسْتَحِقُّ النُّشْرَ. مَشَيْتُ فِي اتِّجَاهِ الْبَيْتِ كَالْمَيْتَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ لَهَا مَكَانٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ. وَمَعَ ذَلِكَ، كُنْتُ مَا أَزَالُ قَادِرَةً عَلَى التَّقَاطِ هَدِيرِ السِّيَّارَاتِ وَأَدْخَنَةِ الدَّرَاجَاتِ النَّارِيَةِ وَوَقَاحَةِ الْإِنْسَانِ. أَضَعْتُ الطَّرِيقَ إِلَى الْبَيْتِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. مَرَرْتُ بِأَرْقَةٍ لَا أَعْرِفُهَا، وَفَكَّرْتُ فِي بِلَالِ الْمَنْصُورِيِّ وَثِقَتِهِ الْفَاجِرَةِ بِنَفْسِهِ. لَمْ أَعْرِفْ هَلْ أَغْضَبُ مِنْهُ أَمْ مِنْ نَفْسِي، لِأَنِّي بَدَدْتُ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ فِي مَلَا حَقَةِ امْرَأَةٍ لَا أَعْرِفُهَا، بِدَلٍّ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي مَلَا حَقَةِ حُلْمِي فِي الْكِتَابَةِ. كُنْتُ، فِي الْوَاقِعِ، أَصَبُّ غَضْبِي تَجَاهَ نَفْسِي فِي بِلَالٍ فَقَطْ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ هُوَ نَفْسِي، أَمَّا أَمْثَالُ بِلَالٍ، فَقَدْ وَجِدُوا مِنْذُ الْأَزَلِّ وَسَيُظَلُّونَ مَوْجُودِينَ حَتَّى نَهَايَةِ الْعَالَمِ.

وَبَعْدَ حَوَالِي سَاعَةٍ مِنَ الْمَشْيِ، وَجَدْتُنِي فِي زِقَاقٍ لَا أَعْرِفُهُ. تَفَقَّدْتُ الْخَرِيطَةَ عَلَى غُوغُلٍ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّنِي مَشَيْتُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ. جَلَسْتُ فِي عَتَبَةِ بَابِ عِمَارَةٍ، لِأَسْتَرْجِعَ أَنْفَاسِي، وَفَتَحْتُ الْوَتْسَابَ، لِأُرَاجِعَ رِسَائِلِي مَعَ مُرَادٍ، وَلِأَنْظُرَ إِلَى صُورَتِهِ مِنْ جَدِيدٍ. كُنْتُ أَوْدَّ الْهَرُوبَ مِنْ شَعُورِي الْعَمِيقِ بِالْيَأْسِ إِلَى ذَلِكَ الشُّعُورِ الْمُؤَلِّمِ بِالْإِعْجَابِ. انْتَبَهْتُ إِلَى أَنَّ آخَرَ الرِّسَائِلِ الَّتِي تُبْعَثُ فِي اللَّيْلِ كَانَتْ مِنْ طَرَفِي، وَهِيَ، فِي الْغَالِبِ، أَسْئَلَةٌ بِعَلَامَاتِ اسْتِفْهَامٍ وَاضِحَةٍ، لَكِنْ مُرَاداً لَمْ يَكُنْ يَرِدُّ عَلَيْهَا حَتَّى الْيَوْمِ التَّالِي، أَيْ بَعْدَ مَرُورِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سَاعَةً. فِطْرَتِي/غَرِيزَتِي الْبَدَائِيَّةُ نَبَّهَتْنِي إِلَى خَطَرٍ مُحْدِقٍ، خَطَرِ الْوُقُوعِ فِي الْعَشْقِ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ، لَكِنِّي، مَعَ ذَلِكَ، كَتَبْتُ لَهُ رِسَالَةً أُخْرَى، وَطَلَبْتُ لِقَاءَهُ. وَحِينَ لَمْ يَرُدُّ، فَكَّرْتُ أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَنْطَقَةِ الَّتِي يَسْكُنُ فِيهَا، لَعَلَّنِي أَلْتَقِيهِ هُنَاكَ بِالْمَصَادِفَةِ. كَانَتْ خَمْسُ دَقَائِقٍ فَقَطْ هِيَ الزَّمَنُ الَّذِي مَرَّ عَلَى إِرسَالِي الرِّسَالَةَ، لَكِنِّي شَعَرْتُ، بِفَعْلٍ ثَقُلَ الْإِنْتِظَارُ، أَنَّهَا الْأَبَدِيَّةُ. أَرَدْتُ أَنْ أَنْهَضَ مِنْ عَتَبَةِ بَابِ ذَلِكَ الْمَبْنَى، وَأَذْهَبَ إِلَى الْبَيْتِ، لَكِنْ جِزْءاً مِّنِّي كَانَ يَطْلُبُ مَنِّي الْبَقَاءَ حَتَّى يَرُدَّ مُرَاداً. كُنْتُ أُرِيدُ لِقَاءَهُ بِجَوَارِحِي كُلِّهَا،

والحديث معه، والنظر إلى تلك التدبيرة على أنفه، ونسيان الذي مضى في حياتي كله. لكنه لم يرد، ولم يدخل حتى إلى الوتساب. كان مثل الناس جميعهم، له حياة يعيشها. لكن، ما معنى أن تكون للمرء حياة يعيشها؟ وكيف يصنع الناس لأنفسهم حياة يعيشونها؟

قررت النهوض أخيراً. نفضت غباراً مفترضاً عن مؤخرتي، وفكرت أن عليّ أن أعيش حياتي أيضاً، وإن لم تكن لدي، فعليّ أن أخلقها من عدم، وأمثل أنني أعيشها حتى أصدق ذلك فعلاً. مشيت، لكن، ليس إلى بيتي، وإنما إلى بيت زهرة. المرأة التي عاشت حياتها وحيدة دون أن تحتاج إلى أحد.

لم يكن لديّ أيّ مبرّر لزيارة زهرة، خاصّة أنني لم أسأل عنها ولم أرها منذ سنوات، ومع ذلك، لم أتوجّس وأنا أتوجّه إلى بيتها الواقع في درب السلطان. راقبتُ من نافذة سيّارة الأجرة المحالّ وعرباتِ الباعة المتجوّلين الممتلئة بالخبز والخضار والفواكه الطرية، والمظلات الباهتة، ودُمى العرض المنتصبة في وسطِ الشارع مرتديّة فساتين قطنية مزركشة، والأكياس البلاستيكية المرميّة على الأرض وهي تطير بفعل الريح، ومطاعم الوجبات السريعة والأدخنة المنبعثة منها. أغلقتُ نافذة السيّارة هرباً من رائحة الشاورما الممتزجة برائحة الدجاج المشوي ورائحة السمك. وحين نظرتُ إلى هاتفي لأرى إن كان مُراد قد ردّ على رسالتي، شعرتُ بالغثيان.

لم يردّ. تعمّق الحزن في داخلي، وشعرتُ بالتعاسة. كأنّ التعاسة حُفرة في القلب، كلّما حدّث شيءٌ حزين أو مات أحدٌ نجبه أو عشنا تجربة صعبة، ازدادت عمقاً وصارت أكثر إيلاماً. حين نزلتُ من التاكسي، رأيتُ ثلاثة مراهقين نحيلين جداً مُسندين ظهورهم إلى سورٍ وهم يلقّون سجائر حشيش. فكّرتُ أنّها صورةٌ بليغةٌ لحياتي المتوقّفة في مكانٍ واحد، مراقبةً بفضول حيواتٍ أشخاص آخرين، مدمنةٌ عليها. هل أكره حياتي إلى هذه الدرجة؟ مشيتُ محاولةً التعرّف إلى بيتِ زهرة بين المباني. كان كلّ شيءٍ قد تغيّر. في طفولتي، لم يكن هناك مراهقون مستندون إلى الأسوار وهم يدخّنون الحشيش، ولم تكن الأسوار متّسخةً إلى هذه الدرجة، ولم تكن

هناك أزيالٌ مَرْمِيَّةٌ في كلِّ مكان. أو ربّما لم أكن أستطيع بسبب البراءة واللامبالاة أن أرى ذلك.

أتيتُ آخرَ مرّةٍ ذاتَ صيفٍ مع أبي قبل ستِّ وعشرين سنة. كنّا قد جلبنا زهرة تيناً ونعناعاً طرياً. أذكرُ جيّداً حينَ فتَحَ والدي صندوقَ السيّارة، وسَحَبَ سلّةَ التينِ وربطةَ النعناع. كنتُ أَتناوَلُ بذورَ عبّاد الشمسِ وأنا أنظرُ إلى ابتسامتهِ التي تلمَعُ تحت ضوءِ الشمسِ. وقبل أنَ نطرقَ بابَ بيتِ زهرة، انحنى ونَقَضَ شيئاً عن ملابسي، ثمَّ سألني بصوتٍ شبه مهموسٍ إن كنتُ أحبُّ زهرة. هزرتُ رأسي بينما تعتمَلُ في داخلي مشاعرُ خوفٍ ممزوجٍ بالمتعة، كأنتي كنتُ في مغامرةٍ ممنوعةٍ لذيذة. كم هي بعيدةُ تلكَ السعادةُ الآن! حينَ طلبَ مِنِّي ألا أخبرَ أمِّي، شعرتُ بتواطؤٍ عذب، لأنني كنتُ أعرفُ أَنَّهُ ليس عليّ إخبارَ أمِّي قبل أن يطلبَ مِنِّي ذلك. أشعرُ الآنَ أن ذلكَ الزمنَ بين نفْضِ والدي لملابسي من فتاتِ قشورِ بذورِ عبّاد الشمسِ وفتحِ زهرةٍ للبابِ كان طويلاً مثل الخلود. وقد كان الوقتُ طويلاً دائماً في طفولتنا. كان لدينا كثيرٌ من الوقت. كان لدينا الخلود.

أرى الآنَ والدي وأنا أبحثُ عن بيتِ زهرة، وأشمُّ رائحةَ عبّاد الشمسِ، وأحسُّ التصاقَ التينِ الطريِّ ببشرتي، وأدركُ لذةَ الهربِ من أمِّي. لقد كنتُ دائماً أريدُ الهربَ من أمِّي، ومع ذلكَ كنتُ أبحثُ عنها في كلِّ شخص. لماذا لا نستطيعُ اختيارَ أمّهاتِنَا وآبائِنَا بأنفسنا؟ ولماذا نصبحُ هكذا عاجزينَ عن العيشِ بدونِ تحديدِ هُويَتَيْهِمَا؟ لمستُ سورَ بيتِ زهرة، ثمَّ بابَه الخشبيَّ العتيق الذي تقشّرت صباغتهُ، وشعرتُ أنني أُنتمي إلى ذلكَ المكان.

تأتيني تلكَ الذكرى الآنَ بدونِ صوت، كأنّها مشهدٌ قادمٌ من تلفزيونٍ قديمٍ معطلٍ. كانت الشمسُ قد غربت قبل قليل. وقبل أنَ أطرقَ البابَ، راقبتُ بألمٍ حلوٍ سربَ طيورٍ وهو يعبرُ السماءَ البنفسجيةَ المائلةَ إلى

الحمرة، وشعرتُ بمتعةِ حفظ الأسرار، لأنني لم أخبر أُمِّي أننا زرنا زهرة قبل ستٍّ وعشرين سنةً لحدِّ الآن.

نبَض قلبي حين فتحت الباب. كانت ترتدي فستاناً طويلاً أزرق مزركشاً يشبه القُفطان، وكان شَعْرُها الفضيّ مرتّباً في كعكة. وقفتُ لبرهةٍ تحدّق فيّ بدهشة، ثمّ ارتمت عليّ وعانقتني بعاطفة. أردتُ أن أخبرها أنني اشتقتُ إليها مثلما يُخبر الناس أمّهاتهم المُحبّاتِ بذلك، لكنّ الكلمات لم تخرج من فمي. قالت بحماس كأنها شابةٌ في العشرينيات: «أهلاً وسهلاً، انظروا مَنْ أتى لزيارتي!». وحين تراجعت إلى الوراء مُسرعةً الباب على آخره، بلعّنتني رائحةٌ فانيليا. خطوتُ إلى الداخل في وجوم، فوجدتُ نفسي في صالةٍ فسيحة، بها كنباتٌ مغربية من الطراز القديم، وطاولَةٌ خشبيةٌ مستديرة، عليها نقوش ساحرة. كان واضحاً أنها مولعةٌ بالنباتات، فقد كان لديها في البهو فقط نحو عشرة أصصِ نباتات وأزهار من مختلف الأنواع. كان ثمة مذياعٌ قديم من زمن السبعينيات فوق منضدةٍ خشبيةٍ صغيرة، وتلفازٌ كالذي كان لدينا في طفولتي. كان البيتُ يبدو مثل الإقامات السياحية ذات الطراز المغربي، وفي جوّه يطوف دخان أعواد النّدِّ برائحة الفانيليا. وحين كنتُ أخلعُ حذائي لأمشي فوق السجّادة الحمراء المزركشة، رأيتُ قِطَينَ سمينينَ نائمينَ جنباً إلى جنبٍ على كرسيٍّ خشبيٍّ، أحدهما كان رمادياً، والثاني أصفرَ مخطّطاً بالأبيض. جلستُ وثبّتُ نظرتي على مصحفٍ جميل على الطاولة. أشعلتُ ضوءَ أباجورةٍ خافتاً، ثمّ جلستُ إلى جانبي، وتطلّعتُ إليّ بفضول. بدا وجهها جميلاً جداً تحت الضوء الواهن، وتساءلتُ كيف يمكن لنظرتها أن تكون متوقّدةً هكذا في هذا العمر.

ظللتُ جالسةً مثبتّةً نظري على المصحف لدقيقةٍ أو دقيقتين. وحين استجمعتُ شجاعتي كلّها، قلْتُ في حياء:

- بيتُك أصبحَ جميلاً جداً. لا أذكرُ أنّه كان هكذا حين جئتُ آخر مرّةٍ إلى هنا. أظنّ أن لديك ذوقاً رفيعاً حقّاً.

قالت:

- الإنسان الذي يعيش بلا ذوق لا فرق بينه وبين الحيوان.

ثم أضافت بسرعة:

- كنتِ صغيرةً جداً حين أتيتِ إلى هنا آخر مرة. عندما أرادَ والدك، رحمه الله، الذهاب، جلستِ هناك في تلك الزاوية، وشبكتِ ذراعَيْكِ ببعضهما عاقدةً ما بين حاجبَيْكِ، ورفضتِ النهوض.

ضحكتُ. كانت ذاكرتي قد مسحت نهائياً هذه الذكرى. سألتها بفضول:

- وكيف وافقتُ على الذهاب أخيراً؟

- لم توافقني. قال لك والدك إنه سيشتري لك دميةً جديدة إذا نهضت، لكنك أصريتِ على البقاء، قلتِ له إنك تريدان الدمية الجديدة، لكنك تريدان أن تلعبى بها هنا.

- ياه! لقد نسيْتُ هذا تماماً!

- كنتِ صغيرةً جداً، يا حبيبتي.

نظرتُ إلى تلك الزاوية، حيث توجد منضدة المذياع، وتابعتُ بحنين:

- خرجتِ من هنا بوجه مبَلَّل بالدموع. لكن أمك لم تدعك تخرجين مع أبيك بعد ذلك أبداً.

- لماذا؟

رمقتُني لبرهة بنظرة استنكار ولوم، ثم قالت بسخرية مريرة:

- لأنك أخبرتها أنكما جئتما لزيارتي!

قلتُ مدافعةً عن نفسي:

- لا، لم أفعل. أنا متأكدة أنني لم أخبرها لحد الآن!

- بلى، أخبرتها، ومنذ ذلك اليوم وهي تراقب والدك. كان يأتي أحياناً هارباً منها، ويشتكي لي منها. أخبرني أنها أصبحت تفتش جيبه وحقيبة نقوده، وتشتم ملابسه، وأن حياته تحولت إلى جحيم لا يُطاق.

- ماذا؟

تابعت بحزن:

- في شتاء العام 1995، مرضت أمي كثيراً، وأصبحت لا تقوى على المشي ولا حتى على الجلوس. كانت صحتها تنهار تدريجياً حتى أصيبت بشلل تام، وقضت ما تبقى من أيامها نائمة على ظهرها في تلك الغرفة. لم يكلف أي واحد من إخوتي الثلاثة نفسه عناء مساعدتها، لأنهم أصلاً تخلّوا عنها بعد زواجهم، فنقلتها للعيش معي هنا. في الليلة السابقة لوفاة والدك، مرضت جداً، ولم تكن تقوى على التنفس. لم أعرف كيف أتصرف حينها. ارتديت جلبابي ولم أعرف كيف مشيت وحدي إلى بيت جدتك. كان لجدتك هاتف ثابت، واستطعت الاتصال بوالدك، وطلبت منه أن يأتي على وجه السرعة، لنأخذها إلى المستشفى. وحين كان قادماً في الطريق، حصلت الحادثة.

لم أصدقها، لأنني لم أستطع التخلص بسهولة من تلك النسخة من الحقيقة التي أدخلتها أمي في رؤوسنا. نهضت زهرة وقالت «سأعِدّ الشاي، يمكنك مرافقتي إذا أردت». سرت وراءها إلى المطبخ في صمت، لأنني لم أعرف هل أصدقها هي لأنني أحبها، أو أصدق أمي المريضة لأنها أمي. اقتعدت كرسيّاً إلى جانبها، ورحت أراقبها وهي تضع حبات الشاي في إبريق. كانت هناك رائحة انتظار ثقيلة في الجو، وكنت قلقة من ألا تواصل سرد قصتها، فمئلت عليها الفضول لمعرفة التتمة دون أن أعلّق على ما سبق أو أبدي لها أي موقف. لكنها لم تكمل، وسألني عن أحوالي

وعن عملي، وقالت إنها سمعت بطلاقي. كنتُ أجيبُ على أسئلتها بشكلٍ ميكانيكي، بينما أراقبُ يديها البيضاوين وهما تواصلان إعداد الشاي بهدوءٍ وإتقان. وحين مدّت لي طبقَ حلوى لأحمله إلى الطاولة، نظرتُ إلى عينيها مباشرةً وسألتها:

- هل كنتِ مرتبطةً بوالدي وهو متزوجٌ من أمي؟

لم أعرف كيف خرج هذا السؤال من فمي، لكنّ يدي ارتجفتا وأنا أمسكُ الطبق. رمقتني بنظرةٍ مندهشة، وانفجرت شفتاها على ابتسامةٍ ساخرة، ثمّ ضحكت بقوة. وبعد ثوانٍ استجمعت جدّيتها وقالت:

- لو كنتُ أريد والدك لتزوّجته قبل أن يتزوَّج من أمك.

تحركت الستارة البيضاء الشفافة لنافذة المطبخ بفعل الريح، ومرّت بيننا نسمةٌ باردةٌ خفيفة.

- ألم تُحبّا بعضكما؟

حملت صينية الشاي وسارت نحو الصالون. تبعتها بفضول مثل قِطّةٍ جائعةٍ تتبع صاحبها. وحين جلسنا، أمسكت يدي بحنان وقالت:

- اسمعي، يا شهرزاد، لا أريدُ أن أقول أشياء سيئة عن أمك، لأنها أمك، لكن، عليك أن تعرفي أنّه لم يكن بيني وبين والدك أيّ شيء. لقد عشنا طفولتنا معاً، ونشأنا معاً، وصرنا أصدقاءً بعد ذلك. جدّتك كانت تريد أن تزوّجنا، وأصرّت على والدك حتّى يخطبني، وقد فعّل لإرضائها. اضطررتُ للموافقة بسبب ضغطٍ من أمي، لكننا، بعد فترةٍ قصيرة، فسخنا الخطوبة، لأننا لم نستطع أن نكون في علاقةٍ عاطفية، بينما كلّ ما يجمعنا هو الصداقة.

تمتّت في حياء:

- تعرفين أن الجميع كان يظنّ أنّ ... ما أقصده أنّ ...

تركت يدي، وسكبت الشاي في الكؤوس، ثم قالت:

- عندما يكثر اللفظ حول شخصٍ ما ويصبح محطَّ شكِّ وأنظار الجميع، يتصرّف هذا الشخصُ على نحوٍ يجعله يبدو مذنباً حتّى ولو لم يكن كذلك.

لم أستطع معارضتها، ولا سؤالها عن مزيدٍ من التفاصيل. وقارها وهي تتحدّث، ووجهها الحَسَن، وعيناها الصافيتان، وأجوبتها المترّنة، وهدوؤها كانت تجعلني أستحيي من نفسي. ولكي أجعل الأمور طبيعية، حدّثتها ونحن نأكل الحلوى ونشرب الشاي، عن سَعْد وعن تجربتي في الزواج. كنتُ أحياناً أشردُ وأنسى ما كنتُ أريد قوله حين أصِل إلى نقطةٍ تشكّل فيها نجوى الجزء الأساس من القصّة، فكانت تُكمل جُملي وتُخبرني أنها فهمت ما أودّ قوله، ثمّ تسكّب لي مزيداً من الشاي.

عند الساعة التاسعة والنصف ليلاً، قامت وأشعلت عود نَدٍّ آخر. أخبرتها أنّ عليّ الذهاب، لأنني تأخّرتُ كثيراً. لكنّها لم تردّ على كلامي، وسألّني بنبرةٍ مرحةٍ إن كنتُ أحبّ بذور عبّاد الشمس. لم أستطع أن أرفض لها هذا الطلب، لأنني كنتُ فعلاً مستمتعةً بالجلسة. أحضرت كيسين من البذور، وناولتني واحداً، ثمّ جلّست إلى جانبي، وقالت:

- أنتِ شُجاعةٌ، يا شهرزاد. أعرفُ نساءً بقينَ في زيجاتٍ تعيسة ومُتنّ تعيسات فقط، لئلا يُقال عنهنّ إنهنّ مطلّقات.

أشعرني هذا الإطراء بفرحةٍ عميقة، تمنّيتُ لو تبقى للأبد. وفكّرتُ ما الذي سيخسرهُ الناس إذا قالوا، بين الحين والآخر، كلماتٍ جميلة للآخرين؟ ولأنني لم أوّمن يوماً بكلامِ جدّتي عن السّحر الذي تعرّضت له زهرة، شجّعني فرحتي وشعوري بالارتياح على سؤالها عن قرارها أن تظلّ عازبة. قالت بدون تفكير:

- لأنني أريد أن أكون حرّة في حياتي.

تطلّعتُ إليها بدهشة. لم أكن أحبّ مَنْ يربط الحرّية بالعزوبية. فهِمّتْ من ملامح وجهي أنني استهجنْتُ كلامَها. تابعتُ:

- عندما يقول لك أحدٌ متى تُطفئ التلّفاز، ومتى تُغلّق الأضواء، ومتى تتناولين وجباتك، وعندما يتوقّف ذهابك إلى الحمام لتقضي حاجتك على وجود زوجك هناك من عدمه، هل تُسمّين هذه حرّية؟ ولأنني لم أتوقّع هذه الإجابة، ضحكتُ بقوة. تطلّعتُ إليّ بجديّة لوهلة، ثمّ ابتسمت، وقالت:

- إنني لا أمزح، يا حبيبتي. الزواج يتطلّب كثيراً من الصبر، وأنا لا أملك هذا الصبر. إننا أحياناً لا نتحمّل حتّى أمهاتنا اللواتي خرجنا من بطونهنّ، فكيف نتحمّل أشخاصاً غرباء إلى جانبنا طول العمر؟
قلّتُ:

- لكنّهم لا يبقون غرباء حين تحبّينهم وتمضين معهم عمراً طويلاً!
قالت:

- على العكس من ذلك تماماً، لأن الحبّ بين المرأة والرجل لا يبقى، ينتهي رويداً رويداً حتّى يزول تماماً، وكلّما انطفأ الحبّ، كبرت المسافة بين الشريكين وعظم الشرخ ... ثمّ حين يمرّ الوقت تجددين نفسك إلى جانب شخص لا تعرفينه ولا يجمعك به أيّ شيء.
ضحكتُ ثمّ قلّتُ:

- اتّفق معك أن الحبّ ينتهي، لكنّ، حين يبقى الاحترام، لا تكون الحياة مستحيلة كما تصوّريها الآن!

قالت وقد بدت على ملامحها علامات الاستنكار:

- هل عليّ أن أعيش مع شخصٍ فقط لأنَّ أحدنا يحترم الآخر؟ لم يُفَرِّق
الله الرؤوس إلا لتراتح!

قُلْتُ بسخريّة:

- جَدَّتِي كانت تقول إِنَّكَ لم تتزوَّجِي بسبب السُّخَر.

قَشَّرْتُ بذرةَ عباد شمس بتركيز، ثمَّ قالت بجِدِّيَّة:

- الناس تُصدِّقُ أَنَّ خرقَةَ حيضٍ تُرمى في البحر قد تُغيِّرُ قَدَرَ شخصٍ
بكامله، لكنَّها عاجزةٌ عن تصديق أنَّ امرأةً اختارت العيش وحدها!

أردتُ أن أسألها عن حاجاتها الجنسية، وكيف تمكَّنت من التعامل معها
طيلة هذا العمر كلّهُ، لكنني لم أجروْهُ على ذلك. حاولتُ أن أُحوِّلَ مجرى
النقاش إلى هذه النقطة، فحدَّثْتُها عن كيف ينظر المُجتمَع إلى النساء
اللواتي يسكننَّ وحدهنَّ. أَشَرْتُ لها إلى كلمة «قحبة» دون أن أقولها مباشرةً،
ثمَّ قُلْتُ لها بنبرةٍ ساخرة متصنَّعة المزاح:

- إذا كانَ سيُنظرُ إلينا هكذا في الحالات جميعها، فَمِنَ الأفضل أن
نعيش حياتنا كما نشاء.

توقَّفتُ عن تقشير بذرةٍ وتأمَّلْتُني بصمتٍ لوهلة، ثمَّ نفَضْتُ يَدَيها من
الملح وقالت بنبرةٍ جادَّة:

- لا أفهم فعلاً ما الذي يُعجِبُ النساءَ في الرجال!

قُلْتُ مبتسمة:

- الطبيعة، للأسف!

وبعدَ صمتٍ طويل تناولت فيه بذرةً أو بذرتين، ونفضت فيه يَدَيها
مرَّةً أخرى، قالت:

- كانوا دائماً مُقْرِفين في نظري.

قُلْتُ بدهشة:

- لماذا؟

قالت:

- لم أنجذب إلى رجلٍ في حياتي أبداً.

سألتها بالرغم من أنّ كلامها كان واضحاً. تُشبه معرفّة الحقيقة السقوط في هُوّة عميقة والارتطام بقاعها. لم أكتشف فقط أنّ زهرة كانت شيئاً آخر غير الذي ظننته، بل عَرَفْتُ أنّ كلّ ما بنيتُ عليه حياتي طيلة سنين كان سراباً، وأنّ تلك اللحظة التي كنتُ أمشي فيها مع أمّي الباحثة عن كعبٍ عالٍ في السوق، والتي شكّلت حياتي كلّها في ما بعد، لم تكن سوى وَهْم. كنتُ مُشوَّشة، وكانت قرقعةُ بذورِ عبّاد الشمس ومذاق الملح في أصابعي ورائحةُ النعناع تزيد من اضطرابي، وتجعل إحساسي بالزمن كما في الأحلام. لم أعش في حياتي لحظةً أكثر تكثيفاً من تلك اللحظة، إذ مرّت صور حياتي كلّها في ذهني مرّةً واحدة، واختلّط في رأسي الماضي بالحاضر، مُتعة اكتشاف الحقيقة بالَمِ تلاشي الوَهْم. كأنني مُتٌ ووُلِدْتُ في الوقتِ نفسه. لم تشتهِ زهرة أن تكون مع رجلٍ، ولا أن تحملِ كومةَ لحمٍ وعظام وأنسجةٍ في بطنها، ولا أن تلدِ كتلةً عُقْدٍ مثلي، وذلك ما جَعَلَهَا دائماً جميلة. أدركتُ أنّ صفاءَ زهرة كان، في الواقع، نابعاً من كونها بعيدةً عن عالم العلاقات بين النساء والرجال، وتنافسيّته القدرة بين الإناث لإثباتِ أنوثتهنّ للذكور.

بعد لقائي بزهرة، شعرتُ أنني استرجعتُ نشاطي القديم ورغبتني في الكتابة. كأنَّ ضوءاً اشتعل في تلك المنطقة المظلمة من روحي، واستعدتُ القدرة على النظرِ إلى الأشياء التي أُحبُّها. أغلقتُ الحاسوب بعدما كتبتُ مخطّطاً أولياً لروايتي، وتطلّعتُ من النافذة إلى المطرِ الغزير، ثمَّ نظرتُ بحيادٍ إلى شرفةِ نجوى الخاوية والموحِشة. كان يفصلني عن اللقاء بمُراد نصف ساعةٍ فقط. مشيتُ في الصالون ذهاباً وإياباً مثل حبيسٍ في زنزانةٍ انفرادية، وشعرتُ بالندم، لأنني وافقتُ مرّةً أخرى على وضعِ قلبي في هذا الموقفِ المهين، واستسلمتُ لهرموناتِ المتقلّبة.

لكنني لم أستطع أن أُمْنَع نفسي من الذهاب، لأنّه كان قد طَبَخني بما يكفي بأجوبيته المتأخّرة ونَدْبته على الأنف. وضعتُ أحمرَ شفاه، وارتديتُ معطفي وخرجتُ. كان الجوُّ كئيباً والطقسُ بارداً والشوارع خاليةً من البشر. تطلّعتُ إلى السّماء الرمادية قبل أن أفتح مظلتني، وشعرتُ بفراغ رهيب في داخلي. كنتُ حائرةً لدرجة أنني كنتُ أخطو ببطء خطوةً إلى الأمام واثنتين إلى الوراء، وأمشي مارةً من أزقةٍ لم أسلكها يوماً، كأنني كنتُ أوخّر ذلك اللقاء أو أهرب منه.

وصلتُ متأخّرةً بعشر دقائق. وجدتُ مراداً واقفاً ينتظرني أمام بابِ المقهى مرتدياً معطفاً أسود طويلاً. وحين رأيته، توجّه نحوي، وعانقني في وسطِ الطريق. لم أفهم حركته هذه، وكنتُ مرتبكةً لدرجةٍ أبعدتُ جسدي عنه بسرعة، وسبّقتُهُ إلى المقهى.

حين جَلَسَ أُمَامِي، انتبهتُ إلى وسامته. كانت النَّدْبَةُ على أَنفِهِ أَصْغَرَ
وأخْفَ ممَّا بدَت لي أَوَّلَ مرَّةٍ، بل إنه يصعبُ ملاحظتها بسرعة. شعرتُ
بالقلق وتململتُ في مكاني.

قال:

- ماذا تريدان أن تشربي؟

قُلْتُ في ارتباك:

- عصير برتقال.

رَمَقْنِي بدهشةٍ لوهلة، ثم نادى على النادل. انتبهتُ إلى أَنَّ أصابعي
كانت ترتعش، فأسندتُ يَدَيَّ إلى الكرسيِّ ضاغطةً عليه بقوَّتي كُلِّها في
محاولةٍ فاشلةٍ لإيقاف الارتجاف.

قال بابتسامةٍ عريضة:

- كاتبةٌ تطلُّبُ عصير برتقال! أعرفُ أَنَّ الكُتَّابَ في العادة يحبُّون القهوة.

لم أرفعُ يَدَيَّ من الكرسيِّ. قُلْتُ:

- كلُّ ما في الأمرِ أنني حين أشربُ كثيراً من القهوة يرتفع ضغطي وتتسارع
نبضاتُ قلبي.

لم أعرفُ كيف نجحتُ في إخراج هذه الجملة، فقد كان جسدي ينبضُ
بقوَّةٍ وقلبي يرتعش مثل عصفورٍ صغيرٍ يُحتَضَر. خشيتُ أن تكون تلكَ
النَّدْبَةُ الجَذَابَةُ على أَنفِهِ السَّبَبُ في هذا التوتُّر كُلِّه، ومع ذلك، كنتُ
خلال حديثنا، أذكرُ نفسي أنني شُفِيتُ من نجوى ومن فضولي ومن مرضي
ومن حُبِّي المسموم لسعد، وأقولُ لنفسي إنَّ ذلكَ العذاب كُلِّه قد انتهى
الآن وصار مجرد ذكرى. كان تذكُّرُ ذلك يجعلُنِي أشعر بسعادةٍ لحظيةٍ تدوم

ثانيةً أو ثانيَتَيْنِ، لكنني حين كنتُ أخرج من عقلي وأنتبه إلى الواقع، كنتُ أشعر بالألم والخوف من جديد.

لاحقاً، حكيتُ لندی وأحلام عن لقائي بمُراد، وأخبرتُهما، بحماس كبير، عن مدى إعجابي به، مثل أيِّ إنسانٍ طبيعيٍّ يُعجِبُ إنسانٍ طبيعيٍّ آخر. لم أكن أريد أن أصدّق أنّ لديّ عُقدٌ نفسية هي التي جعلتني أتعَلّقُ بمُراد بسرعة، وأفكّر فيه طول الوقت، وأنّ مُراداً نفسَه انجذَبَ إليّ أنا بالضبط، لأنني أَسْتَجِيبُ لِعُقدِهِ وجروحِهِ، وأغذي إحساسَه المريضَ بالتفوّق. كان يجعلني أنتظرُ ساعاتٍ كثيرة قبل أن يردّ على رسالةٍ تحوي سؤالاً عادياً من قبيل «كيف حالك؟» أو «ماذا تفعل؟». أحياناً، كان يغيب أياماً قبل أن يعود ويتّصلَ قائلاً إنه اشتاق إليّ! وأحياناً أخرى كان يطلب أن نلتقي، وبعد أن أتحمّس وأجهّز نفسي للخروج، يتّصل ليعتذر بحجّة أن لديه أموراً مستعجلة. كأننا نمسِكُ حبلًا مطّاطياً من طرفَيْه، هو يجرّني نحوه بقوة، ثم يُطلق الحبل وأنا أترنّح في الهواء.

قالت لي أحلام بابتسامةٍ جانبية بعدما شكوتُ لها عذابي:

- يمكنك معرفة الرجل من خلال شيءٍ واحد فقط: علاقاته السابقة. ابحثي عن حبيبته السابقة، واسأليها لماذا تركته!

نظرتُ إليها ملياً باستهجان وقلْتُ:

- ولماذا تفترضين أنها هي التي تركته وليس هو!

قالت بثقة:

- لأن النساء هنّ اللواتي يتركن الرجال في الغالب. النساء هنّ اللواتي يتعبن من العلاقات ويشعرن بالملل أولاً!

وليت وجهي نحو ندى بيأس. سألتها ذات صباح في المكتب، بينما

كانت الشمسُ تدخل من النافذة ملقِية نورَها ودفئها علينا، كيف يمكنني أن أجد الحبيبة السابقة لمراد. حركت رجليها في الهواء، وضيقَت عينيها غير قادرة على النظر إليّ بفعل نور الشمس القوي، ثم قالت:

- أظن أن عليك أن تري طبيباً نفسياً، يا عزيزتي، أو على الأقل مُعالجاً نفسياً، هو سيخبرك لماذا تتعلقين بهذا النوع من الرجال.

أحسست أنها تعرف قصتي كاملة مع نجوى، لكنها، مع ذلك، لم ترد إخراجي. كنت قد وصلت إلى مرحلة أشعر فيها أنني غريق يتعلق بقشة. قلتُ بيأس بينما أحاول إخراج تلك الفكرة من رأسي:

- لكن مشكلتي، يا ندى، ليست فقط الرجال الذين أتعلق بهم، وإنما أيضاً حبيباتهم السابقات.

أرجعت شغلها الناعم إلى الوراء في حركة سريعة. كانت قد اكتسبت هذه العادة منذ أن خلعت الحجاب. قالت:

- ربّما لأنّ الحبيبات السابقات يعرفن عن الرجال الذين نحبّهم أكثر ممّا نعرف. إنهنّ بئراً من الحكايات والأسرار.

خلال الأسبوعين التاليين، التقيتُ مراداً ثلاث مرّات. وبالرغم من سعادتي الكبيرة برؤيته، لم أكن أفكر خلال جلساتنا إلا بحبيبته السابقة. لماذا افترقا؟ وهل انكسر قلبه لأنها تركته؟ وهل ما يزال يفكر فيها؟ وهل يراني فقط لينساها؟ كنتُ أطرح عليه بعض الأسئلة لأعرف أي نوع من الفتيات كان معها، لكن، دون أن أسأله مباشرة عن حبيبته السابقة، لأنني وعدتُ نفسي ألا أدخل في ذلك الجنون من جديد. استنتجتُ هذه المعطيات من أجوبته وآرائه في النساء. عرفتُ مثلاً أنه لا يحبّ النساء المدخّات، وأنه لا يجذبُ إلى النساء اللواتي يقرنّهُ في السنّ حين رأينا

امراً تبدو في أواخر الثلاثينيات في أحد المقاهي التي جلسنا فيها وقال لي إنها عجوز. عرفتُ أيضاً من نظراته المشمئة إلى فتاة ترتدي سروال جينز ضيقاً، كانت تمشي أمامنا في الشارع أنه لا يستسيغ ذلك النوع من اللباس، وأنَّ الشَّعْرَ المجعَّد ليس شيئاً مثيراً أبداً بالنسبة إليه حين وصف زميلة له ذات شَعْرَ أفريقي بعيشة قنديشة. عرفتُ أيضاً أنَّه يحترم كثيراً الفتيات اللواتي يقيمن في منازل آبائهنَّ بالرغم من استقلالهنَّ المادي حين حكى لي عن صديقة له ما تزال تعيشُ مع والديها، ووصفها بالمجترمة بسبب ذلك. وعرفتُ أنه لا يستسيغ المحجَّبات، بل ويصفهنَّ متظاهراً بالمزح بالمنافقات اللواتي يمارسنَّ الجنس من الدُّبُر، لئلاَّ يفقدن بكارتهنَّ. كنتُ أنظرُ إلى عينيَّه وشَّعره وحركات يديَّه ونَدْبَتِه وأنا أتخيَّل شكلها هي. وبما إنَّ مراداً كان في الثامنة والثلاثين، افترضتُ أنَّ حبيبته تصغره على الأقلَّ بعشر سنوات، أي أنَّها ما تزال في العشرينيات. تخيلْتُها ذات شَعْرٍ أسود ناعم وبشرة بيضاء وعينيَّين بُنَيَّتَيْنِ غامقَتَيْنِ، ولها شامةٌ على الخدِّ. تعملُ موظفةً في البنك أو في شركة إرساليات وترتدي دائماً سروال جينز مع سترة واسعة وطويلة تغطِّي مؤخرتها، وأنها تجرُّ طرف السترة دائماً تفادياً لظهور منطقة المؤخرة، وأنها لا تشربُ القهوة حتَّى لا تصفرَّ أسنانها، وتتناول بدَل ذلك عصير برتقال حين تجلس في مقهى، وأنها ما تزال تعيشُ مع عائلتها. أي أنها امرأةٌ حديثةٌ وتقليدية في الوقت نفسه، تستطيع أن تجني المال، لكنَّها لم تخرج يوماً من ضلع أبيها. امرأةٌ طرية، لا ترفع صوتها، ولا تعرف شيئاً عن الحياة، غير محجَّبة، لكنَّ عقلها لم يرَ النور أبداً.

«ماذا عن البديئات؟ ما رأيك في النساء البديئات مثلي؟» سألتُها ذات مرَّة ونحن نتناول إفطارنا في مقهى على الكورنيش. كان الجو مشمساً والطيور تحلَّق في السماء الزرقاء ونسيم الريح يحمل إلينا رائحة البحر الشهية.

قال بسخرية:

- اللحم شيءٌ مهمٌّ في جسد المرأة. على الرجل دائماً أن يجدَ ما يتمسكُ به وهو يمارس الحبّ.

انتابني إحساسٌ قويٌّ أنني قطعة لحمٍ معلقة في محلّ جزارة، ومع ذلك ابتسمتُ بغباء وأنا أراقبُ وجهه ونَدْبَتَه بإعجاب.

أضاف وهو يضحك:

- أنا لستُ كلباً أمْصِمْصُ العظام، يا حبيبتِي.

غضضتُ الطرفَ عن جملته كلّها، ولم أركّزْ إلا على كلمة «حبيبتِي». كأنها قطعةٌ ثلجٍ وُضِعَتْ بحنانٍ على إصابتي، ورُحِتْ أتاَمَلُه وهو يحفر بِأرْبِ خبزٍ في مقلاة البيض باللحم المجفّف. لم أتما لك نفسي وفضولي لأعرف أكثر عن حبيباته السابقات، فسألته مرّةً أخرى:

- هل النساء اللواتي كُنْتَ معهنَّ كنَّ يستجبنَ لمعاييرك كلّها؟

كنتُ أريد أن أعرف، لأعرف ماذا أفعل لأعجبه، لأكون تلك الأشياء كلّها التي كانت تنقص حبيباته السابقات.

توقّف عن الحفرِ في مقلاة البيض. رفعَ يده عنها تاركاً قطعة الخبز هناك، ونفضَها وهو يتأمّلني بحيرة، ثمّ قال:

- لم أكن مع أيِّ امرأةٍ من قبل.

- لم أفهم!

- أعني أنني لم أكن في أيِّ علاقة، وليست لديّ حبيبةٌ سابقة.

- لماذا؟

- لأنني لم أستطع تحمّل أيّ واحدةٍ منهنّ أكثر من أسبوع. النساء كائناتُ مُزعجة ومُستهلكةٌ للطاقة.

لم ألتقٍ مراداً بعد ذلك أبداً، ولم أَرِدْ على أيّ من اتّصالاته أو رسائله. بعد أسبوع من آخر لقاء لي مع مراد، أخبرتُ ندى بكلّ شيء من البداية حتّى النهاية في رسالة صوتية طويلة من اثنتَيْن وعشرين دقيقة، ثمّ مسحْتُها. كنتُ أشعر بخوّاء مهول وأنا أنظر إلى شرفة نجوى بدون أيّ فضول ولا اهتمام، وبألم كبير، لأنني ما زلتُ أفكّر في مراد بالإعجاب نفسه، بالرغم من أنني أدركتُ أنّ أفكاره مُقرّرة. كنتُ أفتحُ اللابتوب وأنظر إلى مخطّطِ روايتي، أكتبُ صفحةً أو صفحتين، ثمّ أتوجّه إلى النافذة وأنظر من خلالها إلى بيت نجوى. أراها وهي تلاعب كلبها، أو تدخّن سيجارةً في الشرفة، ألوّح لها وتلوّح لي، نبتسم، ثمّ أغلق نافذتي بيأس وأعودُ إلى حياتي المملّة. وفي ظهر يوم صيفيّ جميل، توجّهتُ إلى بيتِ ندى.

بكثيرٍ من الخجل والخزي، حكيتُ لها قصّتي مع نجوى كاملةً، واعترفتُ لها بكلّ ما فعلتُهُ، حتّى البروفائلات المزيفةً على فيسبوك وقصّة غوستافو سانشيز. كان اليأسُ قد غلبَ إحراجي وخجلي، ولم أستطع أن أحتفظ بذلك الألم لنفسِي كلّهُ. استمعتُ إليّ بصمت وهي ترمقني بنظراتٍ محايدة، كأنها طبيبةٌ نفسية تستمع إلى مريضتها. وحين انتهيتُ، انفجرتُ باكيةً. كأنّ الكلامَ فتّت تلك الصخرة التي كانت في حلقي والتي منعتني من البكاء لزمنٍ طويل.

ظلتُ صامتةً لوهلة، ثمّ فتّحت عينيها على آخرهما، كأنّها اكتشفت شيئاً للتوّ، وقالت:

- يا إلهي! أنا السببُ في هذا كلّهُ! لم يكن عليّ أن أعطيكَ بروفايلها على فيسبوك.

قُلْتُ وسطُ دموعي:

- أَنْتِ لَيْسَ لَدَيْكِ أَيُّ دَخْلٍ فِي هَذَا.

جَمَعْتُ شَعْرَهَا النَّاعِمَ فِي كَعَكَةٍ، وَانْتَبَهْتُ لِحَظَّتْهَا كَمَ أَصْبَحَتْ جَمِيلَةً
بِدُونِ تِلْكَ الشَّحُومِ كُلِّهَا. قَالَتْ:

- أَظُنُّ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَدَّثِي مَعَ طَبِيبٍ أَوْ مُعَالَجٍ نَفْسِي.

مَسَحْتُ دُمُوعِي، وَقُلْتُ:

- لَكِنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى الْآنَ!

قَالَتْ:

- صَحِيحٌ، انْتَهَتْ قِصَّتُكَ مَعَ نَجْوَى، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَنْتَهِ دَاخِلُكَ فَعَلًا.
إِنَّ مَا جَعَلَكَ مَهْوُوسَةً بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ مَوْجُودٌ فِي دَاخِلِكَ، يَا شَهْرَزَادَ، وَإِذَا
لَمْ تَعْرِفِي مَا هُوَ، سَيَتَكَرَّرُ الْأَمْرُ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ مَعَ أَشْخَاصٍ آخَرِينَ وَفِي
وَضَعِيَّاتٍ أُخْرَى.

شَعَرْتُ بِالْخَوْفِ، لَكِنْ، لَيْسَ مِنَ الْآخَرِينَ أَوْ مِنْ أَشْيَاءٍ خَارِجِيَّةٍ هَذِهِ الْمَرْءُ،
وَإِنَّمَا مِنْ نَفْسِي. مِنْ خَطَرٍ دَاخِلِيٍّ. الْخَطَرُ الدَّاخِلِيُّ أَفْظَعُ وَأَقْبَحُ مِنَ الْخَطَرِ
الْخَارِجِيِّ، لِأَنَّهُ يَأْتِي مَنَّا، لِأَنَّ أَنْظِمَةً أَدْمَغَتِنَا الَّتِي مِنَ الْمَفْتَرَضِ أَنْ تَحْمِينَا
وَتَجْعَلَنَا نَهْرَبُ مِنَ الْخَطَرِ هِيَ نَفْسُهَا تَضَعُنَا فِي مَوَاقِفِ خَطَرَةٍ، وَتَشْكَلُ
تَهْدِيدًا عَلَيْنَا. ابْتَلَعْتُ مَلُوحَةً الدَّمُوعِ فِي فَمِي، وَشَعَرْتُ بِثِقَلٍ فِي مَعِدَّتِي،
وَتَحَوَّلَ رَأْسِي إِلَى بَيْضَةٍ فَاسِدَةٍ. كَانَ نِظَامُ دِمَاغِي مَا زَالَ يَفْرُزُ مِيكَانِيزِمَاتِ
الرَّغْبَةِ فِي الْهَرَبِ وَحِمَايَةِ النَّفْسِ. لَكِنْ، كَيْفَ أَهْرَبُ مِنَ الْخَطَرِ وَأَنَا نَفْسِي
الْخَطَرُ؟ كُنْتُ مَعْوَقَةٌ وَأَصَابَنِي الْإِعْيَاءُ.

قَالَتْ نَدَى:

- لا تنظري إليّ هكذا! أقسم لك أني قرأتُ ذلك في كتاب! كلُّنا نحتاج إلى معالجين نفسيين!

لمستُ فخذَي السمينَتَيْنِ الملتصقتَيْنِ ببعضهما لأوّل مرّة، وتأكدتُ أنني لم أكن أحلم، وأن ذلك الجسد البدين الثقيل بشحمه الزائد ودواليه هو فعلاً جسدي وما يزال موجوداً هنا، ملتصقاً إلى رأسي. كنتُ ممتلئةً بالكلام، لكن الكلمات ظلّت تركض في داخلي مثل حيوانات جائعة محبوسة في قفص. شرّحت لي ندى أن عليّ الاسترخاء والإصغاء إلى الطفلة في داخلي، كي أستطيع الشفاء من جروحي وعُقدي. في المساء، لم تشأ أن تتركني وحيدة في تلك الحالة، فرافقَتني إلى البيت، لنشاهد فيلماً معاً. استلقيتُ على الأريكة واضعة رأسي على فخذَيْها ويديّ على بطني، لكنني لم أستطع التركيز في أحداث الفيلم، ولا في قصّته. حين بدأت ندى تلعبُ بخُصلات شَعري بحنان، أغمضتُ عينيّ، وأخذتُ جفناي يرقصان، ثم راحت وجوه وأسماء تمرّ في رأسي مثل مَشاهد متقطّعة من فيلم. وبعد قليل، رأيتُ نفسي في مكانٍ أخضرٍ فسيح، لكنّه لم يكن غابة. كان يُشبه حديقةً خاوية. مشيتُ بفضول كأنني أبحثُ عن شيءٍ ما، وتراءت لي طفلةٌ صغيرة في نحو السادسة أو السابعة من العمر تلهو عند شجرة وحيدة في تلك الحديقة الرحبة. شَعْرُها مربوطٌ في جديلة طويلة، لكنني لم أرَ وجهها بعد. مشيتُ في اتّجاهها بهدوء. كانت تضعُ أكسسواراتٍ على شكل فراشاتٍ على شَعْرها، وكانت تلهو بدميةٍ شقراءٍ شعْثاء قديمة. تقدّمتُ أكثر نحوها. كان جفناي قد توقّفَا عن الرّقص. وحين وصلتُ إليها، وقفتُ مباشرةً وراء ظهرها، ولم أعرفِ ماذا أفعل. لم أرَ وجهها، لكنني شممتُ رائحةً حزنيّة في الجوّ.

ناديتُها «شهرزاد»، لكنّها لم تتوقّف عن اللعب بالدمية، ولم تلتفت إليّ. «شهرزاد، إنني أحبُّكِ». لم تنظر إليّ. «أقسم لك أنني أحبُّكِ. أنتِ

أنا وأنا أنتِ». لم تردّ، وظلّت تمسّد شعْر الدمية بعناد. «أرجوك أن تنظري إليّ، إنني أحبك، ولقد أحببتك دائماً». كانت تمسّد رأس الدمية بعنف بأصابعها الصغيرة. «حسناً، أعرف أنّك غاضبةٌ منّي، لكنّ، أرجوك أن تستمعي إليّ، وسأشرحُ لك كلّ شيء». لم تشأ أن تلتفت في البداية، لكنني استطعتُ تخيّل وجهها، كانت غاضبةً فعلاً وعاقدةً ما بين حاجبيها. «ربّما لم أحبك كفايةً، ربّما لم أعرف كيف أحبك، ربّما لم أدافع عنك كما يجب، ربّما أخطأتُ في حقك مرّاتٍ كثيرة، لكنّ، أرجوك أن تسامحيني». لم تنظر إليّ بالرغم من ذلك. كانت هناك بداخلي تعبٌ بدميتها بغضب وحزن. ودون أن تنطق بأيّ كلمة، كانت تقول لي: «لماذا فعلتِ بي هذا كلّهُ؟ لماذا دعستيني من أجل الآخرين؟ لماذا لم تُدافعي عنّي عندما كان بوسعك ذلك؟ لماذا حبستيني في هذا القفص وتركتيني أبكي؟ لقد بكيْتُ كثيراً بسببك، يا شهرزاد، وتعدّبتُ كثيراً، وحملتُ على ظهري الصغير آلاماً ثقيلة، بينما يداي الصغيرتان مكبلتان. لقد حبستيني وأنت تجلسين مع أمّي في تلك الصالة البائسة، صالة بيتنا، بصمتٍ وخنوع. كبلتيني داخل جسدك واستلقيتِ مستسلمةً للضرب. أغلقتِ فمي وتزوّجتِ بسعد الذي لم يحبك أبداً. قيّدتيني داخلك وحملتيني معك إلى جان جوريه، لتراقبي حياة امرأةٍ أخرى، لا يجمعُك بها أيّ شيء، ودستيني أمام كلّ من التقيتهم، وظللتِ صامتةً، كي تُعجبي الآخرين، ثمّ في الأخير، جرّرتني بكلّ عنفٍ، لتذهبي لرؤيةٍ مراد من أجل نُدبةٍ سخيفة. يا لك من امرأةٍ قاسية القلب، يا شهرزاد! فكّرتِ في الجميع وفي كلّ شيء، ونسيتِ أنّ لديك طفلةً صغيرة في داخلك تحتاج إلى الحنان والحبّ والرعاية. أحببتِ الجميع ولم تحبّيني. عاملتِ الجميع بأدبٍ وتهذيب وأخلاق، وعاملتيني بفظاظة وجفاف. هل تذكرين عندما كنتُ أمشي في سوق درب عمر إلى جانب أمّي؟ هل تذكرين عندما رافقتُ أبي إلى بيتِ زهرة؟ هل تذكرين

عندما كنتُ أَسْتَيْقِظُ في منتصفِ ليالي الشتاءِ مَبْلَلَةً وَأُرْتَجِفُ مثلَ عصفورٍ يُحْتَضَرُ؟ هل تذكُرِينَ تلكَ الضرباتِ كُلَّها على مَوْخَرَتِي والصفعاتِ على وجهي؟ هل تذكُرِينَ الارتباكَ الذي كانَ بداخلي وأنا أَجْلِسُ بينَ أُمِّي وأبي وزهرة؟ لم أَتَخَلَّ عَنْكَ، يا شهرزادَ، بالرغمِ من ذلكَ كُلِّه، بل تحمَّلتُ وقاومتُ وظللتُ واقفةً على قَدَمَيَّ من أَجْلِكَ، من أَجلِ أنَ تكوني أَنتِ الآنَ، امرأةً مثقَّفةً ومستقلَّةً وحرَّةً وقويةً. لكنَّكَ غدرتِ بي وبأحلامنا التي حَلَمناها معاً.

هل تذكُرِينَ عندما كنَّا نقرأ الروايات ونكتب الشُّعْرَ في الليالي الباردة في تلكَ الغرفةِ الباهتة التي تشاركناها مع نُهي؟ لقد تركتِ كُلَّ شيءٍ وتخلَّيتِ عَنِّي ومشيتِ بأنايةٍ إلى حياةٍ أخرى لم تَرْضِيها لِنَفْسِكَ من قبل. كنتِ جبانَةً وَأَنتِ تُدِيرِينَ عن هذا كُلِّه، لأنَّكَ تخافين أن تلمسي الجرحَ وتقولي ها هو ذا المكانُ الذي يُولِمني. يا لكِ من ناكِرَةٍ للجَميلِ، يا شهرزادَ! كيف تتخلَّين عَنِّي، يا شهرزادَ؟

كان صوتُها الحزينَ والمُترَعُ باللوم يصعدُ من أعماقي مثلَ سكاكين حادَّة، ويقطَعُ الصمتَ الذي في البهو. لم يَكُنْ لَدَيَّ أيُّ جواب، ولم تُكُنْ لَدَيَّ الجرأةُ لأَبْرَرَ لها ما فعلتُهُ، ولا حتَّى لأَقولَ لها إنني أَحبُّها، أنا التي أعي أنَّ الأهمَّ ليس أن تُحِبَّ وإنَّما أن تعرفَ كيف تُحِبَّ. كانت عيناَيَ ما تزالان مغمضتان حين مرَّ نسيمٌ عليلٌ على بشرتي. عرفتُ أن ندى نهضت وفتحت النافذة. لم أَكن متأكَّدةً إن كنتُ قد رأيتُ حُلماً أم أَنني فعلاً التقيتُ شهرزادَ الصغيرةَ التي في أعماقي.

- شهرزادَ، لماذا تبكين؟ افتحي عَيْنَيْكِ!

رفعتُ رَأْسِي من على الأريكة. كانت ندى تحدُّقُ بي بعَيْنَيْنِ مندهشتَيْنِ مفتوحَتَيْنِ على آخرهما.

ذات مساء في منتصف عام 2021، كنّا جالسين في أحد مطاعم الدار البيضاء نحتفل بإصدار روايتي الأولى **المرأة الأخرى**، بعد حفل توقيع تكّلل بالنجاح. كنّا سعداء جداً ونحن تناول عشاءنا ونتحدّث عن الأدب والشّعْر والسياسة والثقافة، ونتناقش حول مختلف القضايا التي تشغل البلد.

بعدما غادر نجيم في حوالي الساعة العاشرة والنصف، مالت عليّ ندى الجالسةُ إلى جانبي وقالت وهي تنفّس الصعداء «وأخيراً تخلّصنا منه!». كنتُ سعيدةً لدرجةٍ لم يزعجني وجوده نهائياً. هزرتُ كتفيّ في حركةٍ سريعة دون أن أنبس بكلمة. كانت مجرد موافقته على نشر روايتي بعد إدخال بعض التعديلات على القصة والأسلوب جعلتني أشعر أنني سأكون ممتنةً له مدى الحياة.

كانت تلك اللحظة خالدة. أذكر قرقرة الكؤوس، وصوت الملاحق والشوكات وهي تصطدم بالصحون، والضحكات العالية، والنكت السخيفة التي تفوّه بها الحاضرون، وشعوري أنني فعلاً أُنتمي إلى مصافّ الكتاب حين سُئِلْتُ بمرحٍ متى سأحصل على جائزة نوبل للأدب، وسَحَبَ أحلام لدُخان سيجارتها بعمق وسعادة، وقَرَضَ ندى لزوجها في خديّ السمينين في ظرافة جميلة، كما لو أنّها تقرّصُ خديّ طفلٍ صغير، وغمزاتِ رضوان الذي يجلسُ قبالي وهو يخبرني في كلّ مرّة أنني جميلة، وأنّ أجمل شيءٍ رآه لحدّ الآن هو تلك الشعلة المتهوّجة في عينيّ.

«العينان لا تكذبان أبداً»، قالت أحلام في ما يُشبه الانتشاء، وحين كان

يودّع أحدنا الآخر أمام باب المطعم في نهاية السهرة، تطلّعت إلى رضوان الذي كان يُمسك بيدي برقّة، وهمست له بمرح:

- إِيَّاكَ أَنْ تُطفئ هذه الشعلة التي في عينيها. حافِظٌ عليها كما لو كانت أعلى شيءٍ عندك، أخبارُكَ ستصلني حتّى بباريس.

شعرتُ بالحزن وأنا أعانقها للمرّة الأخيرة قبل أن تغادر إلى فرنسا، لتخوض غمار تجربة صحافية جديدة، ومشيتُ نحو بيتي في جان جوريه متأبطّة ذراع حبيبي الجديد رضوان.

التقيتُ رضوان أوّل مرّة في نونبر عام 2020 في حفل توقيع رواية نجيب الحفيظي **أنا لا دخل لي**. كان واقفاً إلى جانبي، بينما كان نجيب يُلقي كلمته في المنصّة. وحين قال باعتدادٍ كبيرٍ بالنفس إنّ لديه اعتقاداً عميقاً أن روايته ستشكّل طفرةً نوعية في الأدب المكتوب باللغة العربية، لأنها تعتمد على الفانتازيا في تحليل أحداث آنية، سمعتُ ضحكة قصيرة ساخرة تنبعثُ قريباً جداً منّي. وعندما التفتُ إلى يميني، رأيتُ شاباً حسن الوجه أنيق الهيئة ينظرُ إليّ بابتسامة هادئة. رفعَ حاجبَيْه كأنّما ليُعبّر عن استغرابه من كلام نجيب الحفيظي. بادلتُهُ الابتسامة دون أن أنبسَ بتعليق مخافة أن يكون من معجبيه. كنّا، نحن المعارضين للأدب الرديء، قلائل جداً، لدرجة أننا لا نُفصح بسهولة عن مواقفنا من الأدباء الرديئين، وحين نفعل، فإنّ ذلك يكون بسريّة تامّة ومع أشخاص نثق فيهم، كأننا نتاجر في موادّ ممنوعة.

بعد لحظة صمتٍ دامت بضع ثوانٍ، همسَ رضوان قريباً جداً من أذني: «هل فهمتَ شيئاً؟». تطلّعتُ إليه بدهشة وأنا لستُ متأكّدة بعد إن كان سؤاله جاداً، أم أنّه يروم السخرية من نجيب؟! جاهدتُ نفسي لأحافظ على جدّيّة ملاحي وأنا أقول: «لم أفهم قصدك». عندها، سألتني مباشرة وهو ينظرُ إلى عينيّ: «هل يُعجبك هذا الكاتب؟». سكّتُ لثانية، ثمّ أضاف: «لأنني لم أفهم أيّ شيءٍ ممّا يقوله».

لم أضحك في حياتي مثلما ضحكْتُ ذلك اليوم. كنتُ أحاولُ منعَ قهقهاتي من الخروجِ وسطِ الوجومِ الذي كان يَغشى القاعة، وخشوعِ الحاضرين مثلما يخشع الناسُ أمامَ أشياءَ كبيرة لا يستطيعون فهمَها. ضحكنا معاً مثل تلميذَينِ مشاعِبَينِ داخلِ الفصل. وبعدَ انتهاءِ الحفل، تحدَّثنا في الباحةِ لبضعِ دقائق، وأخبرني أنه جاء خصيصاً ليسخرَ من كلامِ نجيب الحفيظي، وأنَّ السخريةَ من هذا النوعِ من أشباه الأدباء هي الطريقةُ الوحيدة التي نملك لمواجهتهم.

لم يكنِ رضوان أديباً ولا كاتباً ولا ناقداً. كان يحضّرُ رسالةَ الدكتوراه في مجال الدراسات القانونية والاستراتيجية، ويدرسُ، في الوقتِ نفسِه، في الجامعة، لكنّه كان قارئاً نهماً للرواية، وله حسّ نقديّ ساخر. بعد ذلك اللقاء، صرنا صديقَينِ على فيسبوك، وتعمّقت صداقتُنا بقاءِنا ونقاشاتنا حول الأدب والكتب والروايات، وبقدرةِنا على الضحك على الأشياءِ نفسِها.

كنتُ في تلك الفترة قد ابتعدتُ تماماً عن كلّ ما يُمكن أن يسمّم حياتي، وكنتُ أعملُ بكدٍّ، كي أصبحَ إنساناً أفضل، وكي أوقفَ نزفَ جروحي، وأحلّ مشكلاتي النفسية. حظرتُ أمّي وجميلة على التوسّاب، وقاطعتُ دربَ الكبير كلّهُ لفترةٍ طويلة، حتّى لا أرى أو أسمعَ أيّ شيءٍ يُرجِعني إلى نقطة الصفر في مسيرةِ شفائي النفسيّ، ولم أتواصل طيلة تلك الفترة إلا مع نُهى.

كان شعوري بالذنب تجاه أمّي بالخصوص، وحاجتي العارمة لأن تكون لديّ عائلةٌ يخلُقان في داخلي طاقةً عاطفيةً عظيمة، ولم أجد طريقةً أخرى لتصريفها غير التعلّقِ مرّةً أخرى برجلٍ آخر. وهكذا، جذّبت طاقتي العاطفيةُ المفعمةُ بالضعف والنقص قلبَ رضوان إليّ، وسحبّني إليه مثل قوّة إلهيةٍ جبّارة.

عرّفتُ أنني وقّعتُ مرّةً أخرى في الحبِّ حين وجدتُ نفسي أحدتُ أختي نُهى عن لقاءِتي مع رضوان ذات ليلةٍ من ليالي ديسمبر الباردة، بينما

كان حزنٌ ممزوجٌ بلذّةٍ غريبةٍ يسري في أوصالي. لم أستطع أن أعودَ لأنام في بيتي في جان جوريه ليلتها. استلقيتُ على الكنبَةِ قربَ نُهي، وأخذتُ أعدّدُ خِصالَ رضوان والفروقَ بينه وبين الرجال الآخرين الذين عرفتُهم، كأنما كنتُ أحاولُ إقناعَ نفسي أنني لستُ مخطئةٌ في خيارِي هذه المرّة. كانت تستمع إليّ وهي ترمُقني بدهشةٍ أحياناً، وبشفقةٍ في بعض الأحيان، بينما تُسندُ ظهرها إلى مخدّةٍ ورديةٍ كبيرة، وتداعبُ بطنها المنتفخَ كما تفعلُ النساءُ الفخوراتُ كلّهنّ بحملهنّ، ليذكرنّ أنفسهنّ في كلّ لحظةٍ أنهنّ حوامل. وحين انتهيتُ من حديثي، قالت:

- عليك أن تتشبّثي بهذا الرجل بأسنانك، لا تُضيّعيه كما ضيّعتِ الآخرين. ارتكرتُ على يديها لترفعَ رأسها من المخدّة، وأضافت وهي تعقد ما بين حاجبيها كأنها تحذّرني من خطرٍ مُحدّق:

- لقد كبرتِ الآن، وعليك أن تفكّري في مستقبلِك.

نهضتُ أيضاً وجلستُ وقد راودَنِي الفضول لأسمعَ رأيها. أضافت:

- لكنّ، كوني ذكية، ولا تتزوّجيه إذا لم تكوني ستستفيدين منه شيئاً.

بعد فترةٍ قصيرة، ارتبطنا أنا ورضوان في علاقةٍ عاطفية، وفتحَ بوشعيب لُنهي صالون حلاقةٍ صغيراً في درب الكبير باسمها. كان يدفعُ ثمنَ إيجار الصالون، وكانت تُديرُ هي كلّ شيء، وتأخذُ الأرباحَ كلّها لنفسها. حين بعثتُ لي صفحة الصالون على فيسبوك، كي أنشرها بين أصدقائي ومعارفي، شعرتُ بالحزن. كنتُ قد أدركتُ أن العالم الذي نعيش فيه لا يعطينا إلاّ نساءً غيباتٍ وضعيفاتٍ مثلي، أو عاهراتٍ في عقولهنّ مثل نُهي. لقد حلّمتُ دائماً بعالمٍ آخر، تكون فيه النساءُ ذكياتٍ وقويات دون أن يَكُنّ مُستغلّات أو متحلّقات أو مدهنات.

مكتبة

t.me/soramnqraa

في الثامن من أكتوبر عام 2021، غادرت نجوى جان جوريه إلى الأبد. وصلتني أخبار من أحلام أنها تعرّفت إلى رجلٍ فرنسيّ يكبرها بعشرين عاماً، وأنها ستغادر المغرب للالتحاق به في فرنسا. راقبتُها من النافذة وهي تُغلق نافذة بيتها الكبيرة، وتُسدّل الستائر، ثمّ وهي تخرج من العمارة جاريةً حقيبةً ضخمة بصعوبة، ثمّ وهي تستقلّ سيارةً أجرة. وحين اختفت من مشهد حياتي إلى الأبد، ألقيتُ نظرةً أخيرةً على شُرفتها الفارغة، ثمّ التفتُ إلى رضوان الذي كان يُحاول إصلاح منضدةٍ انكسرت رجلُها. تناهت إليّ رائحة الغراء القوية، وراودني قلقٌ غريب من أن يتكرّر كلّ شيءٍ حصل معي مرّةً أخرى. قُلْتُ له:

- دعها إذا كانت صعبة الإصلاح. سأستبدل بها منضدةً جديدة.

قال وهو يضغط على رجلِ المنضدة بقوةً لتلتصق:

- لا تقلقي، أحبّ إصلاح الأشياء المنكسرة والاحتفاظ بها.

- لماذا؟

قال مبتسماً بصفاءٍ لا مثيل له:

- لا أعرف، لكنني أجد الأشياء المتشققة والمتصدّعة التي ما تزال تؤدي وظائفها جميلة جداً.

جَثَمْتُ على ركبتيّ قربه، وقُلْتُ:

- تعالِ ننتقلِ إلى بيتٍ آخر ونسكن فيه معاً.

قال بجفاء:

- الوقتُ ليسَ مناسباً الآن.

داهمني اليأس. لكنني سرعان ما أدركتُ أنني رَغِبْتُ في الانتقال، لأنني كنتُ أريد الهربَ مرّةً أخرى. قبّلني رضوان في خَدَي بمرح، ونهضتُ.

نهضَ أيضاً، ونظرَ إلى الطاولةِ المقلوبةِ بفخرٍ وفرح، ثم قال:

- سنتركُها تجفُّ الآن، وفي المساءِ يمكنكِ استعمالُها من جديد!

ذهبنا إلى الكورنيش، وتمشينا قربَ البحرِ تحتَ الغيومِ البيضاء، ثم جلسنا في مقهى، ورحنا نراقبَ الأمواجَ بصمت. كان إحساسٌ عميقٌ بالندمِ يحفرُ في داخلي، لأنني اقترحتُ عليه أن نسكنَ معاً، وخشيتُ أن يظنَّ أنني عاهرةٌ أو مجنونة. وبدلَ أن أتكلّمَ في الموضوع أو أبرّرَ نفسي، أخذتُ أقشّرُ بثرّةً جافّةً على ذقني. البثرّةُ نفسُها التي ألمسُها منذ سنتين، ولم تلتئم بعد.

في الوقتِ نفسِه، كنتُ أنظرُ بشرودٍ إلى أمّ ترتدي بنطالَ جينزٍ ضيقاً وحجاباً تُجلسُ طفلها كثيرَ الحركةِ على كرسيٍّ بعنف.

- هل تُخفين عني شيئاً؟

لم ألتفتِ إلى رضوان مباشرةً حين سمعتُ صوته. بل ظللتُ جامدةً في مكاني أسحبُ القشرةَ الجافّةَ لتلك البثرّةِ بهدوء. كنتُ مذهولةً، وخيّلَ إليّ في لحظةٍ وأنا أفكرُ أنني كنتُ أتكلّمُ دون أن أشعر.

- شيئاً مثل ماذا؟

كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ مُضَيّقاً عَيْنَيْهِ، كَأَنَّمَا يَتَّهَمُنِي بِأَنِّي كَذَّابَةٌ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ أَجِيبَ عَنْ سُؤَالِهِ، ثُمَّ قَالَ كَأَنَّهُ يَرْمِي شَيْئاً مَقْرِفاً كَانَ فِي فَمِهِ:

- هل سكنت مع أحدهم من قبل دون زواج؟

ودون تفكير، قلتُ:

- لا.

كانت بشرة وجهه ترتعش وهو ينظرُ إلى عينيّ لفترةٍ طويلة دون حراك. ابتلعتُ كذبتِي، وتناقضِي مع نفسي، واحتقاري لنفسي، وخوفي من أن يتركني، وسألته في محاولةٍ لجعلِ الأمور طبيعية:

- ماذا عنك؟

أرخی جسده على مَسندِ الكرسيّ، وصوّبَ نظره إلى البحر.

- مرّة واحدة فقط.

دَقَقْتُ النظرَ في ملامحه التي هدأت أخيراً، واطمأن قلبي، ثم صوّبتُ نظري إلى البحر أيضاً، وراح كلانا يراقبُ غروب الشمس في صمت. كان ثمة شعورٌ بالخوف ينبُت في معدتي وأنا أسمع هديرَ الأمواج ممتزجاً بأصوات الأمّهات وهنّ يوبّخن أطفالهنّ بأصوات حادة. في الواقع، كانت هناك ثلاثة أمّهات فقط مصحوباتٍ بأطفال صغار كثيري الحركة. لكنّ أصواتهنّ كانت تصلُ إلى طبليّ أذنيّ بصيغَةٍ مضاعفة. وحين حاول عقلي الهروب من التفكير فيهنّ، راح يسترجع حوارِي مع رضوان. أدركتُ أنّ شيئاً ما انكسر بيننا حين اقترحتُ عليه أن نعيش في بيتٍ واحد. لكنّ، لم أعرف ما هو بالضبط. ربّما لم ينكسر أيّ شيء. ربّما فقط نَبَتَ سورٌ عالٍ بيننا، ولم يعد أحدنا يستطيع رؤية الآخر. كان ينظرُ إلى السماء البنفسجية ويشرب قهوته باستمتاع واضح، كأنّ شيئاً لم يحدث. انبجست جملة «مرّة واحدة فقط» في ذاكرتي فجأة، وراحت تتردّد في رأسي بلا انقطاع. «مرّة واحدة فقط» تعني أنّه لم يفعلها إلا مع امرأة واحدة فقط، وتعني أنّ تلك المرأة كانت مميّزةً بالنسبة إليه، وأنّ

تلك التجربة كانت متفرّدة، وستبقى متفرّدة في ذاكرته إلى الأبد، لأنها كانت المرّة الأولى والأخيرة والوحيدة. لَسَعَ البردُ بشرتي، ليس بسبب الريح الخفيفة التي كانت تهبّ، وإنما بسبب الأفكار التي بدأت تنهمرُ على دماغي باردة كثلج يذوب للتوّ. مَنْ تكون تلك المرأة؟ ولماذا لم يُحدّثني عنها من قبل؟

- لماذا لا تريد أن تُعيد التجربة مرّةً أخرى؟

لم ينظر إليّ، وظلّ مركزاً نظره على البحر كأنّه يخشى أن يتبدّد أو يهرب منه.

- لأنني لا أريد اختبار ذلك الألم كلّه من جديد.

كانت الشمسُ قد غرّبت تماماً، وبدأت خيوط الظلمة تنسج لحاف السماء. مشينا على طول الكورنيش عائدين إلى البيت في صمتٍ لا يكسّره إلا صياح النوارس البعيدة في السماء، وحفيف الأشجار التي تهتزّ بالريح، وهدير السيّارات والدراجات النارية. أردتُ أن أسأله إن كانت التجربة مؤلّمة إلى تلك الدرجة، لكنني لم أستطع. لم أكن أريده أن يظنّ أنني مهتمّة بماضيه إلى تلك الدرجة، ولم أكن أريد أن أدخل في جنون الحبيبة السابقة من جديد. ضغطتُ على يده حين رأيتُ امرأةً شابةً تعانق حبيبها قرب عمود إنارة، بينما بدا حزنٌ فاضحٌ على وجهها المقابل لضوء المصباح. كنتُ أتمنّى لو يبقى معي ولا يذهبُ إلى بيته. لكننا كنّا قد وصلنا إلى محطة الترام عين الذّياب.

- في ماذا كنت تفكّر طول الطريق؟

أبعدَ يده عن يدي، وأسندَ ظهره إلى الشُّباك الحديديّ للمحطة، ورفع رأسه إلى السماء مطلقاً زفرةً طويلةً مُترعةً بالصّجر، ثمّ قال في انزعاج واضح:

- لا شيء. لا أفكّر في أيّ شيء أبداً.

كان استياؤه وعدم رغبته في الحديث يزيدان من فضولي. وكان قد تبقّى على قدوم الترامواي أربع دقائق فقط.

- طيّب، لماذا سكنتَ معها ورفضتَ أن تسكنَ معي؟

تطلّع إلى عينيّ بغضبٍ وتأقّف. وخيّل إليّ لوهلة أنّني أمام شخصٍ لا أعرفه. ظلّ ينظرُ إليّ بحنقٍ لثوانٍ، قبل أن يصرف وجهه عنيّ مرّةً أخرى.

- لماذا أنتَ غاضبٌ هكذا؟

- لأنّ الأمرَ يتعلّق بكرامتي!

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، وقلّتُ في امتعاض:

- توقّف عن الصياح في وجهي!

استجمّع أنفاسه وهو يحاول الحفاظ على رباطة جأشه، ثمّ قال بنبرةٍ فيها شيءٌ من التوسّل:

- إنك تُعيدنيني إلى فترةٍ سيّئةٍ جدّاً من حياتي.

تفجّرت الغيرةُ في داخلي مثلما تتفجّر المياه من أنبوبٍ منكسرٍ، وجرّفت العواطف الأخرى كلّها. أردتُ أن أتركه وأنفصل عنه وأمسحَ رَقمه. لم أرغب في ذلك فقط، بل خيّل إليّ في لحظةٍ أنني مشيتُ إلى الطرفِ الثاني من الطريق، وأنني أخذتُ سيّارةَ أجرةٍ وتوجّهتُ إلى البيت، وأنني ارتميتُ على سريرِي وعانقتُ وسادتي ورُحْتُ أبكي. وحين رأيتُ هذه الصورة، صورةً أن أكون وحيدة، استولى عليّ الفرعُ وجفّف الغيرةَ كلّها التي أغرقتني قبل قليل.

أمسكتُ يدهَ وضغطتُ عليها وقلّتُ برجاء:

- نحنُ أصدقاء أيضاً، والأصدقاء لا يُخبّئ أحدهم أيّ شيءٍ عن الآخر،

أليس كذلك؟

قال بهدوء هذه المرّة:

- صحيح. لكنّ، أرجوك أن تفهمي، يا شهرزاد، أنّ الأمورَ معقّدةٌ جدّاً.

كَانَ كَلَامُهُ الْمُبْهَمَ يَزِيدُ اشْتِعَالَ فَتِيلِ الْفُضُولِ فِي دَاخِلِي. قُلْتُ مِثْلَ أُمِّ
تُرِيدُ أَنْ تُرْضِيَ طِفْلَهَا عَبْرَ خِدَاعِهِ:

- حَسَنًا، قُلْ لِي، إِذْنًا، مَا الَّذِي جَعَلَ الْأُمُورَ مُعَقَّدَةً إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ؟

قال:

- كُنْتُ مَا أزال مُرْتَبِطًا بِهَا حِينَ تَعَرَّفْتُ إِلَيْكَ، وَكَانَتْ تَغَارُ بِشِدَّةٍ مِنْ
صِدَاقَتِنَا.

تَوَقَّفَ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي سَيَصِفُ بِهَا مَا حَدَثَ. سَمِعْنَا
صَوْتَ التَّرَامَوَايِ قَادِمًا مِنْ بَعِيدٍ، وَنَظَرْنَا مَعًا إِلَى أَضْوَائِهِ وَهُوَ يَتَوَجَّهُ نَحُونًا.
لَمْ يَكُنْ أَمَامَنَا وَقْتُ كَثِيرٍ. كُنْتُ غَاضِبَةً وَمُضْطَرِبَةً، لَكِنِّي حَافِظْتُ عَلَى
ثَبَاتِي وَقُلْتُ:

- لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّكَ مُرْتَبِطٌ حِينَ تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ؟

لَكِنِّ سَأَلَنِي اخْتَفَى وَسَطَ هَدِيرِ التَّرَامَوَايِ. وَاصِلٌ:

- اسْتَمَرَّتْ عِلَاقَتُنَا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، وَكُنَّا سَنَتَزَوَّجُ، لَوْلَا أَنَّهَا جُنَّتْ
فَجَاءَةً، وَقَرَّرْتُ أَنْ تَتَرَكَّنِي.

- جُنَّتْ؟

نَظَرُ إِلَيَّ بَارْتِيَابٍ وَقَالَ:

- قَرَصَنْتُ حَسَابَاتِي، وَقَرَأْتُ رِسَائِلُنَا.

- مَا بِهَا رِسَائِلُنَا؟

تَطَّلَعَ إِلَى التَّرَامِ الَّذِي كَانَ يَغَادِرُ، وَقَالَ:

- لَا شَيْءَ! كَانَتْ مَهْوُوسَةً بِكَ، وَكَانَتْ تَقْضِي وَقْتُهَا فِي صَفْحَاتِكَ عَلَى

مواقع التواصل. لكنّها لم تكن تُبدي أيّ شيء، وكانت تتظاهر بالتصرّف بتفهّم ونُضج حيال صداقتنا، حتّى ضبطتها تقرأ رسائلنا.

- وهل افترقتما لهذا السبب؟

قال وقد بدأ يتوتّر مرّةً أخرى:

- توقّفي عن تقشير تلك البثرة أولاً حتّى أستطيع التركيز!

انتبهتُ إلى أنني كنتُ أقشّر البثرة في ذقني.

- لماذا كانت تقرأ رسائلنا؟ لم أفهم!

قال بنفاد صبر:

- شهرزاد، أرجوك أن تتركي تلك البثرة وشأنها. إنك توتّريني!

- حسناً، سأترك البثرة وشأنها، لكن، قل لي، ماذا قالت حين قبضت

عليها متلبّسةً بقراءة رسائلنا؟

- لا شيء. ماذا ستقول؟ اتّهمّني أنني مهتمّ بك، ولم أعد أحبّها.

- وهل هذا صحيح؟

قال بنبرة احتجاج:

- طبعاً لا! أقسم لك أنني لم أفكر في خيانتها في يومٍ من الأيام.

لم أعرف هل أشعر بالخيبة، لأنّه لم يكن يُكنّ لي أيّ عواطف حين كنتُ أفكر فيه، أو بالخيانة لأنّه كذب عليّ، أو بالزهو لأنّ امرأةً أخرى فقّدت ثقتها بنفسها بسببي. كانت المشاعر تتلاطم في معدتي المظلمة، وتولّد في داخلي فضولاً عارماً لأرى هذه المرأة، وأعرف من تكون ولماذا اهتمّت بي إلى هذه الدرجة. كان رضوان مثل حيوانٍ متوحّش متألم. أمسكتُ يده الباردة

وقبّلْتُها، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ بَعْضَ الْحَمَاقَاتِ عَنِ الصَّدَاقَةِ وَالْحَبِّ وَالتَّفْهَمِ لِيَهْدَأَ.
وَحِينَ ارْتَحَى وَجْهَهُ، وَخَمَدَ الْغَضَبُ فِي نَظَرَاتِهِ، وَاخْتَفَى الْحُزْنُ مِنْ سَخَنَتِهِ،
سَأَلْتُهُ عَنْ اسْمِهَا.

تَوَادَعْنَا أَنَا وَرِضْوَانُ وَنَحْنُ نَتَضَاحُكَ. وَصَلْتُ إِلَى جَانِ جُورِيهِ حِينَ هَبَطَ
الَلِيلِ. فَتَحْتُ بَابَ الْعِمَارَةِ بِسُرْعَةٍ، وَأُسْرَعْتُ الْخَطَى إِلَى الدَّخْلِ. اشْتَعَلَ
الضَّوؤُ أَوْتُومَاتِيكِيًّا، وَرَكَضْتُ نَحْوَ الْمِصْعَدِ. لَمْ أُسْتَطِعِ الْإِنْتَظَارَ حَتَّى أَصِلَ إِلَى
الْبَيْتِ. فَتَحْتُ الْفَيْسِبُوكَ وَأَنَا أَقْشَرُ بَشَرَتِي الْمَتَوَرِّمَةِ، وَدَخَلْتُ إِلَى صَفْحَةِ
سَلِيمَةِ الْعِمْرَانِي. كَانَتْ فَتَاةً رَائِعَةً الْجَمَالَ، ذَاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ طَوِيلٍ وَعَيْنَيْنِ
بَنِيَّتَيْنِ وَاسْعَتَيْنِ، وَابْتِسَامَةٍ سَاحِرَةٍ. لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَدْخَلْتُ الْمِفْتَاحَ فِي ثَقْبِ
الْبَابِ، لِأَنِّي لَمْ أُسْتَطِعِ إِبْعَادَ عَيْنَيَّ عَنِ الصُّورَةِ. وَصَلْتَنِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ
رِسَائِلُ مِنْ رِضْوَانٍ عَلَى الْوَتْسَابِ يَسْأَلُنِي إِنْ كُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ بِخَيْرٍ، وَأُخْرَى
مِنْ نُهْيٍ تُخْبِرُنِي أَنَّ أُمِّي وَجَمِيلَةً قَدْ عَادَتَا مِنَ الْعُمْرَةِ. انْدَفَعْتُ إِلَى الدَّخْلِ،
وَارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرِيكَةِ دُونَ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ حِذَائِي، ثُمَّ أَخَذْتُ أَتَفَرَّجُ بِمَتْعَةٍ لَا
نَظِيرَ لَهَا عَلَى بَرَوَفَايِلِ سَلِيمَةِ، مَصْمُومَةٌ مُلصَقَاتِ إِشْهَارَاتٍ فِي رِبْعِهَا التَّاسِعِ
وَالْعَشْرِينَ، تَرْتَدِي مَلَابِسَ مَرِيحَةٍ وَغَيْرَ رَسْمِيَّةٍ وَأَحْذِيَّةٍ رِيَاضِيَّةٍ، وَتَحَبُّ الشَّعْرَ
وَالْأَدَبَ، وَتَحْلُمُ أَنْ تَصْبِحَ كَاتِبَةً.

- النّهاية -

مكتبة
t.me/soramnqraa

من خلال حديث زوجها عن حبيبته السابقة؛ نجوى، اكتشفت شهرزاد صفات إيجابية كثيرة لنجوى تلك، إضافة إلى جمالها الفاتن، فانطلقت في رحلة متعبة ومعقدة لتتعرف إليها، حتى يُخيل للقارئ أنها أحببتها حباً عاطفياً. راسلتها عبر وسائل التواصل، أنشأت صفحات بأسماء مزيّفة لرجال ونساء لمزيد من التقرب منها واكتشافها، غامرت مغامرات مراهقة لأجل ذلك، تخيلتها، حلمت بها أحلاماً خاصة! وهكذا... ولكن، ومن خلال براعة كريمة أحدات وقوتها السردية، سنجدنا أمام قصص متعددة لنساء مغربيات يصلن إلى مصائر مفروضة عليهن، أغلبها بائسة وشديدة القهر، شأن ما تتعرض له النساء في معظم بلدان العالم.

كذلك سنكون، كقرّاء، في قلب أسى من نوع خاص يتمثل في الفساد الثقافي الذي يجثم بكل جبروته على المشهد العام ويطبعه بطابع الخذلان.

هذه رواية مشغولة بأناة وصبر وشغف.

الناشر

مكتبة

t.me/soramnqraa



ISBN 979-12-5591-048-0



9 791255 910480

المتوسط